الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة تشرين باللاذقية

نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه

الجزء الأول

نعيم الحمصي

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٩٨١ - ١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

هذا الكتاب موجز عن آخر أوسع منه جدا ، لم استوفه بعد ، واحاول ان اجعل منه معلمة في ادب العهود المتتابعة منذ بداية الحروب الصليبية حتى نهاية العهد العثماني ، في البلاد العربية ، ما عدا مصر فاني اجعل نهاية كلامي عليها في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حين بدات نهضتها الحديثة . وارجو ان يكتب الله لي التوفيق .

وموجزي هذا لمحات قصدت بها التعريف بأدب هذه العهود معتمدا الامثلة والشواهد ، ولم أرد استيفاء جوانبه المتنوعة في الحياة العامة ، سياسية واجتماعية وعلمية ، وفي الفنون والموضوعات ، واقتصرت في حديثي عن كتبه الجامعة على صبح الاعشى للقلقشندي .

واكتفيت في الفنون الادبية المعروضة ، على قلتها ، بتقديم الملاحظات والشواهد عليها مرتبة تاريخيا ، ما امكنني ذلك ، دون تفصيل الا في موضوع واحد منها هو موضوع النضال في العهود الاربعة الاولى التي تنتهي باستيلاء العثمانيين على الشام ومصر لعظم شانه عندي ، ففصلت فيه بعض التفصيل . وقد اضطرتني طبيعة البحث والطريقة التي اتبعتها في ربط الاحداث بالشواهد الى أن أورد نصوصه في بادىء الامر شواهد ووثائق على اللمحات المهمة في تاريخ هذه العهود ، ثم تقدمت بكلمة فيه استهللت بها الكلام على موضوعات الشعر التي تناولتها .

ومن الموضوعات المتروكة ، في سبيل الايجاز ، الادب الصوفي والفخر والوصف والهجاء والشعر السياسي وبعض الفنون المستجدة كالقوما والكان وكان والحجازي ... ، الا ما آتي به منها لماما .

ولم اتكلم من الشعراء الا على صفي الدين الحلي ومن الكتاب الا على القلقشندي . وقد جعلت الاول مثالا بارزا على شعراء العهد المملوكي التركي وتحدثت عن الثاني في حديثي عن معلمته ((صبح الاعشى)) التي اتخذتها مثالا على المعلمات وقيمتها في حفظ التراث الثقافي العربي .

واحب ان انوه اخيرا بان بعض الاحكام والملاحظات الادبية في هذا الموجز لا تزال ظنية تحتاج الى زيادة درس وتثبت وتحقيق ومتابعة ، وقد اشرت الى هذا الوصف فيها حين اوردتها .

وقد توخيت الصدق ، والتجرد من الهوى ، والتوفيق ، فان فاتني القصد فان حسن النية شفيعي ، وساكون شاكرا لمن يدلني على خطئي ونقصي . والله من وراء القصد .

المؤلف

المقـــدمة

ينصرف الذهن حين يقال أدب الدول المتتابعة الى أدب العهد الذي بدأ بتدمير المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م وانتهى باستيلاء السلطان سليم العثماني على الشام ومصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٦ م ولكننا أردنا به معنى اوسع من ذلك كثيرا : اردنا به الادب الذي أنتجه اصحـابه منذ بدء الحروب الصليبية سـنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م التي حاول فيها الاستعمار الفرنجي ان يسيطر على بلادنا متقنعا باسم الدين كذبا وغرضه تحقيق مطامعه في أرضنا التي كانت أرض السمن والعسـل والموقع الجغرافي التجاري الممتاز ، حتى بدء النهضة الحديثة في البلاد العربية التي شـاء بعض الباحثين ان يستهلوها باستيلاء نابليون على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، ونرى نحن أن نتجاوز هذا التاريخ في أكثر البلاد العربية الى بداية الحرب العالمية الاولى .

ومعنى ذلك ان هذه الدراسة ستشمل أواخر الحكم الفاطمي في مصر وجـزء من سورية ، وأواخر الحكم السلجوقي في العراق والشام ، وحكم الخلفاء الأخيرين المستقلين بحكم بغـداد وبعض أرض العراق ، والعهـدين الزنكي والايوبي ، ثم العهدين المملوكيين الأول والثاني ، ثم العهد العثماني الطويل الذي يمكن أن ينقسم الى عدة أدوار . ومما يزيد في تقبل الرأي الذي ذهبنا اليه من توسيع فترة الدول المتتابعة بحيث تشمل العهدين الزنكي والأيوبي ، أن دراسة هذين العهدين في الأدب العباسي تكون غالبا مهملة أو موجزة ايجازاً مخـلا في كتب تاريخ الأدب . وهذه الفترة الطويلة التي تمتد زهاء سبعة قرون لا يمكن ان تعمها خصائص أو أحكـام أدبية واحدة ، تبعا لتغير ظروف الحياة العامة فيها من مادية ومعنوية وتطورها بحسب

عواملُ الزمن ، ولا بد من تقسيمها الى عهود قصيرة نسبيا لتسهل دراستها وتكون الأحكام المستنتجة فيها أقرب الى الصواب حتى لا نقع في خطأ تعميم حكم ما على هذه الفترة كلها • على حين أنه لا ينطبق الا على بعضهـــا • ونحن نرى ان تكون هذه العهود سبعة كما يلي :

١ ــ العهد الفاطمي ــ العبــاسي ــ الزنكي الــذي يبدأ مع بــدء الحروب الصليبية وينتهي بقيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٨ هـ ويمتاز هذا العهد بأنه عهد حكم الوزراء وضعف الخلفـــاء في الدولة الفاطمية ، واسترجاع آخر الخلفــاء العباسيين سلطتهم في حكم بغداد وبعض العراق دون بقية أجزاء العالم الاســلامي ، ويمتاز بقدرة الزنكيين على الصمود أمام الصليبيين وانتصارهم عليهم ثم بسعي الزنكيين الى تحقيق الوحدة بين الشـــام ومصر وما يليهما من البلاد العربية [1] ، وبمثــالية نور الدين أحد الحكام الزنكيين ، وبأن أصل الحكام الزنكيين من المماليك ولكنهم لم يطلق عليهم هذا الاسم •

٢ ــ العهد الأيوبي ، ويبدأ بانتهاء العهد الزنكي وينتهي باستيلاء المماليك على السلطة سنة ٦٥٤ هـ ويمتاز بتحقيق وحدة البلاد المكافحة ضد العدو الفرنجي ، وبجني ثمـــار هذه الوحدة نصرا وازدهــارا ، وبأن هذه الوحدة كانت تتعرض فيه للتصدع أحيـــانا ثم تعود فتلتئم ، وبمثالية صلاح الدين مؤسس هذا العهد مثالية ممزوجة بالواقعية ، وبأن حكـــامه ليســوا من المماليك ، وبرعــاية العلم والأدب والفنــون •

٣ ــ العهد المملوكي الأول ، ويســمى عهد المماليك الأتراك بالنســبة الى

---

(١) يعتقد الدكتور محمــد كامل حسين ان فكرة الوحــدة اشرقت في عهــد نور الدين زنكي عندما شرع يوحد الجيوش الاسلامية تحت رايــة عربية واحدة « دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٨٦ ــ ٨٧ » ، وارى أن اباه عماد الدين قد سبقه الى الفكرة ووجهه اليها كما سنرى حين الحديث عن اول قصيدة نضال مدح بها .

أصلهم ، أو المماليك البحرية بالنسبة الى انهم كانوا يقيمون في ثكنات على النيل[1].
ويعد هذا العهد استمرارا للعهد الأيوبي من حيث وحدة البلاد فيه ، ومن حيث رعاية العلوم والآداب ، ومن حيث الكفاح ، ثم يمتاز بشيء آخر هو وقوع الغزو المغولي فيه للعراق وبغداد ثم للشام ، واضطرار المماليك الى مكافحة عدوين كانا يتحالفان في حرب واحدة أحيانا فاذا غاب الفرنجة عن الحلف فكثيرا ما كان يحل محلهم ملك الروم . وكان حكامه من المماليك كما يفهم من اسمه ، ثم يمتاز بانتهاء الحروب الصليبية فيه وخروج آخرهم من عكا ، آخر معقل لهم ، وذلك بفضل الاشرف خليل ابن قلاوون أحد سلاطينهم . وينتهي هذا الدور باستيلاء السلطان برقوق الجركسي على الحكم سنة ٧٨٣ هـ .

٤ ــ العهد المملوكي الثاني ، وهو استمرار للعهد المملوكي الأول من حيث نظم الحكم والاستبداد لا من حيث القوة العسكرية والسياسية فيه الا في بعض لمعات من القوة والفتح . فلو ان حكامه تعرضوا لما تعرض له سابقوهم من غزو المغول لسقطوا لأنهم لم يكونوا في مثل كفاءتهم واستعدادهم . وقد غزا تيمور في عهدهم ديار الشام فلم يستطيعوا صده، ولو لا ان المغول قد اضطروا الى الانسحاب لفتن قامت وراءهم لما قامت لهؤلاء المماليك بعد هذا الغزو قائمة . ويسمى مماليك هذا الدور بالجراكسة نسبة الى أصل اكثرهم ، وبالبرجيين ، نسبة الى سكنهم في أبراج قلعة المقطم . وبديهي أن البلاد لم تكن في هذا الدور معرضة الا لغزو واحد هو الغزو المغولي . وينتهي هذا الدور باستيلاء السلطان سليم العثماني على الشام ومصر سنة ٩٢٣ هـ .

٥ ــ الدور العثماني الأول في الشام ومصر ويبدأ باستيلاء السلطان سليم عليهما وينتهي في الربع الاخير من القرن السادس عشر الميلادي وهو دور القوة والفتح والاصلاح ففيه وضع سليمان القانوني قوانينه الاصلاحية ، ومنها نظام

---

(١) السلوك للمقريزي جـ ١ : ٣٣٩ .

المدارس الذي كان له شأن كبير في نهضة العلم وتخريج القضاة والمفتين ورجال الادارة (ويوافق ما بين سنتي ٩٢٣ — ٩٨٩ هـ تقريبا) •

٦ — الدور العثماني الثاني وينتهي في الربع الاول من القرن الثامن عشر وهو دور التوقف والضعف ولم يظهر فيه من السلاطين العظام الا مراد الرابع الذي استطاع أن يقف أمام الأخطار الكبيرة في الجبهة الفارسية • وانتقل مركز القوة حوالي منتصف القرن السابع عشر من هذا الدور الى الصدر الأعظم الذي أطلق عليه أيضا اسم الباب العالي وكان ينافسه أحيانا الكزلار آغا وهو مدير شؤون القصر السلطاني (ويوافق ما بين سنتي ٩٨٩ — ١١٤٤ هـ تقريبا) •

٧ — الدور العثماني الثالث وهو دور الانحلال وينتهي بانقراض الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى (ويوافق ما بين سنتي ١١٤٤ — ١٣٣٦ هـ تقريبا) وفي هذا الدور غزا نابليون بونابرت مصر وجنوب الشام (حوالي ١٢١٤هـ) وأوقفه عن التوغل دفاع أحمد باشا الجزار عن عكا ، وعداء الانجليز وتحطيمهم أسطوله في أبي قير ، وقيام أحداث خطيرة في فرنسا • وفي هذه العهود العثمانية الثلاثة انتقل مركز الحكم والحضارة من القاهرة الى القسطنطينية التي سماها الأتراك « اسلامبول » وحرف هذا الاسم الى « استامبول » ، وشاركت فيه اللغتان التركية والفارسية اللغة العربية من حيث أنها لغة أدب وعلم وثقافة وسياسة وحديث ولم تبق اللغة العربية وحدها لغة الطبقة المثقفة ، بل تجاوز الأمر هذا الحد الى ان تكون اللغة التركية هي لغة القصر واللغة المفضلة في الدواوين • ولا يخفى أن القرنين السادس والسابع كانا أهم أجزاء هذه الفترة في حياة العرب والمسلمين فقد سقطت فيهما بيت المقدس بأيدي الصليبيين ، ودمر المغول بغداد ، وتهددت البلاد العربية كلها بالغزوين الصليبي والمغولي ، فضلا عن الغزو الاسباني الذي طرد العرب من اسبانيا وأزال دولتهم وحاول ازالة حضارتهم وحرق كتبهم ، كما لا يخفى أن الفضل في الوقوف أمام الغزوين الأولين يرجع الى الدول الثلاث الزنكية والأيوبية والمملوكية الأولى ، التي سعت الى توحيد البلاد المهددة أو حافظت على وحدتها فاستطاعت انقاذ البلاد من المغيرين وطردهم ، ولذلك يجب أن نهتم بدراسة هذه

العهود التي كانت مهملة وبدىء منذ عهد قريب بمحاولة اعطائها حقها من الدراسة •
ولا شك في أن الغزو وصده قد تركا أثرهما في الحياة العامة وفي الادب والعلم والفن والثقافة • ومن واجبنا أن تتلمس هذا الأثر •

ونلاحظ أن الادب قد خرج عن تفاهته في هذه العهود الثلاثة ليصور الأحداث ويتفاعل معها أو يكون فاعلا فيها بالتحريض على الجهاد والحرب وتحرير البلاد المحتلة ، كما نلاحظ أن التأليف قد ازدهر بدافع الحفاظ على التراث ، وبغريزة حب البقاء ، وبتشجيع من الملوك والأمراء والسلاطين وتوفير أسباب العيش للعلماء والادباء أيا كانت البلاد التي ينتمون اليها •

ونحب ان نلاحظ هنا أن العهود الثلاثة الزنكي والأيوبي والمملوكي متشابهة أو متقاربة في كثير من نظمها كنظام الاقطاع ونظام الجيش مثلا • ويعتبر العهد الأيوبي من هذه الناحية استمرارا للعهد الزنكي كما أن العهد المملوكي الأول يعتبر استمرارا للأيوبي ، ولكن بين هذه العهود فوارق كثيرة وكبيرة سنشير اليها في أمكنتها •

ونحب أن نوضح هنا ، فضلا عما قلناه قبل ، أننا أدخلنا العهد العثماني ضمن عهود الدول المتتابعة لأنه استمرار للعهود السابقة قبله من حيث استمرار ابعاد العرب فيها عن ممارسة شؤون السياسة والحرب واقتصار أعمالهم على الكسب في الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الانصراف للعلم والأدب ، وأنه لم يكن يسمح لهم الا بتولي بعض الوظائف القضائية أو العلمية أو الكتابية ، على أن جعله مستقلا في ثلاثة أدوار متميزة عن العهود الثلاثة قبله يسهل لنا دراسته دراسة مستقلة واعية عادلة موضوعية ، وتتجنب بذلك ما جرى عليه بعض المؤلفين من جعله تابعا للعهدين المملوكيين قبله أو مختلطا بهما تشمله أحكامهما وتعمهما أحكامه •

هذا من حيث الامتداد الزمني أما من حيث العمق الجغرافي المساحي فان هذا الأدب يشمل أدب العراق والجزيرة العربية والشام ومصر وسائر بلاد العرب من الخليج الى المحيط ، غير أننا سنترك الحديث في أدب الاندلس وشمال افريقيا لبحث

مستقل جريا على عادة مؤلفي الأدب في افراد الأندلس وشمال افريقيا وحدهما عن سائر البلاد العربية • ولكننا سنتحدث عن العلماء والأدباء الذين رحلوا الى المشرق العربي أمثال ابن خلدون وابن مالك وابن سعيد وابن عربي وذلك لأن انتقالهم الى المشرق جعلهم من علمائه أو أدبائه الذين تركوا أثرا فيه • ولا ننسى أن العلماء والأدباء في الوطن العربي الكبير لم يكن لهم في أي عهد حضاري عربي سابق صبغة اقليمية ، بل كان كل بلد عربي بلدهم ، ولم تكن هنالك حدود أو موانع سياسية اقليمية تمنع تنقلهم ، ثم لان أمثال هؤلاء العلماء ليسوا ملكا لبلد عربي دون آخر في ثقافتهم وانتاجهم ، بل ان بعضهم كابن خلدون مثلا قد سما الى أفق الانسانية الواسع الشامل •

وقد يكون للادب في الشام ومصر ثم العراق خلال هذه العهود النصيب الأوفى من دراستنا ، وذلك يرجع الى أن حالة العلم والأدب كانت فيها حينئذ خيرا منها في غيرها ، ثم لأن مصادر البحث قد تتوافر لنا فيها وعنها أكثر من غيرها •

ونذكّر هنا بأن الادب والثقافة العربيين لم يكونا منذ وجودهما اقليميين فقد كانت ولا تزال تشملهما وحدة العناصر المكونة للحياة العقلية والثقافية والروحية والفنية ، وقد كانت ولا تزال تشمل البلاد العربية كلها وحدة اللغة والدين والتاريخ والعلوم المدروسة والكتب المدرّسة وطريقة تحصيل العلوم والآداب،مع بعض تنوع بيئي لا بد منه في كل حضارة مهما كانت متجانسة •

ان الطابع الجامع للعلماء والأدباء والمثقفين في العهود التي ندرسها هو الطابع العربي الاسلامي • ولم يكن المؤلفون يميزون رجلا منهم بنسبته الى بلده الا لتسهيل البحث أو التعريف بموطنه الأصلي • وكنا نود أن نتوسع في أدب الأقطار العربية المشرقية الأخرى غير مصر والشام ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا لقلة مصادرنا ، كما ذكرنا من قبل ، ثم لسعة مدى البحث بحيث تصعب الاحاطة به • ومع ذلك فسنوليه ما بوسعنا من العناية كلما أمكننا ذلك فالعراق على سبيل المثال سينال نصيبا حسنا من دراستنا في العهود الثلاثة الأولى الزنكي والأيوبي والمملوكي التركي •

والحقيقة هي أن أدب الدول المتتابعة منذ بدء العهد المملوكي الأول كان يسمى أدب عصور الانحطاط ولكن كثيرين من المؤرخين والأدباء لم تعجبهم هذه التسمية ، لأن الفترة الأولى منه التي تشمل دولة المماليك البحرية بدت لهم مزدهرة فمن حيث السياسة والحرب استطاع المماليك البحريون ان يصدوا غزوين رهيبين مدمرين جاء أحدهما من الغرب وهو الغزو الصليبي والآخر من الشرق وهو الغزو المغولي ، وذلك بالتعاون مع الشعب الذي استيقظ بعد نوم على صوت النفير العدواني ، ولأن فترتي المماليك البحرية والبرجية استطاعت الأمة فيهما من حيث الحياة الاجتماعية أن تصمد لأخطار الغزوين وأن تحافظ على خصائصها القومية ، ولأنهما كانا من حيث الحياة العقلية من أكثر عهود التأليف العلمي والأدبي ازدهارا وفيهما وجدت الموسوعات العلمية والأدبية وفيهما وجدت علوم جديدة كان العرب أسبق الامم الى التأليف فيها كعلم العمران الذي يسمى اليوم بعلم الاجتماع ، وكفلسفة التاريخ، فقد سبق اليهما ابن خلدون في مقدمته المشهورة ، ولانه وجد في هذه الفترة من حيث الحياة الأدبية شعراء وكتاب ومؤلفون مجيدون سنتحدث عنهم حديثا كافيا حين كلامنا على فنون الأدب الشعرية والنثرية .

هؤلاء العلماء والأدباء الذين لم يستحسنوا تسمية هذا العصر بعصر الانحطاط وعدوا هذه التسمية ظالمة ، أحبوا أن يطلقوا عليه اسما آخر فكان « عصر الدول المتتابعة » فما كان يشمله عصر الانحطاط من عهود وفيها العهد العثماني لا بد ان يشتمل عليه عصر الدول المتتابعة . ونعود فننبه الى أن العهدين الزنكي والأيوبي لا تشملهما صفة الانحطاط لأنهما في عرف المؤلفين حتى الستينات من هذا القرن يكونان ، كما قلنا ، جزءا من الدور الرابع العباسي ولم تشملهما هذه الصفة الا في كتابات بعض المتأخرين لأنهم تحدثوا في كتبهم حديثا اجماليا ليس فيه دقة عن هذه العهود وشملوها بأحكام واحدة مدافعين عنها ، أو مهاجمين تأخرها وانحطاطها في رأيهم .

ونحب أن ندون هنا رأيا لأستاذنا العلامة المرحوم أحمد أمين في هذا العصر سمعناه منه خلال محاضراته في جامعة القاهرة سنة ١٩٤٤ م فهو يقول ان من يعد هذا

العصر عصر سقوط وانحطاط في الأدب لا يراعي أن العرب في عهودهم الأولى كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فيختارون للحفظ أحسن ما يسمعون ثم يحدثون بأحسن ما يحفظون ، وانهم حين بدؤوا بتدوين أدبهم دونوا أحسن مايحدثون به فكان مادوّن خيارا من خيار . أما في هذا العصر فقد كثر الشعراء جدا ودوّن تقريبا كل ما نظموه ، على ضعف الشاعر أو قوتـه ، وعلى تفاوت شعره بين مرحلة التقليـد ومرحلة النضج والاستقلال بنفسه ، فكان أن ضمت كتب الادب ودواوين الشعر الغث والسمين والحسن والقبيح ولو أننا عكفنا على هذه الكتب والدواوين مـن جديد وأحسنا الاختيار لاستطعنا ان نخرج منها بشعر كثير يضاهي شعر الفحول في العصر العباسي أو يقاربه .

ونحن نؤثر ان نقدم رأينا في هذه العهود بعد ان نستنتجه من نماذج أدبيـة شعرية ونثرية ، ومن حركة التأليف فيها ، ولكننا نذكر بمناسبة ايرادنا رأي أحمد أمين أن هذه العصور قد أهملت دراستها في عصرنا اهمالا كبيرا ولم تحظ بالعناية الكافية الا حين الحديث عن بعض الكتب المؤلفة ، وربما تتكشف عن كنوز كثيرة ، لو أنها نالت حقهـا من الدرس والعناية . هذا مع ايماننـا بأن كثيرا من آثار هذه العهود قد ضاعت أيضا ولكن ما ضاع من آثار العهود قبلها كان اكثر .

ونضيف كذلك أننا لا نزال عيالا على دراسات المستشرقين وآرائهم في أكثر ما نسطره في كتبنا من آراء ونظريات . وبعض هؤلاء المستشرقين مخلصـون للعلم يقولون ما يعتقدونه بصدق وأمانة ، والآخرون ، وهم كثر ، ينظرون الى تاريخنـا ومخلفاتنا العلمية والأدبية من زاوية خاصة متعصبة حانقة مغرضة هادفة الى خدمة أغراض الاستعمار الذي يريد أن يمزقنا ويشككنا في أنفسنا وامكاناتنا ، فلا يمكن ان نأخذ أقوالهم على أنها صحيحة مسلمة ما لم نعمل فيها معاول الفكر والنقد ولكن هذا الإعمال يتطلب منا العمل الدائب والحركة النشيطة ، لا أن نعشق النوم ونؤثر الراحة والتقليد .

فاذا أضفنا الى هذه النظرة العامة نظرة خاصة تتعلق بموقف بعض المستشرقين

من هذه العهود ذاتها التي أسموها عصور الانحطاط ، وهي أن هذه العصور كانت بالنسبة اليهم جزءا من العصور التي صمدت أمام غزوات أجدادهم واستطاعت أن تطردهم وأن تحافظ على خصائصها الروحية والقومية والاجتماعية ، فان من حقنا أن تتوقع أن يفهموها فهما خاصبًا لا يتلاءم في كثير من الأحيان مع حقيقتها ، ثم أن يشوهوا ما استطاعوا حسناتها . ونضيف الى ذلك ان بعض المستشرقين حسنو* النية ولكنهم يقيسون الأمور حين دراستهم تاريخنا وأدبنا بمقاييسهم ومفاهيمهم الخاصة التي ألفوها في بيئاتهم ، لا وفق مقاييسنا ومفاهيمنا المستمدة من بيئتنا المادية والمعنوية . وهذه المقاييس والمفاهيم تختلف من أمة الى أخرى ، وقل من المستشرقين من استطاع ان يفهم مقاييسنا الروحية والذوقية وأن يحس بها كما نفهمها نحن ونحس بها .

ان خطتنا في دراسة أغراض الشعر التقليدية وفنونه المستحدثة وأساليبه هي أن ندرسها من خلال نصوص لعدة شعراء ، ندرسها أو نستشهد بها .

وما قلناه في الشعر ينطبق على النثر فنحن سندرس فنونه وأساليبه ومذاهبه من خلال نصوص لعدة كتاب ومؤلفين .

١ — باي شيء نهتم من مفهوم كلمة « الادب » :

ويتحتم علينا قبل البدء بدراسة النصوص أن نبين ما الذي نهتم به من مفهوم كلمة الأدب في بحثنا ؟ ثم ان نبين أسباب اهتمامنا بدراسة الحياة العامة في هذه العهود .

لقد كان الادب في مفهوم الجاهليين يعني الأخلاق والمكارم ولم يلبث ان ظهر له مفهوم آخر على لسان النبي عليه السلام حين قال جوابا لعلي كرم الله وجهه : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وذلك حين رآه عليّ يكلّم بني نهد بما لا يفهم القرشيون أكثره فسأله عن سر ذلك ، وكذلك حين سئل : فيم الجمال ؟ قال « في

اللسان » يريد « البيان » وذلك ، كما يتضح جليا ، هو ما عناه في جوابه لعلي •
(ابن رشيق العمدة ، ج ١ ص ٥٤١) •

وفي أول العصر العباسي سمي العالم بالشعر وعلوم العربية أديبا وسمي علمه أدبا (الخفاجي ، شفاء الغليل ص ٢٧) •

ثم اتسعت التسمية فشملت هذه العلوم وغيرها (الكامل للمبرد ص ٢) • ثم جمع النقاد في القرنين السادس والسابع بين المفهومين الخلقي بمعنى أدب النفس والفني بمعنى أدب الدرس بما يحوي من خلق وابداع في الشعر والنثر • ويقول ابن الاثير في هذا المعنى : شيئان لا نهاية لهما ، البيان والجمال ، (المثل السائر ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١) •

ونحن سنكتفي من الأدب في مفهومه الواسع بالكلام مجملا على الحياة العامة في هذه العهود وهي تشمل لمحات من تاريخها، والحياة الفكرية ومنها حركة التأليف، ووصف الحالة الاجتماعية فيها • أما الأدب بمفهومه الفني الشامل للشعر والنثر فسنسعى الى دراسة ما قرنا دراسته منه دراسة كافية • وهو الغاية الأساسية من هذا الكتاب •

٢ ــ لماذا ندرس الحياة العامة في هذه العهود :

لا بد لنا من دراسة الحياة العامة في هذه العهود ، لأن حياة الأمة وحدة مترابطة متكاملة لا يمكن فصل عنصر من عناصرها عن بقية العناصر فكلها تتفاعل فيما بينها ويرقى بعضها برقي الآخر ، ولأن دراسة ألوان الحياة العامة الأخرى ضرورية لفهم نصوص الادب على وجهها وللقدرة على تعليل بعض الحركات الأدبية وظهور بعض الموضوعات الجديدة وانقراض بعضها الآخر أو استمراره كما هو أو تطوره ، وتعليل تطور حياة الالفاظ والتعابير وظهور بعضها وانقراض بعضها،وظهور بعض الاساليب وانقراض الاخرى او تعديلها ، ونذكر على سبيل المثال أنه لا شك في وجود رابطة نفسية اجتماعية بين التأنق في الحياة والزخرف في الأسلوب ، فان الأدب بمجموعه صورة للعصر والبيئة بمجموعهما فحيث يكون الجهاد والاستعداد لقتال الأعداء

يظهر أدب الجهاد والمعارك وحيث يكون الضعف واللهو المفرط والانحلال يكون الغزل الماجن ويكون الاهتمام بالموضوعات المسلية أو غير الجدية •

وفضلا عن ذلك فان دراسة تاريخ هذا العصر الاجتماعي والسياسي هي أمر ضروري لنا في حد ذاته لنتمثل الجو الذي كان يعيش فيه الشاعر أو الكاتب ، ولنعرف دوافعه الى القول ، وتتنفس الهواء الذي كان يتنفسه فيخفق قلبنا مع قلبه ، ثم لأن دراسة التاريخ مفيدة لنا في ذاتها فاننا نستطيع بها أن نوازن بين الحاضر والماضي ونقيسه عليه لنستفيد من تجاربه وعبره • فصحيح أن الحاضر لايطابق الماضي لأن المرء كما يقول أحد الفلاسفة « لا يستحم في النهر الواحد مرتين » ، ولكن الماضي والحاضر قد يتشابهان أو يتقاربان الى حد كبير بحيث يكون من الحمق ألا نستفيد من حسنات الماضي ، وألا نعتبر بسيئاته ونطلع على الصورة التي عالجها بها الأقدمون حين تخلصوا منها •

ونظرة واحدة نلقيها على عالمنا العربي في الماضي والحاضر تجعلنا ندرك أن وضعنا السياسي الآن يتشابه مع وضعنا السياسي قبيل ظهور الاسلام ولكنه أكثر شبها مع وضعنا السياسي قبيل الحروب الصليبية والتتارية وفي بدئها بخاصة •

فقد كان الصليبيون والتتار يطمعون في خيراتنا وموقعنا الجغرافي ويستغلون ضعفنا وتفرقنا ، وضعف النفوس لدى بعض حكامنا ، كما هو حالنا اليوم تماما • ولم يكن من دواء لدى أسلافنا يتغلبون به على أعدائهم الا الوحدة بين البلاد العربية المجاورة لفلسطين وسائر الاراضي المحتلة ولا سيما بين مصر وسورية وكانت النقطة التي اختارها الاستعمار لهجومه وركز عليها هي فلسطين ، واليوم نرى الامر ذاته• ونلاحظ ان عماد الدين ونور الدين الزنكيين وصلاح الدين الأيوبي قد سعوا الى تحقيق الوحدة على أنها خطوة أولى للمعركة الحاسمة مع الأعداء كما أن كل رجالاتنا المخلصين اليوم لا يرون خلاصا لنا مما نحن فيه الا بالوحدة •

ولقد كان تحقيق الوحدة والاعداد لقتال العدو يتطلبان سموا خلقيا وترفعا عن الأنانيات ونسيانا للخلافات السياسية والمذهبية السابقة حتى تجابه الأمة عدوها

قلبا واحدا ويدا واحدة ، وقد تحقق ذلك في أبطال المعارك الذين ذكرناهم كما تحقق في الخليفة الفاطمي العاضد الذي غضب على وزيره شاور لخياناته وتآمره مع الفرنجة ولأمور اخرى • وكما وجد خونة وضعاف نفوس في الماضي مثل شاور في مصر ومعين الدين أنر في بعض مراحل حكمه بدمشق ، كذلك نجد في الحاضر خونة وضعاف نفوس لا بد من التغلب عليهم لتتحقق لنا الوحدة ويتم النصر • وكما كانت معنويات الشعب ضعيفة منحلة قبل الحروب الصليبية وفي بدئها فسعى أبطال المعارك الصليبية الى رفعها باصلاح الفساد كذلك تقوم اليوم أجهزة الدعاوة المدنية وإدارات التوجيه المعنوي في الجيوش العربية التي توالي استعداداتها للمعركة الحاسمة بمساعيها لرفع معنويات المحاربين ومعنويات الشعب بعامة • وكانت هنالك عزلة بين الحاكم والشعب قبل الحروب الصليبية وفي بدئها ولولا هذه العزلة ، بالاضافة الى فقدان الوحدة ، لما استطاع الصليبيون ان يستولوا في حملتهم الأولى بسهولة على جميع الساحل الشامي وعلى جزء من الداخل ، ولكن الملوك والسلاطين المخلصين ، من آل زنكي وأيوب ومن المماليك ، سعوا إلى إزالة هذه العزلة بالتقرب الى الشعب وكسب ثقته بجميع الوسائل حتى اصلاح النفس والسلوك • فقد كان من عادة صلاح الدين أن يشرب الخمر قبل أن يتولى السلطنة فترك ما كان فيه ، وشعر بيبرس بأن الشعب حاقد عليه لاغتياله سيف الدين قطز فتقرب إلى الشعب بإقامة الخلافة العباسية في بغداد ، وقاموا كلهم بإصلاحات إدارية وعلمية واجتماعية وسياسية وامتزجوا بالشعب وامتزج بهم وأقاموا العدل • واليوم نلاحظ ان السعي لإزالة العزلة بين الحكم والشعب أمر ضروري لا بد منه للنصر •

لقد كانت عزلة الشعب عن الحكام في الماضي ناشئة عن سوء سياسة الحكام التي تتوخى منافع شخصية او عصبية أو قبلية أو فئوية منحرفة وقد بدأت هذه السياسة في مطلع العصر العباسي بمساعي الشعوبية ، ثم أخذ خطر العزلة يستفحل مع الزمن حتى كادت هذه العزلة تكون كاملة في مطلع الحروب الصليبية فكان الضعف وكانت الهزيمة •

وقد كان من أسباب الهزيمة أن العرب لم يكونوا يعيشون حياة استعداد

وجهاد ، حياة معسكرات دائمة تغذي فيهم الرجولة وتنميها وتجعلهم يتنفسون الحرب كما يتنفسون الهواء ، على حين كان أعداؤهم الصليبيون يعيشون حياة معسكرات منظمة كاملة .

وما أشبه الليلة بالبارحة فنحن لا نستطيع ان نقهر « الاسرائيليين » ، ومن وراءهم ، إلا إذا عشنا جميعا حياة معسكرات دائمة رجالا ونساء كبارا وصغارا كما يعيش اليوم الإسرائيليون في فلسطين المغتصبة .

إن فك العزلة يرتبط ارتباطا وثيقا بالامتزاج بالشعب في حياة ديموقراطية تسودها الحرية التي عشقها العربي منذ الجاهلية حتى اليوم وقد قامت حضارتنا على أساس من كلمة عمر المشهورة : « كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ، لأن فك العزلة معناه ان يكون للفرد العربي شخصيته الحرة التي يشارك فيها طواعية بجهاد الأعداء والتي يستطيع معها على أساس من الشورى أن يقول ما يعتقده في أموره وأمور أمته وأن يصوب ما يراه صوابا ويخطىء ما يراه خطأ ، وبذلك تتفتح شخصيته وتكون قادرة على العطاء .

وفرق ما بين العصرين أن الطابع الإسلامي كان الغالب على عصر الحروب الصليبية على حين أن الطابع القومي (العربي الوحدوي) هو الغالب على عصرنا اليوم ولكن المتأمل يرى أن جوهر الأمور واحد من حيث أن المبادىء التي يجب أن تسير الأمة عليها لتكسب معركتها هي المبادىء المستمدة من أصالتها وقواها المعنوية وهي المبادىء التي تحارب الميوعة والضعف والخيانة والاستسلام وعدم المبالاة بمستقبل هذه الأمة .

أظن بأنني أوضحت بما فيه الكفاية ضرورة استفادتنا من حقائق التاريخ في دراستنا لأدب الدول المتتابعة من جهة ، وفي سعينا لتحقيق ذاتنا فكريا ولتحقيق اهدافنا القومية ، غير أنني أرى من الضروري أن أوضح مدى التشابه بين الغزوين الصليبي والصهيوني : إن كلا من الغزوين ذو طابع استيطاني وقد وفد من الغرب واستمد قوته ومقومات بقائه منه فضلا عن تشابه عجيب بينهما في كثير من الوقائع والملابسات .

وقد ظهر أدب المقاومة حين الغزو الصليبي كما ظهر اليوم في ميداني الشعر والنثر على السواء • ومن الغريب عدم شيوع شعر المقاومة ضد الصليبيين والتتار على ألسنة الناس في عصرنا لعدم الاطلاع عليه وعدم حفظه عن ظهر قلب بالرغم من الحوادث الكبار المتصلة به ، وتتساءل عن السبب : أهو التقسيم المدرسي للعصور الادبية الذي تجاهل هذه الفترة لأنّها في نظر واضعيه تمثل الجمود والانحطاط مع أنّ حالة الدفاع المتحمس التي كانت عليها الأمة حينئذ تنفي عنها فكرة الجمود ، أو أنّ هناك أسبابا أخر مقصودة لهذا الإهمال خطّطها لنا غيرنا ولم نخلص أنفسنا منها حتى اليوم •

إنّ من المهمّ دراسة مدى تأثير الغزو الصليبي في الأدب العربي ولا سيما أنه يمثل أول لقاء لنا على نطاق واسع شامل مع المستعمرين الأوروبيين •

ولما كانت العهود التي ندرسها هي في قسم كبير منها عهود الحروب الصليبية والتتارية فإنّ الآثار التي تركتها هذه الحروب الطويلة المستمرة المبيدة ستكون عميقة فلا بد من أن تلهب هذه الحروب المشاعر وتحرك الضمائر وتثير الفكر وتحدث تبعا لذلك نهضة أدبية في الشعر والنثر ونهضة علمية • وهذا ما حدث في مصر و في الشام فعلا فقد قامت في مصر نهضة أدبية مستجدة كما سنرى ، أما في الشام فقد حدثت يقظة أدبية جديدة بعد خمود نسبي سابق ولا بد من ان يتخذ الادب وسيلة للدعوة الى الجهاد والكفاح والتحريض على الاستعداد والقتال وذلك في شعر الحماسة والكفاح ، على الأقلّ ، ولا بد من أن يترجم عن بلاء الناس وكروبهم وأحزانهم وأفراحهم وأن ينشر ما تنطوي عليه نفوسهم من أمل ويأس •

وقد ظهر في الحروب الصليبية أبطال كثيرون تغنّى الشعراء والكتاب ، بمدحهم وأشادوا بمعاركهم وأسفوا لفقدهم بالموت أو الاستشهاد فرثوهم ودعوا الى احتذاء مثالهم •

وظهرت كذلك العاطفة الدينية متقدة في كلا الجانبين المتحاربين فاستطاع الشعراء والكتاب أن يعبّروا عنها أحسن تعبير وان يوجّهوها للحث على الجهاد ،

وتركت هذه الحروب آثارا في الحياة الاجتماعية لاتمحى ، فينتظر ان يكون الشعر والنثر خير معبّر عنها ، ومحبّذ لما استحسن منها ، ومستنكر لما استقبح ، او مسترسل فيه .

ولقد تنج عن هذه الآثار ظهور أغراض وألوان جديدة في الشعر والنثر ، وكثرة بالغة من الشعراء والكتاب .

فاذا أضفنا الى ذلك أثر التطور الطبيعي بما فيه من استمرار تفاعل الحياة مع ما يحيط بها من عوامل متغيرة في جميع نواحي الحياة العامة للأمة : سياسية واجتماعية وفكرية وأدبية وفنية ، في أوقات الحرب وفي أوقات السلم معا ، تبين لنا أنه لا بد من ظهور خصائص في الأدب شعره ونثره تمتاز بها هذه العهود . وهذا مما سنسعى الى تبيانه خلال بحثنا .

الحياة السياسية :

١ ـ اجمال لحالة البلاد الاسلامية في بدء الحروب الصليبية قبل مطلع القرن السادس الهجري :

كان القرن السادس قرن الحوادث العظام ، قرن الحروب الصليبية وزوال الدولة الفاطمية واضمحلال دولة المسلمين بالاندلس وقيام دولة الزنكيين ثم الأيوبيين في مصر والشام . وهو عصر الجزر الاسلامي العربي والمد الصليبي في هذه المنطقة في أوله وعصر انقلاب هذه الحال في النصف الاخير منه . كانت الدولة العباسية في الشيخوخة وكان خلاف السلاجقة يمزق قوتهم ، وكانت تقوم في الشرق الاسلامي الدولة الخوارزمية والدولة الغورية ودولة الخطا المناوئة لهما وكانت القبائل التركية الأخرى تغير على العالم الاسلامي وتقتطع أجزاء من مشرقه وشماله الشرقي . وكانت تقوم في الغرب دولة الموحدين من بني عبد المؤمن وفي مصر والشام الدولة الفاطمية .

كان السلطان الفعلي في بغداد والبلاد القريبة من الشام للسلاجقة لا لخليفة

بغداد وقد حاول المكتفي بالله (٥٢٠ ــ ٥٥٥ هـ) ان يستعيد سلطان الخلافة والتغلب على السلطان محمد السلجوقي عند حصار هذا بغداد ، بمساعدة البغداديين ووزيره عون الدين بن هبيرة ، ولكنه لم ينجح في محاولته •

وكان السلاجقة يحاولون اضعاف الخلفاء ، ليستبدوا دونهم بالأمر وليجعلوهم أتباعا لهم بالقوة المسلحة والمؤامرات ، وقد ساعدت الاسماعيلية على اضعاف موقف الخلفاء العباسيين فهي التي اغتالت الراشد العباسي سنة ٥٣٢ هـ (أخبار الدولة السلجوقية ص ١٠٩) • ومع ذلك فقد كان الخلفاء يتمتعون بالاحترام الديني • وكانت دولة السلاجقة ثلاثة اقسام لكل منها سلطان : سلاجقة خراسان والمشرق ؛ وسلاجقة العراق والجزيرة الفراتية وجزء من الشام اقتطعوه من الفاطميين ؛ وسلاجقة الروم في غرب الجزيرة الفراتية وشمال الشام وشبه جزيرة الاناضول •

كان سلاجقة المشرق في نزاع مع الدولة الخوارزمية التي انتهزت فرصة استنجاد الخليفة العباسي سنة ٥٢٠ هـ وحاولت القضاء على السلاجقة في بغداد والحلول محلهم في الدولة العباسية واستطاعت أن تهزم طغرل بك السلجوقي سنة ٥٩٠ هـ ولكنها عجزت عن الوصول الى العراق •

وقد بدأ ملك السلاجقة ينهار في بغداد بعد موت ملكشاه وقتل وزيره نظام الملك الذي اغتاله الحشاشون • وقد ضعضعتهم المنازعات والحروب بينهم كما ضعضعتهم حروبهم مع الخوارزميين شرقا والروم والصليبيين والفاطميين غربا ، وحين بدأت الحروب الصليبية لم يبق لهم الا دمشق وحلب وبعض المدن الاخرى واصبح الساحل بيد الصليبيين ما عدا عسقلان وغزة اللتين بقيتا بيد الفاطميين مع جنوب الشام •

وكانت الدولة الفاطمية متضعضعة على وشك الانقراض ينصّب عليها خلفاء صغار السن يتلاعب بهم وبدولتهم الوزراء والقواد والخدم وسيدات القصر وكانت الاحوال الاقتصادية مضطربة فيها لبذخ الحكام واسرافهم واعتيادهم الترف ولم يستطع جيشها الصمود أمام الصليبيين ، على أنه كان لبعض رجالاتها دور ايجابي

في رد الغزاة وصدهم عن حـدود مصر مثل الوزير اليازوري وابن رزيك الوزير الشاعر •

وحمى الأسطول المصري سواحل الشـام ومصر وخاض معـارك مريرة مع الفرنجة ولكن خيانة بعض ضعاف النفوس ونزاعهم فيما بينهم وتآمرهم ، ومنهـم عباس وشاور وضرغام ، وضغط الصليبيين المتواصل مكن هؤلاء من الاستيلاء على بيت المقدس •

وكان الاسـبان ومن والاهم من الفرنجة يقتحمون شبه الجزيرة الأندلسـية ويقطعون أوصالهـا وظهرت جينئذ في المغرب دولة الموحـدين من بني عبد المؤمن فأحيت أمل المسلمين هناك بامكان وقف تقدم أعدائهم كما أحيت الدولتان الزنكية والأيوبية أمل المشرقيين بامكان صد الصليبيين وطردهم •

وكان المسلمون مذهبين عظيمين يتناحران بينهما دائما • وكان المسـيحيون كنيستين عظيمتين الشرقية البيزنطية والرومانية الغربية ، والعداء بينهما على أشده ، ولكن العاطفة الدينية العليـا وهي عاطفة المسيحيين جملة ضد المسـلمين جملة أو العكس هي التي قامت من أجلها هذه الحروب في رأي بعض المؤرخين ولكننا سنبين خطأ هذا الرأي •

وكان امبراطور القسـطنطينية يحاول أن يأخذ العهـود والمواثيق على قواد الصليبيين الغربيين ليردوا له ما كان ملكه سابقا وكان بعضهم يرفض القسـم له • وممن اقسم له جودفري وبوهمند ، ولكن المقسمين لم يردوا له شيئا مما استولوا عليه برغم أيمانهم لأنه لم يشاركهم في المعارك •

وكان مسلمو المغرب في حالة تدهور : سقطت طليطلة بيد ألفونسو السادس أمير قشتالة ، وجنوب ايطاليا في أيدي النورمانديين ، وكذلك صقلية ، ولم يبق في أيدي العرب في آخر القرن الحادي عشر الميلادي الا جنوب اسبانيا وشمال افريقية •

وكان المسلمون في الشرق مـوزعين خلافتين خلافة فتية جـاءت من المغرب

وخلافة هرمة تخلصت من آل بويه الشيعيين وسيطر عليها آل سلجوق السنيون الذين استولوا على أرمينيا وآسيا الصغرى والشام (وفيه بيت المقدس) فألقوا الرعب في قلب الخلافة الفاطمية وفي قلب الامبراطورية البيزنطية التي هزموا عاهلها الأكبر في موقعة « منازجرد » فرجحت كفة السلاجقة على الفاطميين واقترن بذلك قيام الحروب الصليبية .

حال الصليبيين في الحرب ورد الفعل العربي :

كان الصليبيون يرددون في هذه الحرب شعارهم « هكذا أراد الله » الذي صاحوا به يوم سمعوا خطاب البابا . وكان المسلمون يرددون نداءهم « الله أكبر ». وأشهر من لمع عند الصليبيين واستطاع أن يحرك مشاعر الجماهير « بطرس الناسك » . وقد تأخر الأفضل بن بدر الجمالي في نصرة افتخار الدولة والي القدس من قبل المستعلي بالله الفاطمي ، ووصل الى القدس بعد أن كان الفرنجة قد دخلوها فعاد الى مصر . وتلكأ الافضل مرة اخرى حين استنجد به سيف الدولة أميرها فأحال أمرها الى الأتابك ظهير الدين طغتكين .

وانما تخلف الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في مصر عن نصرة الشام لأنه رأى أن من واجب السلاجقة الدفاع عنه ولم يعد العدة للدفاع عن ممتلكاته فيه ، ومنها القدس ، فسقطت لقمة سائغة بيد الصليبيين الذين أصبح بمقدورهم بعد استيلائهم على الساحل الشامي والقدس والكرك ان يهددوا بغداد والقاهرة . وقد قطع الصليبيون كل الطرق الموصلة إلى دمشق إلا طريق الصحراء وضربوا الجزية على مدن لا عد لها ووجدوا في ثراء هذه البلاد سدا لحاجتهم ، فقد كانت جموع صليبية كثيرة قد خرجت قاصدة الى الشرق لاجئة اليه مما أصاب اوروبا من قحط مخيف صارت معه البلاد خرابا وانتشرت الجرائم وكثر قطع الطرق وشح الغذاء وفقدت الراحة والامن .

وكانت أوروبا تعج بالفوضى والحكم فيها للسيف الذي يغسل الاهانات ، وكانت سياسة الملوك والحكام مبنية على الحروب . وقد لمس البابا أن النفوس مهيأة للحروب فحول نشاطها الى الحروب الصليبية . (تاريخ الحروب الصليبية ص ٤١) .

سمع الشرق المهاجم بهذا الزحف عليه ولكنه لم يتحد برئاسة حاكم واحد قوي ينظم جموعه ، وبقي الحكام في مصر وسورية والعراق متفرقين متعادين لا تثور بهم رغبة التعاون والتعاضد لاعداد العدة لدفع الخطر المهدد .

وقد هدم النظام الاقطاعي أسس امبراطورية السلاجقة القوية فلم يعد لسلاطينهم سلطان فعلي على أمراء المدن الذين استقل كل منهم بنفسه وهمه ان يقتل جيرانه فليس من الممكن ان تثبت هذه القوى المجزأة أمام القوى الزاحفة المتكاثفة .

واتبع الصليبيون طريقة الارهاب : فقدر عدد من قتل في أنطاكية بعشرة آلاف وفي معرة النعمان بمئة ألف ، وأعاد بوهمند النظر في أسراه فمن كان قويا جميلا احتفظ به رقيقا يباع في اسواق انطاكية ومن كان معمرا أو مريضا قتله دون رحمة « الحياة الادبية ، د . بدوي ص ١١ » عن (History of the Sarasens. P. 32 9).

واتفق المؤرخون الشرقيون واللاتين على ان عدد القتلى كان كبيرا . ولم يحترم الصليبيون عهدا قطعوه كما حدث في قيسارية (المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها) ولم يثنهم عن القسوة والتدمير والتخريب أنّ المدن التي هاجموها كانت في أوج مجدها وقد وصف ناصر خسرو (في سفر نامه ص ١٣) مدينة طرابلس وصفا مشوقا يصور ما بلغه أهلها من حضارة ، في نواحي الزراعة والعمران والتخطيط والنظافة وجر المياه وصنع الورق والعلم . وقد نهب الصليبيون هذه المدينة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا مكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها [١] . وفتك الفرنج بـ ٧٠ ألفا من المسلمين في المسجد الأقصى (ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢ : ١١) .

وقد رأينا الخليفة العباسي الذي لم يكن له من الأمر شيء يرسل حين استنجد

---

(١) الحياة الادبية . بدوي ص ١٣ عن « The Crusades P. 28 »

به أهل الشام إلى السلطان باركياروق السلجوقي وأخيه محمد يطلب منهما ان يتصالحا ليردا الخطر الصليبي فلم يصغيا إليه واستمرا في قتالهما .

وقد كلفت هذه الحروب مصر والشام أموالا كثيرة لتكوين جيش ضخم . وقد جبى السلاطين من أجلها الزكاة وأنفقوا منها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وردوا الى بيت المال سهام العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله وفي الرقاب .

وكان الفريقان يفتنّان في اختراع آلات الحرب : صنع الفرنجة في حصارهم عكا ثلاثة ابراج من الخشب والحديد ألبسوها الجلود المسقية بالخل حتى لا تؤثر فيها النيران وجعلوها عالية بارتفاع السور وأجروها على عجل وجعلوها تتسع لخمسمائة مقاتل وجعلوا سطحها متسعا لنصب منجنيق عليه وقد امتلأ المسلمون رعبا منها . وأعمل صلاح الدين فكره لمقاومتها وحثّ الصناع على إيجاد وسيلة لإحراقها ورغبهم بالمال الكثير ، فطلب نحاس دمشقي شاب ان يهيأ له سبيل الدخول إلى المدينة المحاصرة وأن يهيأ له ما يحتاج إليه من الأدوية ثم طبخها في قدور من النحاس ثم قذف بها الأبراج الصليبية واحدا بعد الآخر حتى صار كل منها كالجبل من النار وضج الناس فرحا لذلك . « شفاء القلوب ص ٤١ » .

وكان القادة المسلمون يجدّون في إعداد الجيوش وبث الحماسة في النفوس ، فنرى بيبرس مثلا يشيع روح الجندية ، وكثيرا ما اشترك هو وابنه في مناورات الجيش وكان عدد الجند ضخما فكانوا إذا ركبوا في ظاهر القاهرة يزيدون على مئتي ألف (خطط المقريزي ج ١ ص ١٥٢) . وفي المعارك الكبرى كان المتطوعون يقدمون من كل فج حتى ليزيد عددهم على الجند المسجّلين في ديوان الجند .

قال صاحب النجوم الزاهرة (ج ٨ ص ٥) « اجتمع مع الاشرف خليل على عكا من الأمم مالا يحصى كثرة وكان المتطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة » .

وعني بالاسطول عناية بالغة في عهد الصالح بن رزيك وزير الفاطميين وزمن

صلاح الدين وبيبرس والأشرف خليل : وأفرد له صلاح الدين ديوانا خاصا سلمه إلى أخيه الملك العادل وأعطى صاحب الأسطول سلطة كبرى في تخيّر رجاله وإعداد سلاحه •

وكان بيبرس يشرف على صنع سفنه بنفسه ويجلس بين الاخشاب والعمال واقتدى به الأمراء فكانوا يحملون بأنفسهم آلات السفن ويساعدون في صنعها •

وفي عهد خليل بن قلاوون زادت العناية بأمر الاسطول ، وملأه بالعدد وآلات الحرب وعزم السلطان على الخروج لمشاهدته فاحتشد لذلك الناس وقد عمل في كل سفينة برج وقلعة تحاصر ويلح القتال عليها ويرمى عليها النفط وعدد من النقابين يعملون الحيلة في النقب ، وتباروا في القيام بالأعمال المثيرة للعجب • ولما بلغ خبر ذلك بلاد الفرنجة بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح • « الحياة الأدبية ، بدوي ١٨ ــ ١٩ » •

ولم يقتصر دور الأسطول على البحر الأبيض بل تعدى ذلك إلى البحر الأحمر فكان يقوم بحماية السواحل هناك فقد باغت صاحب الكرك المسلمين في البحر الأحمر بأسطول أعده بأخشاب مهيأة حملت على الإبل عن طريق الصحراء إلى الساحل وركبت هناك وقسم الأسطول قسمين قسما حاصر أيلة وقسما اتجه إلى عيذاب ليهاجم المدينة وينبش جنوده قبر النبي ، واستطاع اسطول المسلمين أن ينقضّ على محاصري أيلة وأن يتتبع المتجهين الى المدينة المنورة ويحصرهم في شعب لا ماء فيه فقتل المسلمون من قتلوا واستسلم لهم الباقون •

وكان رجال الأسطول يتزيون احيانا بزي رجال الأسطول الصليبي ليصلوا إلى أهدافهم سالمين ، وربما يغرقون سفنهم وهم فيها حتى لا يستسلموا ولا يسلموها إلى الأعداء •

وتفوق المسلمون على الصليبيين في استعمال النار اليونانية التي عرفوا سرها وكانوا يقذفون بها معسكر أعدائهم فيحرقونه كما فعلوا في معركة المنصورة •

« المرجع السابق ص ١٩ عن مراجع كثيرة ذكرها » .

اسباب الحروب الصليبية وبدايتها :

يظهر أنّ المؤرخين العرب القدامى لم يبحثوا في أسباب الحروب الصليبية ما عدا ابن الاثير منهم الذي أرجعها (الكامل ج ١٠ ص ١٠١) إلى رغبة الفرنجة في الاستيلاء على البلاد العربية في شمال إفريقيا وغيرها كرها للمسلمين ورغبة في التوسع ، وذكر كيف أرسل بردويل ملك الفرنجة إلى رجار ملك صقلية يخبره أنه سيزوره في صقلية ثم ينطلق من عنده إلى الفتح فيكون جارا له وكيف جمع رجار حاشيته فأشاروا عليه باستقباله ومساعدته وكيف خالفهم في الرأي لما يلحق به من خسارة مقابل كسب برودويل ، وبيّن لهم أن في استطاعته إذا استكمل قواته أن يربح هذه البلاد لنفسه وذكر ابن الأثير كيف أشار رجار على بروديل باستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين فيكون لهم الفخر دون أن يخرق هو العهود والأيمان التي بينه وبين حكام شمال أفريقيا .

وقد أضاف ابن الأثير إلى ذلك سببا آخر هو أن حكام الدولة الفاطمية الذين ضعف أمرهم في آخر عهدهم خافوا من توسع الدولة السلجوقية ومن استيلائها عليهم فأرسلوا إلى الفرنجة يزينون لهم غزو الشام ليقفوا حاجزا بينهم وبين السلجوقيين .

لكنّ تصرف الخليفة الفاطمي العاضد حين استاء من وزيره شاور المتآمر مع الصليبيين ضد بلاده واستنجد بنور الدين زنكي يضعف كلام ابن الاثير بصورته المطلقة ويجعلنا نحدده بأنّ الخليفة وأنصاره لم يكن يعميهم التعصب الطائفي المذهبي عن صون بلادهم والاستعانة بملوك المذاهب السنية الذين كانوا خصومهم في السياسة ، غير أنه كان إلى جانبهم جماعة من ضعاف النفوس مثل شاور في الدولة العلوية ، ومعين الدين أنر السلجوقي في الدول السنية ، في بعض أيام حكمه .

لقد قيل بأن سبب الحروب الصليبية هو تخليص بيت المقدس من أيدي

المسلمين وأن الذي أثار الصليبيين لذلك هو سوء معاملة بعض الحكام المسلمين ، ولا سيما السلجوقيين ، لحجاج القدس من المسيحيين • ونرى أنّ هذا الأمر قد استغله حقا رجال الدين والملوك في أوروبا ليجمعوا الجيوش ضد البلاد الاسلامية وأنه لا يعدم جماعة آمنوا به وتصرفوا بموجبه ، ولكننا نرى أنّ السبب الحقيقي هو ضعف البلاد الإسلامية وتفرقها مما أطمع المغيرين في موقعها الجغرافي العظيم وثرواتها ولا شك في أن بعض المغيرين كان يريد الرجوع الى بلاده بعد ان يحصل بالنهب والقتل على ثروة كبيرة ولكن بعضهم الآخر كان يريد الاقامة واستغلال الارض وأهلها فالسبب الرئيسي كما نرى استغلالي أو استعماري وليس دينيا •

يدل على ذلك ما قاله البابا أوربانس الثاني لرعاياه في أوربا (تاريخ الحروب المقدسة تعريب مكسيموس مظلوم ط دير الفرنسيسكان ، ص ١١) :

« لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر لأخذ الثأر عن بعض إهانات ، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست لأخذ الثأر عن إهانات ضد البشر ، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله ، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي لاكتساب أقاليم آسيا بمجملها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى • فاتخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وانتم املكوها لذواتكم فهذه الارض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا » [1] • (بيلي ، حياة صلاح الدين : ٥٣) •

وقد ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوي في « الحياة الأدبية زمن الحروب الصليبية ص ١٠ » أن بدءها رافق حدوث مجاعة في أوربا • لقد سارت أوربا حينئذ لاستعمار الشرق الذي يفيض لبنا وعسلا مشحونة بالتعصب والكراهية على حين كان الشرق في نوم وغفلة فاستفاق على هول الصدمة •

---

(١) اورد د . بدوي (الحياة الأدبية :) ٤٠١ نصا آخر في ترجمة هذه الخطبة يختلف عن هذا النص بعض الاختلاف . ترجمه عن الفرنسية من كتاب Histoire des Croisades par Michaud. P. 51

ويمكن ان نلخص أسباب الحروب الصليبية (موجزة عن كتاب حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ، ص ٢٤٣) بما يلي :

آ ــ تمكن السلاجقة في الأناضول وآسيا الصغرى وتهديدهم القسطنطينية واستيلائهم على بيت المقدس من الفاطميين ، واستشعار الأوروبيين الخطر على حجهم إلى القدس .

ب ــ دخول عناصر بربرية في الدين المسيحي بعثت الروح الحربية في الكنيسة وأطمعتها في بسط نفوذها على الشرق .

ج ــ انتصار البابوية على الامبراطورية ورجحان نفوذ البابا على غربي أوربا مما جعله مسموع الكلمة مطاع الدعوة .

د ــ رغبة المدن التجارية وعلى رأسها البندقية وجنوة وبيزا في استغلال تجارتها في الشرق . وهذه الرغبة تمثل تحرك البورجوازية في أوربا لفك الحصار الإسلامي عنها في تجارتها معه ومع سائر المشرق . ومما شجع أوربا على شن هذه الحروب :

١ ــ انقسام السلاجقة على أنفسهم بعد موت ملكشاه بن ألب ارسلان وازدياد انقسام العالم الإسلامي وضعف الفاطميين العسكري .

٢ ــ تغلب القراصنة الإيطاليين على السفن الإسلامية في البحر الأبيض .

٣ ــ دخول المجريين في الدين المسيحي فانه فتح الطريق الى الشرق برا .

٤ ــ استغاثة الإمبراطور البيزنطي بالبابا أربان الثاني من السلاجقة الذين ازدادت الدعاوة ضدهم .

لقد حملت هذه الاسباب كلها على إعلان الجهاد المقدس ..

بدء رد الفعل المسلم وابطال الكفاح :

لقد بدء رد الفعل المسلم بتحرك العلماء والفقهاء ودعوتهم إلى القضاء على

الفرقة بين أمراء المسلمين والدعوة إلى الجهاد وباستجابة العامة وحماستم وعدم استجابة الأمراء والقواد باديء الأمر .

وكان هؤلاء إذا استجابوا فسرعان ما تلعب الخيانة والرشوة والخلافات الشخصية دورها فتفرق الصف وتفتح الثغرات ليستولي الفرنجة على الحصون والقلاع من جديد .

مثل ذلك ما ذكره ابن الأثير (الكامل ١٠، ١٨٩) من أن كربوقا قائد السلطان السلجوقي جمع العساكر وسار الى الشام وأقام بمرج دابق وانضمت اليه عساكر الشام تركا وعربا وخافت الفرنجة فسار المسلمون ونازلوهم عند انطاكية ولكن كربوقا أساء إلى من معه وتكبر على الأمراء وأغضبهم فأضمروا له الغدر وتفرقوا من حوله فاستفاد الأعداء من هذا الوهن .

كان العالم الإسلامي بحاجة إلى قيادة جديدة واعية مخلصة وقد تهيأ ذلك في شخص عماد الدين ونور الدين ثم صلاح الدين ثم الظاهر بيبرس وغيرهم وساعد العلماء والفقهاء في الدعوة لأولئك الزعماء والتمهيد لهم بين العامة .

وظهرت إنسانية المسلمين منذ البداية فقد استنوا سنة تختلف عما استنه الصليبيون فكانوا إذا استردوا بلدا أمنوا من فيه من أعدائهم ولم يسبوا نساءه ولم يقتلوا أطفاله فأعطوا أعداءهم درسا في التسامح والإنسانية .

وأول من اختط ذلك منهم عماد الدين جريا على روح الدين فقد ذكر ابن واصل أنه حينما فتحت « الرها » رآها عماد الدين فأعجبته ورأى أنه لا يجوز في السياسة تخريب مثلها ، فنودي في العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما اغتنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يفقد إلا النادر وعاد البلد الى حاله (مفرج الكروب ١/٩٤) .

بدء الحروب الصليبية :

بدأت الحروب الصليبية بوصول جيش صليبي الى « قونية » ؤ ستطاع

قليج أرسلان الذي كانت قونية تحت حكمه أن يبيد الغزاة •

فسيرت اوربا على أثر ذلك ثلاثة جيوش قوية استطاعت أن تستولي على قونية سنة ٤٩٠ هـ ثم الرها وكانت إمارة مسيحية خاضعة للمسلمين ثم أنطاكية بعد دفاع عظيم ثم قيسارية وحماة وحمص وأركاس واللاذقية وجبلة وطرطوس ثم مروا بعكا وحاصروا بيت المقدس أربعين يوما ثم استولوا عليه ففتكوا بأهله فتكا ذريعا رجالا ونساء صغارا وكبارا حتى أصبحت الجثث تملأ الأزقة وحتى خاضوا في الدم إلى الركب » ، كما يقول أحدهم في رسالة بعث بها إلى صديق في فرنسا •

وسار جيش مصري للقائهم فهزموه هزيمة منكرة وبهذا بسطوا سلطانهم على سواحل الشام من الشمال إلى الجنوب • وقيل إن عدة من قتلهم الفرنجة في المسجد الأقصى وحده ٧٠ ألفا •

ثم سار « بلدوين » الذي ملكوه على بيت المقدس حتى استولى على الفرما في الطريق إلى القاهرة وذبح أهلها وأحرق جوامعها ولم يمنعه من السير إلى القاهرة إلا وفاته ، فخلفه على بيت المقدس « بولدوين دي بورغ » ويسميه العرب « بغدوين » على حين كانوا يسمون الأول « بردويل » •

وساروا بعد ذلك إلى حلب فدخلوها وخربوها ثم اتجهوا الى طبرية يعيثون في الأرض قتلا ونهبا وفسادا •

وقد ذهب وفد من الشام إلى بغداد ليستغيث بالخليفة وحكامها وأهلها ويستنصروهم وكان في هذا الوفد القاضي أبو سعد الهروي وقد بكوا وأبكوا وذكروا ما أصاب المسلمين من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال • ولكنهم لم يلقوا أي عون فعلي • « الكامل لابن الأثير حـ ١٠ : ١١٧ » •

لقد استطاع الصليبيون باستيلائهم على ساحل الشام أن يتحكموا في منافذ العالم الإسلامي وأن يحصلوا على غرضهم الرئيسي من الغزو وهو التجارة والثروة وقد ساعدتهم مدن إيطاليا التجارية لأنها وجدت في حركتهم تحقيقا لأغراضها في

السيطرة على الأسواق الشرقية فساعدتهم بأساطيلها •

ولم يتوغل الصليبيون في الداخل إلى أبعد من القدس والكرك والشوبك إما خوفا من مغبة هذا التوغل أو لأن جل همهم كان منصرفا إلى تأمين حدودهم الشرقية فاكتفوا لذلك ، بسلسلة من غارات الإرهاب دون محاولات جدية للاستيلاء والاستيطان ، وبعقد معاهدات مع حكام المدن القوية كدمشق ، أو تدبير المؤامرات وشراء الجواسيس والأعوان أو استخدام الحشاشين لإحداث الاضطراب وبث الذعر وتخذيل الهمم بين صفوف المسلمين •

وهذه المرحلة من الحروب الصليبية هي مرحلة المباغتة والمد من قبل الصليبيين ومرحلة الجزر والانحسار والصدمة المفاجئة المفقدة للوعي من قبل المسلمين •

وقد استمر الصليبيون مصدر إرهاب وإقلاق للمسلمين حتى عام ٥٢١ هـ الذي تولى فيه البطل عماد الدين زنكي أمور الموصل فبدأ الصراع المرير بين الفريقين وبدأ الصليبيون يذوقون طعم الهزائم •

ب ـ لمحات هامة من تاريخ العهود الأربعة الأولى مشفوعة بالشعر وبعض النثر .

١ ـ العهد الفاطمي ـ الزنكي * :

بداية الاصطدام :

احتل الفرنجة ساحل الشام كله ، والجزء الداخلي الجنوبي منه ، وفيه القدس، وهاجموا مصر في عقر دارها ، ولم يروا أمامهم أحدا من السلاطين والأمراء والشعب، يوقفهم عند حدّهم أو يشعرهم بمقاومة جدّية أو يثور عليهم في البلاد التي احتلوها ، ولم يخفّ أحد لنجدتها ، برغم استنجادها بالخليفة في بغداد وبسائر المسلمين . « الكامل لابن الأثير ١٠ : ١١٧ » فهال الناس هذا الخطب العظيم وقال أحد الشعراء ولم نعرف من هو :

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيبُ
فحقٌ ضائع ودمٌ مُباحٌ ... وسيف قاطع ودم صبيبُ
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ
وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نصب الصليبُ
دم الخنزير فيه لهم خلوق ... وتحريق المصاحف فيه طيبُ(١)
أمور لو تأمّلهنّ طفلٌ ... لطفّل في عوارضه المشيبُ(٢)
أتسبى المسلماتُ بكل ثغر ... وعيش المسلمين اذاً يطيب
أما والله للإسلام حقٌ ... يُدافع دونه شبّان وشيبُ
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

« النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥١ »

---

* هذه اللمحات المشفوعة بالشعر هي في الوقت نفسه تمهيد للكلام في ادب النضال الذي يعاصرها .

(١) الخلوق : الطيب .
(٢) طفل : جاء طفيليا . العوارض : ج عارض وهو جانب الراس والوجه .

وقال الأبِيَوْردي[1] الشاعر العربي العراقي في هذه الكارثة :

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضة للمراحم [2]
وشرّ سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبّتْ نارُها بالصوارم
فإيهاً بنى الإسلام إنّ وراءكم	وقائعَ يلحقن الذُّرا بالمَناسِم [3]
أتهويمة في ظلّ أمْنٍ وغبطة	وعيش" كنُوّار الخميلة ناعم [4]
وكيف تنام العين مِلْءَ جفونها	على هفوات أيقظت كلّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضْحِي مقيلهمْ	ظهورَ المَذاكي أو بطون القشاعم[5]
تسومُهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ	تجرّون ذيل الخفض فعل المُسالِمِ

---

(١) هو أبو المظفر محمد بن ابي العباس احمد الابيوردي ، يتصل نسبه بابي سفيان من بني امية ، كان من الأدباء المشهورين ، راوية نسّابة شاعرا ظريفا . قسم اشعاره إلى اقسام سماها العراقيات ، والنجديّات والوجديات. وقد شرح النجديّات عمر بن التوام المعروف بالنظّام تحت اسم « جهد المقل وجهد المستدل » وتوجد نسخة من الشرح في مكتبة القاهرة ، في ٣٥٦ صفحة كبيرة ، والعراقيات اكثرها في مدح المقتدر والظاهر . ومنها نسخة في باريز وايا صوفيا . والوجديات منها نسخة في برلين واكسفورد ومنشن ، طبع ديوانه في لبنان سنة ١٣٠٧ هـ . ومن آثاره ايضا « زاد الرفاق » في المحاضرات على غرار محاضرات الأصفهاني. ومنها مناظرات مع اصحاب النجوم ونقض لحججهم . منه نسخة في مكتبة القاهرة في ٧٣٠ صفحة . وله مؤلفات ضائعة في الطبقات والأنساب (ابن خلكان ص ١٢ ، جـ ٣) « عن تاريخ الأدب العربي لجرجي زيدان » .

(٢) السواجم : جـ ساجمة : منسكبة . المراحم : جـ مرحمة مكان الرحمة والرحمة نفسها ، وهناك رواية المراجم في « النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٠-١٥١ ».

(٣) المناسم : ج منسم وهو خف البعير .

(٤) التهويمة : جولة الطائر او النحلة في الهواء . النوّار : الزهر الأبيض . الخميلة : الشجر الملتف الناضر .

(٥) المقيل : النوم ظهرا مثل القيلولة . المذاكي : الخيل السّريعة الكريمة مفردها مذكية . القشاعم : النسور ، مفردها قشعم .

وكم من دماء قد أبيحتْ ومن دُمىً ... تُواري حياءً حسنَها بالمعاصمِ (١)
بحيث السيوفُ البيضُ محمرَّةُ الظُبا ... وسمرُ العَوالي دامياتُ اللهاذم (٢)
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظلُّ لها الولدانُ شيبَ القوادمِ (٣)
وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها ... ليسلمَ يقرعْ بعدها سنَّ نادم (٤)
سُلِلْن بأيدي المشركين قواضباً ... ستغمدُ منهمْ في الطُلا والجماجم (٥)
يكادُ لهنَّ المستجنّ بطيبةٍ ... ينادي بأعلى الصوت يا آلَ هاشمِ (٦)
أرى أمّتي لا يُشرعون إلى العِدا ... رماحَهُمُ والدينَ واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازمِ
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ... ويُغضي على ذلّ كُماةُ الأعاجم
فليتَهمُ إذْ لم يذودوا حميَّةً ... عن الدين ضَنّوا غَيرة بالمَحارم
وإنْ زهِدوا في الأجر إذْ حمِسَ الوغى ... فهلاّ أتوهُ رغبةً في الغنائم
لئنْ أذعنتْ تلك الخياشيمُ للبُرى ... فلا عطست إلاّ بأجدع راغم (٧)
دعوناكم والحرب تدعو مُلِحّةً ... إلينا بألحاظ النسور القَشاعِمِ
تُراقب فينا غارةً عربيّةً ... تُطيل عليها الرومُ عضّ الأباهِمِ

---

(١) الدمى : النساء الجميلات يشبهن بالتماثيل .

(٢) الظبا : ج ظباة وهي حد السيف . اللهاذم : ج لهذم وهو سنان الرمح .

(٣) القوادم ، في الأصل ج قادمة وهي الريشة الكبيرة في مقدمة جناح الطائر واراد بها هنا مقدّمات الرؤوس .

(٤) الغمار : الأمواج والمعارك التي تغمر خائضها ، المفرد غمرة .

(٥) الطلا : الأعناق .

(٦) المستجنّ : المختبىء وراء المجن وهو الترس . طيبة : المدينة المنورة .

(٧) الخياشيم : ج خيشوم وهو اعلى الأنف واراد به هنا جميعه . البُرى : الحلقات من المعدن توضع احداها في انف البعير او الأسير .

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رَمَيْنا إلى أعدائنا بالحَرائم [1]

« الكامل لابن الأثير حوادث ٤٩٢ هـ وتاريخ أبي الفداء السنة نفسها ، وفي ديوان الأبيوردي » [2] .

وبقيت مقاومة المسلمين للفرنجة الصليبيين شبه معدومة حتى ظهر عماد الدين زنكي وكان ذكيا شجاعا أبلى بلاءً حسنا في حروبه مع الفرنجة في بلاد الشام وتحدث الناس بشجاعته وكان يدعى بزنكي الشامي .

وقد ساءه تناحر الأمراء على السلطنة والإقطاعات ، وقال لبعض أصحابه : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير » (أبو شامة ، الروضتين جـ ١ ص ٢٩) . وترك البصرة ومدينة واسط اللتين كانتا بإمرته ، والتحق بخدمة السلطان محمود السلجوقي الذي وثق به فندبه ليتولى أمر بلاد الشام الممزّقة ، حين شعر بالخطر الذي يهددها بعد أن تمكن الفرنج من ديار الجزيرة والشام واستولوا على أكثرها من ماردين شمالا إلى عريش مصر جنوبا ، ما عدا بعض البلاد الباقية في حوزة المسلمين .

كتب السلطان محمود منشورا إلى الأقطار بتولية عماد الدين ، وبعث معه ابنه ألب أرسلان ، وجعل عماد الدين زنكي أتابكه أي الوصيّ عليه الذي يتولى شؤون الحكم عنه . فاقترن هذا اللقب « أتابك » بملوك الأسرة الزنكية كلّها السابقين واللاحقين .

ويظهر أنّ عماد الدين زنكي كان قد لقّب بالأتابكيّ من قبل حين كان في الموصل لأنه كان في الحقيقة أتابك ابن السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (ابن واصل ، مفرّج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٣) .

نظر الناس الى عماد الدين على أنه البطل الموعود لانقاذ بلاد الشام من

---

(١) الحرائم : ج حرمة . وهي هنا المراة ، وكل ما يجب على الإنسان صونه .

(٢) وذكر ابن تفري بردي (النجوم الزاهرة ص ١٥٠ — ١٥١) ان القاضي الهروي انشدها في بغداد مستنجدا بالخليفة وذكر انها تنسب للأبيوردي .

الصليبيين ، (راجع صدى الحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم ، المقدّمة ففيه حديث عنه وعن نور الدين) واستطاع أن يسترد منهم جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وحرّان ، وعبر الفرات ثم دخل حلب الشهباء فرحب أهلها بمقدمه ووصل اليه توقيع سلطاني بتوليته الموصل والجزيرة والشام وأضاف اليه سنة ٥٢٥ هـ العراق فعظم أمل الناس فيه •

رأى بثاقب فكره أن يوحد البلاد قبل منازلة الصليبيين في معركة حاسمة ، فهادن مؤقتا جوسلين صاحب الرها ريثما يُعدّ العدة ، ونازل صاحب دمشق مدّة ، ولكن رسل الخليفة جاءته تطلب نجدته على السلطان السلجوقي مسعود ، وتأمره بمصالحة صاحب دمشق •

(راجع في العمل للوحدة : خطط المقريزي ٢ : ٢٧٩ والروضتين ٢ : ١٧٧) •

أراد الصليبيون الذين كانوا يرقبون الأمور عن كثب أن يستغلوا التصدع بين الخلفاء والسلاطين والأمراء في بغداد وغيرها فيحصلوا على مكاسب جديدة في بلاد الشام ، فجمعوا صفوفهم لمنازلة عماد الدين ، ولكنه فاجأهم بالحرب وأخذ يطهّر البلاد منهم ، وحاصر قلعة « بارين » وأحسّ الفرنجة بالخطر المحدق بهم فتسلل القسُس والرهبان الى بلاد الروم والفرنجة ليستنصروهم على المسلمين ، وأقنعوهم بأن زنكي اذا استولى على حصن بارين ، فإنه سيستولي على جميع البلاد التي بحوزتهم ، وستنصرف همة المسلمين الى فتح بيت المقدس » • (الروضتين جـ ١ : ٢٨ — ٣٠) و (مفرّج الكروب ١ : ٣٠ — ٣٣) •

دارت رحى معركة قرب بارين وكان ملك بيت المقدس بين الصليبيين الذين فرّوا على أثرها ولجؤوا الى حصنها ، فشدّد عليهم عماد الدين الحصار فطلبوا منه الأمان وسلّموه الحصن ونَجَوْا بأنفسهم وكان عماد الدين يتابع فتوحه خلال الحصار ، فاستردّ منهم المعرّة وكفرطاب وغيرهما • وقد خلّد الشعراء هذا الفتح بكثير من القصائد ومنها قول ابن القيسراني [1] : (الروضتين ج ١ ص ٣٤) :

---

(١) ابن القيسراني : ولد في مدينة عكا سنة ٤٧٨هـ وتوفي سنة ٥٤٨هـ وكانت =

حذارِ منـا وأنّى ينفـع الحـذرُ ... وهْي الصوارمُ لا تُبقي ولا تـذر

وأين ينجو ملوكُ الشركُ من ملك ... مِن خيلِه النصرُ لا بل جندُه القدر

سلوا سيوفا كأغماد السيوف بهـا ... صالوا فما أغمدوا نصلاً ولا شهَروا

حتى اذا ما عمـادُ الدين أرهقهمْ ... في مـأزِق مِن سـناه يبرق البصر

ولَّوا تضيق بهم ذرعاً مسالكهمْ ... والموتُ لا ملْجـأٌ منه ولا وَزَر

وأصبح الـدين لا عيناً ولا أثـرا ... يَخاف ، والكفرُ لا عينٌ ولا أثَرُ

فلا تخَفْ بعدهـا الإفرنجَ قاطبةً ... فالقومُ ان نَفَروا ألوى بهم نَفَرُ

إن قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حُربوا ... أو طاردوا طُردواأو حاصروا حُصروا

وطالما استفحل الخطبُ البَهيمُ بهم ... حتـى أتـى ملِكٌ آراؤُه غُـرر

والسيفُ مفترعٌ أبكارَ أنفسـهمْ ... ومِن هُنالك قيل الصارمُ الذكَرُ

(أبو شامة الروضتين ١ : ٨٨ ــ ٨٩)

وهذه أبيات من قصيدة أبي الحسن أحمد المشـهور بابن منير الطرابلسي[1] منافس ابن القيسراني :

= سنه ٩ سنوات حين استولى الفرنجة على بلده فانتقل الشاعر مع اهله الى قيسارية الساحل واليها نسب ثم هاجر الى الداخل فاستقر بادىء الأمر في دمشق وتابع دراسته العلمية متنقلا كما كان يفعل أهل العلم في زمانـه واختلف مع آل طفتكين حكام دمشق فتوجه الى الملوك الزنكيين في حلب . عاصر الدولة الزنكية ونظم في اهم احداثها وكان يتنافس مع معاصره ابن منير الطرابلسي وكانا يشبهان بالفرزدق وجرير ، وكان هو المشبه بجرير لانه اسهل واغزر شعرا واقل صناعة من منافسه،مات الشاعر في دمشق . ولم يعرف له من اثر الا ديوانه ، ولم يصل الينا ، والا ديوان صغير آخر هو الثغريات اختاره من شعره واضاف اليه مقطعات في التشوق الى وطنه وفي المدح . ولقب الشاعر حين اشتهر بالعماد . (ابن خلكان : وفيـات الاعيان ٢ : ١٦) .

(١) ابن منير الطرابلسي : ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ هـ وتوفي في حلب سنة ٥٤٨ هـ كان معاصرا لابن القيسراني كما راينا ، نشأ في اسرة فقيرة واجمع

فـدتكَ الملـــوكُ وأيامُهـــا	ودام لنقضـــك إبرامُهـــا
وزلّـت لعيشـك أقدامُهـــا	وزال لبطشـــك إقدامهـــا
ولو لم تُسـلّم اليـك القلوبُ	هُداهـا لمـا صـحّ إسلامهـا
أيا محييَ العـدل لمّـا نعـاه	أيامَـى البرايـا وأيتامهـا
ومسـتنقذَ الـدين من أمّـة	أزال المحـاريبَ أصنامهـا
جـزرت جَزيرتهـا بالسـيو	ف حتـى تشاءمها شامهـا

(الروضتين ١ : ٣٥)

وقال ابن قسيم الحموي[1] في هذه المعركة: «الروضتين ١: ٣٢ والخريدة ١: ٤٧١»

= المتقدمون على انه كان متشيعا مغاليا . غادر وطنه بعد أن استولى عليه الفرنجة ودخل دمشق وحاكمها حينئذ تاج الملوك بوري بن طفتكين الذي سجنه لوشاية به . واتهم بالزندقة حين عاد الى دمشق مرة ثانية في عهد اسماعيل بن تاج الملوك .. قضى في حماة وشيزر مرحلة من حياته واتصل بنقيب الاشراف في بغداد ، لجأ الى هجاء الشعراء الآخرين ، وكتم شيعيته في آخر حياته ولجأ الى التقية ، اختار شيزر دار اقامة له وكان يتردد على حماة وعلى حلب يمدح الزنكيين وأمراءهم ، واستقر في حلب أخيرا وصور في شعره معارك المسلمين مع الصليبيين ، وانيط به عمل في خدمة نور الدين الذي جعله رسوله الى دمشق ليفاوض ملكها من آل طفتكين . له ديوان شعر مفقود . (السيوطي ،بغية الوعاة ٣ : ٩٧ ــ ٩٩) . وغيره .

(١) ابن قسيم الحموي : ولد بحماة سنة ٥٠٠ هـ وتوفي سنة ٥٤٢ هـ وذلك على التقريب . كان احد الشعراء الثلاثة الذين اشتهروا في عصره ومعه القيسراني وابن منير . نبغ في شيخوختهما وضاهاهما جودة شعر . درس الدين واللغة والادب وطارح الشعر ابن منير وغيره من شعراء عصره . كان متشيعا ، حسن الحال ، قانعا لم يكثر من الرحلة ، استنفد الغزل أكثر ديوانه ونبغ بين شعراء عصره حين مدح عماد الدين بعد انتصاره على ملك الروم أمام بارين بأحسن قصيدة قيلت حينئذ وهي التي بين أيدينا .

مدح نور الدين وتنبأ له بفتح انطاكية ومات الشاعر قبل سنتين من فتحها على يده :

وغـدا يكـون له بانطاكيـة	مشهور فتح في الزمان مبينه

أصيب الشاعر ببؤسى لا نعرف ما هي : =

بعزمــك ايهــا الملــك العظيــم — تــذل ّ لــك الصعــاب وتستقيم

ألــم تــر أن كلب الــروم لمّــا — تبيّــن أنّــك الملــك الرحيــم

فجــاء يطبّــق الفلــوات خيــلا — كــأن الجحفــلَ الليــلُ البهيــم

وقــد تَرِكُ الزمــانُ على رضــاه — فكــان لخطبــه الخطب الجسيم

فحــين رميتــه بــك في خميــس — تيقّــن أنّ ذلــك لا يــدوم

وأبصرَ في المُفاضــة منك جيشــا — فأحــزن لا يســير ولا يقيــم

كأنك في العجــاج شِهــابُ نور — توقّد ، وهــو شــيطانٌ رجيــم

أراد بقــاء مهجتــه فولّــى — وليس ســوى الحِمام لــه حَميم

يُؤمِّــلُ أن تجــود بهــا عليــه — وأنت بهــا وبالدنيــا كريــم

أيلتمس الفرنــجُ لديــك عفــواً — وأنت بقطــع دابرهــا زعيــم

وكم جرّعتَهــا غُصَصَ المنايــا — بيــوم فيــه يَكتهــل الفَطيــم

ولمــا أن طلبتهــمُ تمنّــى الــمنيّــة جوسلينُهــمُ اللئيــم

خلع في هذه الاثناء الخليفة الراشد واقيم مقامه المقتفي بالله واضطرّ عمادالدين الى ارسال قاضيه كمال الدين الشهرزوري ليبايع الخليفة الجديد .

خشي الفرنجة من مغبة معركة بارين وتداعوا وهبّ لمساعدتهم سنة ٥٣٢ هـ ملك الروم وفتح ما أمامه حتى وصل الى حماة ، فصمدت أمامه فتحوّل إلى حصن شيزر على مسافة قريبة منها فاستنجد صاحبها بعماد الدين الذي هبّ لنجدته ، وقد اجتمع عليه الروم والفرنجة فاستطاع عماد الدين أن يقهرهم بعد حصار دام أربعة وعشرين يوما استعملت فيه جميع انواع الاسلحة المعروفة حينئذ وأسر كثيرا منهم .

= لوكنت أعرف أن الدهر يعقبني — بؤسى لما اخترت أن تهدى لي النعم

له ديوان مفقود أورد العماد الكاتب في الخريدة أجود ما فيه ، وفيه بعض اللحن لأن الشاعر لم ينقحه . « ابن الأثير الكامل ١١ : ٢٤ » وغيره .

حاضر عماد الدين بعد هذا النصر دمشق سعيا وراء توحيد البلاد ضد الأعداء، ولكنّ ملكها الجديد مجير الدين آبق بن محمد ومدبّر أمور دولته معين الدين أنر راسلا الفرنجة مستعينين بهم عليه ومما جاء في مراسلة لهما :

« إنْ مَلَكَ دمشق يملك البيت المقدس ولا يترك لهم بلدا بالساحل » . فهبّ الفرنجة جميعا لنجدة ملك دمشق الخائن (في هذه الحادثة) ودارت الدائرة على عماد الدين ، ودخل معين الدين بانياس وقتل عامل عماد الدين عليها ، وسلّمها للفرنجة . وهكذا خان البلد والمبدأ في سبيل العرش .

أخذ جوسلين صاحب الرها يهدد شمال الشام ومد غاراته الى آمد ورأس العين والرقة ونصيبين واستولى على البيرة وسروج ، ولكنّ هزيمة عماد الدين في دمشق لم تضعف عزيمته وصمم على تطهير البلاد من الفرنجة وفتح الرها بخاصة لانها كانت عندهم تلي مباشرة في القداسة القدس وأنطاكية وروما والقسطنطينية . فاستولى عليها عنوة بعد أن حاصرها ثمانية وعشرين يوما ، ثم حرر بعدها الجزيرة وشمال الشام [1] . ومما قال ابن القيسراني في هذا الفتح:

هو السيف لا يُغنيك الا جِلادُهُ	وهل طوّق الأملاكَ إلاّ نِجادُهُ
وعن ثغر هذا النصر فلْتأخذ الظُبا	سناها وان فات العيونَ اتّقادُه
سمت قبة الاسلام فخراً بطَوْله	ولم يكُ يسمو الدينُ لولا عِماده
وذاد قسيمُ الدولة ابنُ قسيمها	عن الله مالا يُستطاع ذِياده

(١) « الروضتين ١ : ٣٦ — ٣٧ ومفرج الكروب ١ : ٩٤ ، والكامل لابن الاثير ١١ : ٣٨ » . ويحمد لعماد الدين حين فتح الرها انه راى جمال بنيانها وتقدم حضارتها فامر بان يرد جنده الى اهلها جميع ما سلبوه ومن اسروه ومن سبوهن من النساء ، واستصدر حكما من الفقهاء بذلك مستمدا من تعاليم الاسلام ولم يعامل اهل المدينة المسيحيين كما عامل الصليبيون اهل القدس المسلمين حين فتحها . وقد سن بذلك سنة حسنة اسلامية انسانية لمن بعده .

ليهنِ بني الإيمانِ أمنٌ ترفعتْ ... رواسيه عزماً واطمأنَّ مِهادُه
وفتحٌ حديث في السماع حديثُه ... شهيٌّ إلى يوم المَعاد مَعادُه
لقد كان في فتح الرُّهاء دَلالة ... على غير ما عند العُلوج اعتقاده
مدينة إفك منذ خمسين حِجةً ... يفلّ حديد الهند عنها حِدادُه
وجامحةٍ عزَّ الملوكَ قِيادُها ... الى أن ثناها من يعزّ قِيادُه
فأضرمها نارين حرباً وخدعة ... فما راع الا سورُها وانهداده
فصدّت صُدود البِكر عند افتضاضها ... وهيهاتَ كان السيفَ حتماً سِفادُه
فيا ظفراً عمّ البلادَ صلاحُه ... بمن كان قد عمّ البلادَ فسادُه
فلا مِنبرٌ الا ترنّح عودُه ... ولا مصحف الا أنار مِدادُه
الى أين يا أسرى الضلالة بعده ... لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشاده
رويدَكمُ لا مانعٌ من مظفّر ... يعاند أسبابَ القضاء عنادُه
وقلْ لملوك الكفر تُسلِم بعدها ... ممالكَها إنّ البلاد بلادُه
ولله عزمٌ ماءُ سيحانَ وِردُه ... وروضةُ قسطنطينية مُستراده

(الخريدة للعماد الكاتب ج ١ ق ١ ، ١٥٤ ــ ١٥٥) وأبو شامة ، (الروضتين ١ ق ١ ص ٩٦) .

ومما قاله ابن منير في هذا الفتح :

وما يوم كلب الروم إلا اخو الذي ... أزحتَ به ما في الجَناحين من نَبْل
أتاك بمثل الروم حشداً وانه ... لَيفضُل أضعافاً كثيرا عن الرمل
فقاتلتَه بالله ثم بعزمة ... تصُكّ قلوب العاشقين بما يُسلي
توهمَ أن الشام مرعي ومادرى ... بأنك أمضى منه في الشَّزْر والسَّحْل[1]
فطار وخيرُ المَغنَميْن ذماؤُه[2] ... إذا رُدَّ عنه مغنمُ المال والأهل

---

(١) الشزر : شدة فتل الحبل . والسحل : عدم فتله حين النسج .

(٢) الذماء : بقية الروح .

اغتيال عماد الدين ورثاؤه :

حاول عماد الدين بعد ظفره أن يوحّد البلاد فاتجه الى قلعة جعبر وقلعة « فنك » وحاصرهما ، وهاجمه خلال ذلك ، وهو نائم ، جماعة من خدّامه على رأسهم غلام افرنجي اسمه (برتقش) فطعنه وفرّ مع جماعته الى قلعة جعبر ، وتوفي عماد الدين إثرَ ذلك وحمل الى الرّقة ودفن في صِفّين . « الروضتين ١ : ٣٦ ـ ٣٧ ومفرّج الكروب ١ : ٩٤ والكامل لابن الأثير ١١ : ٣٨ » .

لقد أعاد عماد الدين الأمل بالنصر الى الناس واستطاع أن يوحّد قسما كبيرا من البلاد ، وأن ينتصر على الفرنجة في كثير من المواقع ووطّد الأمن ونشر العدل وقضى على الفساد فلا عجب ان يسعى الفرنجة الى اغتياله بعد أن أعجزهم القضاء عليه في ساحة الحرب ، فلقد أثبت أنّ من الممكن هزيمتهم ، بعد أن اعتقدوا أنهم لا يُهزَمون ، وظنّ أهل البلاد مثل ظنّهم خطأً واستسلاما وتشاؤما .

وقد بكاه الشعراء بعدة مراثي ومن ذلك قول أبي الحكيم المغربي : « الروضتين ١ : ٤٦ »

عينُ لا تذخري المدامع وابكي   واستهلّي دماً على فقد زنكي
لم يهَب شخصَه الردى بعد أن كا   نت له هيبة على كل تركي
إنّ دارا تمدّنا بالرزايا   هي عندي أحقّ دار بتَرك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد   وانضحوه بزعفران ومسك
كلّ خطب أتت به نُوَب الدهـ   ـر يسير" في جَنْب مصرع زنكي
بعد ما كاد أن تَدينَ له الرو   مُ ويحوي البلادَ من غير شك

ورثاه الرئيس أبو يعلى التميمي بقصيدة منها : « الروضتين ١ : ٤٥ » :

كذاك عمادُ الدين زنكي تناثرت   سعادتُه عنه وخرّت دعائمُه
وكم بيتِ مال من نُضار وجوهر   وأنواعِ ديباج حوتها مَخاتمه

ومِن صافنات ِ الخيل كلُّ مطهَّم ... يروع الأعـادي حليـه ُ وبَراجمه
وكم معقِـل قـد رامـه بسيوفه ... وشـامخ حُصن لـم تفتّه غنائمه
ودانت ولاة ُ الأرض فيهـا لأمره ... وقـد أمّنتهـم كتْبُـه وخواتمه
وأصبح سـلطانَ البـلاد بسـيفه ... وليس لـه فيهـا نظـيرٌ يزاحمه
فلمـا تنـاهى مُلْكُه وجِـلاده ... وراعت ولاة َ الارض منها لَوائمُه
أتـاه قضـاء لا تـُرَدُّ سـهامه ... فلـم تُنجـه أموالـه ومَغـانمه
وأضحى على ظهر الفراش مجـدّلا ... صريعـا تولّى ذبحَه فيـه خادمه
وقد كان في الجيش اللهام مَبيتُه ... ومِـن حولـه أبطالـه وصوارمه
وسـمرُ العوالي حولـه بأكفّهم ... تذودُ الردى عنه وقـد نـام نائمه
وكـم رام في الأيّام راحـة َ سرّه ... وهمّتُه تعلـو وتقـوى شكائمه
وكم ثغـر ِ إسلام حـواه بسـيفه ... من الروم لمـا أدركتـه مَـراحمه
فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالما ... اذا ما أتـاه الأمـرُ واللهُ حـاتمه
ومَن رام صفواً في الحياة فما يُرى ... له صفوُ عيش والحِمام يُحـاومه
فإيّاك لا تغبـِطْ مَليكـا بُملكه ... ودعه فإنّ الدهر لا شكّ قاصِمه
وقُلْ للذي يَبني الحُصونَ لحفظه ... رُوَيْدَكَ ما تبني فدهرُكَ هادمه

قال المؤرخ ابو شامة في موته (الروضتين ج ١ ص ٤٢) :

« فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل ، فأي نجم للاسلام قد أفـل وأي ناصر للايمان رحل ، وأي أسد افترس ، ولم تنجه قُلة حصن ولا صهوة فرس ، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أدبها في حفظه وحراسته ، فأتاه مبيد الامم ومهينها في الحدث والقدم ، فأصـاره ، بعد القهر للخلائق ، مقهورا ، وبعـد وثير المضاجع في التراب معفّرا مقبورا » .

وهذا النثر على صناعته خير من الشعر الذي سبقه .

خلف نور الدين محمود أباه في الشام • وقد ولد سنة ٥١١ هـ ولم يكن ابن عماد الدين الاكبر ، ولكنه كان مع أبيه حين قتل ، فأخذ خاتمه وتوجّه الى حلب وتملكها بمساعدة أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين الايوبي • وقد نصحه هذا بالاستيلاء عليها ، لأن مُلْك الشام يحصل بحلب ، ولأن من ملك حلب يستظهر على بلاد الشرق (أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٤٣ ،٤٧) وتملّك أخوه الأكبر سيف الدين غازي المَوْصل وانشطرت بذلك الدولة وكادت تقع الحرب بين الأخَوَيْن ولكنهما تلاقيا خارج معسكريهما وتصافيا وعاد نور الدين الى خدمة أخيه ، فعادت الدولة واحدة • ومما قال له أخوه: « لا غرض لي في مقامك عندي وإنّما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا » (ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ص ٤٣) وقد برهن هو وأخوه بذلك على إخلاص وبعد نظر [1] •

وقد استطاع نور الدين أن يقضي بسرعة على عصيان قام في الرها ، وخاف الغرب من خطره فأرسل حملة صليبية ثانية سنة ٥٤٣ هـ فنازلها نور الدين وهي بقيادة ملك الألمان كونراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع ، وخاف معين الدين أنر مدبّر أمور الدولة في دمشق بعد تآمره مع الفرنجة من بطش نور الدين ، فاستنجد بأخيه سيف الدين غازي • والمهمّ أن هذه الحملة خابت وعاد ملك الألمان ومن معه خائبين الى بلادهم • (ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١١١ — ١١٣ و ١٢٥) و (الروضتين ١ : ٩٤ و ٥٢ — ٥٣) •

ثم سار نور الدين الى حصن حارم وكان بيد الفرنجة ، ثم سار الى حصن إنّب وانتصر عليهم في موقعة هائلة انتهت بقتل البرنس صاحب انطاكية سنة ٥٤٤ هـ

---

(١) كان نور الدين مثاليا في حكمه زاهدا عابدا ياكل من كسب يده ومن حصته في الغنائم ، ولم يات بعد عمر بن عبد العزيز رجل مثله • وقد اشتهر بفروسيته واستعداده الدائم للحرب : « نحن كل يوم في النفير » « مفرّج الكروب ١ : ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ » •

وحمل رأسه الى حلب • وقد أكثر الشعراء من مدحه وتهنئته بهذا الفتح ومنهم ابن القيسراني • ومن قوله في قصيدة عارض فيها بائية أبي تمام :

هـذي العزائـم لا ما تدعّي القضب ... وذي المكـارم لا مـا قـالت الكتب
وهـذه الهمـم اللاتي متـى خطبت ... تعثـرت خلفهـا الأشـعار والخطب
لله عزمـك مـا أمضى وهمّك مـا ... أقصى اتّساعا بما ضاقت به الحِقَب
أغرت سيوفَك بالافرنـج راجفـةٌ ... فـؤادُ روميّةَ الكبرى لهـا يَجِب
ضـربت كبشَهـمُ منهـا بقاصمـة ... أودى بها الصلبُ وانحطّت بها الصلُب
مـا يوم « آ نُب » والأيـامُ دائلة ... من يوم(يَغْرا)[1] بعيداً لا ولا كَثَب
غضبتَ للدّين حتى لم يفتْك رضا ... وكان دينُ الهدى مَرضاته الغضب
طهّرت أرضَ الأعـادي من دمائهـم ... طهارةً كلُّ سيف عندهـا جُنُب[2]
حتى اسـتطار شرارَ الزنـد قادحُه ... فالحرب تُضْرَم والآجـال تُحتطَب
والسـيف هـامَ على هـامٍ بمعركة ... لا البَيْضُ ذو ذمّة فيها ولااليَلَب[3]
والنبـلُ كالوَبْل هطّال وليس لـه ... سوى القِسيّ وأيْدٍ فوقَها سحُب
وللظّبـا ظفَـرٌ حلـو مذاقتـه ... كأنمـا الضرْب فيمـا بينهم ضرَب
وللأسـنّة عمّـا في صدورِ هـمِ ... مَصـادر أقلـوبٌ تلـك أم قلُب
أجسادُهـم في ثيـاب مِن دمائهـمِ ... مسلوبةٌ وكـأنَّ القومَ مـا سُلبوا
أنبـاء ملحمـة لـو أنهـا ذُكـرتْ ... فيمـا مضى نسيت أيامَهـا العـربُ
من كـان يغزو بلاد الروم مكتسـبا ... من الملوك فنور الدين مُحتسِب[4]

(١) يوم يغرا معركة انهزم فيها نور الدين .

(٢) اي ان كل سيف من سيوف جنودك اصطبغ بدم الأعداء . والصورة مستمدة من علاقة الرجل بالمراة .

(٣) هام : حام . الهام : ج هامة وهي الراس . البيض هنا ج بيضة وهي الخوذة والمغفر . واليلب : الدروع تصنع من الجلد وغيره .

(٤) محتسب : اي يترك لله حسابه ومكافاته ولا يرجو نفعا عاجلا .

أفعالُـه كاسـمه في كـل حادثـة ووجهُـه نائبٌ عـن وصفـه اللقب

في كل يـوم لفكـري مِن وقائعـه شـغل فكـلٌ مديحي فيـه مقتضَب

من باتت الأُسْد أسرى في سلاسـله هـل يأسر الغُلْب الا من له الغلَب[1]

فملّكوا سلَب الإبرنسِ قاتِلَـه وهـل لـه غيرَ انطاكيـة سـلَب

عجبتُ للصَّعـدة السـمراء مثمِرة برأسه إنّ اثمـارَ القَنـا عجَب [2]

اذا القنـاةُ ابتغت في رأسـه نفَقـا بدا لثَعْلبهـا مِن نحـره سَرَب [3]

❋ ❋ ❋

كنـا نَعـدّ حِمـى أطرافنا ظفـرا فملّكتك الظُبـا مـا ليس نحتسب

عمّت فتوحُك بالعـدوى مَعاقلهـا كـأنّ تسليمَ هـذا عنـد ذا جرَب

لم يَبْقَ منهـا سوى بِيض بلا رمَق كمـا التوى بعـد رأس الحية الذنب

❋ ❋ ❋

فانهض الىالمسجد الأقصى بذى لَجَب يُوليك أقصى المُنى فالقدسُ مرتقِب

وأْذن لموجِـك في تطهـير سـاحله فانمـا أنت بحـرٌ لُجُّـه لَجِب

يامن أعـاد ثُغـور الشـام ضاحكةً من الظُبـا عن ثغور زانهـا الشنَبُ

مـازلتَ تُلحـق عاصيهـا بطائعهـا حتـى أقمـتَ وأنطاكيَّـةٌ حلـب

فاسعدْ بمـا نلتَه من كلّ صـالحة يـأوي إلى جنّة المـأوى لها حسب

وقـد استولى الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ على عسقلان وفي سنة ٥٥٣ أرسـل

---

(١) الغلْب : ج اغلب وهو الأسد القوي الغليظ العنق . والغلَب : الفوز .

(٢) الصعدة : الرمح الطويل .

(٣) ثعلب الرمح : سنانه . والسرَب : السرداب والطريق .

الملك الصالح طلائع بن رزيك[1] منْ مصر حملة في البر وأخرى في البحر فاستطاع المسلمون أن يهزموا الفرنجة هزيمة منكرة وهم بقيادة أموري صاحب عسقلان ، وقـد كتب طلائع بذلك شعرا الى صديقه أسامة بن منقـذ يطلب منه ان يحرض نور الدين على قتال الفرنجة وتوحيد الجهود مع مصر ومنه :

ألا هكـذا في الله تمضي العزائمُ ... وتنضَى لدى الحرب السيوفُ الصوارمُ
وتُستنزَل الاعداءُ من طول عزّهمْ ... وليس سوى سُمْر الرماح سلالم
وتغزَى جيوش الكفر في عُقْر دارها ... ويوطَا حِماهـا والأنـوفُ رواغم
ويُوفي الكرامُ الناذرون بنذرهمْ ... وان بُذِلتْ فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسيرَ الجيش في صفَرٍ فما انْ ... ثنى نصفُه حتى اثنى وهو غـانم
بعثناه من مِصرٍ الى الشام قاطعـا ... مَفاوِزَ وخدُ العيس فيهنّ دائم
فمـا هـاله بعدُ الديـار ولا ثنى ... عزيمتَه جَهد الظما والسَّمائم [2]
يُهجِّر والعصفورُ في قعـر وكره ... ويسري الى الأعـداء والليلُ نائم

---

(1) الملك الصالح طلائع بن رزيك :
هو أرمني لقب بأبي الغارات لكثرة غاراته على الصليبيين ، عصامي يعـدّ من الملوك . أصله من الشيعة الإمامية في العراق ، جاء مصر فقيرا وما زال يرقى في الخدم حتى ولي منية بني خصيب في الصعيد ، ولما قتل الخليفة الظاهر استنجد به أهل القصر فدخل القاهرة على راس قوة وولّى الخليفة الفائز بنصر الله سنة ٥٤٩ هـ ، واسـتقل بامور الدولة ونـعت بفـارس المسلمين نصير الدين . ولما ولي العاضد بعد الفائز سـنة ٥٥٥ هـ تزوج بنت طلائع الذي استمر في الوزارة حتى دَسّ له العاضد من قتله تخلّصا من سيطرته . كان شجاعا لا يفتر عن غزو الفرنجة في البر والبحر صادق العزيمة شاعرا عارفا بالأدب ، له ديوان شعر في جزءين واكثره في مـدح آل البيت ، وله كتاب باسم « الاجتهاد في الرد على أهل الفساد » يقـرر فيه قواعد التشيّع . ترجم له العماد في شعراء مصر « من الخريدة ج ١ : ص ١٧٣ . وترجم له في الاعلام للزركلي ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وشذرات الذهب ج ٤ : ص ١٧٧ ، والنجوم الزاهرة في عدّة اماكن من الجزء الخامس .

(2) السمائم : ج سموم وهي الريح الحارة المشهورة .

يُباري خيـولا مـا تزال كأنهـا … اذا ما هي انقضّت نسورٌ قشاعـم

يسير بها (ضِرغام) في كل (مأزِق) … وما يصحب الضرغامَ إلاّ الضراغم

ورفقتُه (عينُ الزمان) و (حاتَمٌ) … و (يحيى) وإن لاقى المنيةَ حاتم[1]

وواجَهَهـمْ جمعُ الفرنج بحملة … يهونُ على الشجعان فيهـا الهزائم

فلقّوهمُ زرْقَ الأسنّة وانطَوواْ … عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم [2]

وما زالت الحربُ العَوانُ أشدُّها … إذا ما تلاقى العسكر المتضاجِم [3]

يشبّههـمْ من لاح جمعُهـمُ لـه … بلُجـةِ بحر موجُهـا متلاطِـمُ

وعادوا الى حزّ السيوفِ وقُطّـِعتْ … رؤوسٌ وخرّت للفرنج غلاصم[4]

فلم ينجُ منهـم يوم ذاك مخبّـر … ولا قِيل هذا وحده اليومَ سـالم

نقتّلهـم بالرأي طـورا وتـارةً … يدوسُهم منا المَذاكي الصَّلادم [5]

فقولـوا لنور الدين لافُلّ حـده … ولا حكمت فيه الليالي الغواشـم

تجهّزْ الى أرض العـدو ولا تهِنْ … وتُظهرْ فتورا انمضتمنكحارم[6]

فما مثلُها تبدي احتفـالا بـه ولا … يُعضّ عليهـا للملـوك الأباهـم

فعندكَ مِن ألطـاف ربّـِك ما بـه … عِلمنـا يَقينـاً أنه بـك راحـم

أعادك حيّـا بعد أن زعـم الورى … بأنك ة،. لا قيتَ مـا اللهُ حـاتِم

---

(1) ضرغام ، وعين الزمان ، وحاتم ، ويحيى . اسماء قوّاد هـذه الحملـة ، وراسهم ضرغام .

(2) ناجم : ظاهر ، انسان حي . من نجم النبات اذا ظهر ونما .

(3) المتضاجم : المتعارك (حتى بالاسنان) من ضجمه الأسد اذا نهشه .

(4) الغلاصم في الأصل للأسماك وشبه بها الآذان والأعناق .

(5) المذاكي : الخيل الكريمة السريعة (سبقت) . الصلادم : القوية ج صلدم .

(6) يشير الى خسارة نور الدين « حارم » في معركة مع الفرنجة . وقد كـاد يقع فيها نور الدين بالأسر ولكنه نجا ثم انتصر .

بوقت أصاب الارض ما قد أصابها	وحلت بها تلك الدواهي العظائم
وخيَّم جيشُ الكفر في أرض شيزرٍ	فسيقت سبايا واستُحلّت مَحارم
وقد كان تاريخُ الشآم وهلكُه	ومَن يحتويه أنه لك عادم
فقم واشكرِ الله الكريمَ بنهضة	إليهم فشكرُ الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدتَ نَرُوعهم	ونحلِفُ جَهدا أننا لانسالم
وغاراتُنا ليست تفتَّرُ عنهمُ	وليس يُنجّي القومَ منا الهزائم
فأسطولُنا أضعافُ ما كان سائرا	إليهم فلا حِصنٌ لهم منه عاصم
ونرجو بأن يُجتاحَ باقيهمُ به	وتُحوَى الأَسارى منهمُ والمَغانم

« ديوان أسامة ص ٢٧٢ »

أراد نور الدين غزو الكرك فأرسل الى صلاح الدين ، قائده في مصر ، يطلب منه موافاته إليها ، فاعتذر عن ذلك بأن الامور لم تستتبّ له بمصر فلا يستطيع أن يفارقها ، فصرف نور الدين نظره عن حصار الكرك ، وارتدّ غاضبا .

ويظهر أن نور الدين خشي من استقلال صلاح الدين بمصر ومن عودة البلاد الى الفرقة ، وأن صلاح الدين خاف أن يصرفه نور الدين عن ولايتها .

وفكر نور الدين في التوجه الى مصر ، وأشار أهل صلاح الدين وسائر الامراء عليه بحربه اذا شاء المجيء ، ولكن والده نجم الدين أيوب خالفهم جميعا ، في الظاهر وطلب من ابنه الإذعان لأمر نور الدين ونصحه سرّا باستعمال الحيلة .

وحلّ هذه المشكلة موت نور الدين بعلة الخوانيق سنة ٥٦٩ هـ (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٧) [(١)] . فصفا الأمر لصلاح الدين .

وقد حزن الناس جميعا لموت نور الدين وأكثر الشعراء من المراثي فيه . وقد رثاه العماد الأصفهاني [(٢)] بقصيدة منها قوله :

---

(١) راجع أيضا الروضتين لأبي شامة ، ففيه تفصيلات لم يذكرها ابن شدّاد .

(٢) هو ابو عبد الله محمد بن ابي الفرج محمد بن حامد . شهر بلقبه « العماد

الديـن في ظُلَـم لغيبـة نُوره والدهـر في غَـمٍّ لفقـد أميرِهِ

فلْيندُب الإسـلامُ حـاميَ أهله والشامُ حافظَ مُلكـه وثغـوره

ما أكثَـر المتأسـفين لفقـد من قرّت نواظرُهـم بفقـد نظـيره

ما أغوصَ الإنسـانَ في نِسـيانه أوَ ما كَفـاه المـوتُ في تذكيره

مَن للمسـاجد والمـدارس بانيـاً لله طوعـا مـن خُلوص ضمـيره

من ينصر الإسـلامَ في غزَواتـه فلقـد اُصيب بركنـه وظهـيره

مَن للفرنـج ومن لأسـر ملوكهـا من للهُدى يبغـي فكـاكَ أسيره

مَن للخطـوب مذِلـّلا لجِماحهـا مـن للزمـان مسهِـّلا لوعـوره

مـن للكريم ومـن لنعش عثـاره مـن لليتيم ومـن لجبر كسـيره

من للبـلاد ومن لنصر جيوشهـا من للجهـاد ومن لِحفظِ أمـوره

مـن للفتـوح محـاولا أبكـارها برواحـه في غَـدْوه وبكـوره

ما كنت أحسـب نورَ دين محمـد يخبو وليـلُ الشرك في ديجـوره

الكاتب الاصبهاني » ولد باصبهان ونشأ بها . تنقل في عدة بلدان ثم رتبه نور الدين زنكي في ديوانه منشئا سنة ٥٦٣ هـ ثم مشرفا سنة ٥٦٨ هـ ولما مات نور الدين حزن عليه اشد الحزن فهو يقول : « ولما توفي نور الدين اختلّ أمري واعتلّ سري . وعلت حسّادي وبلغ مرادهم اضدادي » . ثم اتصل الودّ بينه وبين القاضي الفاضل فسعى له هذا لدى السلطان صلاح الدين فعيّنه كاتبا له في دمشق اذا غاب القاضي الفاضل بمصر ، وسجّل في رسائله ، كالقاضي الفاضل ، حروب صلاح الدين واقام في مصر مدة وصفت له الحياة فيها ثم غادرها الى الشام ولزم خدمة صلاح الدين فيها . ويظهر انه كان يشرب ويطرب ثم أقلع عن ذلك استحياء من القاضي الفاضل . وبعد تولي الأفضل بن صلاح الدين في المرّة الثانية اعتزله العماد ، لان المكانة الاولى صارت لابن الأثير . توفي العماد سنة ٥٩٧ هـ . اشتهر برسائله . ومن كتبه : «خريدة القصر في شعراء العصر» و « الفتح القدسي » . وشعره متوسط لا يبلغ حدّ الجودة وان اعجب به بعض معاصريه .

أعـزِزْ علـيّ بأن أراه مغيّبـا ... عن محفِـل متشرّف بحضـوره
لهفي علـى تلـك الأنامل إنّهـا ... مذ غُيّبت غاضَ الندى بنحـوره
ولقد أتى من كنتَ تجري رسمَه ... فضع العَلامة منـك في منشوره
ولقـد أتى من كنت تؤمِنُ سربه ... وقعْ لـه بالأمن مـن محـذوره
والجيشُ قد ركب الغداة لعَرْضه ... فـاركب أتبصـرُه أوانَ عبـوره
أنت الـذي أحييتَ شرع محمـد ... وقضيتَ بعـد وفاتـه بنشـوره
كم قد أقمتَ من الشريعة مَعْلَمـا ... هو منـذ غبت معرَّضٌ لدثـوره
كم قد أمرتَ بحفر خَندقِ مَعقِل ... حتى سكنتَ اللحـد في محفوره
كـم قيصرٍ للـروم رمتَ بقسره ... إرواءَ بيضِ الهند من تامـوره(1)
أوتيتَ فتح حصونه وملكتَ عُقْر ... بـلاده وسـبيتَ أهـل قصوره
أزهدتَ في دار الفنـاء وأهلهـا ... ورغبت في الخلـد المُقيم وحوره
أوَما وعدتَ القدس أنّك منجـز ... ميعـادَه في فتحـه وطَهـوره
فمتى تجير القدسَ مِن دنَس العِدا ... وتقـدّس الرحمـن في تطهـيره
يا حاملـين سريـرَه مهـلاً فمن ... عجَبٍ نهوضُكم بحمل ثَبيره (2)
يـا عابريـن بنعشـه أنشـقتم ... من صـالح الاعمـال نشرَ عبيره
نـزلتْ ملائكةُ السـماء لـدفنه ... مسـتجمعين على شَـفير حريـره
ومِن الجفـاء له مُقـامي بعـده ... هلاّ وفيتُ وسرتُ عنـد مَسيره
حيّـاكَ معتلُّ الصَّبـا بنسـيمه ... وسقـاك مُنهلُّ الحَيـا بدَروره
ولبستَ رِضوانَ المهيمنِ ساحباً ... أذيـالَ سُنْدُس خزّه وحريـره

---

(1) التامور : القلب .

(2) ثبير : جبل عظيم .

وسكنتَ علّيين في فردوسه حلفَ المسرّة ظافرا بأجوره

« أبو شامة ، الروضتين ١ : ٢٤٤ — ٢٤٥ »

وقد قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية في مصر وهو والٍ عليها لنور الدين ، فقال عمارة اليمني [1] يرثيها :

رميتَ يادهر كفّ المجد بالشلل	وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فإن	قدرت من عثرات الرأي فاستقل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	سُقيتَ مُهْلا أما تمشي على مَهَل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة	على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمتُ مصرَ فأولتني خلائفها	من المكارم ما أربى على الأمل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم	ولا نجا من عذاب النار غير ولي
عمارة قالها المسكين وهو على	خوف من القتل لا خوف من الزلل

ويُرى في هذه الأبيات المختارة من قصيدة طويلة شدّة نقمة الشاعر على الدهر وعلى صلاح الدين لأنهما أزالا هذه الدولة التي كانت مصدر نعمته ، واصراره على تأييدها وشعوره بالخطر المحدق به من جرّاء ذلك ، كما يرى حسرته عليها واعترافه بجميلها . « الروضتين جـ ١ ، ص ٢٢٣ » .

---

(١) شاعر جاء من اليمن سفيراً لصاحبها لدى الخلفاء الفاطميين في مصر وكان سنّيا ولكنه مدحهم ونال هباتهم وايّد دولتهم ، ثم حاول التقرب من صلاح الدين فلم يحظ عنده ثم تآمر عليه لارجاع الدولة الفاطمية فعوقب مع غيره بالإعدام .

٢ ـ العهد الأيوبي ..

استولى صلاح الدين على دمشق ليعيد للبلاد وحدتها بعـد موت نور الدين واختلاف أمرائه ، وتسلم قلعتها وفرق ما فيها من الكنوز والاموال على الناس تألّفا لقلوبهم وطلب من الخليفة العباسي تقليدا يقرّه على ما بيده ، وذكر له تشتت البلاد شيَعا وأحزابا واستقلال كل أمير ببلده ، ومنّاه بفتح بيت المقدس وإلاّ اتسـع الخرْق على الراقع .

وأعلمه أنه قدم لإصلاح أحوال الشـام من كفلة ابن نور الدين المغلوب على أمره ، وأشار الى رغبته في أن يتضمن التقليد [١] شموله لمن يقيمه بعده من أخ أو ولد (ابن واصل جـ ٢ : ١١٥ ــ ١١٧) .

وصـل تقليد الخليفة اليه ، وحلب لا تزا ل فيأيدي المتسلطين على الصـالح اسماعيل ولم يوحّد بعد جميع الشام فأجّل التوجه الى حلب لوقت أفضل وعاد الى القاهرة فاغتنم حاكم الموصل رحيله ، فكاتب الفرنجة ليشغله بهم عن قصـده الى توحيد البلاد [٢] ، فرأى صلاح الدين أن يعود ليقضي على معارضيه ووصل الى البيرة سنة ٥٧٨ هـ ، وكاتب ملوك الأطراف بأنه منجاء منهم مستسلما سـلمت له بلاده على أن يكون من جنود السلطان في جهاد الأعداء . (ابن واصل جـ ٢ : ١١٥ ــ ١١٧) .

ونازل جند حلب بعد ذلك ثم رأى حقن دماء المسلمين فرحل عنها ، ثمّ اتفق مع صاحبها عمـاد الدين على أن يعطيه سنجـار مكانها ، ثم زاده عليها الخـابور ونصيبين وسروج والرقّة . وبذلـك دانت لصلاح الدين بلاد الشام كلهـا فألغى

---

(١) التقليد ، في لغـة ذلك العصر ، مرسوم التعيين الصادر عن الخليفـة أو السلطان .

(٢) تصرّف هذا الحاكم حينئذ مثال على خيانة ذوي السلطان للأمة في سبيل كراسيهم وعروشهم وأطماعهم .

المكوس والضرائب ووزّع الاموال على أهلها كما فعل في دمشق ، (المرجع السابق نفسه) .

وجلس ليهنئه النـاس فمدحه الشعراء بقصائد كثيرة منهـا قول ابن سناء الملك * :

بدولـة الترك عزّت دولـة العرب ... وبابن أيوب ذلّت بِيعة الصلُب

جليسـةُ النجـم في أعلى مراتبه ... وطالمـا غاب عنهـا وهي لم تِغب

ومانعتـه كمعشـوق تمنّعـه ... أحلى من الشهد أو أشهى من الضرَب[1]

فمـرّ عنهـا بلا غيظ ولا حنَـق ... وسار عنهـا بلا حقـد ولا غضب

تطـوي البـلاد وأهليهـا كتائبهُ ... طيّا كمـا طوت الكتّابُ للكتب

أرضُ الجزيرة لـم تظفر ممالكهـا ... بمالـك فطِـن أو سـائس درِب

ممالـك لـم يدبّرهـا مدبّرهـا ... الا برأي خصيّ أو بعقـل صبـي

---

* ابن سناء الملك :
هو القاضي هبة الله بن القاضي جعفر بن سـناء المـلك المصري . ولقب بالسعيد . عاصر صلاح الدين ومدحه وتوفي سنة ٦٠٨هـ . كان من الرؤساء النبلاء ، وكان واسطة العقد في المجالس الادبية التي كان يعقدها الشعراء في أيامه ، وكان يجري فيها مفاكهات ومحاورات لطيفة . كان منشئا حسن الإنشاء على طريقة ذلك العهد . وهو أول من استكثر من الموشّحات وأجاد فيها من المشارقة .
ومن آثاره دار الطراز في عمل الموشـحات وقد طبع في دمشـق سنة ١٩٤٩ بتحقيق الدكتور جودة الركابي . ومن شعره قصيدته المشهورة في الفخر ومطلعها :

سواي يهاب الموت او يرهب الردى ... وغيري يهوى ان يعيش مخلّدا

ومن آثاره أيضا كتاب « فصوص الفصول وعقود العقول » وهو مجموعة شعر ونثر ومراسلات اكثرها للقاضي الفاضل يمدح فيها ابن سناء الملك وأباه وجدّه ، وقد صدّرها ابن سناء الملك بمقدمة يفخر فيها بهذا المدح . (له ترجمة في ابن خلكان ج ٢ ص : ١٨٨) .

(١) الضرَب : العسل .

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت ... من الفساد كما صحّت من الوصَب[1]
وقد رأت صدّه عن ربعها حلب ... ووصله لبلاد الغير بالحلَب[2]
غارت عليه ومدّت كف مفتقر ... منها اليه وأبدت وجه مكتئب
واستعطفته فوافتها عواطفه ... وأكثب الصلحُ إذْ نادته عن كَثَب
وحلّ منها بأفق غير منخفض ... للصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بِلامَيْنِ وصاحبُه ... مَلْكُ الملوك ومولاها بلا كذب

« الديوان ، ص ٩ ، تحقيق د . عبد الحق »

وممن هنّأ صلاح الدين بفتح حلب أبو طيّ النجار [3] والد المؤرخ الشيعي المشهور بابن أبي طي الذي أخذ عنه أبو شامة فيمن أخذ ، قال من قصيدة له :

حلب شامة الشآم وقد زيدت ... جلالا بيوسف وجمالا
هي أسُّ الفخار من نال أعلا ... ها تعالى فخامة وتغالى
ومحلّ العَلاء من حلّ فيها ... تاه كبرا وعِزّة وجلالا
من حواها مملّكا ملك الار ... ض اقتسارا سهولة وجبالا
فافترشْها مهنّأ بمحلٍّ ... سمك الأنجم الوِضاء وطالا

« الروضتين ٢ : ٤٥ »

---

(١) الوصَب : المرض الشديد .

(٢) الحلَب : هو الحلب والحليب .

(٣) ابو طي النجار :

هو ابو حميدة عرف عنه انه والد المؤرخ الشيعي ابن ابي طيّ الذي اخذ عنه ابو شامة السيرة الصلاحية ، وانه عاصر الدولة الايوبية . وأن أصله من حلب وكان احد اشراف بلدته طرده نور الدين منها لاعتناقه مبادىء الشيعة كما اعتنقها ابنه يحيى الذي وضع رسالة في فضل الأئمة الاثني عشر .

ولم اعرف سنة وفاته . اما ابنه المؤرخ فقد توفي سنة ٦٣٠ هـ .

لم يفتر صلاح الدين لحظة عن العمل لجمع شمل الامة وتحرير بيت المقدس وغيره من البلاد إتماما للرسالة التي بدأها عماد الدين ونور الدين قبله ولا يزال منبر نور الدين [1] في حلب ينتظر مكانه في المسجد الاقصى • (ابن الأثير ١١ : ٢٠٩ وابن واصل ٢١ : ٢٢٨) •

وحّد صلاح الدين البلاد والامراء تحت راية الجهاد الاكبر فاستاء الصليبيون وجمعوا صفوفهم لحربه وانحاز الى جانبه منهم ريموند صاحب طرابلس •

وقد خاب صلاح الدين بعد أن تمّ له توحيد مصر والشام واليمن في أول معاركه مع الفرنجة في فلسطين سنة ١١٧٧ م ثم عاود حملاته سنة ١١٧٩ م وانتصر هذه المرة في عدة معارك أهمها معركة مرج عيون سنة ١١٧٩ م •

وكانت قوة الصليبيين لا تزال صلبة فعقد الصلح معهم مدة سنتين ثم رأى أن يتعاون مع جميع القوى الاسلامية وعقد مؤتمر سميساط من أمراء الجزيرة والموصل وإربل وكيفا وماردين وقونية وملك أرمينيا واتفقوا على أن يسود السلام بينهم وألا يعادي أحدهم الآخر وأن يكونوا صفّا على العدو • كان ذلك سنة ١١٨١ م (٥٨٧ هـ) ثم أناب عنه في دمشق ابن أخيه فروخشاه وخرج الى مصر وعاد في العام التالي فودّعته مصر وداعا حافلا بالغ الحماسة وقد جاء على لسان أحدهم :

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وبالحقيقة كانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين مصر فقد انتصر في حطين وفتح القدس ولقي ربه سنة ٥٨٩ هـ دون أن يعود الى مصر •

بدأ صلاح الدين بفتح طبرية ثم تابع تقدمه واستطاع أن يتحكم في زمن المعركة ومكانها فلما لاذ الصليبيون بتلّ حِطّين أحاط بهم من كل جانب وأحرق

---

(١) هو منبر اوصى عليه نور الدين الاختريني امهر نجار في حلب حينئذ لينصبه في المسجد الاقصى حين يتم له استرداد بيت المقدس . وقد وافته منيّته قبل ان يحقق امنيته .

بهم عشب التل اليابس وهزمهم مجتمعين سنة ٥٨٣ هـ وبكى فرحا بعد هذه المعركة وسجد لله شكرا وكان فيمن أسر الملك « كي » وأمير الكرك أرناط وأخو الملك جفري ، وعدد كبير من فرسان الداوية (فرسان المعبد) والأسبتار *Hospitaliers* والبارونية وقوّادهم •

وكان هذا النصر مؤذنا بفتح بيت المقدس فقد كانت هذه المعركة فاصلة في التاريخ الاسلامي ، يقول ابن الأثير : « وما اصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة » •

ولم يمض وقت طويل حتى فتح بيت المقدس ونصب المنبر النوري في المسجد الاقصى •

ذكر ابن الاثير أن هذه المكرمة لم يحققها بعد عمر بن الخطاب الا صلاح الدين • (ابن الأثير ١١ : ٢٠١ ــ ٢٠٩) •

وقد أشاد الشعراء بنصر حطين وبفتح القدس بقصائد كثيرة منها قصيدة نقيب الاشراف بالديار المصرية محمد بن أسعد الحلبي المشهور بالجوّاني المصري [١] وفيها يقول :

أترى مَناما ما بعينيَ أبصرُ	القدسُ يفتح والفرنجةُ تُكسَر
وقمامة قُمَّت مِن الرجَس الذي	بزواله وزوالها يتطهّر
ومليكُهم في القيد مصفود" ولم	يُرَ قبل ذاك لهم مَليك" يؤسر
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي	وُعِدالرسولُ فسبّحواواستغفِروا
من كان هذا فتحُه لمحمد	ماذا يقال له وماذا يذكر ؟
يايوسفُ الصديقُ أنت لفتحِها	فاروقُها عمرُ الإمام الأطهر

---

(١) محمد بن اسعد الحلبي المشهور بالجوّاني المصري يكنّى ابا علي توفي سنة ٥٨٨ هـ . كان نقيب الأشراف . له « شجرة رسول الله » في النسب النبوي مع ملاحظات تاريخية . ومنها نسخة في برلين .

ملِك غدا الإسلام من عُجْب بـه   يختـال والدنيـا بـه تتبختـر
تشـر" وتظـم طعنـه وضِرابـه   فالرمحُ ينظِـم والمهنّـدُ ينثـرُ
حيثُ الرقابُ خواضع"،حيثُ العيو   نُ خواشع" حيث الجباهُ تعفَّر
غاراتـه جُمَع فـان خطبت لـه   فيهـا السيوفُ فكلُّ هـامٍ منبر
إذْ لا تـرى الا طُلـى بسنابك   تُحذَى نِعـالا أو دمـاءً تهدَر
وصوافِناً تختار أن تطـأ الثـرى   فيصدُّها عنـه طُلـىً وسَنَوَّر
تمشي على جثث العدا عرْجاً ولا   عَـرَجٌ بهـا لكنّهـا تتعثـر

« الروضتين ، ٢ : ١٠٥ »

ومن الشعراء المهنئين بالفتح بن سناء الملك[1] ومن قوله :

لسـت أدري بأيّ فتـح تهنّـا   يا منيلَ الاسـلام ما قـد تمنـى
أنهنّيـك اذ تملكـت شامـا   أم نُهنّيـك اذ تملكـت عدْنـا
قد ملكتَ الجِنان قطـرا فقطـرا   اذ فتحتَ الشآم حِصنا فحصنـا
إنّ دين الاسلام منٌّ على الخلـــق وأنت الذي على الدين منّـا
لك مـدح على السماوات يُنشـا   ومحـلٌّ فـوق الأسـنة يُبنَـى
شاق جبريلَ بيتُ جبرينَ حتـى   جاء يسـعى اليه شـوقا وحنّـا
تُخرج الساكنين منه ، وربُّ البيت   فـي بيتـه أحـقُّ بسـكنى
كم تأنى النصر العزيز على الشا   م ولمّـا نهضـتَ لـم يتأنّـا
قمتَ في ظلمـة الكريهـة كالبـد   ر سناءً والبدرُ يطلـع وَهْنـا
لـم تقِـفْ قطُّ في المعـارك الا   كنت يا يوسفٌ كيوسفَ حسـنا
تجتني النصرَ من ظُباك كـأن الـ   عضب قد صحّفوه فصـار غُصْنا

(١) سبقت ترجمته .

قصدت محوك الأعادي فردّ الله ما أمّلوه عنك وعنا
حملوا كالجبال عِظْما ولكنْ جعلتها حمْلات خيلك عِهْنا (١)
جمعوا كيدهم وجاؤوك أركانا فمن هدّ فارسا هدّ ركنا
لم تلاقِ الجيوش منهم ولكنّك لاقيتهم جبالا ومدنا
كلّ من يجعل الحديدَ له ثوبا وتاجا وطيلسانا وردْنا
خانهم ذلك السلاحُ فلا الرمحُ يغنّي ولا المهنّدُ طنّا
وتولّت تلك الخيولُ ولم يثْنَ عليها بأنها ليس تثْنى
وتصيّدتهمْ بحلْقة صيْدٍ تجمع الليثَ والغزال الأغنّا
وجرت منهم الدماءُ بحارا فجرت فوقها الجزائرُ سُفْنا (٢)
صنعت فيهم وليمةَ عُرْس رقص المشرفيُّ فيها وغنّى
ظل معبودُهمْ (٣) لديك أسيرا مستضاما فاجعل له النار سجنا
صلبوا ربّهم فلم يُغْنِ عنهمْ من يُرى بعد صَلْبه قطّ أغنى ؟
وجوى الأسرُ كلّ مَلْك يظنّ الدّهرَ يفنى ومُلْكُه ليس يفنى
ظنّ ظنّا وكنت أصدق في اللّه يقينا وكان أكذب ظنّا
كم تمنى اللقاء حتى رآه فتمنّى لو أنه ما تمنّى
زقّ من رحمةٍ له القيد والغلّ عليه فكلّما أنّ أنّا
واللعينُ الإبرنسُ أصبح مذبوح يَمينٍ لم تُعدِم الدينَ يُمْنا
أنت ذكّيتَه فوفّيتَ نَذرا كنت قدّمتَه فجوزيت حسنا
وتهادت عرائسُ المُدْن تجلى وثمارُ الآمال فيهنّ تجنى

---

(١) العظم : ضد الصغر ، والعهنْ : الصوف .

(٢) الجزائر : ج جزور وهو الشاة المذبوحة او الناقة .

(٣) المعبود هنا صليب الصلبوت .

لا تخصَّ الشآمَ منك التهاني ... كل صُقعٍ وكلُّ قُطرٍ يُهنّا

قد ملكتَ البلادَ شرقا وغربا ... وحويتَ الآفاق سهلا وحَزْنا

واغتدى الوصفُ في علاك حسيرا ... أيُّ لفظٍ يقال أو أيّ معنى

« ديوان ابن سناء الملك (خ) قافية النون دار الكتب المصرية »

لقد اقام صلاح الدين بعد فتح القدس دولة كبرى ، ولكنّه لم يكتف بذلك فقد كان يخشى من كيد الاقطار المجاورة لدولته وتهديد أمنها ولذلك رسم خطة لمهاجمة بلاد الروم وبلاد الفرس معا وكان ينوي أن يرسل أخاه العادل وبعض أولاده الى « خلاط » لمهاجمة المشرق الفارسي وأن يتوجه هو بنفسه الى بلاد الروم (ابن الأثير ١١ : ٣٧ وابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ٢ — ٣) •

ولم يكن يريد أن يكتفي بذلك بل كان يطمح لركوب البحر ليستولي على جزائره التي كانت محطات ومنطلقات للجيوش الصليبية الآتية من البحر ولقد أسرّ بذلك الى قاضيه بهاء الدين بن شداد • (ابن شداد : ١٧ و ابن واصل ٢ : ٤٣٢ — ٤٣٣) •

ولكن المنية عاجلته سنة ٥٨٩ هـ وهو في دمشق دون أن يحقق هذه الامنية العظيمة •

وكان موته عظيما على الناس فضجوا بالبكاء وودوا صادقين لو يفدّونه بالنفس وقد صور القاضي ابن شداد حالهم وحاله (الروضتين أبي شامة ، ٢١٣ نقلا عن النوادر السلطانية لابن شدّاد) قال :

« وكان يوما لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه الا الله تعالى ، وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنّهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِل الفداء لفداه بالنفس ••• وكان يوما عظيما قد شغل كلّ انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر الى غيره ••

وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج حتى إن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة » .

وعبر الشعراء عن أحزان الناس وأحزانهم في مراثيهم لصلاح الدين ومنهم العماد الأصفهاني [1] ومن مرثيته فيه قوله [2] :

شمل الهدى والمُلْك عمّ شتاتُه ... والدهرُ ساء وأقلعت حسناتُه

أين الذي مُذْ لم يزل مخشيةً ... مرجوةً رهباتُه وهِباتُه

أين الذي كانت له طاعاتُنا ... مبذولةً ولربّه طاعاتُه

بالله أين الناصرُ الملِك الذي ... لله خالصةً صفت نيّاتُه

أين الذي ما زال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته

أين الذي شرُف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً ومنها أُدرِكتْ ثاراته

أغلالُ أعناقِ الهوى أسيافُه ... أطواقُ أجْياد الورى مِنّاتُه

لم يُجْدِ تدبيرُ الطبيبوكمْ وكمْ ... أجدت لِطبّ الدهر تدبيراتُه

مَن في الجهاد صِفاحُه ما اغمِدتْ ... بالنصر حتى أُغمدتْ صفَحاته

لذّ المتاعبَ في الجهاد ولم تكن ... مذ عاش قطّ لِذاته لذّاته

لا تحسبوه مات شخصٌ واحد ... فَممات كل العالمين مَماته

ملك عن الإسلام كان محاميا ... أبدا اذا ما أسلمته حُماته

قد أظلمت مُذْ غاب عنها نورُه ... لمّا خلت مِن بدره داراتُه

الدينُ بعد أبي المظفّر يوسفٍ ... أقوت قُواه وأقفرت ساحاته

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) تبلغ القصيدة ثلاثين ومئتي بيت (عن كتاب الروضتين) .

جَبَلٌ تَضعضَعَ معْ تضعضعِ ركنه ... أركانُنــا وتهدَّنــا هدّاتــه

مـا كنتُ أعلم أنَّ طودا شامخـا ... يَهـوي ولا تهوي بنـا مَهواته

مـا كنتُ أعلم أنَّ بحرا طاميـا ... فينـا يُطَمُّ (١) وتنتهـي زخراته

مَنْ لليتـامى والأرامـل راحـمٌ ... متعطِّفٌ مفضوضـةٌ صدقاتـه

لو كـان في عصر النبـي لأُنزلت ... في ذِكـره مِـن ذكـره آياته

فعلى صلاحِ الدين يوسفَ دائما ... رضوانُ ربِّ العرش بل صلواته

لِضريحه سُقيا السحاب فإنْ يغب ... تحضُرْ لرحمة ربــه سَقْياتــه

مَن للثغور وقـد عَداهـا حفظُه ... مَنْ للجِهـاد ولـم تعُد عاداته

بكت الصوارمُ والصواهل اذ خلت ... مـن سُبْلها وركوبهـا غزَواتـه

ياوحشـتـَا للبيض في أغمادهـا ... لا تنتضيهـا للوغـى عزَماته

مـلأت مهابتـه البـلاد فإنّـه ... أسَـدٌ وإنَّ بـلادَه غاباتـه

مـا كان أسرعَ عصره لمّـا انقضى ... فكأنّمـا سنَواتـه ساعـاته

لم أنسَ يومَ السبت وهو لِمابـه ... يُبدي السَّباتَ وقد بدت غَشَيَاته

والبِشْـر منـه تبلّجت أنـوارُه ... والوجهُ منـه تلألأت سبُحاته (١)

ويقـولُ لله المهيـمـنِ حكمـة ... في مرْضـة حصلت بها مرْضاتـه

يا راعيـاً للدين حـين تمكّنتْ ... منـه ذئـاب وأسـلمته رُعاتـه

ما كـان ضرّك لو أقمت مُراعيـا ... دِينا تولى مـذ رحلتَ وُلاتـه

أضجِرتَ منّا أم أنفت فلم تكـن ... ممّن تُصاب لشـدّة ضجَراتـه

أرضيت تحت الارض يامَنْ لم يزل ... فـوق السماء عليّـة درجـاته

فارقتَ مُلْكـا غيرَ باقٍ متعَبا ... ووصلتَ ملكـا باقيـا راحـاته

---

(١) يطم : يوارى التراب .

(٢) السبحات : ج سبحة وهي الدعاء والسبحات ايضا : الانوار .

أعزِزْ على عيني برؤية بهجة الد ... نيا ووجهُك لا ترى بَهَجاتـه
أبَنِي صلاحِ الدين إنّ أباكـمُ ... مـا زال يأبى مـا الكرامُ أباتـه
لا تقتـدوا إلاّ بسُـنة فضلِـه ... لِتطيبَ في مَهْـد النعيم سـناته

« أبو شامة ، الروضتين ٢ : ٢١٥ ــ ٢١٦ »

واختلف أبناء صلاح الدين بعد موته واستطاع عمّهم الملك العادل أن يؤجج الخلاف بينهم وأن يستفيد منه وأن يوحّد البلاد تحت رايته وراية أبنائه من بعده.

ولقد أسي القاضي الفاضل لما أصاب قصر العزيز بن صلاح الدين فرثاه بالأبيات التـالية :

(أبو شامة ٢ : ٢٣٨ وابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ٧) .

وقفنا علـى قصر العزيز وقد عفـا ... نعيب عليـه الدهـر لمـا تحكما
بكيت له دمعـاً ولو كنت منصفـاً ... بكيت دما والدمع ضرب من الدما
عزيز علينا أن نـراك على البلـى ... ترابا نهى المشـغوف أن يتيمّـما
وكم قد وجدنا فيـك راحة راحة ... تقبّل إذ تعطـي حطيما وزمزمـا
وقـل يا ديـار الظاعنين برغمنـا ... وعهدك أن أضحى لك الدهر مرغما

« ديوان القاضي الفاضل ص ١٤ »

ويتبيّن من هذه الأبيات حسرة الشاعر على ما أصاب هـذا القصر ، وتمنّيه ألاّ يكون قد حصل ذلك ، وحنينه إلى النعمة التي كان يحظى بهـا فيه ، ولومـه الدهر على ما أنزله فيه من كوارث . وهذا الشعر سياسي الطابع .

وقد هاجم الصليبيّون ثغر دمياط سنة ٦١٦ هـ في زمن الملك الكامل ، ولكنهم هزموا أخـيرا هزيمة منكرة . وكـانت هذه هي الحملة الثـانية على البـلاد . بعـد وفاة صلاح الدين . وقـد غيّروا في هذه الحملة خطّتهم فهاجموا سـاحل مصر ، لا ساحل الشام . كما كانوا يفعلون من قبل ، متخذين منه منطلقا لتوسّعهم . لأنّهم رأوا أن مصر هي مصدر الامداد الرئيسي بالرجال والعتّاد والمواد التموينيّة

وأنها مركز الثقل . (ابن الأثير ١٢ : ٨٧ و أبو شـامة : ذيل الروضتين : ١١٦) .

قال قاضي غزّة هبة الله بن مخاسن [1] مهنئاً الملك الكامل بنصره في دمياط :

هنيئا فإنّ السـعد جـاء مخلّدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعـدا

حبانا آله الخلق فتحـا لنـا بـدا ... مبينـاً وإنعامهـا وعزّاً مؤيّـدا

تهلّل وجه الأرض بعـد قطوبـه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

ولمّـا طغى البحر الخضمّ بأهله الـطغاة وأضحى بالمراكب مُزْبـدا

أقام لهذا الدين من سـلّ عـزمه ... صقيلا كما سلّ الحسـامَ المهنّدا

فلم ينج إلاّ كلّ شِلْوٍ مجندَلٍ ... ثوى منهـم أو من تـراه مقيّدا

ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً ... عقيرته في الخـافِقَيْن ومنشـدا

أعبّاد عيسى إن عيسـى وحزبـه ... وموسـى جميعـا ينصران محمّدا

« النجوم الزاهرة ٦ : ٢٧١ »

وأسوأ ما جرى خلال هذه الحملة تآمر الأشرف موسى صاحب « ميافارقين » وبلاد الجزيرة مع أخيه الملك الكامل على عزل ابن أخيهما الناصر داود عن دمشق ليتولى أمرها الأشرف ، وقد تهادنا لذلك مع ملك الفرنجة واتفقا معه على تسليم بيت المقدس إليه لقمة سائغة ، فتشرّد سكّانه وتفرقوا في دمشق ومصر والكرك ، ولم يغتفر الناس للكامل وأخيه هذه الفعلة برغم انتصاره في دمياط ، والحق أنّها نكراء لا تغتفر . (المرجعان السابقان نفساهما ابن الأثير وأبو شامة) .قال شهاب الدين ابن المجاور * في ذلك :

---

(١) لا نعرف شيئا عن حياته . وقد نسبها د . احمد احمد بدوي الى الشاعر الحلّي ولم يذكر اسمه ولعلّه شميم الحلّي .

* لانعرف شيئا عن حياته .

أعينيَ لا ترقىْ من العَبرات | صلِي في البكا الآصالَ بالبكَرات
لعلَّ سيول الدمع يطفىء فيضُها | توقّدَ ما في القلب من جمَرات
ويا قلبُ أسعِرْ نارَ وجدك كلمّا | خبَت بادٌ كارٍ يبعث الحسَرات
ويا فمُ بُحْ بالشجو منك لعلّه | يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جلّ قدرُه | على موطِن الإخباتِ والصلوات[1]
على سلّم المعراج والصخرة التي | أنافت بما في الأرض من صخَرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها | صلاةُ البرايا في اختلافِ جهات
على خير معمور وأكرم عامرٍ | وأشرف مبنيّ لخير بناة
وما زال فيه للنبيّين معبدٌ | يوالون في أرجائه السَّجَدات

عفا المسجدُ الأقصى المبارك حوله الرفيعُ العِماد العاليُ الشرُفات[2]

عفا بعد ما قد كان للخير موسِما | وللبرّ والإحسان والقرُبات
يوافي إليه كل أشعث قانت | لمولاه برٌّ دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يملّ مقيمها | تَوَشُّح بالآيات والسُّوَرات
خلا من حنين التائبين وحزنهم | فمن بين نوّاح وبين بشكاة
لتبكِ على القدس البلاد بأسرها | وتعلن بالأحزان والترّحات
لتبك عليها مكّة فهي أختُها | وتشكو الذي لاقت إلى عرَفات
لتبكِ على ما حلّ بالقدس طيبةٌ | وتشرحه في أكرم الحجُرات
لقد أشمتوا عكّا وصوراً بهدمها | ويا طالمَا غادتْهما بشمات
لقد شتّتوا عنها جماعة أهلها | وكلّ اجتماع مؤذنٌ بشتات

---

(١) الاخبات : الخشوع .

(٢) اخطأ نحويا في كلمة العالي اظهر عليها الضمة وهي منقوصة وكان يمكن أن يتخلص من ذلك بأن يستبدل بها كلمة السامق أو الشاهق .

وقــد هدموا مجدَ الصَّلاح بهدمها ... وقــد كان مجداً باذخ الغُرُفات[1]
وقــد أخمدوا مجــداً وصيتاً أثاره ... لهــم عُظْم ما والَوْا من الغزَوات
أمــا علمت أبنــاء أيّوب أنهــم ... بمسعاته عُــدّوا مِن السَّرَوات
وأنَّ افتتــاح القدس زهرةُ ملكهم ... وهــل ثَمَرٌ إلاّ مــن الزَهَرات
فمن لي بنُوّاح ينُحن عــلى الذي ... شجــاني بأصواتٍ لهنّ شُجاة[2]
يردّدن بيتــاً للخــزاعيّ قــاله ... يؤبّنُ فيــه خِيرَة الخِيَرات[3]
« مدارسُ آيات خلت من تِلاوة ... ومنزل وحيٍ مقفرُ العَرَصــات »

(شفاء القلوب : ٨٠ والسلوك جـ ١ ،ق ١ : ٣٢٣ والروضتين ٢ : ٢٠٥)

وقد مرَّ أحد الشعراء على القدس وهي في يد الفرنجة أثناء احتلالهم الثاني لهــا فقــال * :

مررتُ على القدس الشريف مسلّماً ... على ما تبقّى مــن ربوعٍ كأنجــم
ففاضت دمــوع العــين مني صبابة ... على مــا مضى من عصــرنا المتقدّم
وقد رام عِلْجٌ أن يعفّي رسومَه ... وشمَّر عــن كفّيْ لئيــم مذمَّــم
فقلت لــه شُلّتْ يمينك خلِّهــا ... لمعتبر أو ســائل أو مســلّم
فلو كان يفــدى بالنفوس فديتــه ... بنفسي ، وهذا الظنّ في كل مُسلِمِ

خلف الكامل في مصر ابنُه الملكُ الصالحُ نجمُ الدين أيّوب . وفي عهده جاءت الحملة الثالثة بعد موت صلاح الدين الى مصر ، وكانت بقيادة لويس التاسع فاستولت على دمياط سنة ٦٤٧ هـ وكان الملك الصالح معسكرا عند المنصورة مريضاً

---

(١) الصلاح هنا صلاح الدين وفي اللفظة تورية .

(٢) لاحظ الخطأ النحوي في قوله بنوّاح ينحن .

(٣) الخزاعي هو الشاعر مسلم بن الوليد صريع الغواني وخيرة الخيرات الحسين بن علي رضي الله عنهما .

* النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٢٤٥ في الحاشية ، ذكر المحقق انها لمجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي قاضي الطور نقلا عن الذيل على الروضتين ، وعقد الجمان ، وشذرات الذهب .

مشرفا على الموت ، ولم تبْدِ دمياط مقاومة لأنّ الجند الموكّلين بالدفاع عنها فرّوا والتحقوا بملكهم ، تاركين المدينة لقمة سائغة للعدوّ فها مالناس على وجوههم ، وسلبهم قطّاع الطريق ثيابهم ، غير أنّ مصر استعادت رباطة جأشها وهدوءها سريعا .

كتب لويس التاسع الى السلطان الصالح نجم الدين أيّوب الكتاب التالي :

« أما بعد فإنّه لم يخفَ عنك أني أمين الأمة العيسويّة ، كما أني أقول إنّك أمين الأمة المحمدية ، وإنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملونَ إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمّل النساء والبنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفتَ لي بكلّ الأيْمان ، وأُدخلت عليّ (مع) القسوس والرهبان ، وحملت قدّامي الشمع طاعة للصلبان ، ما ردّني ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك في أعزّ البقاع عليك ، فان كانت البلاد لي فياهديّة حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدّة إليّ ، وقد عرّفتك وحذّرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك » .

فأجاب السلطان عليه ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، (لحاله من المرض والإشراف على الموت) ، بكتاب خطّه القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الانشاء :

بعد البسملة والصلاة على النبي :

« أمّا بعد فإنّه وصل كتابك ، وأنت تهدّد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منّا قِرْنٌ إلاّ جدّدناه ، ولا بغى علينا باغٍ إلاّ دمّرناه ، فلو رأت عينا لك أيها المغرور ـ حدّ سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعضّ على أنامِلك بالندم . ولا بدّ أن تزلّ بك القدم في يومٍ أوّله لنا وآخره عليك فهنالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون .

فاذا قرأت كتابي هذا نكن فيه على أوّل سورة النحل : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ، وكن على آخر سورة ص : (ولتعلمنّ نبأه بعد حين) ، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) • » • (المقريزي ، خطط ، ١ : ٣٥٤) •

يلاحظ على الكتابين : ١ً ــ طابعهما الديني ، ٢ً ــ أن كلاً من الفريقين يحاول تحطيم معنويّات الفريق الآخر ويهوّل عليه أمر نفسه ، ٣ً ــ أن كتاب لويس التاسع (القديس لويس) يتّسم بالتعالي وذكر ما كان يفعله الصليبيون بالمسلمين من إبادة وفظائع وأن كتاب الملك الصالح يتّسم بالاعتزاز بشدة القتال وحسن الدفاع •

ولم يلبث الملك الصالح أن مات ، وجنده يستعدّون للمعركة ، وبينهم المماليك الذين كان قد استكثر في حياته من شرائهم •

وهنا ظهر دهاء زوجته شجرة الدر فقد كتمت موته عن الجند والناس حتى لا يطمع الفرنجة في المسلمين فيسرعوا الى شنّ الهجوم عليهم وهم دون قائد ،

واستدعت ابن زوجها ، الملك المعظّم توران شاه ، من حصن « كيفا » ، فنازل الصليبيّين ، وانتصر عليهم في فارسكور والمنصورة ، وأسر ملكهم لويس التاسع ، وسجنه في دار القاضي ابن لقمان مكبّلا بقيد من الذهب ، ووكل أمره إلى الطواشي صبيح ، وأسر معه أخاه وثلاثين ألفاً من جنوده ، ثمّ افتدى لويس نفسه بأربعمائة ألف دينار فآثر مماليك الملك الصالح ، وهم القوّاد ، زمن توران شاه ، أن يطلقوه بهذه الفدية لحاجتهم الى المال ، وكان ذلك خطأً منهم ، لما يمكن أن يكون له عليهم من خطر بعد ، وقد استحق الأسير نفسه هذا التصرّف منهم •

(النجوم الزاهرة ٦ : ٣٦٦ و ٣٩٤ وأبو شامة ، ذيل الروضتين : ١٨٤)

وقد عبّر أحد الشعراء عن فرحة المسلمين بالنصر في المنصورة فقال :

قُـل للفرنسيس إنّ كـلاً — من أمـة المسلمين شـاكر
لأنّـه محسـن الينـا — بقوده نحـونا العسـاكر
سـاق الى مصـر مـا اقتنتـه — أمئـة عيسى مـن الذخائر
وأورد الجمـع بحـر حـرب — مصـدرُه بالمنـون آخـر
ورام باباهـم أمـوراً — فأخـلفت ظنّـة المقـادر
وأذهـل القـومَ هولُ حـرب — تشخص مـن فرْقـه النواظر
لـم تعـمَ أبصارُهم ولكنْ — قـد عميت منهـم البصـائر
فـإن يعُـدْ طالبـاً لثـأر — مـن أرض دميـاط فليُبـادرْ
فذلـك البحـر تعرفـوه — والسيفُ مـاض منـه وحاضر
أعـاده الله عـن قـريب — لمثلهـا إنّـه لقـادَرْ
بحيث لـم تبـق للنصـارى — من بعـد كسـر الصليب جـابر
ويستريحُ المسيـح منهـم — مـن كـلّ عِلْجٍ وكـلّ كافر

« فوات الوفيات ١ : ٨٤ »

ويرى الدكتور بدوي (الحياة الأدبية : ٤٨٢) أن هـذه الأبيات قيلت في المناسبة نفسها التي قيلت فيها أبيات جمال الدين بن مطروح التالية .

وقد بلغ الناس والحكام في مصر أن لويس التاسع يهيىء حملة جديدة لغزو مصر فتهيأ الجيش والناس لحربه ونظم ابن مطروح في ذلك أبياته الآتية ، ولكن ملك الفرنسيين لم يأت مباشرة الى مصر وانما هاجم تونس وبقي فيها ستة أشهر ، غير أنه مرض فيها مرضاً شديداً ومات وبذلك انتهت حملته هذه بالخيبة وقد قال شاعر تونسي حين مجيئه الى تونس :

يا فرنسيس هـذه أختُ مِصر — فتأهَّبْ لِما إليـه تَصيرُ

لكَ فيهـا دارُ ابنِ لُقمان قبراً　　　وطَواشيك مُنكَرٌ ونَكيرُ(*)

« الحياة الأدبية ، د. بدوي ص ٤٧٩ »

قال: جمال الدين بن مطروح[1] (٥٩٢ ـ ٦٤٩ هـ)

---

* يلاحظ على البيتين أن ما فيهما من اسلوب ومعنى وسخرية قريب من أبيات ابن مطروح الآتيـة ويتجلى فيهما الشعور بالوحـدة بين البلدين المذكورين وبالوحدة بين بلاد المسلمين بعامة . ويذكر المقريزي (السلوك ١ : ٣٦٥) وابن تغري بردي (المنهل الصافي « خ » ورقـة ٣٦٠) انهما لأحمد بن اسماعيل الزيات التونسي .

(١) هو ابن الحسن يحيى بن عيسى بن ابراهيم . ولـد في الصعيد بمدينة اسيوط واخذ فيها مبادىء العلم من قرآن وحديث وعلوم العربية ، ثم اتم علومه بالازهر وانعقدت صداقة متينة بينه وبين البهاء زهير الشاعر في مدينة قوص بالصعيد حيث ضمهما بلاط أميرها مجد الدين بن اللمطي ، ثم انتقلا الى القاهرة حيث اتصلا بكبار رجال الدولة الأيوبية زمـن الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب . تقدم ابن مطروح في اعمـال الدولة واشترك في بعض الحوادث المهمة وتولى نظارة الجيش وتنقل مع الملك الصالح ايوب في المدن المفتوحة في الجزيرة في شمال شرق الشام ، وكان مناصرا للصالح ايوب على أخيه العادل بن الكامـل . ونراه يمدح الناصر داوود حين انتصر على الفرنجة واستردَّ منهـم القدس ، وذلك في قولـه :

المسجـد الاقصى لـه عـادة　　　سـارت فصارت مثـلا سـائرا

اذا غـدا الكفـر مستوطِنـاً　　　أن يبعـث الله لـه ناصـرا

فناصـرٌ طهَّـره أولاً　　　وناصـر طهَّـره آخِرا

وحين عاد الصالح الى حكم مصر عيَّن ابن مطروح وزيرا وأميرا في دمشق ولكن حدثت بينهما جفوة في آخر حياة الملك الصالح . ولما مات لزم ابن مطروح بيته ثم فقد بصره وعاش بائسا . وقيل انه أوصى أن يكتب على قبره هذا الدوبيت وهـو من نظمه :

أصبحتُ بقَعْر حفرتي مرتهَناً　　　لا أملك مِن دنيـاي الا الكفنا

يا مَن وسعتْ عبادَه رحمتُه　　　مِن بعض عبادِك المسيئين أنـا

آثاره : له ديوان شعر مطبوع غير محقَّق وبعض دوبيتات .

قـــل للفرنسيس اذا جئتـــه   مقـــالَ صدقٍ من قؤول فصيح
آجـركَ اللهُ عـلى مـا مضى   مِن قتل عُبّاد يَسوعَ المسيحْ
قد جئتَ مِصراً تبتغي أخـذَها   تحسَبُ أنّ الزمرَ يا طبل ريح
فساقـكَ الحَيْن الى أدْهـمٍ   ضـاق به عن ناظريْك الفسيحْ
وكلّ أصحـابكَ أودعتَهـم   بقبـح أفعالـك بطن الضـريح
خمسون ألفـاً لا يُرى منهمُ   الا قتيـلٌ أو أسـيرٌ جريـح
فـردّكَ الله الى مِثلهـا   لعـلّ عيسى منكـمُ يستريح
إنْ كان باباكمْ بـذا راضيـاً   فربّ غبن قـد أتى مِن نَصيح
فاتخـذوه كاهنـاً إنّـه   أنصحُ مِن شِقٍّ لكم أو سَطيح
وقل لهـمْ إنْ أضمروا عَودةً   لأخـذ ثأرٍ أو لقصـد صَحيح
دارُ ابنِ لقمانَ على عهدهـا   والقَيدُ باقٍ والطّواشي صَبيح

« الديوان ، ص ١٨١ » و « ابن إياس ، بدائع الزهور ١ : ٨٧ »

٣ ـ العهد المملوكي الاول :

اجتاح التتار بغداد وقتلوا الخليفة وفعلوا ما فعلوا ، ممّا هو مشهور ، فقال الشيخ تقي الدين إسماعيل التنوخي[١] في رثاء بغداد بعد نكبة المغول « النجوم الزاهرة ٧ : ٥١ »[٢] :

١ ـ لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبارُ   فما وقوفُكَ والأحبابُ قد ساروا
٢ ـ يا زائرين الى الزوراء لاتَفِدوا   فما بذاك الحِمى والدارِ دَيّار
٣ ـ تاجُ الخِلافةِ والربعُ الذي شرُفَت   به المَعالمُ قـد عفّاه إقفـار

(١) لا نعرف شيئا عن حياته .
(٢) تبلغ القصيدة ٦٦ بيتاً .

٤ ـ أضحى لِعَطف البلى فيه ربعه أثر ولِلدموعِ على الآثار آثار
٥ ـ ناديتُ والسبيُ مهتوكٌ يجرّهمُ الى السفّاح مِن الاعداء دعّار
٦ ـ وهمْ يُساقون للموت الذي شهدوا النارُ يا ربّ تَصلاها ولا العار
٧ ـ يا لَلرجال لأحداثٍ تحدّثنا بما غدا فيه ، إعذارٌ ، وانذار
٨ ـ مِن بعد أسرِ بني العباس كلّهمِ فلا أنارَ لوجه الصبحِ إسْفار
٩ ـ ماراقَ لي قطّ شيءٌ بعد بَيْنِهم إلا أحاديثُ أرْويها وآثار
١٠ـ لم يبقَ للدين والدنيا وقد ذهبوا سُوقٌ لمجد وقد بانوا وقد باروا
١١ـ إنّ القيامة في بغدادَ قد وُجدت وحدّها حِينَ للإقبال إدبار
١٢ـ آلُ النبي وأهل العلم قد سُبيوا[1] فمن تُرى بعدهم تَحويه أمصار ؟
١٣ـ ماكنتُ آمُل أنْ أبقى وقد ذهبوا لكن أبى دون ما أختار أقدار

ثم اجتاحت جيوش هولاكو الشام بعد أن دمرت بغداد وسائر مدن العراق وارتكبت من الفظائع ما يخجل منه التاريخ ووجه الانسانية • وحين هاجمت حماة ولم يجد الملك المنصور أنه يستطيع صدّها ذهب الى مصر بجيشه ليعود مع الجيش المملوكي مقاتلا • وأرسل قائد التتر المنتصر من الشام كتابا الى سيف الدين قطز الملقب بالملك المظفر يهدّده فيه ويحاول ارهابه ، ولكن قطز لم يبال به وأهان رسوله وأرسل اليه أن الجواب ما سيراه خلال الحرب • وسار قطز بجيشه ، وكان بين قواده بيبرس ، وخطب في جنده قبل المعركة ، وكان على رأسهم في خوض غمارها يضرب بسيفه ويصيح « وا إسلاماه » ، فانتصر على التتار انتصارا حاسما في عين جالوت • وفي هذا اليوم كسرت شوكة التتار أول مرة ولم يكونوا قد ذاقوا مرارة الهزيمة من قبل فانسحبوا من ديار الشام • وسار هو الى دمشق التي رحبت به[2] ، وطلب منه في هذه الأثناء قائده بيبرس أن يولّيه حلب فلم يوافق على ذلك • وخلال عودته الى مصر وبينما كانت تعد له الاستقبالات الفخمة في القاهرة صاح مناد في

---

(١) يرى . د. احمد احمد بدوي احتمال تحرّفها عن قتلوا .

(٢) تاريخ ابن إياس في حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

الجيش لقد توفي سلطانكم الملك المظفر فترحموا عليه وادعوا بالنصر للسلطان الجديد الملك الظاهر بيبرس . ولم يمت الملك المظفر موتاً طبيعياً وانما اغتاله بيبرس متعاونا مع بعض القواد ، بينما كان يتسلى بالصيد في عودته ، بطريقة تركت في صفحة بيبرس لطخة سوداء ، لكنّ المماليك كانوا قد ألفوا مثل هذه الاغتيالات . (ابن تغري بردي: المنهل الصافي (خ) ٣ : و ٢٩ ــ ٣٠ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ : ٢٢٠ــ٢٢٤ والسلوك ١ : ٤٣٧ و ٤٨٠) . ومن المؤسف ألاّ ينال هذا السلطان العظيم حقّه ، لا في الأدبِ ولا في التاريخ . ولم يصل إلينا في مدحه إلاّ بضعة أبيات . ومدح بهذه الواقعة أحد مرافقيه وهو الملك المنصور . ومما قاله فيه الشرف الأنصاري [1] :

---

(١) هو الصاحب شرف الدين شيخ شيوخ حماة أبو محمد عبد العزيز بن محمد المشهور بابن الرقاء . ولد في دمشق سنة ٥٨٦ هـ ، وهو عربي صميم من قبيلة الأوس الانصارية ، وكان أهله يقيمون في كفر طاب ، ولما هاجم الروم والصليبيون هذه المدينة انتقل أبوه الى دمشق ثم الى حماة حيث ولّي أوقاف الملك المنصور الاول وفي الوقت نفسه أوقاف الخليفة . وكان الشاعر معجبا بابيه ، كما كان طموحا الى المعالي . رحل في طلب العلم الى العراق وتجول في ديار الشام ، وعلت منزلته العلمية . وقد طلب منه الاجازة كثيرون من النوابغ منهم سبط بن الجوزي . وكان الملوك والعظماء يحترمونه . مدح الملك المنصور الايوبي في حماة ، وكان من انصار المظفر الثاني ابنه ضد أخيه « قلج ارسلان » فجعله المظفر وزيره حين استرد ملكه في حماة . اسهم شرف الدين في توطيد الصلات بين ملوك مصر والشام ببعد نظره وشعوره بضرورة الوحدة السياسية ، وحين غزا التتار سورية ، فرّ الملك المنصور الى مصر مستنجدا بالسلطان قطز وكان الى جانبه في الحرب حين انتصر عليهم في عين جالوت فهنأه الشاعر ومدحه بقوله :

رُعتَ العدا فضمنتَ ثلَّ عروشها ولقيتها فأخذتَ فَلَّ جيوشها

وكان محترما لدى السلاطين والعظماء حتى إن الملك الناصر سار في وداعه وهو يغادر حلب الى حماة . واستمرّ على عمله حتى توفي أيام المظفر الثالث سنة ٦٦٢ هـ ودُفن في حماة . له ديوان شعر توجد منه نسخة بخطه في مكتبة بايزيد في استامبول ، ولكنه لا يجمع كل شعره وهو مرتب بحسب الابجدية ، وذكر الصفدي انّ له ديوانا آخر في لزوم ما لا يلزم ويظهر انه نظمه في آخر حياته .

وذكر صاحب كشف الظنون كتابين آخرين له احدهما « نظرة المشوق الى وجه المشوق » وقد فضل الزركشي ان تكون التسمية بالعكس والآخر « تذكار الواجد باخبار الوالد » .

« عن مقدمة ديوان الشرف الانصاري ، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، بتحقيق الدكتور عمر موسى باشا » و « الصابوني ، تاريخ حماه : ١٣١ » .

رعتَ العدا فضمنتَ ثلّ عروشها ... ولقيتَها فأخذتَ فَـلّ جيوشها

لله درّ كتيبـة ملمومـة ... تَبغيك حين حملتَ في جاليشها[1]

جنّبتَها نغَمَ القيان معوّضـا ... بتردّد الاصوات مِن شاويشها[2]

نازلتَ أمـلاك التتـار فأنزلت ... عن فحلها قسـرا وعن اكديشها

صُمّت عن الإنذار حتى أوجرتْ ... صُمّاً تُفتّح مَسمعيْ أطروشها

روّيتَ أكبـادَ القنـا بدمائهم ... لمّا أطال سِواكَ في تعطيشهـا

فتّشن غُلْفَ قلوبهم عن غِلها ... عَمري ، لقد بالغتَ في تفتيشها

أقدمتَ مقتحما على نُشّابهـا ... تكسو الجياد رياشَها مِن ريشها

فكأنهـا بالنبـل مِن نشابهـا ... أهدت اليك لآلئـا مِن كيشها[3]

دارت رحى الحرب الزّبون عليهمُ ... فغدت رؤوسهمُ حُطامَ جريشها

فقتَ الملوك يبذل ما تحويه اذْ ... خُتِمتْ خزائنها عـلى مُنقوشها

نزلتْ على ماترتضيه ، ولو أبَتْ ... أركبتَها قهـرا ظهـورَ نعوشها

وطويتَ عن مصرٍ فسيحَ مراحل ... ما بين بِركتهـا وبين عَريشها[4]

حتى حفظتَ عـلى العباد بلادها ... مِن رومها الأقصى الى أحبوشها[5]

فرشتْ حماةُ لوطء نعلك خدّها ... فوطئتَ عينَ الشمس من مفروشها

---

(١) الجاليش : لفظة اعجمية معربة معناها الراية التي في راسها خصلة مـن الشعر وبينها بهذا المعنى وبين كلمة شاليش العامية المستعملة في ديـار الشام اليوم صلة . وكان المماليك يطلقونها على الطليعة من الجيش والمجاز هنا واضح بين شاليش الشعر وجاليش الجيش .

(٢) الشاويش : كلمة تركية تستعمل حتى اليوم في مصر والشام . ومثلهـا الاكديش لحصان الحمولة .

(٣) الكيش : نوع من برود اليمن ولعلها رديفة الكيس بمعنى الكنانة وعلى هذا تكون اعجمية وقد يكون بينها وبين الخيش المستعملة في العامية صلة .

(٤) البركة : لعلها بركة الحبش وهي مشهورة في مصر حينئذ .

(٥) يقصد بالروم والأحبوش حدود الروم والحبشة مع البلاد العربية .

وضربتَ سِكّتَها التي أخلصتَها	مما يشوب النقد مِن مغشوشها
وكذا المعرّةُ اذْ ملكتَ قِيادها	دهشت سرورا سار في مدهوشها[1]
طربتْ برجعتهـا اليـك كأنمـا	سكرتْ بخمرة جأشِها أو جيشها
شمـل الرعايا منـك برٌّ زاد في	إفراطه ، فأزالَ مِن تشويشهـا
لا زلتَ تنعش بالنوال فقيرَها	وتنال أقصى الأجر مِن منعوشها

« الديوان : ٢٧٠ ـ ٢٧١ » و « المختصر ٣ : ٢٠٦ »

وقد وجدنا في النجوم الزاهرة (ابن تغري بردي ج ٧ ، ص ٨٢) أبياتا قالهـا شاعر دمشقي تصوّر الفرح بالنصر في عين جالوت وعزّة المسلمين به بعد أن أذلّهم التتار ، وقد أنشدها أمام المظفّر قُطز حين دخل دمشق بعد انتصاره وهي :

هلك الكفر في الشـآم جميعـاً	واستجدّ الإسلامُ بعد دحوضه
بالمليـك المظفّـر الملـك الأر	وَعِ سيف الإسلامِ عند نهوضه
مَلِكٌ جـاءنا بعـزم وحـزمٍ	فاعتززنـا بسُمـره وبيضـه
أوجَب الله شـكر ذاك علينـا	دائمـا مثل واجبـات فروضه

« المختصر ٣ : ٢٠٦ »

غير أنّها ليست في مستوى النصر والمنتصر ، وكل ما فيها أنّها تعبّر عن فرحة الشاعر وفرحة من حوله .

ويقول المؤرخ الشيخ شهاب الدين أبو شامة في هذا النصر « ذيل الروضتين ص ٢٠٨ » :

غلب التتار على البلاد فجاءهم	من مصر تركيٌّ يجود بنفسـه
بالشام أهلكهم وبدّد شـملهم	ولكـلّ شيء آفـة مـن جنسـه

ولهذين البيتين مدلولان هامّان أحدهمـا أن العرب الذين كانوا بعزلة عن الحياة العسكرية وما فيها من رجولة قد تركوا أمر الدفاع إلى جند الأتراك واعتمدوا عليهم . والثـاني أنّهم يشعرون بأنّ هؤلاء الأتـراك جنس غـير جنسهم ، وإن

(١) يريد بالمدهوش القلب .

كانوا قد دخلوا في دينهم ، وذلك شعور قومي كامن في النفس دلت عليه عبارة الشطر الثاني : « ولكل شيءٍ آفة من جنسه » .

وقد بدأ بيبرس سلسلة حملات في بداية حكمه حين علم بتحالف الصليبيين مع التتار الذين دخل بعضهم في المسيحيّة ، فاستولى على قيساريّة وقلعة أرسوس البحرية جنوب قيسارية برغم الدفاع المستميت الذي قام به فرسان الاسبتارية مدة أربعين يوما ، ثم استولى على صفد ثم على أنطاكية وسار نحو طرابلس وكتب الى أميرها :

« إنّ رايتنا الصفراء سادت بدلا من رايتكم الحمراء والله أكبر قد أخرست نواقيس كنائسكم » ولكنه عقد معاهدة مع صاحبها ولم يستولِ عليها عنوة .

وبلغه أنّ التتار قد عادوا يهاجمون الشام فسار اليهم ولكنهم فرّوا من لقائه ثم التقى بثلاثة آلاف منهم على الفرات في الجزيرة فخاضه مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي ولم ينج من التتار في هذه الموقعة إلاّ عدد قليل . « ابن تغري بردي : المنهل الصافي (خ) ١ : و ٣٧٦ — ٣٧٧ » .

ومما قاله الموفّق عبد الله بن عمر الأنصاري في هذا النصر « النجوم الزاهرة ج ٧ : ١٦٠ » :

ولمّا ترامينا الفرات بخيلنا ... سكرناه منّا بالقوى والقوائم

فأوقفت التيار عن جريانه ... إلى حيث عدْنا بالغنى والغنائم

وقال شهاب الدين محمود [1] في هذا النصر قصيدة منها « النجوم الزاهرة ٧ : ١٥٩ » :

---

(١) ستأتي بعد صفحتين ترجمة الشهاب محمود حين نورد ميميّته في الاشادة ببيبرس وتجد هذه الترجمة في عدة مراجع منها « الأعلام للزركلي ج ٨ ، ص ٤٨ » ومنها « بروكلمان ، ج ٢ : ٥٢ ، ٤٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية » .

سِرْ حيث شئت لك المهيمن جارُ — واحكم فطوعُ مُرادك الأقدارُ
لم يبق للدين الذي أظهرته — ياركنَه عند الأعادي ثارُ
لمّا تراقصت الرؤوسُ وحرّكت من — من مطربات قسيّك الأوتار
خضت الفراتَ بسابحٍ أقصى مُنى — هوجِ الصَّبا من نعله آثارُ
حملتك أمواج الفرات ومن رأى — بحراً سواك تُقلّه الأنهار
وتقطّعت فِرَقاً ولم يك طودَها — إذْ ذاك إلا جيشُك الجرّار
رشّت دماؤُهم الصعيدَ فلم يطِرِ — منهم على الجيش السعيد غبارُ
شكرت مساعيَك المعاقلُ والورى — والتربُ والآسادُ والأطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم — وسقيت تلك وعمّ ذا الإيسارُ
فلأملأنّ الدهر فيك مدائحاً — تبقى ، بقيت ، وتذهب الأعصارُ

وقال محمد بن يوسف المهندار في هذه الوقعة (مطالع البدور للغزولي : ج ١ ص ٢٢٧) « وفوات الوفيات ١ : ٨٧ » :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا — والخيلُ تطفح في العَجاج الأكدر
وسنا الأسنّة والضياءُ من الظُّبى — كشفا لأعيننا قتام العِثْيَر
وقد اطرخمّ الأمر واحتدم الوغى — ووهى الجبان وساء ظنّ المجتري
لرأيت سَدّاً من حديد سائداً — فوق الفرات وفوقه نارٌ تري
ورأيتَ سيلَ الخيل قد بلغ الزُّبى — ومن الفوارس أبحراً في أبحر
لمّا سبقنا أسهُما طاشت لنا — منهم إلينا بالخيول الضُّمّر
لم يفتحوا للرمي منهم أعيناً — حتى كُحِلْنَ بكلّ لدن أسمر
فتسابقوا هرباً ولكنْ ردّهم — دون الهزيمة رُمْح كلّ غضنفر
ما كان أجرى خيلنا في إثرهم — لو أنّها برؤوسهم لم تعثُر
وجرت وجوهُهم على وجه الثرى — حتى جرى منهم مجاري الأنهُر
والظاهرُ السلطانُ في آثارهم — يروي الرؤوسَ بكلّ عضبٍ أسمر
ذهب العجاج مع النجيع بصقله — فكأنّه في غمده لم يُشهر

ثم هاجم التتار بلاد الشام زمن الملك الظاهر بيبرس فلحق بهم وانتصر عليهم ، وقد خاض الفرات اليهم ، نصرا باهرا ، ثم تحالفوا عليه مع الروم سنة ٦٧٥ هـ

واجتمعوا على نهر جيحان في الاناضول فســـار اليهم وحمل عليهم مع جنده حملة رجل واحـــد فقتلوا وأسروا عـــددا كبيرا منهم وبينهم جمـــاعة من اعيـــان الروم والتتار [1] . وقد خلد الشهاب محمود [2] هذا النصر بقصيدة اقتبسنا منها الأبيات التاليـــة :

---

(1) ابن تفري بردي ، المنهل الصافي (خ) ۱ : و ٣٦٤ » .

(۲) هو شهاب الدين ابو الثناء محمود بن سلمان . ولد بدمشق سنة ٦٤٤ هـ اخذ ثقافته الدينية والادبية عن مشـــاهير عصره . برع في الادب وكـــان ضليعا في الفقه وولي قضاء الحنابلة ، وعرف بحسن الخلق ، عين لكتابة الانشاء في الثلاثين من عمره واستمر عليها حتى سنة ٦٩٢ هـ ، انتقل الى مصر واصبح صاحب ديوان الانشاء لدى الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٧٠٨ هـ ثم عاد الى دمشق ناظرا في ديوان الانشاء وكاتبا للسر . نال حب الناس لدماثة اخلاقه فكان ذوو النفوذ يجلّونه ومنهم تنكز نائب السلطنة بدمشق . توفي سنة (٧٢٥ هـ) في دمشق ودفن في سفح قاسيون بالقرب من مدرسة اليغمورية .

اشهر آثاره « حسن التوسل الى صناعة الترسل » . و « مقـــامة العشاق» وهي مفقودة و « منازل الاحباب ومنازه الالباب » وهي في الهوى العذري ولا تزال مخطوطة . وله ايضا تاريخ ذيّل به على الكامل لابن الاثير وهو مخطوط . وجمع بعضهم من تقاليده الرسمية وتواقيعه ورسائلـــه الاخوانية مجلّدين . وقصائده كثيرة تبلغ ثلاث مجلـــدات وله في المـــدائح النبوية « أهنا المنائح في أسنى المدائح » وهو مجموع مدائح افردهـــا من شـــعره .

« ترجم له من المؤلفين المعاصرين الدكتور عمر موسى باشا في كتابه « الادب في الشام » والدكتور محمد زغلول سلام في كتابه « الادب في العصر المملوكي الاول » ، وترجم له الزركلي في الاعلام » .

الأبيـات :

١ ـ كذا فلْتكن في الله تَمضي العزائمُ ... والا" فلا تجفو الجفونَ الصـوارم

٢ ـ عزائمُ حاذتهـا الرياح فاصبحتْ ... مخلّفةً تبكـي عليهـا الغمـائم

٣ ـ سرت من حمى مصر الى الروم فاحتوت ... عليه وسُوراه الظُّبـا واللّهـاذم

٤ ـ بجيشٍ تَظَلّ" الارضُ منه كأنها ... على سَعة الارجاء في الضيق خاتَم

٥ ـ كتائب كالبحـر الخضم جيادُهـا ... اذا ما تهـادت موجُـه المتلاطـم

٦ ـ تحيط بمنصـور اللواء مظفّـر ... له النصرُ والتأييدُ عبدٌ وخـادم

٧ ـ مَليك يلوذ الدين من عزَمـاته ... بركنٍ لـه الفتحُ المُبينُ دعـائم

٨ ـ مَليكٌ لابكـار الاقاليم نحـوه ... حنينٌ كذا تهوى الكرامَ الكرائم

٩ ـ فكم وطئتْ طوعاً وكرها جيـادُه ... مَعاقل قرطاها السُّها والنّعائم (١)

١٠ ـ مليـك له للـدين في كل ساعـة ... بشـائرُ للكفـار منهـا مـآتم

١١ ـ جَلا ، حين اقذى ناظرَ الكفر، للهدى ... ثغورا بكى الشيطانُ وهي بواسم

١٢ ـ اذا رام شـيئا لم يَعُقْه لبعدهـا ... وشـقّتها عنه الإكامُ الطواسِم (٢)

١٣ ـ فلو نازع النّسرين شيئا لناله ... وذا واقع عجزا ، وذا بعدُ حـائم

١٤ ـ ولمّا رأى الرومُ المنيعَ بخيلـه ... ومِن دونه سدٌ مِن الصخر عاصم

١٥ ـ يروم عُقـاب الجوّ قطع عِقـابه ... اليه فـلا تقـوى عليه القـوادم

١٦ ـ وسـالت عليهم ارضُهم بمواكب ... لها النصرُ طوعاً والزمانُ مسـالم

١٧ ـ أدارت بهم سُورا منيعا مشرّفـا ... بسُمر العوالى ماله الدهرَ هـادم

١٨ ـ من الترك امّـا في المغـاني فانهمُ ... شـموس وأمـا في الوغى فضَراغم

١٩ ـ غدا ظاهرا بالظـاهر النصرُ فيهمُ ... تَبيد الليالي والعِـدا وهو دائم

٢٠ ـ فأهوَوا الى لثم الأسـنة في الوغى ... كأنهـمُ العشـاق وهي المباسـم

---

(١) النعائم : ثمانية كواكب مَن منازل القمر اربعة منها تسمى الصادر واربعة تسمى الوارد .

(٢) الطواسم : الطوامس ، التي يضل بها الانسان الطريق .

٢١ـ وصافحت البيضُ الصِّفاحُ رقابَهم وعانقتِ السمرُ القدودُ النواعم
٢٢ـ فكم حاكم منهم على ألف دارع غدا حاسرًا والرمحُ في فيه حاكم
٢٣ـ وكم ملِكٍ منهم رأى وهو موثَق خزائنَ ما يحويه وهي غنائم
٢٤ـ فلا زلتَ منصورَ اللواء مؤيَّدا على الكفر ما ناحت وأبكت حَمائم

« النجوم الزاهرة ، ٧ : ١٦٨ »

وتوفي الملك الظاهر بيبرس في ٢٨ محرّم سنة ٦٧٦ هـ ، فأخفي موته ، وحُمل إلى القلعة ليلا وغُسل ، وحنّط ، وصُبّر . وكفنه « مهتاره » [١] الشجاع عنبر ، والفقيه كمال الدين المعروف بابن المنبجي وعزّ الدين الأفرم أحد قوّاده،وجعلوه في تابوت وعلّقوه في بيت من بيوت البحرة بقلعة دمشق ، وكتب الأمير بدر الدين بيليك الخزندار مطالعة بيده إلى ولده الملك السعيد في مصر .

وفي سنة سبع وسبعين عملت أعزيته بالديار المصرية ، ونصبت الخيام العظيمة ، وصنعت الأطعمة الفاخرة واجتمع الخاصّ والعام ، وحضر القرّاء والوعّاظ ، وخلع عليهم ، وأجيزوا بالجوائز السنيّة . (فوات الوفيات . بتحقيق د . إحسان عباس، جـ ١ : ٢٤١) .

ويتساءل المرء عن سبب تأخير عزائه أكثر من سنة ، فلا بدّ لذلك من عوامل تتعلّق بالحكم ، وقد كان أبناؤه صغارا فعيّن السلطنة كبير الأمراء قلاوون الذي استخلص الملك بعد ذلك لنفسه دون أولاد بيبرس ، وجعله وراثيّا في أسرته. ويستلفت النظر أنه لم تقم لموته ضجّة شعبية عامة كما حدث حين وفاة صلاح الدين ومن قبله نور الدين واكتفي كما رأينا بفخامة الحفل الرسمي وبالشكليّات . وهنا مجال للتساؤل أيضا أكان الشعب أقلّ حبّا له ، وهذا ما نقدّره من مسلكه الميّال غالبا إلى استعمال القوة كسائر المماليك ، أم أنّ الناس كانوا يقدّرون أن السلطة بعد وفاته أصبحت في يد قلاوون وكانوا يخمّنون أنه لا يرتاح كثيراً لاظهار الحزن الشديد عليه . وهذا أيضا محتمل ويرتبط بذلك أننا لم نجد في رثائه الا مقطوعتين

---

(١) المهتار : المملوك الذي يتولى ادارة الشؤون الخاصة لسيده .

الواحدة لمحيي الدين بن عبد الظاهر رئيس ديوانه والثانية لكمال الدين ابن العطار وهو أحد كتّاب الإنشاء في دمشق (٦٢٦ ــ ٧٠٢) هـ[1] ، على حين أنّه مدح في حياته بقصائد فخمة طوال . ويضاف الى هاتين المقطوعتين بيتان لابن عبد الظاهر قالهما حين دُفن الظاهر في دار العقيقي بدمشق وهي المكتبة الظاهرية الآن ، وهما :

صاحِ هـذا ضريحه بين جفنـيَّ ... فزوروا مـن كل فـجٍّ عميـق
كيف لا وهـو من عقيق جفونـي ... دفنـوه منهـا بـدار العقيقـي

وظاهر ما فيهمـا من صنعة ومن فتور العـاطفة ورغبة في الجناس بين عقيق والعقيقي .

وسنكتفي من المقطوعتين بمقطوعة ابن عبد الظاهر لأنها في نظرنا أجود .

قـال :

الله أكبـر إنهـا لمصيبـة ... منها الرواسي خيفة تتقلقل
لهفي على الملك الذي كانت به الد ... نيا تطيب فكلّ قفر منزل
الظاهر السلطان من كانت لـه ... منن على كلّ الورى وتطوّل
لهفـي علـى آرائـه تلك التـي ... مثل السهام إلى المصالح ترْسَل
لهفي على تلك العزائم كيف قـد ... غفلت وكـانت قبـل ذا لا تغفـل
مـا للرمـال تخوّلتهـا رعـدة ... لكنهـا إذ ليس تعقل تعقـل
سهمٌ أصاب ومـا رمي من قبلـه ... سـهمٌ لـه في كـل قلب مقتـل
أنا إن بكيت دماً فعذري واضـح ... ولئـن صبـرت فإنّنـي أتمثّـل
خلّف الشهيدَ لنا السعيدُ فأدمُع ... منهلّـة في أوجُـه تتهلّـل

« تاريخ ابن إياس ، جـ ١ : ١١٠ ــ ١١١ »

سعى المنصور قلاوون الذي ملك بعد بيبرس إلى وحدة البلاد ، وثار عليه نائبه في دمشق سنقر الأشقر ونادى بنفسه ملكاً فيها فأرسل إليه مملوكه طرنطاي فقضى

(١) وقد جاءت هذه المقطوعة في « ترجمة اعيان العصر المخطوطة : ١٣٥ ب » ، واسم الشاعر احمد بن محمود، ابو العباس بن ابي الفتح الشيباني الدمشقي .

عليه واستتب له الأمر . وكان أعجمياً في حديثه فقد كان كبير السن حين اشتري فلم يتقن العربية .

صد جيوش الفرنجة والتتار الذين دخلوا حلب وخربوها فهزمهم قرب حمص ، وباغت الفرنجة في الساحل وحاصر طرابلس أربعة وعشرين يوما واستولى عليها وخربها كلها وبنى قربها مدينة طرابلس الحالية . واستولى على حصن المرقب .

وأسس لأسرته ملكاً دام إلى آخر هذه الدولة المملوكية البحرية ويعد من أعظم سلاطينها .

مدحه شهاب الدين محمود حين فتح حصن المرقب سنة ٦٧٨ هـ وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وكان كبيراً جداً لم يفتحه صلاح الدين فيما فتح ، ومدحه غيره من الشعراء ، ومما قاله الشهاب محمود :

الله أكبر هذا النصر والظفر	هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت	إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر واملك الدنيا، فقد نحلت	شوقاً منابرها وارتاحت السرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك	فطال عنه وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الأيام مملكة	كانت لدولتك الغراء تدخر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن	إسعاده منجداك : القدر والقدر
عز العدا منك حلم تحته همم	لأشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى	معنى العواصف لا تبقي ولا تذر

« النجوم الزاهرة ، ٧ : ٣١٧ ـ ٣١٨ » .

وسار الملك الأشرف على غرار أبيه ، ومن قبله ، في حرب الفرنجة لتحرير البلاد وكان له شرف طرد آخر جندي صليبي من عكا ، آخر معقل بقي لهم حتى أيامه في بلاد الشام واجتمع معه عليها من الأمم ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند في الخدمة (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥) . ولذلك كانت الفرحة عظيمة

في قلوب أهل البلاد كلّهم (١) • وقد عبّر عنها الشهاب محمود (٢) بالقصيدة التالية الرائعة :

١ ــ الحمد لله زالت دولةُ الصلُبِ — وعزّ بالتُرك دِين المصطفى العربي
٢ ــ هذا الذي كانت الآمال لو طلبتْ — رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
٣ ــ ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها — في البحر للشرك عند البرّ مِن أرب
٤ ــ عَقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها — دهرا وشدّتْ عليها كفُّ مغتصِبِ
٥ ــ لم يبق من بعدها للكفر إذْ خربت — في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
٦ ــ كانت تخيّلها آمالنا فنرى — أنّ التفكر فيها اعجبُ العَجب
٧ ــ اما الحروب فكمقد انشأت فِتَنا — شاب الوليد بها هولا ولم تَشِب
٨ ــ سُوران برٌّ وبحرٌ حول ساحتها — دارا وأدناهما أنأى من القُطُب
٩ ــ مصفّحٌ بصِفاح حولَها أَكَمٌ — مِن الرماح وابراجٌ من اليَلَب
١٠ــ مثلُ الغمائم تهدي مِن صواعقها — بالنبل أضعافَ مايُهدَى مِن السحب
١١ــ كأنما كلُّ بُرج حولَه فَلَك — مِن المجانيق يرمي الارضَ بالشهب
١٢ــ ففاجأتْها جنود الله يقدُمها — غضبانُ لله لا للمُلْك والنَشَب
١٣ــ كم رامها ورماها قبله ملِك — جمُّ الجيوش فلم يظفر ولم يُصِب
١٤ــ لم ترضَ هِمّتُه الا الذي قعدت — للعجز عنه ملوك العُجمْ والعرَب
١٥ــ ليث أبى ان يردّ الوجه مِن أُمم — يدعون رَبّ الورى سبحانَه بأب
١٦ــ لم يُلهِه مُلْكُه بل في أوائله — نال الذي لم ينله الناس في الحِقَب
١٧ــ فأصبحتْ وهي في بحريْن ما ثلةٌ — ما بين مضطرم نارا ومضطرِب
١٨ــ جيش مِن الشِّرك تَرك الحرب عندهمْ — عار وراحتهمْ ضَرب مِن الوصَب

(١) « ابن تغري بردي المنهل الصافي (مخطوط) ٢ : و ٧٥ ــ ٧٧ » .

(٢) سبقت ترجمته . والقصيدة في « الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين » للحريري ص ١٤٥ ــ ١٤٦ » ومطلعها عنده يختلف عنه هنا وهو هكذا :

الله اكبر ذلت دولة الصلُب — وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

١٩ــ تسنّموها فلم يترك تسنّمها ... في ذلك الافق برجا غير منقلب

٢٠ــ يايومَ عكا لقد أنسيتَ ما سبقت ... به الفتوح وما قد خُطَّ في الكتب

٢١ــ لم يبلغ النطقُ حقَّ الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والخُطَب

٢٢ــ كانت تمنّى بك الايامُ مِن أُمم ... والحمد لله شاهدناك عن كَثَب

٢٣ــ أغضبتَ عبّادَ عيسى إذْ أبدتهم ... لله أيّ رضا في ذلك الغضب

٢٤ــ وأطلع الله جيشَ النصر فابتدرت ... طلائعُ النصر بين السمر والقضب

٢٥ــ وأشرف المصطفى الهادي البشيرُ على ... ماأسلف الأشرفُ السلطانُ مِن قُرَب

٢٦ــ فَقَرَّ عينا بهذا الفتح وابتهجت ... بفتحه الكعبةُ الغَرّاء في الحُجُب

٢٧ــ وسار في الارض سَيْرَ الريح سُمعته ... فالبرُّ في طرَبٍ والبحرُ في حَرَب

٢٨ــ وخاضت البيضُ في بحر الدماء وما ... أبدتْ مِن البِيض الا ساق مختضِب

٢٩ــ وخاض زرق القنا في زُرْق اعينِهم ... كأنها شُطُنٌ تهوي الى قُلُب

٣٠ــ توقّدت وهي تروى في نحورهمِ ... فزادها الريُّ في الاشراق واللهب

٣١ــ أجْرتْ الى البحر بحرا مِن دمائهمِ ... فراح كالراح اذْ غرقاه كالحبب

٣٢ــ وذاب مِن حرّها عنهم حديدهمُ ... فقيَّدتهمْ بها رعبا يدُ الرهَب

٣٣ــ كم ابرزت بطلا كالطود قد بطلتْ ... حواسّه فغدا كالمنزل الخرب

٣٤ــ كأنه وسِنان الرمح يطلبه ... بُرج هوى ووراه كوكب الذنب

٣٥ــ بشراك ياملِك الدنيا لقد شرُفتْ ... بك الممالك واستعلت على الرتب

٣٦ــ ما بعد عكاً وقد لانت عريكتها ... لديك شيء تلاقيه على تعَب

٣٧ــ فانهض الى الارض فالدنيا بأجمعها ... مُدّت اليك نواصيها بلا نصَب

٣٨ــ كم قد دعت وهي في أسر العدا زمنا ... صِيد الملوك فلم تَسمَع ولم تُجِب

٣٩ــ ادركت ثأر صلاح الدين اذ غُصِبت ... منه ، لسرّ طواه الله في اللقب

٤٠ــ وجئتها بجيوش كالسيول على ... امثالها بين آجام من القضب

٤١ــ وحطتَها بالمجانيق التي وقفت ... ازاء جدرانها في جحفل لَجِب

٤٢ــ مرفوعةً نصبوا أضعافَها فغدا ... للكسر والحطم منها كلُّ منتصِب

٤٣ــ ورُضتَها بثقوب ذلّلت شمَمَــا منهــا ، وأبدت مُحيّاها بلا نُقُب

٤٤ــ وغنّت البيض في الاعناق فارتقصت ابراجهــا لعبــا منهــن باللعَب

٤٥ــ وخلّقت بالدم الأسوارَ فابتهجت طيبا ولولا دمــاءُ الموت لم تَطِب

٤٦ــ ظنوا بروج البيوت الشمّ معقِلهمْ فاستعقلتهم ولم تُطلِق ولم تَهَب

٤٧ــ فأحرزتهم ولكنْ للسيوف لكــي لا يلتجي أحــد منهمْ الى هــرب

٤٨ــ وجالت النــار في ارجائهــا وعلت فاطفأت ما بصدر الدين من كُرَب

٤٩ــ وافلتِ البحرُ منهم من يُخبِّر من يلقــاه مِن قومه بالويل والحَرَب

٥٠ــ عــلابك الملك حتــى إنّ خَيمته على الثريا غدت ممدودةَ الطُنُب

٥١ــ فلا برِحتَ عزيزَ النصر مبتهجــا بكل فتــح مُبين المَنــح مرتقَب

وهــاجم التتــار بقيادة غــازان بلاد الشــام فالتقى الملك النــاصر محمد إبن قــلاوون الــذي خلف أخــاه الســلطان الأشرف خليــلا بهم قــرب حمص في وادي « مجمــوع المــروج » فانهزم أمــام غــازان هــزيمة ســاحقة وقتــل عدد من كبار المماليك ، ودخل غازان دمشق فاتحا سنة ٦٩٩ هـ وخطب له فيها على المنابر ، غير أنّ قلعة دمشق امتنعت عليه فأكتفى بجباية الأموال من الأهالي وأخذ كلّ ما وجد من الغلال والخيل والبغال ، وأحرق جامع التوبة في العقيبة ، وهــدم كلّ ما حول دمشق من معالم العمران وقتل من حي الصالحية أربعة آلاف ، وأسر مثلهم . وتابع التتار تقدّمهم في الشمال بعد أن انسحب الناصر إلى العريش . وعاد غازان إلى دمشق ، فاحتمى الناس بالقلعة وفرّ بعضهم إلى مصر ، وعسكر المغــول بالغوطة ثمّ رحل غازان إلى بلاده بعد أن استخلف نائبه « قطلوشاه » [١] .

وقد وصف علاء الدين الأوتاري [٢] ما حلّ بدمشق حين استولى عليها غازان فقال : (خطط الشام لكرد علي ج ٦ ص ٣٧٦) .

---

(١) « الصفدي : اعيان العصر (خ) ٦ : و ٢٣١ ــ ٢٣٣ وابن تغري بــردي ، المنهل الصافي (خ) جـ ٢ : و ٥٠٠ » .

(٢) لا اعرف عن هذا الشاعر شيئا .

طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ونهب الأموال والأولاد

وبنات محجّبات عن الشمس تنادت بين أيدي الأعادي

وقصور مشيّدات تقضّت في ذراها الأيامُ كالأعياد

حرّقوها وخرّبوها وبادت لقضاء الإله ربّ العباد

وقد أحسن الشاعر شرف الدين الوحيد حين وصف تداول النصر بين التتار وأهل البلاد قائلا : (خطط الشام جـ ٢ ص ١٤٣) :

وجاءت ملوك المُغل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا

فأنصفت الأيام في الحكم بيننا فكانت له الأولى وكانت لنا الأخرى

وما أجمل قوله : فأنصفت الأيّام في الحكم بيننا .. فإنّ الأيام لا تنصر ضعيفا أوجبانا أو مخذولاً ، وانّما تنصر القويّ الشجاع المصمّم المخطّط المدبّر .

وقد توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون (سنة ٧٤١ هـ) فرثاه بعض الشعراء ، كما قال ابن إياس ، (جـ ١ ص ١٧٤) بالأبيات التالية :

حكم المنيّة في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

ومكلّف الأيام ضدّ طباعها متطلّب في الماء جذوة نار

طبعت على كدَرٍ وأنت تريدُها صفوا من الأقذار والأكدار

وإذا رجوت المستحيل فإنّما تبني الرجاء على شفيرٍ هارِ

فالعيش نوم والمنيّة يقظة والمرء بينهما خيال سارِ

جاورت أعدائي وجاور ربّه شتاّن بين جواره وجواري

وأعتقد أنّ هذه الأبيات ليست من هذا العصر ، بل من عصر متقدّم عليه

جداً ، ولعلّه العصر العبّاسي الثـاني وهي لأخ في أخيه وأن القائل إنما تمثل بهـا وليس صاحبها .

وهاجم الفرنجة ثغر الاسكندرية مفاجأة سنة ٧٦٧ هـ فقتلوا وأسروا ونهبوا : فقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة يرثي الثغر ويذكر ما حلّ به ومثل هـذه الهجمة كانت تقع هجمات ! :

ألا في سبيل الله ما حـلّ بالثغـر — على فرقة الإسلام من عصبة الكفر

أتاهـا من الإفرنج سـبعون مركبا — وضاقت بها العربان في البرّ والبحر

وصيَّر منها أزرق البحر أسـودا — بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر

أتـوْا نحوها هجْما على حين غفلةٍ — وباعثُهم في الحـرب يقصُر عن فتر

فكم من فقير عاش فيهـا من الغنى — وكم من غنيّ مات فيها من الفقـر

نثرت دموعـي يوم فرط نظـامهم — فيا ليت شـعري من يبلّغهم نثري

« تاريخ ابن إياس ، ج ١ ، ص ٢١٥ »

٤ ـ العهد المملوكي الجركسي :

كتب تيمور لنك الى الملك الظاهر برقوق كتابا يهدده فيه جعل عنوانه :

سلام ، وإهداء السلام من البعـد   دليـل على حفظ المودة والعهـد

فكلف برقوق كاتب سره بدر الدين محمد بن علي بن فضل الله (*) بالرد عليه فافتتح البدر العنوان بقوله :

طويل حياة المرء كاليوم في العـدّ   فخبرتـه ألا يزيـد على العَـدّ

فـلا بـد من نقص لكـل زيـادة   لانّ شديد البطش يقتصّ للعبـد

وجاء في الكتاب من شعره جوابا عن كثرة تهديد تيمور لنك وافتخاره :

السيفُ والرمح والنشاب قد علمت   منا الحروبَ فسل منها تلبيّكا[1]

اذا التقينا تجـدْ هـذا مشاهدة   في الحرب فاثبُت فأمرُ الله آتيكـا

بخدمـة الحرمـين اللهُ شرّفنـا   فضلا وملّكنا الامصـار تمليكـا

وبالجميل وحلـو النّصر عوّدنـا   خذ التواريخ واقرأها فتنبيكـا[2]

---

* هـو محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله العمري . ولاه الملـك الاشرف شعبانَ بن حسين كتابة السر ، وابوه علاء الدين علي في مرض موته ، وله من العمر تسع عشرة سنة وجعل اخاه عز الدين حمزة نائبا عنه ، واعفي من العمل ثم عاد اليه في سلطنة الملك برقوق الثانية بعد ان قضى برقوق على ثورة الامير يلبغا الناصري ، وحظي عند مليكه . توفي في دمشق سنة ٧٩٦ هـ وتوفي اخوه حمزة سنة ٧٩٧ هـ وهما آخر من عرف من كتاب السر من هذه الاسرة .

(١) فسل منها : استعمال الجار والمجرور هنا خطأ صوابه التعدية المباشرة : فسلنهـا .

(٢) بالجميل : الباء لا ضرورة لها .

والانبياء لنا الركن الشديد وكـم   بجاههم مِن عدوّ راح مفكوكـا
ومن يكـن ربـه الفتـاح ناصره   ممن يخاف ؟ وهذا القول يكفيكـا

وجاء فيه أيضا :

اذا المرء لـم يعرف قبيـح خطيئة   ولا الذنب منه مـع عظيم بليّتِه
فذلك عين الجهل منـه مع الخطـا   وسـوف يرى عقباه عند منيّتِه
وليس يُجـازَى المـرء الا بفعله   وما يرجم الصيـادُ الا بنيّته (١)

« المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٥٨ ، المقريزي »

ظهر الخطر المغولي من جديد فقد هاجم تيمور لنك سورية بعد أن كان قـد دوّخ المشرق ووصل إلى الهنـد ، فاستولت جيوشه على حلب سنة ٨٠١ هـ وبنى من رؤوس القتلى تلالا مسـتديرة صفّت بحيث تبرز وجوهها لمن يراهـا ، وهدم المساجد والمدارس التي بناها الزنكيون والأيوبيّون ثم اتجه إلى دمشق فاستولى في طريقه على حماة وحمص وبعلبكّ ، وانهزم أمامه الجيش القادم من مصر ، وقـد اضطرّ السلطـان فرج ان يرجع إليها قبل المعركة لثورة حدثت فيها أثناء غيـابه . وسقطت دمشق بأيدي التتار بعد أن دافعت قلعتها شهراً ، وسبَوْا أهلها ، وأحرقوا عماراتها ومنها الجامع الأمويّ الذي سقطت سقوفه ولم يبق قائمـاً إلاّ جدرانه ونقلوا خيرة علماء دمشق وصنّاعها وفنّانيها إلى سمرقند ، ففقدت دمشق كثيراً من صناعاتها التي كـانت تختصّ بها . وكـان ابن خلدون في الوفد الذي أنفـذه الدمشقيّون لمفاوضة تيمور .

ثم هاجم تيمور مدن الشام حلب وحماة ودمشق فقال بهاء الدين البهائي يرثي هذه المدن ، ولا سيّما دمشق ويصف ما حلّ بها على يد التتار سنة ٨٠٣ هـ :

لهفي على تلـك البروج وحسـنها   حفّت بهنّ طوارقُ الحِدْثان (٢)
لهفي على وادي دمشـق ولطفـه   وتبـدّل الغـزلان بالثـيران

---

(١) هذا تعريب للمثل العامي « نيّة الصياد في مخلاته » (مخلايته) .

(٢) حِدْثان الدهر وحَدَثانه : مصائبه ، والحِدْثان ايضا أول الامر .

وشكا الحريقَ فؤادها لمّا رأت — نُوَرَ المنازل أبدلت بدُخان (١)
جنّاتها في الماء منها أضرمت — فعجبت للجنّات في النيران
كانت معاصم نهرها فضّيّة — والآن صِرْنَ كذائب العقيان
ما ذاك إلاّ ترْكُهم ولجت بها — فتخضّبت منها بأحمر قان
كرهت جداولها حوافر خيلهم — فتسابقت هرَباً كخيل رهان
خافت خدود الأرض من أفعالهم — فتلثّمت بعوارض الريْحان

•• •• ••

لو عاينت عيناك جامعَ تنكز — والبِرْكتيْن بحسنها الفتّان
وتعطش المرجين من أورادها — وتهدّم المحراب والإيوان
لأتَتْ جفونك بالدموع ملوّنا — دمعاً حكى اللولو مع المرجان(٢)
قطرات جفْنٍ ترجَمتْ عن حُرْقتي — فكأنهنّ قلائد العقيان
أبني أميّة أين يمنُ وليدكم — والمُغْل تَقتل في ذرا الأركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا — ألقَوْا عَرابدهم على النسوان
لم يرحموا طفلاً بكى فقلوبهم — في الفتك صخر لا أبو سفيان
قصّوا جناح النسر بعد نهوضه — ياليته لو فاز بالطيران (٣)
ألواحُه أجرت دموعي أسطُراً — كتبت على اللوحيْن من أجفاني
إن أنكروا يوم الحساب فعالهم — فشهيدنا عثمان ذو القرآن
لهفي على كتب العلوم ودرسها — صارت معانيها بغير بيان
أعروسنا لك أسوة بحماتنا — في ذا المصاب فأنتما أختان (٤)

---

(١) النُؤُر : ج نؤور ونوور وهو دخان الشحم ، والنُورة : السمة والجمع نُوَر .
(٢) اللولو : استعملها دون همز كما تقولها العامّة اليوم .
(٣) النسر : ربّما يقصد قبة النسر وهي قبة الجامع الأموي الكبيرة .
(٤) الحماة : يقصد هنا مدينة حماة .

غابت بدور الحسنِ عن هالاتها — فاستبدلت من عزّها بهوانِ

ناحت نواعير الرياض لفقدهم — فكأنها الأفلاك في الدوران

حزني على الشهباء قبل حماتنا — (هو أوّل وهي المحلّ الثاني)

لا تدّعي الأحزان يا شقراءنا — السبق للشهباء في الأحزان

رتعت كلابُ المغْلِ في غزلانها — وتحكّمت في الحُورِ والوِلدانِ

لهفي عليكِ منازِلاً ومنازِهاً — ومَقامَ فردوس وبابَ جنان

•• •• ••

لم أدر من أبكى وأندبُ حسرةً — للقصر ، للشرفيْن ، للميدان

للجبهة الغرّاء أم خلخالِها — للمزّة الفيْحا ، أم اللّوّان

« خطط الشام ، محمد كرد علي ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ »

* * *

لمحات من الحياة الاجتماعية في عهود الدول المتابعة ما عدا الأدوار العثمانية :(*)

طبقات المجتمع :

كان نظام المجتمع اقطاعيا منذ العهد السلجوقي فقد وضعه نظام الملك ليهيّئ به جنداً دائم الاستعداد لخدمة الدولة ولكنه تحوّل عن غايته الى نظام لاستغلال الشعب وظلمه وإرهاقه •

وقد قسم المقريزي المجتمع المملوكي الى سبعة أقسام طبقية : القسم الاول منها أهل الدولة • ويلحق به الوزراء ، والكتّاب وأرباب السلطة والقضاة الكبار وهم الجماعة التي أسعدها الحظ أو الحيلة من الأدباء والفقهاء والعلماء فبلغت هذه المراتب الرفيعة • والثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، والرابع أهل الفلح ، والخامس الفقراء ، وهم جلّ العلماء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والسادس أرباب الصنائع والأجراء ، والسابع ذوو الحاجة والمسكنة الذين يسألون الناس • ولم يكن النظام الاجتماعي المملوكي في هذا إلاّ وريث الأنظمة التي سبقته وكلّ ما كان يجري هو استبدال حكام جدد بآخرين •

وقد جعل المقريزي العلماء والمثقفين في القسم الخامس • ولا عجب في أن يكون المقام الأول لأرباب السيف والرمح والنشاب ، وأن يكتب كثير من أدباء هذا العصر مقارنات بين مكانة السيف ومكانة القلم ليبيّنوا ضمنا أنّهم مغبونون •

وجعل جند الحلقة ، وهم الجند العربي من الشعب في الطبقة الخامسة لأنّ المماليك لم يكونوا يطمئنون الى أهل البلاد ولم يكونوا يعطونهم مميزات الجند المملوكي من الإقطاع وغيره ، فكانوا يعيشون في فقر • وكان المماليك يثورون على السلطان اذا حاول الرفع من شأنهم ، وكثيرا ما كانت فرقهم تحَلّ بعد المعارك

---

* هذه اللمحات المشفوعة بالشواهد هي في الوقت نفسه دراسة للأدب الاجتماعي في هذه العهود •

الكبرى وعدم الحاجة المُلحّة اليهم • (المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمّة : ٧٢ و عاشور ، دراسات في الحياة الاجتماعية : ١٠) •

وقد أهمل المقريزي في تقسيمه طبقة الأعراب وكانت ذات شـأن ، فكثيرا ما كانت تثور على السلاطين وكثيرا ما كانت تشارك في المعارك ضد الأعداء المحتلّين من فرنجة ولكنها كانت تعيش في فقر • (دراسات في الحياة الاجتماعية لعاشور : ١٠ عـن : *Pilote de Crete*) •

وقد أضاف بعض المؤلّفين المعاصرين قسما آخر هو أهـل الذمة من اليهود والمسيحيين وأرباب الملل والنحل الأخرى[1] ولكن هذا القسم ليس طبقة مستقلّة وإنما ذكر لتميّز كل فئة منه بدينها الخاص ولكنها تنقسم الى طبقات تتسلسل بين الغنى الفاحش والفقر المدقع كأكثرية أهل البلاد •

المماليـــك

ليس وصول المماليك الى الحكم شيئا جديدا في المجتمع العربي المتحضّر فقد بدأ ذلك من زمن المعتصم الذي ألّف جيشا منْ الأتراك أهلِ أمّه فلم يلبث قواده الكبار حين ضعف الخلفاء بعده ، من أن يصبحوا أصحاب الأمر والنهي ، وتابع غير المعتصم من الخلفاء والملوك خطأ المعتصم في الاعتماد على القوّاد والجنود الأعاجم واستبعاد العرب من شؤون الحكم والسياسة والحرب ، حتى أصبحوا كالغرباء في بلادهم وزاد الشر أنّ هؤلاء المماليك أصبحوا يستمتعون بخير البلاد ويتركون سائر الناس يعيشون في فقر شديد ويعتدون على مصالحهم وأموالهم وأعراضهم ، وقد شعر الناس بخطرهم حين أخذ الملك الصالح نجم الدين أيوب يكثر منهم • قال أحـد الشعراء :

الصالحُ المرتَضى أيّوب أكثر من ... ترْكٍ بدولتـه ياشـرُّ مجـلوبِ
قـد آخَـذ الله أيّـوباً بفَعْلتـه ... فالناسُ قد أصبحوا في ضُرّ أيوب

« النجوم الزاهرة ٦ : ٣١٩ »

---

(١) الأدب في بلاد الشام : د. عمر موسى باشا ص : ٦٠.

ولم يكن المماليك ينتمون الى عنصر واحد • وكان كل سلطان أو أمير منهم يعتمد على أهـل عنصره فينشأ من ذلك فئات متنافسة في الجيش ولكنهم كانوا متكافلين متضامنين عـلى ابتزاز الشعب حتى إنهم قتلوا الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، لأنه أراد أن يكون أكثر اعتمادا على جند الحلقة من أهالي البلاد •

وكان قانون الغاب هو السائد بينهـم في علاقاتهم بعضهـم ببعض ، فكان الطامحون منهـم إلى السلطنة يعتمدون على الدسّ والتآمر والقتـل والاغتيال بالسـلاح أو بالسّم •

وقد جيىء بهم في الأصـل لأمرين : أولهما الانتساب إلى الجيش وثانيهما اللهو والمتعة ، ولكنهم أصبحوا يستمتعون بكل خيرات البلاد وجهود أهلها • وبلغ البذخ عندهم حدّاً لا يُتصور : وكان المخصصون للحرب منهم يتلقون تربيـة عسكرية قاسية • وقد قاموا زمن الحروب بجهود جبّارة لصدّ المغيرين من الفرنجة والمغول ، ولكنّهم تواكلوا في آخر الامر وأهملوا الشؤون العسكرية والتدريبات القاسية وصار بطشهم ينصرف فقط إلى ظلم الأمة وقتال بعضهم بعضا •

وكانت أخلاق أكثرهم سيئة وأولعوا بالغلمان كما أولعوا بالنساء على أنّه وجد بينهم من كان غيوراً على تنفيذ أحكام الدين والمحافظة على الأخلاق كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون • وكان المسيئون منهم يكفّرون عن ذنوبهم ببناء المساجد والمدارس والتكايا فيشاركون الصالحين في ذلك • على أن هؤلاء الصالحين منهم لم تخلُ حياتهم من بعض الأخطاء كاغتيال بيبرس للسلطان المظفّر قُطُز ، وكفتك المنصور قلاوون مرّة بالناس ، ظلما •

وكانت القسوة طابعهم وكان من عقوباتهم التسمير والتوسيط وهو قطـع الجسم نصفين والتقطيع قطعا والتعذيب بالأشياء المحماة والسلخ وكَحْل الأعيُن والتخـزيق •

يقول ابن الوردي في أرغون شاه والي حلب الذي افتنّ في القتل والتعذيب مع التظاهر بالتقى :

عقلتَ طـرْفَـك حـتى أظهـرتَ للنـاس عقلَـكْ

لـــو كان دهـــر ٌ يُولـّي		عــلى بني النــاس مثلَــك ْ
« تاريخ ابن الوردي ٢ : ٣٤٦ »

وقد يأتي الشر والظلم من جنودهم وأفرادهم العاديين كما يأتي من القوّاد • يقول محمد ابن دينار في جماعة الأُو َيْراتية الذين أسكنهم كتبُغا في حيّ الحسينية بالقاهرة لأنّهم من جنسه المغولي :

ربّ ِ اكشِـف ْ عنا العذاب َ فإنـّا		قــد تلِفنا في الدولة المَغْليّه ْ
جــاءنا المَغْل والغــلا فانسلقنا		وانطبخنا في الدولــة المَغْليّه ْ
« المقريزي ، الخطط جـ ٢ : ٢٢ » •

وكان من أثرهم في الأدب استعمال بعض الشعراء ألفاظا تركية إمّا لأنهــا شاعت بين الناس كأسماء بعض الأسلحة والوظائف أو تهكما بالترك • ومن ذلك قول أبي الحسين الجزار :

وكــم قــابلت ُ تُركيــاً بمدحي		فكاد لمــا أحاول منــه يَحنق ْ
ويلطِمني اذا ما قلت ُ آلطِن ْ[1]		ويرمُقني اذا ما قلت ُ يرمَق ْ[2]
وتسقُط حُرْمتي أبــداً لديْه ِ		فلو أنّي عطست ُ لقال يشمَق ْ[3]

« الأدب العامي في مصر ، الجمال ، ص ٤٦ » عن « محاضرات المدكتور محمد كامل حسين سنة ١٩٥٥ » •

ومن أثرهم الغزل بالنساء التركيات كقول ابن نباتة :

بِهِر َ العَذول ُ وقد رأى ألحاظَها		تُركيــةٌ تدَع العذول َ سفيهــا
فثنى المَلام وقال دونَك والأسى		هذي مَضايق ُ لست ُ أدخل ُ فيها
« ابن نباتة الديوان : ٥٤٥ »

---

(١) آلطن : بالتركية : الذهب
(٢) يرمق : بالتركية : نهر
(٣) يشمق : بالتركية : نوع من القماش ، ويشـَمق : الرغبة في الحياة •

وكذلك الغزل بالغلمان الأتراك ، قال عبد الله بن عبد الواحد المعروف بابن اللوز من أبيات :

بي مِن بني الترك ظبيٌ ساحرُ الحدَقِ | شقيقُ خدّيه يحكي حمرة الشفَقِ
ناديتُه حين أبدى جفوة وقِلىً | والطَّرف في فرَقٍ والقلبُ في حرَقِ
صِلني فقد ذبتُ مِن وجدي ومن كمَدي | واعطف بوصلك هذا آخرُ الرَّمَقِ
فقال لي بفتورٍ مِن لَواحظِه | إنَّ العِناقَ لإثمٌ ، قلتُ في عنُقي

« ابن حجر العسقلاني ، الدرر ٢ : ٢٧٢ — ٢٧٣ » .

وكان لهم أثر في الجانب المشرق من حياة الأمة وهو كفاح الأعداء المهاجمين من الشرق والغرب فقد أشاد الشعراء والكتاب بأمجاد سلاطينهم وقوّادهم المنتصرين كما رأينا في شعر اللمحات التاريخية الذي أسميناه شعر النضال . كما أنهم أشادوا بجنسهم المحارب ، قال الشهاب محمود أحد أدباء العهد المملوكي :

الحمد لله ذلّتْ دولة الصلُبِ | وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربي

وقد سبقه الى هذا المعنى ابن سناء الملك أحد أدباء العهد الأيوبي فقال :

بدولة الترك عزَّت دولةُ العَرَبِ | وبابْنِ أيّوب ذلَّت دولة الصلُب

وقد أطلق الشاعر اسم الترك على الأكراد هنا تجوّزاً .

علماء السنة :

وقد نصر الزنكيون والأيوبيون والمماليك المذهب السني ونشأ تنافس بين أصحاب المذاهب الأربعة من العلماء على النفوذ . وكانت المكانة الاولى للمذهب الشافعي . وقد ادّعى كثيرون في هذه الفترة التي كثرت فيها الحروب والمصائب والمظالم والآلام وحالات الفقر والبؤس أنّهم كانوا يرون النبيّ في اليقظة وذلك لينالوا مكانة مرموقة لدى الناس وقد تصدى لهم بعض العلماء ، كابن تيمية ، وفنّدوا دعواهم .

وعلى كثرة اللهو والفساد في تلك الأيام بين الطبقات الغنية والفقيرة على السواء فان بعض الناس قد جمح بهم خيالهم إلى وصف نساء أهل الجنة وما لهنّ من

سجايا ، وقد أسهم في ذلك بعض علماء أعلام كابن قيّم الجوزية على عظم فضله ومحاولته الاصلاح • وهذان بيتان له من قصيدة يذكر فيها أن نساء الجنة لا يحملن :

والناسُ بينهمُ خِلافٌ هل بها حبَلٌ وفي هـذا لهـم قولان
فنفـاه طـاووس وإبراهيم ثـمّ مُجاهـد وهـمُ أولو العِرفان

« الحروب الصليبية وأثرها في الأدب : محمد سيّد كيلاني ص ٥٠ »

وقد وجد أحيانا علماء جريئون وقفوا في وجه المماليك الظالمين كالشيخ عز الدين ابن عبد السلام الذي توفي في زمن الملك الظاهر بيبرس وصلى هذا عليه وقال : ما استقر ملكي الا الآن • فقد نادى هذا الشيخ بعدم جواز حكم المماليك لأنهم عبيد دفع ثمنهم من بيت مال المسلمين ولم يقم الدليل على أنهم أعتقوا وأصبحوا أحرارا فلا بدّ من بيعهم وقبض ثمنهم • وحاول المماليك أن يَثنوه عن رأيه ولكنّهم لم ينجحوا ، وفكروا في التخلص منه فلم يستطيعوا لعظم مكانته عند الناس وخوفهم من عاقبة قتله • (السبكي ، طبقات الشافعية ٥ : ٨٠ ـ ٨٣ ، وغيره) •

وممّن وقف وقفة قوة أمام السلاطين والمماليك من العلماء إسماعيل الواسطي فقد خطب مرة بحضور الظاهر بيبرس فقال :

« إنّك لن تُدعى يوم القيامة يا أيهـا السلطان ولكن تُدعى باسمك ، وكل منهم يسأل عن نفسه ، إلاّ أنت فتُسأل عن رعاياك ، فاجعل كبيرهم أباً ، وأوسطهم أخاً ، وصغيرهم ولداً » •

(ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢ : ٢٢٥) •

وقد تعرض أمثال هؤلاء العلماء لسخط المماليك على أنّ بعض العلماء نافقوا لهم فلم يسلموا من سخط الشعب حين جروا وراء مطامعهم فنراهم في أخريات حكم الظاهر برقوق مؤسس الدولة الجركسية ، وفي حكم ابنه الناصر فرج ومن بعدهما ينزلون من أهل الدولة ومن الناس منزلة سوء ويذمهم أقلّ الغلمان وأحطّ الناس بكل قبيح فنالوا عقابهم لامتهانهم العلم وخضوعهم في طلب الدنيا •

وقد جعل للعلماء ألبسة تميّزهم ، وكذلك رجال الصوفية والأشراف من نسل

النبي ، وقد مُيِّز هؤلاء بعمامة حضراء . ونقد ذلك الرحالة الشاعر عبد الله بن جبير الأندلسي حين زار المشرق في العهد الأيوبي فقال :

جعلوا لأبناء الرسول علامةً ... إنَّ العلامة شأنُ مَن لم يُشهَرِ
نورُ النبوة في كريمِ وجوهِهِمْ ... يُغْني الشريفَ عن الطِّراز الأخضر

« شذرات الذهب ٦ : ٢٢٦ »

وكان المماليك يستشيرون كبار الفقهاء في القضايا المهمة ويعقدون لذلك المجالس وكان هؤلاء يضيقون ذرعا بجهل المماليك وفي أنفسهم أنّهم خير منهم للحكم والإدارة ولا سيّما أنّهم عرب وأنّهم أهل البلاد ، قال ابن النجار في أوّل دولتهم :

همُ الوحوش ونحن الإنس حكمتُنا ... تقودهمْ حيثما شئنا وهم نَعَمُ
وليس شيءٌ سوى الإهمال يقطعُنا ... عنهم لأنّهمُ وِجدانُهمْ عَدَمُ
لنا المُريحانِ مِن علمٍ ومِن عدَم ... وفيهم المُتْعِبانِ : المالُ والغَشَمُ

« فوات الوفيات ١ : ١٠ »

فالحسرة من حكم المماليك وتسلطهم ، وكون المال بأيديهم ، ومن فقر العلماء ، على علمهم ، ظاهرة في هذه الأبيات .

المذهب الشيعي :

وكان المذهب الشيعي في دور المدّ زمن الدولة الفاطمية في مصر والشام[1] ولكنّه أصبح في دور جزر زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك[2] . وقد قامت الدولتان الفاطمية الشيعية في مصر والسنية الزنكية في الشام بدورهما في مكافحة الفرنجة وظهر حسن التفاهم والتعاون بين الفريقين ضدّ هذا العدو المشترك . وقد ظهر بين الفريقين أفراد قلائل من الحكام والوزراء تآمروا ضدّ وطنهم وتعاونوا مع الفرنجة ، كشاور في مصر ومعين الدين أنر في دمشق ، ولكن هؤلاء غلبوا على أمرهم وأزيلوا أخيرا من مراكز السلطة .

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٢٩
(٢) مفرّج الكروب ١ : ١٩٨

وظهر في فرقة من فرق المذهب الشيعي جماعة الحشاشين وهم أتباع الحسن بن الصباح في قلعة « ألموت » وما حولها وقامت بكثير من الاغتيالات ونجحت في اغتيال الوزير نظام الملك ، نصير العلم والأدب المشهور وباني المدارس النظامية ، ولكنّها لم تنجح في اغتيال صلاح الدين ، وكانت أحيانا تحارب ضدّ الفرنجة ولكنّها تتآمر لحسابهم أحيانا أخرى •

وقام مقابل الحشيشة جماعة من مذاهب السنّة أطلقوا على أنفسهم اسم « النبوية » واتخذوا محاربة الحشيشية دَيْدناً لهم واغتالوا بعض أفرادها • (رحلة ابن جبير : ٢٨) •

وقد سعى نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس ومَن بعدهم إلى نشر المذهب السنّي وشدّ أزره بفتح المدارس الكثيرة للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة ، ونجحوا في ذلك[1] • وتآمر عمارة اليمني وهو سنّي ، مع غيره من أنصار الدولة الفاطمية ضدّ صلاح الدين لإرجاع حكمها ولكنّ مؤامرتهم خابت وأعدموا • (ابن واصل ، جـ ١ ، ٢٤٨ ــ ٢٤٩) •

الاحتفالات الدينية :

وكان للدين مظاهر مفرحة مشتركة الى جانب الاختلافات والمنافسات المحزنة كالاحتفالات بالأعياد في الدور والمساجد والملابس والأناشيد والتلاوة • يقول الشاعر ابنُ سِوار يصف ليلة نصف شعبان :

ما أحسنَ الجامعَ في ليلة النصف وقد لاح عليه السرورْ
وأشبهتْ زُهْرُ قناديلهِ كاساتِ راحٍ للندامى تدورْ
وقارن النسرُ الثريا به وقابل البدرَ هناك البدورْ

« فوات الوفيات لابن شاكر جـ ٦ : ٤٣ »

والشاعر هنا يورّي بالنسر والثريا ، وهما نجم وبرج في السماء ، عن قبة النسر وثرياها في الجامع الأموي بدمشق •

---

(١) الأدفوي ، الطالع السعيد ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٣٩٧ والأدب العامي في مصر للجمال ص ١٤ •

المتصوفـــة :

وكان للمتصوفة في هذه العهود نفوذ كبير وفرق مختلفة ولم يستطع السلاطين أن يحولوا دون تسرّب العقائد الغريبة عن الإســلام والفلسفات الأجنبية المختلفة والأفكار المبتدعة إلى أفكار الصوفية الذين كان لهم في كل مكان خانقاهات (أي تكايا) واسعة فخمة رصدت لها موارد كافية تجعل النازلين فيها يعيشون في بحبوحة. ولا شك في أنّ بعض الصوفيين كانوا يدخلونها عن إيمان بما تدعو اليه ولكنّ أكثرَهم كان يدخلها ليعيش عالة على الأمة وليتجنّب تحمّل كل مسؤولية في الحياة ولا سيما في العهود الاخيرة .

وحين أخذ نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وغيرهم يبنون الخانقات ويناصرون المتصوّفين كانت لهم أهداف فكرية مرسومة فقد كانوا عن طريق الصوفيّين يبثون الحماسة في الناس للدفاع ضد الفرنجة ويوجهون الى كل أمير أو ملك لا يتحمّس للحرب نقدا على ألسن هؤلاء الصوفية ينتشر على ألسن الناس جميعا فيحاول الأمير أن يصلح خطأه بالجهاد والعمل ، وذلك ما حدث لأحد الأمراء حين امتنع عن الجهاد مع نور الدين[1] . وكانوا عن طريق هؤلاء الصوفية يحشدون المتطوعة إلى الحرب من جند الحلقة وغيرهم كما كانوا ينشرون المذهب السني ويدعون له . وكان بعضهم يسير في مقدمة الجيش المحارب وهذا ما كان يفعله الصوفي المسمى بالخضر أمام جيش الظاهر بيبرس . على أن سيرة الخضر هذا لم تكن مرضيّة . « فوات الوفيات ١ : ٢٩٩ » وكانوا ينشرون الإسلام بين التتــار أنفسهــم[2] .

وكانت هذه الخوانق (التكايا) ملاذاً للغرباء ولا سيما أهل العلم منهم أيضا وكانت مأوى للفقراء ومغاثا لذوي الحاجة وأمكنة للمخابرات ينطلق منهــا عيون السلاطين ويراقبون فيها الوافدين على البلاد ، ثم هي مجال لعمل الخير ، ولكنّها

---

(١) راجع الكامل لابن الاثير ج ١١ ، ص ١٣٥

(٢) الأدب في الشام : د. عمر موسى باشا : ٩١

انقلبت مع الزمن ، كما قلنا الى مأوى للعجزة وبؤرة لفاسدي الأخلاق الذين لا عمل لهم بعد أن يأكلوا ويشربوا إلاّ ارتكاب الموبقات . وهذا ينطبق على بعض دون بعض ، وبذلك كانت هذه التكايا تحوي المتناقضات . وكان التتار يعتقدون في الصوفية حتى قبل أن يُسلِموا . وحينما هاجم هولاكو حلب لم يسلم من شرّه إلاّ الخانقاه الذي يقيم فيه زين الدين الصواخي أحد مشايخ الصوفية .

وقد استمدّت الصوفية بعض أفكارها من المذهبين السنّي والشيعي ، وبعضها الآخر من المسيحية أو البوذية وغيرهما[1] ، وظهر في بعضها بدع غريبة وأزياء وتصرفات أغرب ، كحلق شعر الحواجب لدى بعض فرق الطائفة القلندرية ، أو حلق جانب من الوجه وترك جانب آخر . وأباح بعضهم لنفسه ترك الصلاة وسائر العبادات واستحلّ المنكَرات . وقد كفّر رجالُ الدين الجماعاتِ المتصوفة التي تخالف الأخلاق وأوامر الشرع . (ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٤ : ٥٧٤) .

وقد استفحل أمر الصوفيين الكاذبين حين أدخلوا الحشيشة في حياتهم زيادة على الخمر[2] . قال العيني أحد هؤلاء الصوفية يتغنّى بالحشيش :

وخضراءَ لا الحمراءُ تفعل فعلَها ... لهـا وثبات" في الحشا وثَبات
تُؤجّج ناراً في الحشا وهي جَنّة" ... وتُبدي مَرير العيش وهي نَبات

« دراسات في الحياة الاجتماعية ، عاشور : (٧) »

وكانت أفكار الصوفية ونوازعها مجالاً رحبا للشعر ، وسنأخذ نصوصا لبعض شعراء الصوفية الصادقين ، المحافظين على أوامر الشـرع ، الرصينين في سلوكهم الخلقي كابن الفارض وابن عربي خـلال دراستنا بعض موضوعات الشعر القديمة وفنونه المستحدثة .

وقد أشاعت الصوفية مع تراخي الزمن الميل للتواكل وعدم تحمّل المسؤولية . قال أحد شعرائهم في التواكل :

---

(١) نيكلسون : الصوفية في الاسلام : ٢٢ .

(٢) المقريزي ، الخطط : ٤ : ٣٢٩ .

جـرى قـلمُ القضاء بما يكونُ   فسيّانِ التحرّكُ والسكونُ
جنونٌ منـك أنْ تسعى لرزقٍ   ويُرزَقَ في غِشـاوته الجنـين

وهذا مخالف لنصوص القرآن الصريحة الداعية الى السعي كالآية : (واسعَوْا في مناكبها وكلوا من رزقه) والآية (وقُل اعملوا فسيرى الله عملكم) .

ولا شك في أنّ بعض السلاطين لم يكن يعنى بالخوانق لرغبة في الخير ومصلحة الأمة وإنّما كان يشجع الحياة فيها وحياة التواكل ، على العموم ، ليُلهي الناس عن بؤسهم وليزهّدهم في الخير ، الذي هو حقهم وخُلِق لهم ، لينعمَ به وحده .

وقد كثرت هذه الطرق كثرة بالغة وتفرّعت فروعا ، ومنها الرفاعية والبدوية والجيلانية والدسوقية والقلندرية والبكتاشية وغيرها .

وقد جعل الصوفية أنفسهم درجات فعلى رأسهم الاقطاب ثم الأغواث ثم الأبدال . فالقطب يأتي على رأس الجميع ومَقرّه مكة[1] . قال عبد العزيز بن أحمد الدميري الصوفي (ت ٦٩٤ هـ) في أحمد الرفاعي رأس الطريقة الرفاعية :

وسيـدي ابنُ الرفـاعي   قطـبُ الحقيقـة أحمـدْ
« السبكي ، طبقات الشافعية ٥ : ٧٨ »

ومن نظريّاتهم نظرية الحلول وهي الاعتقاد بأنّ الله يحِلّ في بعض البشر لمكانتهم الفريدة عنده ، كما يتبين من قول محمد بن عطية الإسكندري :

مَن كان حقاً مع الرحمن كان معهْ   نَعَمْ ومَن ضرّ فيه نفسَه نفعَهْ
ومَنْ تذلّلَ للمَوْلى فيرفعـه   ومَن تفرّقَ فيـه شملُه جمعَهْ
« النجم الغزّي ، الكواكب السائرة ١ : ١٦ »

ومنها نظرية وحدة الوجود وهي تقول بالوحدة بين الله والكون وهي ظاهرة في قول إبراهيم الدسوقي (ت ٦٧٦ هـ) : « الشعراني، الطبقات الكبرى ١ : ٢٠١ ».

سقـانيَ محبوبي بكأس المحبّـةِ   فتِهتُ على العشاق سكرا بخَلوتي

(١) ابن حجر العسقلاني ، الدرر ، ٢ : ٣٧٣ – ٣٧٤ .

ولاح لنـا نورُ الجلالة لو أضـا لِصُمِّ الجبال الراسيات لدُكّتِ
وبي قامتِ الاشياءُ في كل ملّـة بمختلـف الآراء والكـل أمّتـي
وما شهِدتْ ذاتي سوى عينِ ذاتها وإنّ سِواهـا لا يُلـمّ بفكرتي

ويذكر في تائيته هذه أنه القطب :

أنا ذلـك القطب المبارَك أمـرُهُ فإنّ مَدارَ الكلّ من حول ذُرْوتي
أنا شمسُ إشراق العقول ولم أمِل ولا غبتُ إلاّ عن قلوب عميّـةِ

ومنها نظرية النور المحمدي وهي أنّ النور المحمدي وجد قبل آدم وانتقل من نبي الى آخر حتى وصل الى النبي محمد عليه السلام وفي ذلك يقول الدسوقي نفسـه :

نعَمْ نشأتي في الحب من قبل آدمٍ وسِرّيَ في الأكوان من قبل نشأتي
أنا كنت في العلياء مـع نور أحمدٍ على الدُرّة البيضاء في خَلَوَيّتي
أنا القطبُ شيخُ الوقت في كل حالةٍ أنا العبـدُ إبراهيمُ شيخُ الطريقةِ

ومنها نظرية العشق الإلهي التي تظهر في قول صـلاح الدين خليل بن أحمد المشهور بابن الغَرْس المصري :

خليليّ ابسُطـا لي الأُنْسَ إنّي فقـيرٌ ميتٌ في حُـب الغـواني
وإن تجِـدا مُداما أو قِيانـا خُـذاني للمُدامـة والقيـان

« ابن العماد ، شذرات الذهب ٧ : ٢٤٨ »

ويظهر الحب للنبي في المدائح النبوية الكثيرة التي منها ميميّة البوصيري وهمزيته . ومنها لامية لشهاب الدين العزازي مطلعها :

دمي بأطـلال ذات الخـال مطلول وجيشُ صبريَ مهـزوم ومغلولُ
كأنّما طيب رياهـا ونفحتهـا بطيب ترب رسـول الله مجبـول

« ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ١ : ٣٤١ ـ ٣٤٣ »

اهـل الذمـة :

كان أهل الذمة قبل الدولة الزنكية يتولون مناصب هامة في شؤون الدواوين

والإدارة والمال والخراج وبلغ بعضهم مرتبة الوزارة حتى في زمن الزنكيين والأيوبيين الذين عرفوا بشدة التعصب ومنهم الأخوان المهذب بن ممّاتي وأسعد بن ممّاتي . وكان بعضهم يدخل في الاسلام ولكن كان يشك في حقيقة اسلامه .

وقد لقي أهل الذمة في العهد المملوكي أحيانا بعض التضييق عليهم بعد أن كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية ، وذلك بعد أن أظهروا فرحهم بتغلب التتار والفرنجة على المسلمين وانحازوا إليهم ، فقد صرفهم السلطان قلاوون عن العمل في الدواوين سنة ٦٨٩ هـ وأمرهم بتصغير عمائمهم وبالتميّز بألبستهم وشمل التفريق في الألبسة الرجال والنساء[١] . وذلك للاسباب التالية :

١ ــ أنّ العنصر التركي الحاكم كان أقلّ تسامحا من العرب إبّان حكمهم .

٢ ــ أنّ المماليك كانوا أقلّ علما بالدين وأقلّ بعدا في النظر وأكثر حماسة للعاطفة .

٣ ــ أنّ ظروف الحروب الصليبية قد استدعت حدة العاطفة الدينية وتحيّز كل انسان الى أهل دينه .

٤ ــ أنّ بعض المسيحيين تسرّعوا في الانحياز إلى الصليبيين أو التتار وفي إظهار الحماسة لهم وفي تعليل انتصاراتهم بأسباب دينية . وقد عولج هذا الخطأ بالخطأ . ولمّا دخل هولاكو حلب نادى بالأمان لمن التجأ الى ستة أماكن أحدها كنيس اليهود ، فدلّ ذلك على أنّ العدو كان يعتمد على بعض الأقليات ويحاول التفرقة بينها وبين المسلمين .

ونحن نأسى على ما وقع من إساءات من كلا الجانبين ونرى أنّ ذلك كان خروجا على ما أُلف من العلاقة الطيبة المتسامحة بينهما .

وكان الجدال مستمرا بينهما . قال البوصيري يصوّر الخلاف بين المسلمين

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ٢ : ١٧٥ و ٢٠٦ ، والصفدي : اعيان العصر (خ) ٦ : ٢٣٥ وبدائع الزهور لابن إياس ١ : ١٤٣ ، والسيوطي : حسن المحاضرة : ٢ : ١٧٩ .

والمسيحيين في مصر : (فوات الوفيات ٢ : ٢٠٦ ، وديوان البوصيري) .

يقول المسلمون لنا حقوق بها ولَنحن أوْلى الآخذينا
وقال القِبْط نحن ملوكُ مصر وأنَّ سواهمُ هم غاصبونا

وقال اليهود :

وحلّلتِ اليهودُ بحفظ سبْتٍ لهمْ مالَ الطوائفِ أجمعينا

وكان الجدال في أصول الأديان السماوية يشتدّ بين الفرقاء . ويظهر أنَّ تسنُّم أهل الذمة بعض أعمال الجباية وإرهاقهم الناس واستئثارهم بالوظائف والمنافع دون الأكثرية المسلمة قد جعل بعض المثقّفين المسلمين ينقمون عليهم . يقول البوصيري حاضًّا السلطان على الجباة اليهود :

وفي دار الوكالة أيّ نَهْبٍ فليتكَ لو نهبتَ الناهبينا
فقام بها يهوديٌّ خبيث يسوم المسلمين أذىً وهونا

وقد شكا الناس ظلم الكتاب والوزراء القبط وتسلطهم حتى إنَّ الناس اتهموا السلطان الناصر بممالأتهم وتسليطهم على الناس . قال شهاب الدين الأعرج (ت ٧٨٥ هـ) :

وكيف يروم الرزقَ في مِصرَ عاقل ومِن دونه الاتراكُ بالسيف والترس
وقد جمعَتْه القِبْطُ مِن كلّ وِجْهةٍ لأنفُسهمْ بالرّبع والثمن والخمس
فللتّركِ والسلطانِ ثلْثُ خَراجِها وللقبط نصفٌ والخلائقُ في السّدس

« السلوك للمقريزي ٢ : ١٣٥ »

وقد روت لنا كتب التاريخ والأدب أخبارا تكاد لا تصدق عن ضخامة ثروات هؤلاء المتسلطين وصوّرت لنا كيف كانوا يتظاهرون أحيانا بالدخول في الإسلام : قال أحد الشعراء في كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري وكيل الناصر محمد وقد صادره السلطان :

التّعبّ بالدينيْن يقبح بالفتى والرأي صدقُ القلب والتسليمُ

هـذا كريمُ الدين لـولا نصرُه دينَ النصـارى مـات وهو كريمُ

« تاريخ ابن الوردي م : ٢٧٢ »

وقد دافع ابن تيمية أمام غازان التتري عن اليهود والنصارى وأرسل رسالة في ذلك إلى سرجواز ملك قبرص[1] .

الشـــعب :

كانت طبقة الشعب هي التي تتحمل الغرم وتسلب الغنم وتشقى ليسعد غيرها . وكان أغلب الشعب من الفلاحين وكان أصحـاب الإقطاع من المماليك يحتقرونهم ويتوارثونهم كأنهم الملك والمتاع ، يقول المقريزي في وصفهم : « ويُسمّى المزارع بالبلد فلاحا قرّارا ، فيصير عبدا لمن اقتطع تلك الناحية إلا أنّه لا يرجو قط أن يُباع ، ولا أنْ يُعتَق ، بل قنٌّ ما بقي ، ومن وُلِد له كذلك » . (المقريزي ، الخطط ج ٢ص ١٣٨) .

وذكر أسامة بن منقذ عن والدته أنها فضّلت أن تقتل أخته الكبرى ولا تراها مع الفلاحين والحلاجين (الاعتبار ص ١٢٥) .

وذكر ابن خلدون أنّ الفلاحة مَعاش المستضعفين (المقدمة ص ٢٩٤) .

وهذا كله يخالف روح الشريعة وقوانينها في الحضّ على العمل واحترامه .

وقد ذكر تاج الدين السبكي (في كتابه معيد النعم ومبيد النقم ص ٣٤) أنّ الفلاح حرٌّ وأنّه يضطهد ظلما وعدوانا . وكان معظم الغلال يذهب إلى الحكام وموظّفيهم وجُباتهم . وذكر أسامة حديث أحدهم عن نفسه (في كتابه الاعتبار ص ١٤٧ ثم ١٨٣) فهو يقول : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف وتبرّمت بالحياة » .

---

(١) بهجة البيطار : حياة شيخ الاسلام ابن تيمية : ١٩١ . وقد ترجم له ابن تغري بردي في المنهل الصافي (خ) ١ : ٨٥ ـ ٨٦ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ٢ : ٢٨٤ ـ ٢٨٩ .

ومن فئات الشعب التجار الذين سمَّاهم أسامة البُرْجاسية نقلا عن اللفظ الفـرنجي : Bourgeoisie ، وكانت أحسن حالا من جميع الفئات وقد صنَّفها المقريزي في القسم الثاني أي جعلها تلي طبقة الحكام مباشرة وكانت لاتقاتل ولا تحضر القتال ولها الأرباح والثروات[1] . وقد قرَّبها السلاطين لاحتياجهم إلى أموالها ، ولكنَّ بعضهم كان يصادرها ، وكانوا يقترضون منهـا الأموال العظيمة للحروب وغيرها ، وكان منها جماعة أجانب يُسمَّوْن الكارِميّة يتاجرون بالرقيق والخمر ويعيشون في ترَف كالملوك[2] . وكان المماليك يشاركون التجار في تجاراتهم[3] .

ويلي هذه الطبقة طبقة التجار الباعة بالمفرَّق . وكانون يكسبون جيدا ولكنهم في الغالب ينفقون ما يكسبون ، ويليها أرباب الحِرف والصناعات المحترمة كالعطَّارين والكحّالين والأطباء والصيادلة الذين كانت لهم نقابات خاصة لها أنظمتها ومكاتتها . ويليهم أرباب المهن الصغيرة والأجراء والخدم الذين يكسبون قوتهم بعرق جبينهم .

ويأتي في آخر القائمة الطبقة الدنيا من المحتاجين أشباه المشردين (الحرافيش) والزعر واللصوص . وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة وقد يسألون الناس من غير حاجة . ومن الطبقة الدنيا الصوفيون القلندريون الذين تحدثنا عنهم قبل في الصوفية ، ومنها الأويراتية ، وهم التتار الذين أسكنهم كتبغا التتري الأصل في حي الحسينية بالقاهرة فتكاثر نسلهم . وكانوا مشهورين بجمالهم ذكورا وإناثا فشغف الناس بنسائهم ورجالهم ، كلٌّ بحسب ميله . ومن ذلك قـول الشيخ تقي الدين السروجي أحد الشعراء الصوفيّين في العهد المملوكي الأوَّل ، من أبيات :

يا ساعيَ الشوق الذي قـد جرى جـرتْ دمـوعي فهي أعـوانُه

---

(١) الاعتبار : ١٤١

(٢) الدرر الكامنة ٢ : ٣٨٤

(٣) وقد تحدث عبد اللطيف البغدادي عن اغتناء كثير من التجار والمستخدمين في الحروب الصليبية (عبد اللطيف البغدادي في مصر ص ٦٨ ط المجلـة الجديـدة) .

خـذ لي جوابا عن كتابي الـذي إلـى الحُسينيـة عُنوانـه
فهي كما قـد قيل وادي الحِمى وأهلهـا في الحُسن غزلانه

« محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي (جـ ١ ص ٧١ و ٢٦٢) » و « الخطط للمقريزي جـ ٢ » و « السلوك للمقريزي ٨١٢ ــ ٨١٣ » .

ومما زاد الشر على الشعب فوق انتهاب أتعابه وأرزاقه كثرة الزلازل والأوبئة والمجاعات . قال أحد الشعراء يصف هول أحد الزلازل :

زُلزلتِ الأرضُ فخاف الـورى وابتهلوا إلى العزيـزِ الحكيـمْ
فليذكروا معْ خوفِهم قولـه : زَلزلةَ السـاعة شيءٌ عظيـمْ

« السلوك للمقريزي ١ : ٩٤٢ ــ ٩٤٤ » .

وذكر المقريزي في إغاثة الأمة (ص ٣٠) في معرض الحديث عن الطواعين أيام المجاعات : « إنه صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم حيث ألفوها ، وكان الغلاء يزداد شدة باحتكار المؤن في زمن القحط » .

وقد ثار المماليك على السلطان حسن لأنه حاول استخدام الرعية في الجيش وترقيتهم إلى أمراء ومقدمين بدلا من المماليك . « النجوم الزاهرة ١٠ : ٣١٠ » .

الأعـــراب :

وكان الأعراب في الشام منتشرين في بادية الشام في شبه عزلة عن الحواضر وكانوا إذا أجدبوا يشكلون خطراً عليها فيقطعون الطرقات ويسفكون الدماء . ومن أشهرهم قبيلة آل الفضل التي كانت تسهم في الحروب أحيانا مـع السلاطين وصارت لها الزعامة على القبائل ولا سيما بعد مشاركتها في محاربة التتار في عـين جالوت وقد أقطع السلطان قطز زعيمها « مهنا » مدينة « سلمية » اعترافا بفضله بعد أن انتزعها من المنصور بن المظفر صاحب حماة .

ومنهم آل مرة ومعهم جماعات من مَذْحِج وعامر وزبيد وقد كانوا يتنقلون في تلال الشام حتى لا يصطدموا بآل الفضل .

ومنهم آل عقبة ، وهم عرب البلقاء وحسبان والكرك ، وكان زعيمهم مقربا

لدى السلاطين . (المنهل الصافي جـ ١ : ١٦٠ ـــ ١٦١ و جـ ٣ : ٣٦٩) .

وكان الأعراب كلهم يتعرّضون للمجاعات في سِنِيّ القحط وقد ذكر أسامة (في الاعتبار ص ١٢) أنه شاهد رجالا من بني أُبَيّ ، إحدى القبائل الطائية ، « قد يبست جلودهم على عظامهم لا يأكلون إلاّ الميتة » . وذكر السبكي من قبائحهم أنّهم لا يورّثون البنات . (السبكي ، معيد النعم : ٥٤ و ٥٦) .

وكانت طبقة الأعراب في مصر مصدر خطر على المدن والقرى والأرباض وكانت تتعرض للحجاج ولا تقف عن الغارات في أوقات الغزو الأجنبي . وقد ثار العربان على المماليك عدة مرات في الصعيد وفي الوجه البحري وصرّح حصنُ الدين ثعلبُ الجعدي أمير الثائرين على المعزّ إيبك : « نحن أصحاب البلاد ، وإنا أحق بالمُلك من المماليك وقد كفى أنّا خدمنا بني أيّوب وهم خوارج خرجوا على البلاد » ؛ ولكن المعزّ إيبك استطاع أن يقضي على ثورته وأمّن أصحابه ثم غدر بهم وشنقهم[1] . ولم يكن كل المماليك يلجؤون الى الشدة معهم بل كانوا في الغالب يترضّونهم . وكان السودانيون في كثير من الأحيان يساعدون الأعراب في ثوراتهم .

التجارة والزراعة والصناعة :

ازدهرت الحالة التجارية زمن صلاح الدين وعني الأيوبيون بالزراعة وعقدوا معاهدات تجارية مع الفرنجة يدخل فيها كل فريق بلد الآخر . وقد سمح الملك العادل لبعض تجار أوروبا بإقامة فنادق لهم في الإسكندرية ، ولكن كانت تحدث أحيانا مجاعات .

وكانت أسباب المجاعات في فترة الحروب الصليبية وبعدها ترجع إلى أسباب منها : ١ ـــ انخفاض النيل أحيانا في مصر ، ٢ ـــ عدم قدرة الحكومة على تصريف مياهه لجهلها بأصول الري ، ٣ ـــ انصراف الفلاح عن أرضه لأنّ ثمرة عمله ليست له ، ٤ ـــ مصادرة بعض الحكام المتعسفين لأموال الناس ظلما وعدوانا ، ٥ ـــ حلول قحط في الشام لقلّة الأمطار في بعض السنين .

---

(١) السلوك للمقريزي ١ : ٣٨٦ – ٣٨٨

وشاع الظلم حتى قال ياقوت في أحد من ترجم لهم : « وعلى الجملة فعاش في زمن سوء وخليفة غشوم جائر كان إذا تنفّس خـاف أن يكون على نفَسه رقيب يؤدي به الى العطب » •

سوء أحوال الناس واخلاقهم ووصول المنتهزين الى المراكز الكبيرة في الدولة :(١)

وقد كثرت السعايات وفسدت الأمور حتى نادى الخليفة : من سعى بأحد أبيح ماله ، قال ابن التعاويذي الشاعر يصف سوء الحـال ووصوليّة المنتهزين : « الديوان : ١٣٩ » •

لَحى اللهُ بغـدادَ مِن مَوطنٍ ... بـه كلّ مكرُمـة تُفقَـدُ
الـدارُ لا ظـلّ عيشٍ بهـا ... ظليـلٌ ولاَ زمنـي أرغـدُ
نسيـم الهـواء بهـا بـارد ... وسُـوق القريض بهـا أبـرد
وأخـلاق سُكانهـا كالـزلال ... ولكـنّ أيديهـم جَلْمـد
يـرى كل يـوم بهـا سِفْلـةٌ ... تسـود ولـم ينمُها سؤددُ
يناضـل مـن دونـه وَفـرةٌ ... ويخذُلـه الأصـل والمَحتِـد
يُعجبُـه طيـبُ أثوابـه ... ووجـه الزمـان بـه أسـود
يبـاري الملـوكَ وأفعالُـه ... بخِسـة آبائـه تَشهـد
فبينـا تـراه عـلى حالـةٍ ... يَسرِقّ لرِقّتهـا الحُسّـد
إلى أن تـراه وقدّامَـه الـدواةُ ومـن خلفـه المسْنَـد
ظلَلتُ بهـا كارهـاً لا أحـلّ ... إذا الـنـاس حلّـوا ولا أقعـد

ظلم الحجاج وسببه :

وكان بعض السلاطين الأيوبيين عادلين رحماء كصلاح الدين الأيوبي ولكنّهم

(١) راجع لذلك : « الأدب العاميّ في مصـر للجمّال ٢٨ — ٢٩ » و « النجوم الزاهرة ٧ : ١٣ و ٢٩ » و « المقريزي ، إغاثة الأمة : ٤٥ ، و ٤٣ و ٤٤ » و « الادفوي ، الطالع السعيد : ٢٦٣ » و « ابن دانيال ، طيف الخيال ، ص ٨ ، تحقيق جاكوب » •

إزاء تقاعس الناس عن الجهاد اضطرّوا الى الإكثار من المكوس والضرائب حتى على الحجاج لسد نفقات حروبهم فأرهقوا الناس بذلك وقد وصف الرحالة ابن جبير ذلك في أبيات خاطب فيها صلاح الدين الأيوبي شاكيا • منها :

يُعنّت حُجاج بيت الإلـه	ويسطى بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم	وناهيك من موقف صاغر
وقد أُوقفوا من بعد ما كوشفوا	كأنهم في يد الآسر
وليس على حرم المسلمين	بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر نافع زجره	فيا ذلك الحاضر الزاجر
ألا ناصح مُبْلغ نصحه	إلى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمّن مال الزكاة	لقد تعست صفقة الخاسر
يُسِرّ الخيانة في باطن	ويُبدي النصيحة في ظاهر

« الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : محمد سيّد كيلاني ص ٣٧ »

وكان بعض المكّاسين يظلمون الناس ويثرون من ابتزاز أموالهم • قال ابن التعاويذي يتحدث عن ظلم المكاسين :

ملكتَ رقّي وأبو خالد	في واسطٍ بعدُ على المَجْرِ
في فمِ شَرْيا يُنفِذ الحكمَ في	بضائع التجّار والسَّفْرِ
يأخذ منها الرّبعَ والمَكْسُ لا	يزيد في الدنيا على العُشْرِ
مُحتكِرٌ للذّرِّ والمِلح والحنـ	ـطة والشعير والتمر
وكلّ ما يصلح للقوت أو	تُطلَق فيه لفظة البُرِّ
حتى رماه الناس من سوء ما	أتاه بالإلحادِ والكفر

« ديوان ابن التعاويذي : ١٩٥ »

ظلم المستخدمين :

وكان المستخدمون يُكلّفون بجمع الغلال والمواشي للجيش فيسرقون منها الكثير ، قال البوصيري يصفهم :

فكم سرقوا الغِلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمورَ الأندرينا
ولا رَبّوا من المُرْدان مُرْدا كأغصان يملن وينثنينا
وقد طلعت لبعضهمُ ذقونٌ ولكنْ بعدما حلقوا ذقونا
وأقلامُ الجماعة جائلات كأسيافٍ بأيدي لاعبينا
أمولاي الوزيرَ غفلت عمّا يتمّ من اللئام الكاتبينا
تنسّكَ معشر منهم وعدّوا من الزهّاد والمتورّعينا
وقيل لهمْ دعاءٌ مستجاب وقد ملؤوا من السحت البطونا

« فوات الوفيات ٢ : ٢٠٦ »، « الأدب الأيوبي، محمد زغلول سلام: ٢٤٦ ».

وقد حاول بعض السلاطين المماليك كالسلطان الناصر محمد إعادة توزيع الأراضي الزراعية على أصحاب الإقطاع من رجال الجيش ولكن هذه الإعادة لم تكن في مصلحة الشعب، بل في مصلحة الإقطاعيين المنتفعين والسلطان نفسه الذي كان يحاول ألاّ يترك أرضاً بورا دون أن يزرعها ويعنى بها .

المحن :

وقد ازدادت المحن على أهل مصر والشام . ذكر المقريزي أنّ عدد من مات بالوباء بمصر في يوم واحد قد بلغ سبعة وعشرين ألفاً ومئة ألف انسان ، وزاد ابن تغري بردي أنّ البلاء قد عظم في مصر حتى أكل بعضهم المِيتة والكلاب وأكل الناس أبناءهم (المقريزي ، اغاثة الأمة ص ٢٤ ، ٥٠) . وقال أحد الشعراء يصف ما حل بمصر من الطاعون :

أسفي على سكان مصرٍ إذْ غدا للطعن فيهم ذاتُ وَخْزٍ ساري
الموتُ أرخصُ ما يكون بحبّةٍ (١) لكنّ هذا صار بالقِنطار

« صفحات غير منشورة : ٧٣ »

وقال ابن نباتة يصف ما صنعه الطاعون بالشام :

---

(١) الحبّة : جزء من الدرهم وهو جزء من الأوقيّة .

سِرْ بنا عن دمشق يا طالبَ العيش فما في المُقام للمرءِ رغبهْ
رخُصتْ أنفسُ الخلائق بالطا عون فيها فكلّ نفسٍ بحبّهْ

« النجوم الزاهرة ١٠ : ٢١٠ » و « الديوان : ٥٠ »

موقف الشعب من اختلافات الحكام :

وكانت الفتن والحروب تقع بين بعض أمراء المماليك وبعض فينصر الشعب أحيانا أحد الفريقين على الآخر لأنّه يراه مُحِقّاً يُحسن معاملته كما فعل حين نصر الملك الناصر محمدا ، على بيبرس الجاشِنْكير والسّلار ، وحين نصر الأشرف شعبان إذْ رآه مُحِقّاً وانقلب ضده حين رآه مُبطِلا ٠

وفي أكثر الأحيان كان يقف الشعب موقف المتفرج ٠

وكانت ممالأة السلاطين مربحة أحيانا فقد تُوصل إلى أعلى المناصب ، ولكنّها كانت محفوفة بالمكاره ، لسرعة تغيّر السلاطين وتقلّب الاحداث ، ولذلك كثرت الأمثال التي تُحذّر من معاشرة السلطان مثل : صاحب السلطان كراكب الأسد ، الناس تتهيّبه وهو لمركوبه أهيب ، أو : السلطان كالنار إنْ قربت منها احترقت ، وإنْ بعدت عنها لم تنتفع بها ، والعاقل من اقتبس منها وهو على حذَر ، أو : مَرَقة السلطان حارّة ومن حساها بلا حساب احترقت شفتاه ٠ قال أحد الشعراء :

إذا ما خطوتَ إلى رتبةٍ فإيّاك والدّرَجَ العاليهْ
ولكنْ بمنزلةٍ إنْ وقعتَ تقومُ ورجلاكَ في عافيهْ

« ابن الدواداري : ٣١١ »

سخط الشعب وسخريته :

وكان وراء عدم المبالاة إحساس عميق بالسخط والتذمّر ، لذا شاعت عبارات التشاؤم والسخرية على الألسنة ، وقد تكون بذيئة كقول أحدهم :

زماننا هذا خرا وأهله كما ترى
ومشيهم جميعهم إلى ورا إلى ورا

إلى ورا بحيث لم تجد لخير خبرا
« شرح اللامية للصفدي ٢ : ١٣٠ »

وقد يسخر اللسان أحيانا والقلب يبكي كقول إبراهيم المعمار في طاعون سنة ٧٤٩ هـ الذي كان يموت كل يوم فيه ما يزيد على عشرين ألف انسان ، وقد مات هذا الشاعر فيه :

يا طالباً للموت قم واغتنم ... هذا أوانُ الموتِ ما فاتا
قد رخُصَ الموتُ على أهله ... ومات مَنْ لا عمرُه ماتا

« ابن إياس ، بدائع الزهور جـ ١ : ١٩١ — ١٩٢ »

التقاعس عن الجهاد :

وكان الناس على دين ملوكهم فيما يتعلق بالإكباب على الملذات فقراء كانوا أم أغنياء كلٌّ بحسب طاقته ، ولم يكونوا كلّهم يتحمّسون للجهاد وكان بعض المتقاعسين عنه يستبدلون به كثرة الصيام والصلاة والذكر والتسبيح والدعاء ليبتعدوا في زعمهم عن أضرار الحرب • ومنهم من كانوا يهاجرون إلى مكة ويجاورون فيها هربا من الخطر في الحقيقة وتعبّدا في الظاهر • كتب أحد المجاهدين إلى صديق له من هؤلاء : « الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : محمد سيّد كيلاني ص ٣٥ » :

يا عابدَ الحرَمينْ لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنّك في العبادة تلعَبُ
مَن كان يُتعِبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولُنا يوم الكريهة تَتْعَبُ
أو كان يخضِبُ خدَّه بدموعه ... فنحورُنا بدمائنا تتَخضَّبُ
ريحُ العَبيرِ لكم ونحنُ عبيرُنا ... رَهَجُ السنابكِ والغُبار الأشهبُ
ولقد أتانا عن مَقال نبيِّنا ... قولٌ صحيح صادق لا يَكذِب
لا يستوي وغبارُ خيل الله في ... أنفِ امرىءٍ ودخانُ نارٍ تَلهَب

سوء الحالة الاجتماعية :

وقد عبّر القاضي الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين عن فساد الحالة

الاجتماعية لدى المسلمين « المملوك ينهي أنّ الله تعالى لا ينا لما عنده إلاّ بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلاّ بالرجوع اليه والامتثال لأمر شريعته . والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها مـا لا يتوقع بعدها إلاّ مايستعاذ منه » .

شيـوع التنجيـم :

ولـم تكن الصوفية هي الدعوة السلبية الوحيـدة التي تؤول إلى الخمول والضعف وفقدان الطموح ، بل كان إلى جانبها ظواهر التنجيم والشعبذة بأنواعها مما يوهم الناس بالكشف عن الغيب والتنبؤ بالغد فقد استغل اضطراب الناس وخوفهم من الغد وتطلعهم إلى معرفة ما سيحيق بهم من شرور ، استغلالا سيئا .

على أنّ تنبؤات المنجمين كانت مثارا للسخرية في كثير من الأحيان وبخاصة حين تأتي الحوادث بعكسها وقد بيّن ضياء الدين بن الأثير فساد الاعتقاد بالتنجيم في كتابه « الوشي المرقوم » (ص ٥٨) .

الاستسلام والقصائد المنفرجة :

وولّدت كثرة المصائب في الناس روح الحزن والاستسلام والشعور بالعجز والضعف واللجوء الى الله يدعونه وإلى النبي يستشفعونه ونظموا في ذلك القصائد الطويلة . ومن ذلك القصيدة المسماة بالمنفرجة ومطلعها :

اشتـدي أزمـةُ تنفـرجي قـد آذنَ صبحُـكِ بالبَلَجِ

« الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي، محمد سيّد كيلاني، ص ٢٤٠ »

وقد عارضها الشعراء بكثير من المنفرجات . ومن ذلك بردة البوصيري وهمزيته وما جرى مجراهما من القصائد .

الشـذوذ الجنسي :

وانتشر في هذه الفترة الشذوذ الجنسي لأسباب منها : لجوء جماعة ممـن يدّعون التصوف دعوى كاذبة الى التكايا فرارا من أعباء الحياة دون أن يتزوجوا ، ومنها أن الأكراد والأتراك الذين كانوا رجال حرب كانوا يعرضون عن الزواج لعدم

استقرار حياتهم . ومنها كثرة وجود الغلمان الجميلين من ترك وأكراد وفرنجة ومغول مع ضعف الأخلاق . يقول أحد شعراء تلك الفترة وهو شرف الدين أحمد بن أبي الوفا الربعي الموصلي المعروف بابن الحلاوي (ت ٦٥٦ هـ) في غلام تركي :

مِن التركِ لا يَصبيه شوق الى الحِمى ... ولا ذكرُ بانات الغُوَيْر يشوقه

على خدِّه جَمْر من الحسن مُضرَم ... يُشَبّ ولكنْ في فؤادي حَريقه

اذا خَفَق البرْق اليمانيّ مَوْهِنا ... تذكرته فاعتاد قلبي خُفوقُهُ

حكى وجهَه بدرُ السماء فلو بدا ... معَ البدر قال الناس هذا شقيقُه

على مثلِه يستحسن الصبُّ هتكَه ... وفي مثلِه يجفو الصديقَ صديقُه

« النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٦٠ »

وهذا العصر أسوأ من عصر أبي نواس في هذه الناحية فقد تغزّل فيه بالمذكّر جماعة عرفوا بحسن السيرة وعلو المكانة على خلاف عصر أبي نواس الذي مارس فيه هذا الشذوذ جماعة اشتهروا بالخلاعة والمجون . وأصبح هذا الشذوذ شيئا مألوفا في هذا العصر حتى إن الشعراء كانوا يعتقدون أنّهم يكونون مقصرين إذا لم ينظموا فيه حتى لو كانوا لا يمارسونه . قال ابن الوردي :

أستغفر الله مِن شعرٍ تقدّم لي ... في المُرْد قصدي به ترويجُ أشعاري

وقد تصدّى جماعة لمحاربة هذا الشذوذ منهم ابن قيّم الجوزية الذي ألّف كتابه « إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ص ٢٩٧ وما بعدها » . ومنهم الشاعر ابن الوردي الذي ذكرناه .

الحشيشة :

واستهوت آفة الحشيشة الناس حتى بعض العلماء[1] ، كابن الصاحب (ت ٦٨٨ هـ) الذي لم يوافق العلماء على تحريمها ، ومن قوله فيها :

في خُمار الحَشيش معنى مَرامي ... يا أُهَيْل العقول والأفهامِ

---

(١) ابن حجر ، رفع الإصر (خ) و : ٧٩ .

حرّموها مِن غـير عقلٍ ونقـلٍ وحَرامٌ تحـريمُ غـيرِ الحرَام

« الشذرات ٥ : ٤٠٣ »

ويصف القاضي ابن بنت الأعزّ لهوه وسكره وتعاطيه الحشيشة فيقول :

يا نفسُ ميلي إلى التصابي فاللّهـوُ منـه الفتى يعيشُ
ولا تَملّي مِن سُكْرِ يومٍ إنْ أعْوَزَ الخمرُ فالحشيشُ

« النجوم الزاهرة ، ٧ : ٣٧٨ »

وهو يجمع بين الحشيشة والخمر حتى لا يعي من السكر :

جمعتُ بـين الحشيش والخمـرِ فرُحتُ لا أهتـدي مِن السـكرِ
يـا مَنْ يُريني لِبـابِ مدرستي يربـحُ واللهِ غايـةَ الأجْـرِ

« ابن نباتة ، د. موسى باشا : ٦٠ »

تحريم الخمر والحشيشة :

ولما حرّم الملك الظاهر بيبرس على الناس شرب الخمر وتعاطي الحشيشة قال قاضي الاسكندرية :

ليس لإبليسَ عنـدنا أرَبُ غـيرُ بـلاد الأميرِ مـأواهُ
حرَمتَـه الخمرَ والحشيشَ معـاً حرمتَـه مـاءَه ومَرعـاه

« السلوك جـ ١ : ٥٥٤ »

وعرّض أحد الشعراء بمراسيم بيبرس وصلبه ابن الكازروني حين قبض عليـه سكران :

لقـد كان حدّ السكر مِن قبلِ صلبِه خفيف الأذى إذْ كان في شرعنا جَلْدا
فلما بـدا المصلوبُ قـلت لصـاحبي ألا تُبْ فإنّ الحَدّ قد جاوز الحدا

« خطط المقريزي ١ : ٣٢١ » و « فوات الوفيات ١ : ٩٠ »

وأسي ابن دانيال لأنّ مُضيفه لم يقدّم اليه الخمر بعد مراسيم بيبرس . ومما قاله في قصيدة سينية أوردها في مطلع بابةٍ من بابات طيف الخيال التي ألّفها بعنوان « الأمير وصال » .

مات يا قومُ شيخُنا إبليسُ وخلا منه ربعُه المأنوسُ
أين عيناه تنظر الخمرَ إذْ عُطِّل منها الراووق والمِحْريس[1]
أين عيناه والحشائشُ إذْ تحرَّقُ بالنار تراع منها المَجوس
وذوو القصف ذاهلون وقد كا دت على سيلها تَسيلُ النفوس
وقضيبٌ ونرجسٌ وسُعادٌ باكياتٌ وزينبٌ وعَروس
وينادي قَوّادهمْ : شَهْ علينا نجمُ ستي قد نكّسته العكوس
ارْحلوا هذه بلادُ عفاف وسُعودُ الخَلاّع فيها نُحوسُ

« بدائع الزهور ١ : ١٠٥ »و« مقدمة طيف الخيال لابن دانيال ص٨ـ١٠ »

على أنّ بعض الشعراء قد ذمّ الحشيشة . ومن ذلك قول الشاب الظريف :

ما في الحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنّه غيرُ مصروف إلى رشدِهْ
حمراءُ في عينه ، خضراءُ في يدِهِ صفراءُ في وجهِهِ ،سوداءُ في كبدِهْ

« ابن العماد ، الشذرات ٥ : ٤٠٥ »

حال النساء :

ويظهر أنّ النسوة قد تمادين في الترف والزينة في بعض فترات من هذه الحقبة فصدرت مراسيم من عدة سلاطين بأنْ يلبسن ثيابا محتشمة . ومن ذلك مرسوم لعز الدين إيبك بألاّ تخرج امرأة من بيتها ، وألاّ يخرج الرجل دون سراويل . وقد قال أبو الحسين الجزار في ذلك :

حنا الملك المُعِزّ على الرعايا وألزمهمْ قوانينَ المروّهْ
وصان حريمَهمْ مِن كل عارٍ وألبسهمْ سَراويلَ الفتوّهْ

« السلوك ، ١ : ٥٠٣ »

وتزيّنت النساء زمن الظاهر بيبرس بزيّ الرجال ووضعن العمائم خلاعة وتهتكا فمنع ذلك . وتغالت النساء زمن الملك الناصر في الترف والزينة واستجددن الطرحة وكان ثمنها يتراوح بين ٥ آلاف و ١٠ آلاف دينار ولبسن

---

(١) المحريس : الدنّ تعتق فيه الخمر . والراووق: الإبريق والوعاء تصفّى به.

الفرجيات[1] . وكان بعض النساء الفقيرات يعشن من الغزل والتطريز والزركاش بالفضة والذهب . وظهر نساء نوابغ اشتغلن بالعلم والتدريس[2] . واحترف بعض النساء الغناء والرقص واحترف بعضهن البغاء . وقد تساهل بعض السلاطين في ذلك ووضعوا عليهنّ المكوس فأفادوا من ذلك موردا للدولة ، ومنع سلاطين أُخَر ذلك وحرّموه .

المتنزّهات :

واشتهرت في القاهرة ودمشق بعض أماكن للمنكرات كما اشتهرت بعض المتنزّهات ، وكان ميل الناس الى المتع والملذات يظهر في نزهاتهم . واشتهر من متنزّهاتهم في القاهرة حينئذ بركة الحبش وبركة الرطلي وأرض الطبالة وبركة الفيل ، قال أحدهم في بركة الفيل :

أنظر الى بِركة الفيل التي اكتنفتْ ... بها المناظرُ كالأهداب بالبَصَرِ
كأنّما هي والأبصار ترمُقها ... كواكب قد أداروها على القمر

« خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٦٠ »

واشتهر من متنزهات دمشق سَطْرَى ومَقْرى وغيرهما . قال عرقلة الدمشقي الحموي :

عرّجا بي ما بين سطرى ومقرى ... لا بأكناف عالجٍ وزرود

« الديوان : ٣٢ ـ ٣٣ »

وكان المسلمون يشاركون في أعياد غيرهم . وكانوا كثيري الاهتمام بعيد النيروز ويتمادون فيه باللهو والخمر ويعربدون ويتجاوزون الحدّ ، وكذلك كانوا يحتفلون بعيد الميلاد . وكان يقام سماط لوفاء النيل فرحا به . « الوفيات جـ ٤ : ٤١٧ » .

---

(١) النجوم الزاهرة ٩ : ١٧٦

(٢) الدرر الكامنة ٢ : ١٦٧ .

بعض العادات :

وقد ورثت هذه الحقبة عن الفاطميين مشاربهم ومطاعمهم المترفة . وكانت عادة أكل الفول المدمس صباحا شائعة حينئذ . قال بدر الدين الصاحب على لسان بائع فول جوّال مليح :

أنا ابن الذي بالليل تسطع ناره كثيرِ رَماد القِدر للعبءِ يَحمِلُ
يدور بأقداح العوافي على الورى ويصبح بالخير الكثير يؤمّل

« مطالع البدور ١ : ٢٣ »

وكان يقوم الندب على الميّت فتقطع الشعور في المآتم وتلبس الحبال وتحول السروج في الركوب ويضرب على الدفوف والدرابك وتطوف بها النساء أياما بالقاهرة . وكانوا يشعلون الشموع الكثيرة في الأفراح الكبيرة وفي استقبال المنتصرين وفي المناسبات والمواسم .



الحيـاة العلميـة في عهـود الـدول المتتابعـة
ما عـدا الأدوار العثمانيـة

تمهيـــــد :

لا شك في أنَّ ما وصل الينا من تأليف هـذه العهود ، وهو بعض من كل ، تراث ضخم يدل على نهضة واسعة علمية وعلى اهتمام كبير بالعلم والعلماء . ونلاحظ فيهذه العهود كثرة الموسوعا تالعلمية الضخمة وغيرها من المراجع العامة ، وكثرة الشروح الكبرى والكتب المبسطة ، كتفسير القرآن الكبير للرازي وبدائع الصنائع في الفقه الحنفي لعلاء الدين الكاساني (ت ٥٨٧ هـ) وفقه الحنابلة لابن قدامة ، والكامل لعـز الدين بن الأثير في التاريخ ، وصبح الأعشى في صناعـة الإنشـا للقلقشندي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة : وهذه الكتب غيض من فيض .

وبغضِّ النظر عن اهتمام العرب وسائر المسلمين منذ أيام النبي ، عليه الصلاة والسلام ، بالعلم والعلماء ، والرحلة في طلب العلم . متمثلا بالآية الكريمة التي ذكر أنها أوَّل ما أُنزِل من القرآن : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربُّك الأكرم الذي علَّم بالقلم) . وبالحديثين الشريفين : « اطلبوا العلم ولو في الصين » و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وما تبع ذلك من اهتمام الراشدين والأمويين والعباسيين والأندلسيين بالعلم والعلماء مما

تعدّ النهضة في هذه العهود استمرارا له ، فإنّنا نرى عدة عوامل في عهود الدول المتتابعة قد ساعدت على النهضة العلمية ونشاط حركة التأليف ، ويمكن أنْ نقسم هذه العوامل الى خارجية وداخلية .

فمن العوامل الخارجية قيام الحروب الصليبية وغزو التتار للعالم الاسلامي وما رافقهما من الاستيلاء على القدس وتدمير بغداد وقتل العلماء فيها بعد أن جمعهم التتار بحجة تزويج ابنة الخليفة العباسي ، وفيهم محيي الدين ابن الجوزي وأولاده الثلاثة والشيخ يحيى بن يوسف الصرصري الضرير الشاعر ، ومن إحراق الكتب ونهبها وبناء جسر ببعضها على دجلة مما جعل فلول العلماء تتّجه إلى مصر والشام . (ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٧ : ٥١) .

ومنها الهجرة من الاندلس بعد نكبتها فقد جاءت أفواج من الأندلسيين الى القاهرة ودمشق ، وكانت كل من ديار الشام ومصر مَلاذاً لهم . ومنهم من نال مكانة كبيرة فيها كابن خِلِّكان قاضي قضاة دمشق وصدر الدين البكري إمام المحدثين بمصر ، وابن المرادي من أهل إشبيلية الذي رآه ابن جبير أثناء رحلته ، يُدرّس في الجامع الأموي بدمشق . ومنهم من هاجر من ديار الشام إلى مصر بعد غزو التتار وبقي فيها مثل كمال الدين بن العديم الذي فرّ من حلب الى القاهرة في عهد الناصر قلاوون ، ووالد ابن تيمية الذي فرّ اليها من حلب ومعه ابنه .

ومنهم من هاجر من المغرب الى مصر والشام لما لقي فيهما من رعاية كابن منظور الدمشقي وابن خلدون وابن أبي حجلة .

وممن وفد على مصر والشام من الأندلس ابن مالك النحوي مؤلف الألفية المشهورة وغيرها وأثير الدين أبو حيان العالم النحوي الأديب ومنهم الطرطوشي ، وابن دحية (٦٣٤ هـ) صاحب كتاب المطرب من شعر أهل المغرب .

وممن وفد على مصر والشام من المشرق الخطيب القزويني القاضي جلال الدين وسعد الدين التفتازاني والتبريزي وصفيّ الدين الحلي . وذلك يدل على أنّ تيار

الثقافة الإسلامية أخــذ في التحول التدريجي من المشرق والمغرب ليصب في مصر والشام تحت الضغط العدواني من الشرق والغرب •

وقد يستغرب كيف يزدهر العــلم والأدب في عصــر سادته الحروب الهائلة الصليبية والتتارية من الشرق والغرب ولكن يبدو أنّ الشرق قد اعتاد أنْ تسير الأحداث العنيفة فيه جنبا الى جنب مع الثقافة والفن ، كمــا يقول « لين بول »
(*Lane Poobe, Saladin*, P 21)

ويرجع ذلك إلى أنّه في حالة الحروب تستيقظ النفوس وتتحرك الهمم للدفاع في سائر الميادين ، عسكرية ومدنية وعلمية وأدبية كما يرجع إلى أنّ الحياة العامة تكوّن وحدة كاملة مترابطة متداخلة متفاعلة في جميع مظاهرها ونواحي فاعليتها •

وكان لاستنارة العقول بالعلم أثر كبير في النصر الحاسم الذي أحرزه المسلمون أخيراً على الصليبيين والتتار فطردوهم من بلادهم •

وكما كانت الشام ومصر وحدة سياسية عسكرية لا بد منها لإحراز النصر العسكري كذلك كانا بيئة معنوية واحدة يخضعان لنمط واحد من الفكر وكان العلماء يتنقّلون بين القطرين ومن الصعب تخصيص عالم بالقطر الواحد دون الآخر • ونحن نرى أنّ العالم الاسلامي كلّه كان في ذلك العصر بيئة علمية واحدة ولكن التخصيص نال هذين القطرين لأنّهما كانا قطري المواجهة مع العــدو ، اللذين وحّدتهما المصيبة وأشعرتهما بوحدة المصير •

وقد أثّرت الحرب خلال هذه العهود في الثقافة والعلم فجعلت العلماء يؤلّفون الكتب الكثيرة في الحرب والجهاد لحض الناس عليهما[1] ، وقد تأثّرت اللغة العربية بكثير من الالفاظ اللاتينية والتركية التي دخلت إليها بنتيجة الاختلاط والاتصال بين الفرنجة والعرب • (راجع على سبيل المثال أسامة بن منقذ ولا سيّما الاعتبار) •

---

(١) من ذلك إبراز المؤلفين صفات الابطال من الصحابة لتحميس الجند « تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ٢ : ٢١٦ » . وكتابة ابن الأثير عن مقتل زنكي « *Recueil II* 2 — 182 »

ومن العوامل الداخلية التي ساعدت على ازدهار هـذه الحركة انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وغيرهما ، وما ألحق بها من خزائن الكتب ، ووصول العلماء إلى أسمى مناصب الدولة لحاجـة ذوي السلطان إليهم ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين للعلماء وإجلال الشعب وتقديره لهـم • وقد قال صـلاح الدين مرة لقوّاده ما معناه : إنّني لم أنتصر بكم وإنما انتصرت بفضل تدبير القاضي الفاضل •

ومن العوامل الداخلية التي ساعدت على نشاط الحركة العلمية في مصر والشام أنّ الجامع الأزهر في القاهرة والمسجد الأموي في دمشـق كانا مصدري إشعاع للمعرفة على العالم •

وقد حلّت القاهرة محلّ بغداد بعد الغزو المغولي وكانت منذ زمن طويل قد بدأت تنشر نورها الفكري ، ذكر ابن خلدون في المقدمة (ص ٤٣٢) أنّ مركز العلم تحوّل من بغداد والبصرة والكوفة بعد غزو التتار إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ، إلى القاهرة ، وما يليها من المغرب ، ولكنه يعود فيذكر في المقدمة (ص ٥٤٥) أنّ المركز الوحيد الذي بقي في الحقيقة على الزمن هو مركز القاهرة وسمّاها « أم العمران ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم » •

وقد كثرت العناية بالعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وآدابها فأسست دور العلم وأكثر منها بالاضافة إلى المساجد وألحق بها دور الكتب العظيمة واختير لها المدرسون القادرون من العلماء •

وانصرف العلماء إلى التأليف وكانوا ينالون التشجيع الكبير على ما يؤلّفون وعاش بعضهم في بحبوحة بل عاش جماعة منهم عيش الأمراء •

وتنوّعت تآليفهم ، قيل إنّ ابن الجوزي ألّف ثمانمائة كتاب في جميع فروع الثقافة الإسلامية • ومنهم من ضمّ إليها ثقافات أخرى كابن الخشاب النحوي الذي كان عالما أيضا بالمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، وكانت له يد في جميع العلوم ؛ وكذلك عبد اللطيف البغدادي الرحّالة الذي ألّف أيضا في الطّب والحيَوان والنبات والكيمياء والطبيعة والرياضيات • « مرآة الزمان ٨ : ٤٨٩ وارشاد الأريب ٤ : ٢٨٦ وفوات الوفيات ٢ : ١٧ ـــ ١٨ » •

وقد ظهر أعلام في الفكر في هذه العهود منهم الإمام الفخر الرازي والإمام الزمخشري (ت ٥٣٧ هـ) والإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) والجواليقي، والشهرستاني، والنسفي ، والحريري والسهروردي ، وابن فيرة الشاطبي ، وابن رشد الفيلسوف ، وابن خلدون المؤرخ ، والسيوطي الموسوعة العلمية .

وكان العلماء يربطون بوحدة العلم بين أجزاء العالم الإسلامي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فكل بلد بلدهم ، وكانوا يرحلون في طلب العلم وينقلونه من بلد إلى آخر . ومظاهر هذا التنقل في التراث العربي الإسلامي فريدة لا توجد في أي بلد آخر غيره فترى العالم يؤلف عدة كتب يؤلف كلا منها في بلد لا يُفرّق بين بلد وآخر ولا تفرّق أيّ بلد بين عالم وآخر مهما كان موطنه .

وكانت رحلات العلماء ذات آثار كبيرة في البلدان التي يحلّونها ومن أجل ذلك بنى السلاطين والأمراء لهم الرُبُط والنزُل والمدارس وعيّنوا لهم الرواتب والمساعدات لتتوافر لهم الراحة فلا يَشغَلوا بأمور مَعاشهم وينصرفوا إلى التأليف .

وكان أوّل ما دعا الى ارتحال العلماء طلبُ الحديث النبوي ولا سيّما في عصر الإحياء السني زمن الزنكيين والأيوبيين ومن أشهر الحفّاظ الرحّالين الحافظ السّلفي وأصله من بلاد فارس وقد تنقل في البلدان الإسلامية حتى حط رحاله أخيراً في الاسكندرية وأمّه الطلاب من كل صوب ومن طلابه صلاح الدين الأيوبي نفسه ، وقد تضمن معجم السلفي ما دوّنه عن رحلاته وشيوخه وتلاميذه .

وكان من الرحلات العلمية رحلات الحج الموقتة فقد كان علماء المغرب والأندلس يحجون فيأتون بحراً أو برّاً الى الاسكندرية ومنها يصعدون في النيل حتى قوص[1] ثم يتجهون شرقا الى عيذاب على شاطيء البحر الأحمر ومنها يبحرون إلى جدّة ثم يذهبون الى مكة ثم المدينة ثم يتجهون شرقا الى العراق ثم يعودون الى الشام ثم يركبون البحر الى بلادهم من الشام أو من ساحل مصر .

---

(١) اصبحت قوص لذالك مركزا من مراكز العلم (ابن جبير ٦٥) .

وقد هيّأ لهم الحكام خلال هذه الرحلة وسائل الراحة فكانوا محل الاحترام والإكرام في كل مكان • وكان بعضهم يؤثرون البقاء لدى سلاطين المشرق الذين كانوا يُولُونهم الاهتمام الكافي كما كانوا يحبون الاستزادة من العِلم في المشرق • وكان بعضهم يرجعون الى بلادهم ولكنْ بعد أنْ يتزودوا بالعِلم ويَلقَوا كثيرا من العلمـــاء •

وقد نتج عن ذلك كلّه أنّه صـــار لدى العامـــة شغَف بالعِلم وتوقير كبير للعلماء ، وظهر من هؤلاء العامة شعراء وكان بعض العلماء لا يستنكفون عن تسجيل بعض نوادر العامة في كتبهم كما فعل الحافظ السلفي حين سَجّل في معجمه نوادر ابن شداد (الأدب في العصر الأيوبي ، د• محمد زغلول سلام) •

وكان للحاكمين فضل على النهضة العلمية بثقافتهم وتقريبهم المثقفين وتشجيعهم العلماء وعرف ذلك عن الفاطميين : رُوي أنّ المهذّب بن النقاش الطبيب قدم دمشق ولم يحصل على ما يقوم بكفايته فسافر إلى مصر لِما سمع عنها فوجد فيها ما كان يرجوه ، واشتهر من وزراء الفاطميين بتشجيع العِلم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وكان مغرما بجمع الكتب • وقد اضطربت الحركة العلمية في آخر الدولة الفاطمية لاضطراب الحالة السياسية ومع ذلك فقد كان الوزير ابن رزيك المؤلف الشاعر من أكبر المشجعين للحركة العلمية •

وقد اشتدت حماسة السلاجقة للمذهب السني • بعـــد طغيان عناصر الثقافة اليونانية البعيدة عن روح الإسلام في عصـــر البويهيين الشيعيين ، وظهور تيارات متعددة في الفكر الإسلامي صرفت النـــاس عن طـــريق السنّة كحركات المعتزلة والمتكلمين والباطنية • وكانت دار الحكمة التي أنشأها الفاطميون في القاهرة مصدر إشعاع للمذهب الشيعي وما يرتبط به من عناصر الثقافة اليونانية وغيرها •

وقد ناهض السلاجقة العـــلوم العقلية التي اعتمد عليهـــا الشيعة خصومهم المذهبيون • ومن أبرز حكامهم نظام الملك (قتل سنة ٤٨٥ هـ) وكان شديد التعصب للحديث النبوي يعقد في مجلسه حلقة لقراءته يحضرها العلماء المبرّزون •

وقد بنى نظام الملك المدارس الإسلامية المسماة باسمه والتي لم تكن تخلو منها عاصمة من عواصم البــلاد الإسلامية الكبرى التي دخلت في حــوزة السلجوقيين وبخاصة في العراق وفارس كنظامية بغــداد التي كانت تشع في فارس والعراق وسورية ومصر ، ونظامية نيسابور ، والموصل ، وهراة . « الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي : ٢٦ » .

وكان بناء مدرسة يوازي لدى السلجوقيين بناء مسجد أو فتح مدينة أو بناء قلعة وتشبهت الأتابكيات ــ وهي الإمارات التي انقسمت إليهــا دولة السلاجقة بعد ــ في دمشق والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبعلبك وغيرها ، بالسلاجقة ، وكانت مراكز هامة للثقافة كما تشبه بهم نور الدين وصلاح الدين .

وقد ترافق شعاع المدارس النظامية في المشرق مع شعاع الأزهر

Laine Poole, Saladin, P : 18 — 19

وكان نظام الملك عالما ألف كتاب « سياسة نامه » في السياسة كما كان فقيها دينيــا ، وكان ممن شجعهم نظــام الملك العالم الفلكي الفيلسوف الشاعر المشهور عمر الخيام .

« المرجع السابق ص ١٢ »

وكان السلطان محمود السلجوقي (ت ٥٢٥ هـ) قوي المعرفة بالعربية حافظا لكثير من الشعر والأمثال ، عارفا بالتواريخ والسير .

وكان عصر سنجر واخوته (٤٨٥ ــ ٥٥٢ هـ) عصراً نبغ فيه عدد من الكتاب والشعراء والعلماء من الفرس والعرب ، نبغ فيه من شعراء الفرس فريد الدين العطار ونظامي وعمر الخيام وسنائي ، ورشيد الدين الوطواط ، وأنوري . وكان الأدباء في المشرق يدونون رسائلهم باللغتين العربية والفارسية . « أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ و ٢٩٩ و ٣٤٤ Browne » و « الجامع المختصر ٩ : ١٣٩ » .

وكذلك شجع العلم سلاطين الدولة الغورية وكان يفد الى بلاط شهاب الدين الغوري الإمام فخر الدين الرازي صاحب التفسير المشهور وكتب الأدب والإعجاز والبلاغــة .

وقد بنى الزنكيون كثيرا من المساجد ودور العلم وكان نور الدين زنكي أول من بنى دارا خاصة بالحديث النبوي الشريف وكان يستقدم العلماء من البلاد الشاسعة ويجلّهم ويقوم بكفايتهم[1] وقد بنى مدرسة للحنفية في دمشق (كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٢٩) . وكان نور الدين يكاتب العلماء بخطّ يده ، متبحرا بالشرع . وهو أيضا أوّل من عمّم المدارس على مدن الشام الكبيرة التي دخلت في حوزته .

وكان ممّن وفد على نور الدين في الشام من مشاهير الفقهاء قطب الدين النيسابوري (ت ٥٦٨ هـ) ، ويقول أبو شامة (الروضتين جـ ١ ص ١٢٤) أنّ نور الدين أنزل النيسابوري في حلب بمدرسة باب العراق ، وأنّه بنى له مدرسة كبيرة للشافعية اعترافا بفضله .

وكان الوزير عون الدين بن هبيرة (ت ٥٦٦ هـ) في بغداد يكرّم أهل العلم وقد ألّف هو نفسه عدة كتب منها « الايضاح في شرح الأحاديث الصحاح » . « الروضتين ١ : ٢١٤ » .

واقتدى صلاح الدين بنور الدين وكان يوصي بإكرام المشايخ العلماء الذين يمرون بخيام معسكره (ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٥) . كما كان يخصّص الرواتب الكافية لأرباب العمائم (خطط الشام ، محمد كرد علي ، ج ٤ ، ص ٣٩) . ويذكر عبد اللطيف البغدادي أنّه حين دخل دمشق وجد فيها من أعيان بغداد وغيرها من البلاد الذين جمعهم إحسان صلاح الدين عددا كبيرا .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار ضريح الشافعي في القاهرة واشتهر بأنّه أعظم مشيّد لدور العلم في الإسلام بعد نظام الملك (تاريخ العرب المطوّل ، فيليب حتى ، ط بيروت جـ ٣ ص ٧٨٢) . وقيل إنّها كانت مكونة من أربعة أروقة (تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان ، جـ ٢ ص ٢٣٥) .

---

(١) ابن واصل ، مفرّج الكروب ١ : ٢٨٣ — ٢٨٤ و ١٣٦ .

وقد عُدَّ عصر بني أيوب والزنكيين قبلهم عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية وللمذهب السني كما كان عصر إحياء سياسي وكانت غيرتهم على العلم جزءاً من غيرتهم على الأوطان والدين •

فحين استولى صلاح الدين على مصر لم يكن فيها علماء ذوو شأن من أهل السنة إلاّ جماعة قليلة تمركزت في الإسكندرية وعلى رأسها الحافظ السلفي ، ولكن بتشجيعه وتشجيع خلفائه أصبحت المدن الكبرى في مصر والشام ، كالقاهرة والإسكندرية وقوص وأسيوط وبيت المقدس ودمشق وحلب وطرابلس ، مراكز لعلوم السنة والفكر السني نابضة بالحياة •

وكان من سياسة صلاح الدين مكافحة التشيع عملا وعقيدة فاتخذ من العلماء والفقهاء وسيلة لتحقيق هدفه •

وقد شارك بنو أيوب كلّهم في طلب العِلم فضلا عن تشجيعه وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب هو الملك الأيوبي الوحيد الذي قلَّ نصيبه من العلم لأنّه كان يحب الانفراد وكان ذا طبيعة عسكرية بحتة ومع ذلك فإنّه لم يُقصِّر في تشييد المدارس •

وقد شارك القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين ووزيره وأمين سرّه في بناء المدارس فبنى المدرسة الفاضلية ونقل اليها مئة ألف مجلد من مكتبة القصر الفاطمي ، وبنى الحافظ السعدي مدرسة أنفق عليها من ماله واستعان بأهل الخير ووقف عليها ما كان يملكه من مال وكتب • وهذان المثالان يدلاّننا على أنَّ العلماء قد شاركوا هم أيضا في تشييد المدارس من مالهم الخاص •

وكان التنافس بين أصحاب المذاهب الأربعة كبيرا في هذه العهود وكان بعض البلاد يغلب عليها مذاهب بعينها فغلب في مصر المذهب الشافعي ، وفي الإسكندرية وشمال افريقيا المذهب المالكي ، وفي العراق وسائر المشرق وجدت المذاهب الثلاثة

الحنفي والحنبلي والشافعي ووجد إلى جانبها مذاهب الشيعة التي احتفظت بمراكز قوية في حلب والعراق وبعض بلاد فارس ٠

وكان يحدث أحيانا صدام في الأرواح بين هذه المذاهب من ذلك ما حدث بين الشافعية والحنفية في نيسابور فقد قتل في الفتنة سبعون رجلا (أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٢٥) ، وكذلك حدثت فتنة زمن صلاح الدين في مصر عقب قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد ، وكان الجنود الأتراك يؤذون خلالها المصريين لاختلافهم المذهبي معهم (الروضتين جـ ١ ص ١٩٧) ٠

كان صلاح الدين شديد الكلف بعلوم الدين يسمع من الأئمة المشهورين وكان يغتنم كما يقول ، حياة الإمام الحافظ السلفي فكان يتردد عليه للسماع منه أياما من الاسبوع ، وحياة الشيخ أبي طاهر بن عوف ليسمع منه موطأ مالك برواية الطرشوشي ، والشيخ تاج الدين المسعودي الذي كان السلطان يعيّن ميقاتا لسماع الأحاديث عنه بالقاهرة (مفرج الكروب جـ ١ ص ١٩٥ ، ١٩٦) و (الروضتين ١ : ٢١٤ و ٢ : ١٩٩) ٠

وكان صلاح الدين يحفظ القرآن الكريم والتنبيه في الفقه الشافعي وديوان الحماسة لأبي تمام ، وألّف له محمد بن هبة الله أرجوزة في العقائد ، وكان إذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ودمعت عينه ٠ (ابن شدّاد ، النوادر السلطانية ص ٨٠٦) ٠

وكانت حاشيته تضم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني والقاضي بهاء الدين ابن شدّاد الذي كان يرافقه في السلم والحرب ٠

وروى ابن شدّاد أنّ صلاح الدين كان يستحضر بعض المحدّثين ليسمع منهم فإنْ كانوا ممّن لا يحضرون مجالس السلاطين ذهب اليهم (النوادر السلطانية لابن شدّاد ص ٧) ٠ وقد أشار عليه ابن شدّاد أن يسمع الحديث بين الصفيْين وهو مع صحبه على ظهور الدوابّ ليكون أسبق إلى هذه المأثرة من غيره (المصدر نفسه ص ١٥) ٠

وكان الأيوبيون يناقشـون « شقيف أرنون »[1] في الديانتين الإسـلامية والمسيحية ويصفه ابن شدّاد بأنه كان حسن المحاورة (المصدر نفسه ص ٨٠) ٠

وقد قرأ صلاح الدين مختصرا في الفقه ألّفه الإمام فخر الدين الرازي ؛ وكان يستفيد من العلماء والفقهاء خلال جلسات مجلس العدل في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، ويظهر أنّ مجالس العدل هذه قد دفعت ملوك المسلمين كنور الدين وصلاح الدين وخلفائهما الى دراسة العِلم ، والفقـه منـه ، بخاصة ليستطيعوا المشاركة في أحـكام الفقهاء وتمييز صحيحها من فاسدها وكانوا حراصا على أنْ يعرفوا أصول الفقه ومذاهبه وقوانينه ٠ وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين كأبيه مولعا بالعِلم ، سمع الحديث بالإسكندرية على الحافظ السلفي ، والفقه على ابن عوف الزهري وسمع بمصر عن العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم ٠

وكان الملك العادل أخو صلاح الدين شديد الحب للعلماء ولكنه كان مشغولا بالفتن السياسية التي كان يحوكها وقد طال حكم الكامل بن العادل فاستطاع أن يترك أثرا في العِلم والأدب والحرب والسياسة وشبّهه بعضهم بالرشيد والمأمون في دولة العباسيين وقيل بأنه حدّث بالإجازة عن أبي محمد بن برّي النحوي وأنه كان يناظر العلماء في مسائل كان يحضرها ليمتحنهم بهـا فيقدم من يحسن الإجابة وبنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة لأبي الخطاب بن دحية ، وكان ينام عنده جماعة من أهل العِلم تنصب أسِرّتهم إلى جانب سريره ليسامروه في العِلم ، منهم الجمال اليمني النحوي والفقيه عبد الظاهر وابن دحية والأمير صلاح الدين الإربلي ، وكان يُطلق للعلماء الأرزاق الوافرة ، وقد قصده كثيرون ، منهم : التاج ابن الأرموي وأفضل الدين الخونجي والقاضي الشريف شمس الدين ابن الأرموي قاضي العسكر ، وهم أئمة وقتهم في المنقول والمعقول ٠

وجاءته أسئلة من الأنبرور (الإمبراطور فريدريك) صاحب صقلية في أنواع الحكمة والرياضيات فعيّن للإجابة عليها قيصر بن أبي القاسم الأسفوني ، ويتبيّن

---

(١) هو احد مفكري الصليبيين الدينيين ٠

من هذه الحادثة أمران : الأوّل ما كان لهذه المحاورات من أثر بين الفريقين المتحاربين حينئذ ، والثاني ما كان يتمتع به الكامل من مرونة عقلية سمحت له بتلك المحاورات والمناظرات . « الطالع السعيد للأدفوي : ١٥٦ » .

وعلى الرغم مما كان يتّسم به المعظّم توران شاه من طيش ، فقد كانت له مشاركة في العِلم ووصف بأنّه حسن المباحثة ذكي . (الطالع السعيد للأدفوي ، ص ٧٥) .

وكان الملك المعظّم عيسى صاحب الشام نحويا وفقيها لغويا وكان حنفيا دون سائر أهله وله كتاب في الرد على من طعن في مذهب أبي حنيفة ، وهو (السهم المصيب في الرد على الخطيب) ، وكان يحرّض المتصوفة على الاشتغال بالفقه ويرغبهم في حفظ بعض كتبه بالجوائز الثمينة ويفي لهم بوعده (شفاء القلوب ص ٧٥) ولعلّه كان يريد أن يُعدّل طريقتهم المعتمدة على التأمل الباطني ويطعّمها بالفقه الذي يعتمد على النقل وعلى التفكير معا .

وقد أمر الفقهاء أنْ يستخلصوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه في كتاب فاستخلص له ذلك في عشر مجلّدات سماها « التذكرة » فكان هذا الكتاب يرافقه في حِلّه وتَرْحاله . وكتب على ظهر مجلدة أنّه أنهاها حفظا فراجعه في ذلك سبط ابن الجوزي وقال له إنّ أكبر مدرّس في الشام يحفظ (القُدوري) وأنت مع شغلك بالمُلْك تحفظ عشر مجلدات ؟ فأجابه بأنّ العبرة بالمعاني لا بالألفاظ فاسألوني عن جميع مسائلها فإنْ قصّرت كان الصواب لكم أو فسلّموا لي (شفاء القلوب ص ٧٥) . وللمعظّم عيسى ديوانُ شعر (ذيل الروضتين ص ٦٢) .

وكان الناصر داوود كأبيه المعظّم عيسى ، وفي عهده راجت العلوم العقلية ونشطت دراسة الفلسفة وهو الذي استدعى عبد الحميد بن عيسى وكان من علماء المعقولات .

وكان المنصور محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة يشجّع العلماء . وممّن ورد عليه منهم سيف الدين الآمدي وكان في حاشيته مئة معمّم من النحاة والفقهاء .

وبفضل الأيوبيين غنيت المكتبة العربية بإنتاج علمي ضخم متنوع في جميع نواحي العلوم العقلية والنقلية يدل على حركة علمية ناشطة •

وكان المماليك البحريون تلاميذ للأيوبيين في حرب التحرير وكثير من الأمور ، ولكنهم في الناحية العلمية اكتفوا بالتشجيع فقط على ما ظهر وبزوا في هذه الناحية أساتذتهم فشيدوا دور العلم والمدارس والمساجد والخوانق والربط والزوايا وكانوا يتوخون أن يضم بعضها قبورهم إلى جانب غيرتهم على الدين الإسلامي وحبهم التقرب من الشعب وتخليد ذكراهم •

وقد زادت قيمة القاهرة من حيث أنها مركز علمي مشع بعد صيرورة الخلافة إليها وأصبحت موئل الثقافة الإسلامية وذلك بفضل الملك الظاهر بيبرس •

وكان الظاهر بيبرس يعنى عناية خاصة بالتاريخ وأهله ويحب سماعه ، وكان الأشرف خليل أديبا مثقفا ممتازا ينقد المراسيم التي تعرض عليه ويصححها ويطارح الأدباء بذهن صاف وذكاء لامع •

وقد رمي المماليك الجراكسة بالجهل والإهمال وعدم تشجيع العلم والأدب وقد يكون في هذا الحكم بعض القسوة والتعميم لأننا نراهم قد ثابروا على بناء المساجد والمدارس والتكايا ، وظهر من بينهم هم أنفسهم بعض من يشجعون العلم ويخالطون الأدباء مثل السلطان برسباي بل ظهر منهم عالم أديب هو السلطان قانصوه الغوري الذي كانت له بعض المؤلفات وكان ينظم الشعر ، وألف بعض أبنائهم المنحدرين منهم كتبا قيمة مثل ابن تغري بردي صاحب الكتاب النفيس : « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » •

قال ابن خلدون في القرن التاسع خلال دولة المماليك البرجية : « واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع » • (المقدمة ص ٥٤٥) •

* * *

خزائن الكتب : (١)

لم تكن المدارس والمساجد مراكز التعلم والتثقف الوحيدة في عهود الدول المتتابعة وانما كان الى جانبها المكاتب العامة والخاصة فقد أغرم الحكام والعلماء والأدباء ، والناس بعامة ، بالكتب ويعلل ذلك بعضهم بأن المسلمين لم يكن لهم وسائل للثقافة أو التسلية غير الكتب فلم يكن عندهم مسارح وتمثيليات فكانوا ينفقون أوقاتهم بالمطالعة والتحصيل[٢] وقد بلغ من غرامهم بالكتب أن القاضي القفطي (٥٧٠ ــ ٦٤٦ هـ) جمع من الكتب ما لا يوصف ورحل في سبيلها الى أقاصي الارض وان مكتبته قدرت في ذلك الوقت بخمسين ألف دينار[٣] ، وأن ابن حمدون الكاتب عندما حطت به الايام وأقصي عن العمل اضطر الى بيع كتبه وعيناه تذرفان الدمع وكان معه ياقوت فأخذ يواسيه فقال له حسبك يا بني ، هذه نتيجة خمسين سنة من العمر وهذا الفراق بيني وبينها ليس بعده تلاق وأنشد متمثلا :

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه ... وأعقب بالحسنى وفك من الأسر

فمن لي بأيام الشباب التي مضت ... ومن لي بما قد مر في البؤس من عمري

« ارشاد الاريب ٣ : ٢١٠ »

---

(١) اقتبسنا هذا البحث من عدة كتب حديثة وقديمة ومن الحديثة : تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول لعبد اللطيف حمزة والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد احمد بدوي ، والأدب في العصر الأيوبي وفي العصر المملوكي الأول لمحمد زغلول سلام ، والأدب في بلاد الشام لعمر موسى باشا ، ومطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري شيخ أمين ، ومن القديمة معيد النعم للسبكي والدرر الكامنة للعسقلاني والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ورحلة ابن جبير .

(٢) تاريخ العرب المطول : حتى ٣ : ١٧٠ .

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ٢ : ١٩٢ .

وحسبنا من اهتمام الناس بالكتب وعنايتهم بها أن مكتبة القاضي الفاضل التي أهداها لمدرسته الفاضلية كانت تضم مئة ألف مجلد ، (الخطط ، ٢ : ٢٥٥) ، وقد كانوا لا يبخلون بشيء من مالهم أو من جهدهم على تحصيل الكتب وكانت للكتب أسواق قائمة في جميع البلاد العربية ويقال إن أهم سوق لها كانت قرطبة[١] ويدلنا على ضخامة هذه الاسواق وكثرة ما كانت تحويه من الكتب أن حريقا حدث في سوق دمشق سنة ٦٨١ هـ فأحرق لتاجر كتب واحد هو شمس الدين إبراهيم الجزري خمسة عشر ألف مجلد ، ما عدا الكراريس ، « السلوك ، ١ : ٧٠٩ » ، فكان الحريق فاجعة ثقافية كالحريق الذي حدث في بعض خزائن الخاصة بالقلعة فذهب بكثير من ذخائر الكتب ونفائسها . وكان سوق الكتب في مصر بجانب جامع عمرو بن العاص .

وكان الفاطميون في القاهرة كثيري العناية بالكتب . وأعظم المكتبات عندهم مكتبة القصر وكان الى جانبها مكتبة دار الحكمة ومكتبة الأزهر التي كان يشرف عليها سنة ٥١٧ هـ داعي الدعاة . وقد اختلف في عدد الكتب التي كانت تحتوي عليها مكتبة القصر فقال بعضهم انها كانت تزيد على مئتي ألف كتاب وأوصلها بعضهم إلى مليوني كتاب وقال ابن واصل بأنها كانت تزيد على مئة وعشرين ألف كتاب وجعلها آخرون مليونا وستمائة ألف كتاب ، وقيل إنهـا كانت في أربعين خزانة من جملتها واحدة كان فيها ثمانية عشر ألف كتاب . وكانت المكتبة تضم كتبا في جميع أنواع المعارض المعروفة حينئذ . ومن المؤسف أن هـذه المكتبة أصيبت بمحنتين : المحنة الأولى زمن المستنصر الفاطمي الذي عجز عن دفع الأرزاق لجنده ووزرائه فنهبوا منها ما نهبوا لقـاءأرزاقهم وأحرق وأغرق أو أهمل كثير منهـا تعرض للعراء في العوارض الطبيعية المختلفة ثم جددت المكتبة وعاد لهـا ازدهارها زمن الفاطميين أنفسهم ولكن صلاح الدين كان يريد إزالة معالم الفاطميين فلم يولِ مكاتبهم عنايته وأوكل بمكتبة القصر قراقوش القائم على شؤون القصر وكان تركيا لا يعرف إلا

---

(١) تاريخ العرب المطول : حتي ٣ : ١٧٠ .

الجندية ويجهل قيمة الكتب فجاءه من أقنعه بأن هذه الكتب يفسدها العث وأنّ بيعها خير" من بقائها فبيعت بأبخس الاثمان دون ترتيب ولم يكن الكتاب الواحد يباع مجتمع الأجزاء ، وقد اغتنم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني الفرصة فاشتريا منها أعدادا هائلة من الكتب يظهر أن صلاح الدين سامحهما في النهاية بثمنها وقد قدر بعضهم ما أخذه القاضي الفاضل منها بمئة ألف مجلّد و لاشكّ في أن هذا العدد مبالغ فيه • (خطط المقريزي ٢ : ٢٥٥) • (راجع المقريزي ، الخطط ، ٢ : ٣٣٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥) و (الروضتين ١ : ٢٠٠)[1] •

ونأسف لما أصاب هذه المكتبة من نكبة على أيدي الأيوبيين بسبب الإهمال والتعصب ، فقد وجدوا بعد استقرار الأمر لهم أنّ من واجبهم أن يكوّنوا مكتبات من جديد بجهودهم ولو أنهم احتفظوا هم وغيرهم بكتب سابقيهم وأضافوا اليها ما يجمعونه بجهودهم لكان لنا من الكتب ثروة هي عشرات أضعاف ما بقي لنا • فرأينا الملك الكامل ينشىء في مدرسته دارا للكتب ويجعل لها قيّما يشرف عليها ويجعل قاعة الكتب جزءا من بناء المدرسة وكذلك فعل غيره ، ولم يقتصر جمع الكتب على الخزائن العامة بل كان يتم أيضا في المساجد والجوامع والمدارس • ولم تقتصر خزائن الكتب العامة على القاهرة ودمشق بل كانت تعم مراكز العلم الأخرى كبغداد وآمد وأصبهان ، وقيل ان آمد كان فيها حين استولى عليها صلاح الدين مليون وأربعون ألف كتاب وأنّ القاضي الفاضل انتقى منها لنفسه نفائسها ، وكان في نظامية بغداد كتب ملحقة بها وكان يشرف عليها علماء فضلاء منهم أبو يوسف الأسفراييني الشاعر الأديب (ت ٤٩٨ هـ) • « ارشاد الأديب ٥ : ١٢١ » •

وكان طلاب العلم يقرؤون ما يقع تحت أيديهم من الكتب الدينية واللغوية والأدبية والطبيعية والتاريخية والفلكية وكل ما يرونه متاحا لهم منها حتى إن تاج الدين السبكي نعى على الورّاقين نسخهم وترويجهم كتبا ليست نافعة في نظره كسيرة عنترة • (معيد النعم ، ص ١٨٦) •

---

(١) راجع ايضا اتابكيّة الموصل في
Reeüilles des Histoiriens Orientales Vol II P. 2 — 885

ومن الطبيعي أن تروج بعض الكتب أكثر من غيرها وكانت الكتب الأكثر رواجا زمن المماليك « مشارق الانوار » للصاغاني و «مصابيح السنة » للبغوي و « جامع الأصول لابن الأثير » و « علوم الحديث » لابن الصلاح ، ومختصره المسمى « التقريب » و « التفسير » للنووي ، وهي في الفقه والحديث •

ويظهر أن العلماء والطلاب أقبلوا كثيرا على تفسير الكشاف للزمخشري ذي الطابع الاعتزالي • لذلك عني جماعة من أهل السنة بالرد والحملة عليه ، ومن أشهرهم ابن المنير السكندري • وممّن ردّ على السكندري مؤيدا الزمخشري عبد الكريم بن علي خطيب جامع مصر المشهور بعلم الدين العراقي ، (الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٠٠) ولم يعجب ذلك تاج الدين السبكي الذي رأى ضرورة الرد على كل آثار الاعتزال في تفسير الكشاف (معيد النعم ص ١١٥) •

ولم تقتصر محاربة أهل السنة من العلماء على الاعتزال في تفسير الكشاف وإنّما تعدّت ذلك الى علوم الرأي والفلسفة والمنطق والعلم الطبيعي •

الالوان الثقافية في هذه العهود (١)

نشطت الحركة الثقافية في هذه العهود وكثر التأليف في جميع العلوم والفنون المعروفة حينئذ ولكنّ عصرنا لا يزال مقصّرا جدا في تحقيق دراسات كافية مجدية حول هذه العهود وعلومها وفنونها ومدى ما وصلت إليه من رقيّ وتنوّع ، وتسرّع بعض مفكريه في تعميم ما رآه من الضعف والانقسام السياسييْن الحربييْن في العالميْن العربي والاسلامي في ذلك الوقت ، على العلوم والآداب فيهما ، فعدّها عهود انحطاط دون أن يستند في ذلك الى دراسة كافية أو شبه كافية ، أو أن يحتاط في الحكم •

وقد ظهر التخصص في هذه العهود لتعمق العلماء في دراسة العلوم وتوسعهم

(١) تركت الكلام هنا على ما اشتهر من الكتب في الموضوعات المختلفة خلال هذه العهود ، وفي التعريف ببعض العلوم السائدة فيها التي تحتاج الى تعريف ، الى كتابي المفصّل عنها ، رغبة في الإيجاز •

فيها وقد دلّنا السيوطي على ذلك حين صنّف العلماء ضمن زمر خاصة بحسب العلوم التي غلبت عليهم فأكثروا من التأليف فيها فقد اشتهر في كل مذهب من المذاهب الأربعة جماعة وانصرف جماعة إلى رواية الحديث أو نقده وآخرون الى القراءات[1] وآخرون الى التأليف وجماعة الى اللغة والنحو والصرف ، وجماعة الى التاريخ واختصت فئة" بالعلوم العقلية أو ببعض فنون الحياة الأخرى ، كالأدب والموسيقا .

وكان أكثر ما اهتم به الناس في هذه العهود علوم الثقافة الإسلامية وأهمها القرآن والحديث والفقه واللغة ومعاجمها والنحو والصرف والبلاغة والعروض والتاريخ العام والخاص وكتب الطبقات والتراجم والجغرافية ثم يأتي الاهتمام بالفلسفة والمنطق والطب والهندسة والرياضيات والموسيقا والحيوان وعلم الحيل « الميكانيك » والفلك والتنجيم ... ولذلك يجوز لنا أن نقول بأن العلوم العقلية لم تنل حظها الكافي من العناية في هذه العهود التي تعد في هذه الناحية متخلفة عن العهود السابقة . ونعلّل سبب انصرافهم الى العلوم الدينية والعربية بالعاطفة الدينية التي أذكتها الحروب الصليبية والتتارية وبغريزة حب البقاء والدفاع عن النفس(*) .

نظـــام التعليـــم

كان الصبية الصغار يتلقون تعليمهم في المكاتب التي أطلق عليها اسم الكتاتيب

---

(١) نظم الشاطبي في القراءات : السيوطي ، حسن المحاضرة ١ : ٢١٢ .

* على أن جورج سارتون في كتابه :

Introduction to the History of Scienee, VII Part1,P : 31.

يتحدث عن تقدم الكيمياء الصناعية فيكثير من اجزاء الامبراطورية الاسلامية حينئذ ، ويدل على ذلك ما صنعه شاب دمقي من ادوية لإحراق الأبراج الفرنجية التي حاصرت عكا زمن صلاح الدين (شفاء القلوب : ٤١) .

وذكر صاحب الروضتين (جـ ٢ : ٢١٩) انه كان مبغضا للفلاسفة والمعطلة الدهرية وانه أمر ابنه العزيز صاحب حلب بقتل السهروردي (الذي لقب بالشهاب المقتول) متهما إياه بمعاندة الشرائع .

(ج كتّاب) وكان معلمهم يبـدأ بتلقينهم سور القرآن القصار وكانوا يتعلمون الخط في الوقت نفسه وكان يُفضّل أن يقوم بتدريس هاتين المادتين معلمان مستقلان لأنّ كلاً منهما يقوم به حينئذ أستاذ منصرف له فيُحسِنه ويتأتى للطلاب أن يكون خطّهم جميلاً وكانوا يعلمون الخط بكتابة الأشعار ترفعـا بكتاب الله عن المحو والاثبات والخطأ في كتابة الصبية[1] ؛ والخطوة الثانية هي تعليمهم مبادىء الدين ثم أصول الحساب وما يحسن من المكاتبات والأشعار الرصينة التي أحسن اختيارها ، وكان أهل كل مذهب يختارون من الأشعار ما يناسب عقائدهم ويؤيدها فالشيعة كانوا يختارون من الشعر ما جاء في مدح آل البيت ، وأهل السنّة زمن الأيوبيين كانوا يختارون ما هو في مدح الصحابة أو في تأييد المذهب السنّي أو ما يوافقه وكان المعلّم يكتب للصبية بيتا من الشعر يكلفهم أن يكتبوا على مثاله في بيوتهم .

وفيما يتعلق بالدين والخـلق كان المؤدب يكلف من أتـم من العمـر سبع سنين بالصلاة ويأمرهم بطاعة الوالدين ويضربهم على ما فيه سوء أدب أو مخالفة للشرع ويشترط ألا يضرب الصبيّ ضربا يؤذيه فلا تكون العصا غليظة ولا الضرب على الأماكن التي يخشى عليه فيها الضرر ، وعلى المؤدّب ألاّ يستخدم الصبية في أموره وألاّ يرسلهم الى داره وهي خالية ففي ذلك ما يثير التهمة حوله ومن واجباته ألاّ يرسل صبيا مع امرأة ليحرر لهـا رسالة . وكانوا يضيفون الى تلقين القرآن والكتابة ومبادىء الحساب تعلّم النحو والصرف والشعر .

وكان للمكتب مرافق يشترط فيه حسن الخلق يأخـذ الصبية الى المكتب ويردّهم الى بيوتهم بعد الدوام ، وإنما يشترط حسن خلقه حتى لا يفسد أخلاقهم .

فمن كان يريد أن يرقى فوق مستوى القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومبادىء الحساب والدين والنحو والصرف والشعر فعليه أن يذهب الى إحدى المدارس وهي نوعان : منها ما هو مختص بمادة من مواد العِلم كالتفسير أو الفقه أو النحو ، ومنها ما يتعلم فيه عدة مواد وكانت هذه هي مرحلة التعليم العالي الذي يقوم على تفسير

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٢٢ .

القرآن ومعرفة الديانات والفلسفة وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات ، والفقه بمذاهبه ، والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافية) والحديث وعلومه . ولم يكن الطلاب يكتفون بهذا بل كان بعضهم يتخصص في علم من هذه العلوم أو أحد فروعه بعد أن يجمع بينها فيحتاج الى أستاذ متعمق في هذا العلم في مدرسته فان لم يجده ففي مدارس أخرى في بلده وقد يحتاج الى الرحلة في سبيله الى بلد آخر مهما كان بعيدا .

وقد عرف في العهدين الأيوبي والمملوكي اختصاص كل مدرسة بمادة كدور الحديث أو المدارس المخصصة للفقه . وبعض المدارس كان يعلم فيها المذاهب الاربعة كل مذهب يعلّم في قاعة أو في قبة .

وهذه المدارس تعد من التعليم الراقي أو العالي ويكون فيها أستاذ رئيس هو شيخ المدرسة أو شيخ المادة المدرّسة وهو الذي يعلّم المادة وكان له معيد يعيه بأن يساعد الطلبة أو ضعافهم على فهم المسائل التي لا يفهمونها من الشيخ من المرة الاولى أو يكونون ضعافا فيها من قبل وأحيانا يكون للشيخ أيضا قارىء يقرأ بين يديه متن المادة التي يدرسها ويتولى هو بعد ذلك شرحها ، وكان الطلاب يحفظون هذه المتون وقد تكون المتون صعبة فيشرحها الشيخ ويحفظ الطلاب هذا الشرح أو يكتفون بفهمه ، واذا أتم الطالب دراسته على الشيخ أجازه وهذه الإجازة إمّا أن تقتصر على كتاب واحد فيكتب له الشيخ بأنه قرأ عليه هذا الكتاب . وهذه الإجازة تسمّى عراضة الكتب ، لانّ حافظ الكتاب يعرض حفظه على مدرّسه الذي يختبره في عدة أماكن من الكتاب فإذا نجح في الاختبار في عدة أماكن منه وأحسن الاجابة ولم يخطىء فيه كتب له الإجازة فيه فيقول : عرض عليّ فلان ... أو عرض عليّ وكتبه فلان ويذكر في الاجازة اسم الطالب والشيخ المجيز ومذهبه وتاريخ الإجازة(١) وقد تكون هذه الإجازة عامة بأن يكتب له بأنه قد أصبح ضليعا في هذه المادة وقد يجيزه الشيخ بالتدريس دون الفتوى إذا كانت المادة المدروسة هي الفقه

---

(١) صبح الاعشى ١٤ : ٣٢٦ — ٣٢٧ .

وقد يجيزه بالفتوى دون التدريس وقد يجيزه فيهما معا وقد تتضمن الإجازة عدة مواد علمية درسها الطالب على الأستاذ ويشهد على الإجازة أحيانا شاهدان عالمان من تلاميذ الشيخ أو من أصدقائه ومعارفه وتكون الإجازة على الغالب قصيرة وقد يطيل فيها الشيخ ويتأنّق ، ولا يجوز للطالب أن يدرّس المادة أو يفتي الا إذا أخذ الإجازة بذلك من شيخه . ويتبيّن ممّا أوردناه أن نظام التعليم كان دقيقا .

وكان العلماء النوابغ لا يكتفون بما يُحصّلون في بلادهم ويرحلون في طلب العِلم ومنهم من كان يتنقل من أقصى المشرق الى أقصى المغرب في طلب الحديث والتفسير أو الفقه أو علوم العربية أو غيرها من العلوم .

وقد ذكر المقريزي كيف كان المماليك يتلقون منهجا خاصا في التعليم فقد كانوا يُسلّمون بعد جلبهم وهم صغار الى من يعلّمهم الكتابة ومبادىء الحساب ثم يتعلّمون القرآن وكان لكل جماعة فقيه يعلّمهم آداب الشريعة والقيام بالصلوات في أوقاتها ثم يُعلّمون الفقه . وفي سن البلوغ يدرّبون على رمي السهام والطعن بالرماح وكل طائفة يستلمها رئيس من الخصيان يسمى الأستاذ فاذا بلغ المملوك غاية ما يجب تعلّمه من العِلم وشؤون الحرب تدرّج في المراتب ومنهم من يصبح أميرا ومن يصير فقيها أو أديبا شاعرا أو عارفا بالحساب وكانوا يتعرّضون في حالات المخالفة لعقوبات صارمة . « الخطط ٢ : ٢٠٩ » .

وكان صغار الأسرى يتلقون من التعليم والتدريب ما يتلقاه المماليك الصغار . وكان الفرد منهم يسمى الترابيّي وقد وصل بعضهم الى مراتب الأمراء .

وهنالك بعض قواعد متّبعة في العِلم منها ألاّ يأخذ الطالب العِلم من الكتب دون مدرّس مهما كان ذكيا ، فلا بد من المدرّس ، ومن وجد أستاذه ناقصا فليأخذ ما عنده ثم يستكمل علمه عند آخر أو آخرين . وعلى الطالب أن يستظهر الكتاب الذي يدرسه بحيث يستغني عنه ويكون علمه في الصدر لا في السطر ، وعليه من أجل ذلك أن يشغل نفسه بكتاب واحد حتى يتقنه ولا تختلط عليه الكتب والمعلومات والأمور . ومن البديهي بناء على هذا أن الطالب لا يشغل نفسه بعِلمين معا ، على

أن هذه القاعدة لم تكن متّبعة دائما فكثيرا ما كان الطلاب ينتقلون من حلقة الى حلقة في المساجد على اختلاف مواد هذه الحلقات على أنّ نظام المساجد كما نرى هو نوع من الدراسة الحرة ولا يخضع غالبا لنظام المدارس الدقيق • وعلى من ينعلّم علما أن يتابعه حتى يزداد علمه وذلك بتعليم المبتدئين ومناقشة الأنداد ومتابعة دروس من هم أكثر منه علما وبالعمل بالتأليف • وعلى العالم ألاّ يغترّ بنفسه وأنْ يعرض ثمرات قرائحه على إخوانه وأنْ يتريّث في الأحكام حتى يتثبت منها •

وكان العلماء المجرّبون ينصحون بأنْ يبدأ مع الطالب بالسهل وأنْ يطالع بالتدريج الى ما هو أصعب[1] منه حتى يعالج العويص والمشكل من مسائل العلم ، ولذلك نصحوا الطالب بمعرفة القواعد والأصول أولا حق المعرفة قبل أنْ يطالع الكتب التي تعرض آراء المتشككين وأرباب الجدل وقد رأوا أنّ التدرج من السهل الى الصعب يشوّق النفس الى الاستزادة من العلم ولا يكدّها فينفّرها • وينصح للطالب بأن يبدأ في كل فن بكتب مؤلفيه الأوائل أو ما رويَ من كلامهم وألاّ يتعصب لكلام انسان قبل التثبت من صحته ورجحانه على غيره •

وكان لكل مدرسة مدرّسوها ومعيدها أو معيدوها وإمامها ومؤذّنها وناظر وقفها وخادمها وقيّمها وطلابها الذين كانوا يسمون المتفقهة وكان لها أوقافها ومخصصاتها كما كان لكل من المدرّسين والمعيدين وسائر الموظفين ولكل متفقّه ، راتب معيّن يكفيه وكان بعض المدرّسين الميسورين يترفعون عن أخذ مخصصات جزاء تعليمهم ويكتفون بمواردهم الخاصة • واذا كان الفقيه أو المعيد أو المدرّس ، وله زوجة وأولاد ، فيُعْطَوْنَ من معلوم تلك الوظيفة التي كانت له ما تقوم به كفايتهم ، ثم ان فضل من المعلوم شيء ، عن قدر الكفاية فلا بأس باعطائه لمن يقوم بالكفاية • وقد وجد أحيانا نائب للمدرّس يُنيبه هذا عنه مراعيا كفاءته • وكثيرا ما كان يجمع المدرّس بين التدريس والقضاء • وقد يتولى التدريس قاضي القضاة •

[1] السبكي ، معيد النعم ص ١٠٥ .

وقد يَمزج بين التدريس والقضاء والخطابة[1] .

وكان عدد الطلاب محدودا وكانوا على مراتب من حيث مستواهم العلمي أي صفوفا بحسب اصطلاحنا اليوم . فمنهم الطالب المبتدىء ، ومنهم الطالب المفيد الذي عليه أن يحصل فائدة زائدة على الآخرين ، ومنهم الطالب المنتهي الذي يكلّف بالبحث والمناظرة لأنه بلغ مرحلة من النّضج تؤهـله لذلك . والثاني يقابل طالب الماجستير اليوم والثالث يقابل طالب الدكتوراه .

وكان التعليم في جامع كبير كالجامع الأموي في دمشق يجري في حلقات ، يدرّس في كل حلقة شيخ محدّث أو فقيه أو واعظ أو مدرّس لمادة من مواد العلم الأخر ، وهذه الدروس منها ما هو عام ، الغاية منه الموعظة ، أو تعليم بعض ضرورات الدين للعامة أو أنصاف المتعلّمين ، وقد يحضرها الخاصة . ومنها ما هو خاص بمادة من المواد يتعمق فيها المدرّس مع طلابه عـلى أنّ الحلقة تبقى مفتوحة لمن شـاء حضورها من الناس .

وهذه الطريقة في التعليم طريقة حرة تجعل الطالب يحصل على المادة العلمية التي تستهويه ولا يكلّفه التعلّم شيئا وهي بالإضافة إلى حريتها جذابة ، ثم هي تتيح للطالب المشغول بكسب رزقه وبعمله اليومي طول النهار أن يثقّف نفسه الثقافة التي يريدها صبحا أو ليلا أو في وقت العصر بحسب الاوقات التي يختارها الشيوخ لتدريسهم وبحسب فراغه هو ، وبهـذا يستطيع أن يُحصّل العلم الفقير والغني والمتفرغ على حدّ سواء ثم هي لا ترهق الآباء بالإنفاق عـلى أولادهم حتى سنّ متأخرة كما هي الحالة اليوم ثم هي لا تؤخر زواج هؤلاء الشبان إلى ما بعد تخرّجهم وتوفيقهم في أعمالهم توفيقا يساعدهم على كفاية أنفسهم والاستقلال بها ، وهي تقابل

---

(1) وقد جمع بعضهم بين التدريس وقيادة الجيش وكان تولي التدريس والاعادة يتطلب احيانا مرسوما ملكيا وربما اقتصر ذلك عـلى المدارس التي تحت اشراف السلطان .

الجامعات الليلية بنظامها اليوم غير أنها أكثر حرية وأقل كلفة وتدل على مدى عشق العرب للعلم ومدى تمهيدهم الصعوبات لتحصيله .

وكان القرآن يتلى كل يوم في الجامع الأموي بدمشق عقب صلاة الصبح ، وكان يتلى بعد العصر السور القصار من سورة الكوثر حتى الخاتمة وكان يحضر قراءة هذه السور من لا يجيد حفظها فيتلقنها . وقد شاهد ابن جبير في رحلته (ص ٢٧٢ و ٢٢٣) أنّ المقرئين حين انتهائهم من القراءة يجلسون كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد فيلقن صبيًّا القرآن ، ولاحظ أنّ الخط يتعلمه الصبي بكتابة الأشعار ، وقد استحسن هذه الطريقة .

وكان بعض المدارس مستقلا وبعضها ملحقا بالمساجد ، وكان بها أجنحة لإقامة الطلاب الغرباء يجدون فيها جميع ما يحتاجون اليه وتجرى عليهم الرواتب الكافية . وذُكر أن صلاح الدين كان ينفق على فقهاء دمشق وكانوا ستمائة زهاء ثلاثمائة ألف دينار . وكان لجامع عمرو وحده راتب يومي مقداره ثلاثون دينارا . وربما وقف على طلبه العلم بالمدرسة من لم يبنها رغبة في خدمة العلم واستجلابا للثواب .

وكان الأستاذ يجلس على كرسيه أو على مكان مرتفع وأمامه حلقة من الطلاب هو في طرف منها فيلقي درسه مشافهة أو من كتاب أمامه قد يكون من تأليفه أو لغيره ويناقشهم فيه ويشرح مشاكله أو قد يعرض مسألة من مسائل ذلك العلم ويشرحها ويناقش فيها .

وكان بعض الأساتذة يلمّون بعدة لغات في هذه العهود وكانت دروس بعضهم موسوعات يتعرضون فيها لكل فن من فنون العلم فيجمعون في درس الحديث مثلا بين النحو واللغة والتاريخ والشعر والنوادر والاخبار والجدل الديني مما يتطلبه البحث أو يأتون به للترويح عن أذهان طلابهم . واشتهر بعض المدرّسين بحسن الإفهام والحذق بإلقاء الدروس وتفهيم بعض الطلاب غير العرب ما يستغلق عليهم من شؤون العلم بلغاتهم الخاصة ، كابن الدهان العالم الموصلي الجليل الذي تحدثنا عنه قبل بين علماء العراق في العصر الأيوبي . (إرشاد الأريب ، ٦ : ٢٣٢) .

وقد وصف ابن جبير درس التفسير في المدرسة النظامية ببغداد فقال : إنّ الإمام يكون على المنبر فيقرأ القرآن بين يديه ويأخذ هو في تفسير الآية بعد الآية مستشهدا بالحديث وكان هذا الدرس يلقى بعد صلاة العصر من كل يوم ، وكان يقوم بتسجيل دروس الشيخ « كاتب الغيبة » .(الرحلة : ٢٢١) .

وكان بعض النظار يمطلون المدرسين أحيانا فلا يعطونهم مرتباتهم إلاّ بشقّ الأنفس وبوساطة ذوي المناصب العالية وهذا ما دفع أبا شامة صاحب كتاب الروضتين إلى الانقطاع عن المدرسة والاشتغال بزراعة أرضه فلما عوتب في ذلك نظم قصيدة يشكو فيها من هذه الحال منها :

لا تلمني علـى الفلاحـة واعلم ْ أنّهـا مِن أجلّ كسب وأثرى
اتّخـذْ حرفـةً تعيش بهـا يـا طـالب العـلم إنّ لِلعلم ذِكـرا
انمـا تحصـل الوقـوف لشرّيرٍ ونـذْل مـن العلوم مُبَـرّا
صدقـاتُ الوقـوف ينفِر منهـا كلّ حُـرٍّ تأتيـه صفواً ويُسْرا
كيف حـال الـذي يذلّ لهـا بالقـول كـي يحصّـل نـزرا

« الحياة العلمية ، أحمد أخمد بدوي ، في بحث مرتّبات العلماء ... »

وكان قد استحدث في أيام المعظم عيسى ديوان للمدارس ليتولى إدارة الاوقاف على المدارس كلّها ولكنه لم يكتب له التوفيق والبقاء .

ويشترط تاج الدين السبكي (معيد النعم ص ١٦٣) على القارىء الذي يقرأ للناس ما يفيدهم في أمور دينهم أن يختار لهم البسيط المفهوم مثل إحياء علوم الدين للغزالي ، ورياض الصالحين ، والأذكار للنووي ، وسلاح المؤمن في الأدعية للنبكي ، وكتب ابن الجوزي في الوعظ .

ويطلب تاج الدين السبكي من العالم أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقي إلى جوار الملأ الأعلى ويعجب من العالم الذي يطلب بعِلمه حطام الدنيا لأن هذا العالم يرى أن كثيرا من الجهال قد وصلوا من الدنيا الى ما لا يصل هو اليه بعِلمه ،

فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل فلم نحاول أن نشتريها بأنفس الأشياء وهو العِلم ؟ (معيد النعم ص ٩٦) •

ونحب أن ننبه الى كثرة النساء العالمات في هذه العهود وفي رواية الحديث بخاصة • وكان كبار الحفّاظ والعلماء يأخذون عنهنّ (الصفدي أعيان العصر (خ) في عدة أماكن منها جـ ٣ ، ق ١ و ٢٢٧ ، والمنهل الصافي (خ) ٢ و : ١٠٦ — ١٠٧)[١] و (الأدب الأيوبي لزغلول سلام ص ١٦٢) •



(١) ومن مراجع البحث ايضا : تاريخ العرب المطوّل لفيليب حتى ، الجـزء الثالث حوالي ص ٦٦٨ و ٦٦٩ •

نمـاذج من المؤلفـين والكتب والعلمـاء :

أ ـ العهد الفاطمي ـ الزنكي :

١ ـ نص في تربية النفس من كتاب « إحياء علوم الدين » ، للغزالي [١] :

قال الامام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ في ضرورة محاسبة النفس بعد العمل متحدثا عن فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها (إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٤٥) :

أ ـ في فضيلة المحاسبة :

« أما الفضيلة فقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد) . وهذه إشارة الى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا . وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال أمستوصٍ أنت ، فقال : نعم ، قال : اذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإنْ كان رشَدا فأمضه ، وإن كان غيّا فانته عنه . وفي الخبر : وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ، والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إني لأستغفر الله تعالى وأتوب اليـه في اليوم مئـة مرة ، وقـال الله تعالى : (إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) . وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنّه كان يضرب قدميه بالدرة اذا جنّه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم ؟ ، وعن ميمون ابن مهران أنه قـال : لا يكون العبد من

(١) دراسة هذا النص والنصوص بعده هي في الوقت نفسه دراسة لأساليب الاداء المتبعة في التاليف .

المتقين حتى يحاسب نفسه أشــد من محاسبة شريكــه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل ... »

ب ـ في حقيقة المحاسبة :

« اعلم أنّ العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك .

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمّارة بالسوء ... »

كلمــة في المؤلف :

أبو حــامد الغزالي ت ٥٠٥ هـ

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . فقيه شافعي ولد في طوس ونشأ فيها . تكاثر الفلاسفة في عصره وناهضوا رجال الدين فتصدى أبو حــامد لردّهم ، وكان بصيرا عاقلا مع ميل الى التديّن فاطلع على أقوال الفلاسفة وأمعن فيما يخالف ظاهره منها قواعد الدين ، فوقع في حيرة وتردد وعمد الى التحقيق بنفسه فقضى في ذلك أعواما وهو يطالع ويفكر ويلقي دروسه في المدرسة النظامية . ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ هـ وسلك طريق الزهــد . وقضى عشرة أعوام في الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية وهو يطالع ويبحث

ويناظر فتبين له أن الفلاسفة على ضلال وثبت عنده الدفاع عن الدين فحمل عليهم حملة صادقة بالمناظرة والتأليف • وكان يجادلهم ببراهينهم فسمي لذلك حجة الإسلام وخلّف ما يزيد على سبعين مؤلفا أكثرها في الجدل والمناظرة •

« عن آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٩٧ » •

آثـــاره :

ذكر جرجي زيدان من كتبه : « البسيط » في الفروع ، و « الوسيط المحيط بأقطار البسيط » في الفقه الشافعي و « الوجيز » في الفروع و « تهافت الفلاسفة » و « مقاصد الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال » و « المضنون به على غير أهله » و « إحياء علوم الدين » و « بداية الهداية » و « سر العالمين وكشف ما في الدارين » و « جواهر القرآن » و « فضائح الباطنية » و « غرائب الأول في عجائب الدول » و « تنزيه القرآن عن المطاعن » •

كلمة في « إحياء علوم الدين » :

هو في المواعظ طبع بمصر سنة ١٢٨٩ و ١٣٠٦ هـ ومنه نسخ خطية في مكاتب فيينا وبرلين وليدن والمتحف البريطاني واكسفورد ، وعليه شروح عديدة ، منها منهاج القاصدين لابن الجوزي ، وروح الاحياء لابن يونس • (عن آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٩٨) •

وقد جعل الغزالي « إحياء علـوم الدين » أرباعا : الربع الاول للمعتقدات والعبادات ، والثاني للعادات ، والثالث للمهلكات ، والرابع للمنجيات • ويتبين من عناوين هذه الارباع اتجاه الكتاب الديني •

كلمة في النص :

اجتزأنا القسم الأخير من كل من جزأي النص : فضيلة المحاسبة ، وحقيقتها وذلك رغبة في الاختصار :

يلاحظ على الغزالي في جميع أبحاثه في كتاب إحياء علوم الدين أنه يذكر فضيلة

الشيء الحسن ثم يذكر حقيقته ، ومذمة الشيء السيء ، ثم طريقة تلافيه ، وهو يقصد بفضيلة الشيء ، ما ذكر من فضائله في القرآن أو الحديث أو الأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين أو الحكماء ، ويقصد بحقيقته الخطوات العملية التي يقوم بها الانسان لتحقيق الفعل الحسن ، وتجنب السيء • وهو غالبا يستنتج الحقيقة من الاقوال التي أوردها في فضيلة الشيء ويضم اليها تجاربه وأفكاره الخاصة •

* ولا شك في أن محاسبة النفس أمر يجب أن يقوم به كل عاقل في وقت فراغه ليكون في يومه خيرا منه في أمسه وفي غده خيرا منه في يومه ومن دون هذه المحاسبة يكون ضائعا • وغرضه منه تربية الفرد تربية فاضلة ليتكون من مجموع الأفراد الفاضلين المجتمع الافضل • وواضح أنه يعتمد على أسس نفسية معقولة بالاضافة الى نصوص الشرع •

ان كتاب الغزالي هذا من كتب التصوف الاسلامي التي تستمد التصوف من الشرع قرآنا وحديثا وسنّة ولا تخالف الشرع في شيء كما هو الحال لدى بعض الفرق الصوفية •

ولا يزال العمل بمضمون هذا النص ضروريا في مجتمعنا الحاضر وحبذا لو نعوّد أطفالنا كتابة المذكّرات الشخصية كل يوم قبل أن يناموا ، كما يفعل الغربيون فإنهم يستفيدون من ذلك : ١ ــ محاسبة النفس وتهذيبها ، ٢ ــ القدرة على الكتابة وتحليل المشاعر ووصف الأحوال النفسية والخواطر الدقيقة •

أسلوب النص سهل واضح خال من الغريب ومن السجع وغيره من أنواع الصناعة وهو يمثل إسهام الغزالي العفوي في التوجيه المعنوي حين بدء الحروب الصليبية وذلك بتأليفه كتابه « إحياء علوم الدين » وغيره من الكتب المماثلة ، لأن من حاسب نفسه وخاف عقاب ربه فانه لن يتقاعس عن الجهاد ولن يخاف من الموت في الحرب •

ب ــ نص من « النوادر السلطانية » لابن شداد وهو في موضوع « حب صلاح الدين للجهاد » •

« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه ، وسائر جوانحه

استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا لمن يذكره به ويحثه عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله ، وأولاده ، ووطنه ،وسكنه ، وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما . وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي في فضله . وكان ـ رحمه الله ـ كثيرا ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الأفضل ، عزّ نصره » [١] .

وذكر ابن شداد في موضع آخر من الكتاب أنه سار مع السلطان على الساحل في طلب عكا ، وكان الزمان شتاءً ، والبحر هائجا ، وموجه كالجبال ، قال :

« فعظم أمر البحر عندي ، حتى خيّل إليّ أنه لو قال السلطان لي : ان جزت في البحر ميلا واحدا ملّكتك الدنيا ، لما كنت أفعل . هذا كله خطر لي ، لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر . فبينا أنا في ذلك اذ التفت اليّ ـ رحمه الله ـ وقال: أما أحكي لك شيئا في نفسي ؟ انه متى ما يسّر الله تعالى لي فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره ، واتبعتهم (أي الفرنجة) فيها ، حتى لا أبقي على وجه الارض من يكفر بالله ، أو أموت . فعظم وقع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان خطر لي . وقلت : ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى منه نية في نصرة دين الله . واستأذنت في أن أحكي له ما كان خطر لي ، فحكيت له .. » [٢] .

كلمة في المؤلف :

بهاء الدين بن شداد (ت سنة ٦٣٢ هـ)

---

(١) وفيات الأعيان ٦ : ٨٥ ، بالاضافة الى النص المباشر عن ابن شداد في النوادر السلطانية . جـ ١ ص ١٦ .

(٢) النوادر السلطانية أيضا .

هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد ، قاضي حلب • ولد في الموصل سنة ٥٣٩ هـ فلما أتم علمه رحل الى بغداد وتعيّن معيدا في المدرسة النظامية • ثم صار أستاذا في مدرسة الموصل الكبرى ، وعاد من حجّه سنة ٥٨٤ ، الى دمشق فولاه صلاح الدين قضاء العسكر وقضاء بيت المقدس • ولما توفي صلاح الدين رحل الى حلب وعيّن قاضيا فيها ، ثم اعتزل الاعمال حتى مات • وله أخبار كثيرة أطال ابن خلكان في ذكرها ، وأشهر مؤلفاته :

١ ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ــ وهي سيرة صلاح الدين الايوبي طبعت في ليدن سنة ١٧٣٢ م مع منتخبات عن صلاح الدين من تاريخ أبي الفداء وعماد الدين الاصفهاني وغيرها مع ترجمة ذلك كله ، باللغة اللاتينية ، وقد ترجمت أيضا الى الفرنسية وطبعت في باريس سنة ١٨٨٤ م وطبعت في لندن سنة ١٨٩٧ م مع تعليقات بالانجليزية • وطبعت بمصر سنة ١٣١٧ هـ •

٢ ــ تاريخ حلب : منه نسخة في بطرسبرغ •

٣ ــ دلائل الاحكام في الفقه • باريس •

٤ ــ ملجأ الحكام عند التباس الأحكام : في دار الكتب المصرية •

(ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ، ص ٣٥٤) ، (عن آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٦٣) •

كلمة في النص :

يظهر في هذا النص ما يلي :

١ ــ شدة اعجاب ابن شداد بصلاح الدين ولا عجب فقد أعجب به الأعداء فكيف الاصدقاء ولو لم يكن معجبا به لما أرّخ سيرته •

٢ ــ مدى التفاوت بين شخصي الرجلين فأحدهما عالم أديب ولكنه يخشى ركوب الاخطار • والآخر قائد طموح له مثل أعلى خطّط له وسعى الى تحقيقه وهو يبدي تنازله من أجله عن الدنيا التي يمتلكها فعلا •

٣ ــ أحسن الكاتب اختيار الحوادث التي يصوّر بها حب صلاح الدين للجهاد

فاستطاع اثارة اعجابنا ، فصلاح الدين ينأى عن أهله ووطنه ، ويعاني شدة البرد والرياح ، وتسقط عليه الخيمة حتى تكاد تقتله فيزداد رغبة في الجهاد ، والمؤرخ يسير معه على شاطىء البحر نحو عكا في غاية التعب والرهبة من الامواج وتحدّثه نفسه بأنه لن يركب البحر ولو أعطي ملك الدنيا ، فاذا صلاح الدين يخبره بأنه يريد تتبع الأعداء في جزائر البحر فلا يبقي في الدنيا كافرا صيانة للمسلمين وبلادهم وإعلاء لكلمة الله •

وقد استطاع المؤرخ بحسن اختيار هذه الحوادث البسيطة ، وبأسلوبه الطلي البسيط الخالي من التكلّف أن يصور لنا عظمة صلاح الدين النفسية وقوة عزمه وعلو همته ، وأن يثير اعجابنا به • وهذا يرتبط بحبه الصادق له واعجابه الشديد به ، فالكلام خارج من قلبه •

والكتاب بما فيه من طلاوة وتعبير عن المشاعر وبأسلوبه يعدّ كتاب أدب الى جانب أنه كتاب تاريخي علمي •

٤ ــ يدلنا النص على متابعة صلاح الدين المطالعة في كل ما يتعلق بالجهاد ، فقد ذكر المؤرخ كيف ألّف له كتابا فيمن ألّف في ذلك الموضوع ، وأنه كان يقرأ فيه حتى أخذه منه ابنه الأفضل • وما ذكرناه عن ابن شداد هنا هو جانب من ثقافة صلاح الدين فقد كان يتابع دراسة الحديث والفقه والتفسير والأدب على كبار العلماء وقد بيّنا قبل أنه كان يحفظ ديوان الحماسة فيما يحفظ •

٥ ــ نلاحظ أن أسلوب الكاتب في تصوير عظمة صلاح الدين يعتمد الحوادث الجزئية البسيطة ، وهو يثير الاهتمام والاعجاب ببساطتها • ويمكن أن يتألف من مجموع حوادثه قصة شيّقة عن صلاح الدين •

٦ ــ النص مثال لما كتب من السير في صلاح الدين وغيره من الابطال ، وهو بالتالي لبنة من اللبنات التي قام عليها صرح التوجيه المعنوي زمن الحروب الصليبية •

جـ ـ نصّان من العهد المملوكي التركي :

١ ً ـ نص من مسالك الابصار ـ في ممالك الامصار لابن فضل الله العمري ، موضوعه « معرفة العرب نظريا بوجود أمريكا » :

قال شيخنا فريد الدهر ، أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الاصفهاني ، امتع الله به : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الارض من جهتنا ، منكشفا من الجهة الاخرى . واذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى ، والذي ظهر لنا من ذلك عقلا ونقلا ذكرناه وبالله التوفيق » . (ج ١ ص ٣١) .

المؤلف والكتاب :

ابن فضل الله العمري هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٨ هـ) . ولد بدمشق وتوفي فيها وتلقى تحصيله فيها وفي القاهرة والاسكندرية والحجاز ، وتولى القضاء وغيره في القاهرة وكان إماما في الأدب والتاريخ والانشاء . وله مشاركة في جميع العلوم المعروفة في زمنه واشتهر بذكائه وقوة حافظته وبلاغته وسعة اطلاعه على تواريخ المغول والأتراك والهند والممالك والمسالك وخطوط الاقاليم وطبائعها وعلم الهيئة .

آثاره :

أشهر كتبه « مسالك الابصار في ممالك الامصار » وهو موسوعة جغرافية تاريخية أدبية تناولت التاريخ الطبيعي أيضا فيما تناولته ، ألّفه في بضعة وعشرين مجلّدا . وهذا الكتاب قسمان : الاول في الجغرافية وما يتعلق بها ، والثاني في سكان الارض بين حيوان ناطق وغير ناطق ، وهو يتحدث في القسم الجغرافي عن البر والبحر وعجائبهما ومسالك الممالك ومواقع مشاهير البلاد ولا سيما مصر والشام والحجاز وترتيبها ونظامها ، ومنازل العرب كما عرفها زمانه . وقد قسم سكان الارض الى سكان الغرب وسكان الشرق ، وفاضل بين الفريقين وهو يترجم لرجالهم. وترجم للاطباء والعلماء والفقهاء وسائر رجال العلم والسياسة والادارة ثم بحث في

العلوم الطبيعية والحيوان والنبات وتوسع في وصف الطيور وسائر الحيوان ، وقسم التاريخ بحسب الأمم والبلدان والأزمان والأصقاع وانتهى به الى سنة ٦٤٤ هـ ، وتحدث في تاريخ الهنود والأتراك والأكراد وغيرهم من الأمم .

ولابن فضل الله العمري كتب أخرى منها « التعريف بالمصطلح الشريف » ، وهو مجموع رسائل في مراسم الملك وقد أفاد منها القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » وله « ممالك عبّاد الصليب » ، وصف فيه ملوك الافرنج في عصره وممالكهم مستعينا برواية « بليان الجنوي » أحد مماليك بهادر المُعِزّي .

كلمة في النص :

يطلعنا هذا النص على مدى تقدم علم الجغرافية لدى أجدادنا لا من حيث الرحلات في البلاد ولا من حيث وصف العالمين الارضي والسماوي بل من حيث التفكير المنطقي الجغرافي ، فابن فضل الله العمري يقرر أنّ الارض كروية وأن في مقابل اليابسة التي نعيش عليها من هذه الارض يابسة أخرى (هي التي تسمى اليوم أمريكة) وهو يهتدي الى ذلك بعقله ونقله . ونراه ينقل عن شيخه محمود الاصفهاني ما اهتدى اليه بعقله ، وما يحتمل أن يكون قد رآه في كتب غيره ، من وجود يابسة مثل يابستنا على الجانب المقابل من الارض الكروية المغمور أكثرها بالبحار وأن يكون بها من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا من أنواع وأجناس أخرى .

وهذا النص يجعلنا نتريث في الحكم على هذا العهد المملوكي الاول بأنه عصر انحطاط أو انحدار لأنه يدل على فكر راق بعيد الغور ومنه يتبين أن المؤلف يقول بكروية الارض ويقول بأن البحار كانت تغمرها كلها وهي نظرية حديثة صحيحة . وقد يقال بأنه ليس مبتكر هاتين النظريتين وأنه متابع فيهما لمن قبله . وهذا صحيح ولكن مجرد القول بهاتين النظريتين يدل على رقي أو على ثبات على مستوى من الفكر ، لا انحطاط .

٣ ــ نص آخر من كتاب « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، وهو في قبة النسر في الجامع الاموي وفي ساعته (ج ١ ص ١٩٧ ــ ١٩٨) :

« فأما القبة فمما لا يجول في مثلها ظن ، ولا يدور في فكر ، قد تعلق رفرفها بالغمام عابثا ، وحلّق طائرها الى أخويه النسرين يبغي أن يكون لهما ثالثا ، قد بنيت على قناطر ، ممتدة على قناطر ، بعقود محكمة ، وقطع صخور منظمة ، الى سقوف مذهبة ، ومحاسن موجزة مسهبة . وعلى رأس القبة هلال عال في أنبوبة ، طول الرمح . قد غلفت هي وكل الاسطحة بالرصاص ، وحكمت ميازيبه ، وجمع فيه من كل حسن غريبه . قال أبو محمد بن زبر القاضي : سمّي باب الساعات لأنه عمل هناك بيكار[1] الساعات ، يعلم بها كل ساعة تمضي ، عليها عصافير من نحاس وحية من نحاس وغراب من نحاس ، فاذا تمت الساعة خرجت الحيّة ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاة في الطست » .

كلمة في هذا النص :

يصف لنا هذا النص في القسم الاول منه عظمة قبة النسر في مسجد دمشق الاموي ارتفاعا وحسن بناء وهو يصفها من باطن الجامع ومن السطح ولا ينسى وصف بنائها على قناطر بنيت فوق قناطر ، كما لا ينسى تذهيبها ومحاسنها جملة وتفصيلا .

ويصف ثانيا ساعتها العجيبة التي وصفها ابن جبير قبله ، بما فيها من عصافير وحية وغراب تصوت كلها مشيرة الى تمام الساعة مع سقوط حصاة منها في طست .

وهذا النص يطلعنا على مدى تقدم أجدادنا في علم المكانيك خلال تلك الحقبة فوجود تلك الساعة صحيح بتواتر الاخبار ، وصنعها على تلك الصفة ليس بالامر القليل في ذلك العصر الذي سمي عصر الانحطاط .

ووجود هذه الساعة حقيقة لا ريب فيها وهو يستدعي وجود ميكانيكيين بارعين وتآليف في علم الميكانيك وفنونه العملية ويبرهن على رقي الميكانيك والصناعة النسبي في ذلك الوقت .

---

(1) هكذا في الاصل ، وصوابه بنكام وهي الساعة المائية التي وصفها ابن جبير في رحلته .

وقد يقال بأن هذه الساعة ليست من ابتكار العصر ، فقد حدثنا التاريخ عن أنّ الرشيد قد أهدى مثل هذه الساعة لشارلمان ملك فرنسا وظنت حاشيته حينذاك أن بها شياطين تحركها • ونحن كذلك لا نقول بأنها ابتكرت فيه ولكننا نقول ان وجودها فيه والقدرة على صيانتها وتصليحها دليل على أن هذا العهد ونعني به العهد المملوكي الاول قد حافظ في هذه الناحية على المستوى العلمي الفني الذي كان فيما سبقه من عهـود •

د ــ العهد المملوكي الثاني :

نصوص من مقدمة ابن خلدون في موضوعات مختلفة :

١ً ــ قال ابن خلدون (٨٠٨ هـ) في مقدمته يبين حقيقة التاريخ في رأيه :

« حقيقة التاريخ أنه خبر من الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحّش والتأنّس ، والعصبيات ، وأصناف التغلّبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، ومـا يتحمله البشر بأعمالهم ومساعيهم مـن الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » • (ص ٣٥) •

كلمـة في الكاتب :

ابن خلدون (٧٣٢ ــ ٨٠٨ هـ) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ولقّب بولي الدين حين تولى قضاء المالكية في مصر • ولد في تونس ، وهو ينتمي الى أسرة يمانية حضرمية عريقة في المجد والعلم ، وجدّه وائل بن حجر صحابي معروف من أقيال كندة • استقرت أسرته في إشبيلية في مطلع القرن الثالث الهجري وكانوا بين رياسة علمية ورياسة سلطانية ، واضطرت أسرته الى الجلاء عن إشبيلية حين سقطت في يد فرديناند الثالث الإسباني فاستقر بها المقام في تونس وأصبحت ذات نفوذ وجاه وتولى جدّاه الوزارة عدة مرات وقتل الوالد منهما في احدى الثورات ، وانصرف أبوه الى العلم • ورث ابن خلدون عن آبائه الميلين معا السياسي والعلمي وتفقه بعلوم عصره العربية والاسلامية والعقلية • فقد ابن خلدون والديه في الطاعون الذي

حدث بتونس وهو في السابعة عشرة من عمره وأراد اللحاق بمدرّسيه في المغرب الأقصى بصحبة سلطان مراكش أبي الحسن المريني فمنعه أخوه . جعله طموحه السياسي قليل التعلّق بأسرته شديد المراس واسع الحيلة والدهاء .

كانت البلاد العربية الاسلامية في زمنه في حالة انحلال وفوضى وكانت المغامرة هي ذريعة الوصول الى القمة مهما كانت الوسائل اليها فاشترك في كثير من المؤامرات التي حيكت في شمال إفريقيا حينئذ .

شغل منصب كاتب العلامة في تونس ولم يعجبه . وبعد استلامه عدة مناصب كبيرة في عدة ممالك مغربية سئم السياسة فعرّج حين خروجه من تلمسان على قلعة ابن سلامة وتسمى اليوم « تاوغزوت » ونزل ضيفا على بني عريف وبقي في هـذه القلعة أربع سنوات كتب فيها مقدمته وجزءا من كتابه في التاريخ العام ، على أنه أصلح المقدمة بعد ذلك بالزيادة والحذف والتنقيح والتبديل عدة مرات ، بعد تجارب جديدة ومطالعات كثيرة في المشرق والمغرب . استأذن ابن خلدون من سلطان تونس في العودة الى مسقط رأسه ليتم كتـابه في تاريخ العرب والبربر لأنّه بحاجة الى مكتبة غنية وحين أنهى تاريخ البربر وزناتة وقدم نسخة الى السلطان دبّ الحسد الى صدر رفيقه محمد بن عرفة فأخذ يشي به فخاف العاقبة واستأذن السلطان في الحجّ فأذن له على أن تبقى أسرته في تونس ضمانة لعودته .

وحين وصل الى القاهرة كانت شهرته قد سبقته اليها فالتفّ حوله طلاب الازهر ثم عيّن مدرسا للفقه المالكي ثم ولّي منصب القضاء المالكي فاستاء منه أصحاب النفوذ لاستقامته فعزل من القضاء وبقي مدرّسا فاستقدم أسرته من تونس ولكنها غرقت في طريقها اليه فتألم غير أنه تجلّد وسافر الى الحج . وبعد خمس سنوات أعاده السلطان برقوق الى القضاء المالكي ، ثم عزل بعد موت السلطان . وحين غزا تيمور بلاد الشام وسار السلطان فرج بن برقوق الى حـربه استصحبه معه ضمن حاشيته من العلماء والقضاة ، وجاء السلطان وهو في دمشق خبر مؤامرة ضده فأسرع بالرجوع الى مصر تاركاً دمشق لرحمة التتار : وكان ابن خلدون في وفد العلماء

الذي ذهب لمفاوضة تيمور ، وعلى الرغم من خيبة الوفد في مهمته فإنّ تيمور قد أعجب كثيرا بابن خلدون وكلّفه بوضع مخطط لبلاد المغرب لغرض مفهوم فاضطر للبقاء عنده خمسة وثلاثين يوما ثم احتال عليه حتى غادره ورجع الى مصر ، وتناوب هو والفقيه البساطي منافسه منصب القضاء المالكي حتى توفي وهو في هذا المنصب .

كان ابن خلدون شديد المراس كثير الدهاء طموحا في السياسة وفي العلم ذكيا قوي الإرادة قوي الشخصية محبا للظهور ويدلنا على اعتزازه بنفسه أنه أول كاتب عربي فيما نعلم ، (باستثناء صاحب كتاب الاعتبار أسامة بن منقذ) كتب تاريخ حياته بنفسه في كتابه « التعريف » وسجل فيه مراسلاته وخطبه وقصائده . وقد اتهمه بعضهم في دينه وخلقه الوطني لما لجأ اليه في السياسة من مبدأ أن الغاية تبرر الواسطة . وهو في الحقيقة لم يستطع السمو على عصره في هذه الناحية ولم تكن الغلبة في عصره للمبدأ الوطني المحلي أو القومي العام وانما كانت الغلبة للسيف والدهاء والمؤامرة .

كلمة في الكتاب :

أهم آثار ابن خلدون مقدمته لكتابه المشهور : « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » جعل ابن خلدون كتابه في ثلاثة أجزاء ومقدمة . والمقدمة هي أعظم ما في الكتاب ، يتكلم فيها عن فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه وأخطاء المؤرخين ، ويعرّف علم التاريخ ويذكر فائدته ، ويتكلم في الكتاب الاول على العمران ويذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما الى ذلك من العلل والاسباب وهذا الكتاب مع المقدمة هو المشهور بمقدمة ابن خلدون . ويتحدث في الكتاب الثاني عن أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة الى عهده ويتطرق لبعض من عاصرهم من الأمم المشهورة ودولها مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والفرنجة. ويورد في الكتاب الثالث أخبار البربر ومواليهم من زناتة ويذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار

المغرب بخاصة من الملك والدول ويلحق بالكتاب ترجمة حياته بقلمه هو نفسه وهي التي أسماها « التعريف بابن خلدون » •

طبع الكتاب أكثر من مرة ، ولم يطبق ابن خلدون دائما قواعد النقد التاريخي التي وضعها للمؤرخين ولكن كتابه يُعَدّ المرجع الوحيد في تاريخ البربر والدول الاسلامية في شمال إفريقيا ، ولولاه لما عرف شيء عنها ، أما كلامه في تاريخ المشرق فليس إلاّ مجموعة معلومات اقتبسها من كتب سابقيه •

أما المقدمة فقد كان فيها نابغة بين نوابغ الانسانية فقد سبق فيها الى فهم التاريخ على أنه تاريخ حضارة انسانية عامة وليس تاريخ رجال السياسة فقط وما قاموا به من حروب وانتصارات وكان فيها واضعا لعلم جديد هو علم الاجتماع في عرفنا اليوم وقد سمّاه هو علم العمران وكان يعرف أنه وضع علما جديدا وينتظر أن يستكمله الباحثون بعده • وكان ابن خلدون أيضا مؤسسا لما يسمى « فلسفة التاريخ » فقد كانت غايته من تأليف المقدمة وضع قواعد للتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب في الأخبار التاريخية فعدّها بعضهم كتابا في فلسفة التاريخ وآخرون من قبيل « علم المدخل الى التاريخ » بحسب مفهوم القرن التاسع عشر • فقد أراد ابن خلدون أن يبرهن على حوادث التاريخ الماضية بمقارنتها بأحوال المجتمع الحاضر فألهمه ذلك أن يتناول الحوادث الاجتماعية ولذلك عدّ بعضهم المقدمة مؤلفا في الفلسفة الاجتماعية •

كلمة في النص :

يلاحظ أن المؤلف ينظر الى التاريخ على أنه تاريخ الحضارة في جميع صورها ونواحيها وليس تاريخ رجال السياسة أو الملوك أو القوّاد العظام فقط ، لذلك يطالب المؤرخ أن ينظر في شؤون العمران أي في نواحي الحياة الاجتماعية من حيث الكسب والمعاش والعلم والصنائع والفنون وغيرها •

ويلاحظ عليه من حيث الأسلوب سهولته ووضوحه وخلوّه من السجع وسائر ألوان الصناعة البديعية •

٢ ـ نص في ضرورة تعليل الحوادث التاريخية :

« إن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأوَل، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال . وتطرف بها الأندية اذا غصّها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال . » وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يُعَدّ في علومها وخليق . (ص ٣ الى ٤) .

كلمة في النص :

يبيّن المؤلف في هذا النص أهمية علم التاريخ لدى الامم من الملوك والعلماء حتى السوقة وأن التاريخ ليس مجرد رواية للاخبار واعتبار بتقلبات الاحوال . فانه يتطلب النظر والتحقيق وبحث الاسباب والعلل والنتائج ، وبذلك يدخل في الحكمة .

فابن خلدون في هذا النص يسعى الى فلسفة التاريخ وعدم الاقتصار به على الأخبار ، ويرى أن المؤلف يكثر في أسلوبه من السجع بخلاف النص الاول وذلك لأن هذا النص قد ورد في مقدمة المقدمة وكان من عادة المؤلفين حينئذ أن يجعلوها مسجوعة .

أما النص الاول فمثال لكتابة ابن خلدون فيما عدا المقدمة وفيها يترك نفسه على سجيتها . ولم يكن ابن خلدون المؤلف الوحيد الذي يتغير أسلوبه بين مقدمة الكتاب وباقيه .

٣ ـ نص لابن خلدون يبيّن أثر الضغط الاجتماعي على حياة الافراد :

« فإن من أدرك أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ، ويتحلّون بالذهب في السلاح والمراكب ، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات ، فلا

يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والزيّ والاختلاط بالناس ، اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه . ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة ، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه » . (ص ٢٩٤) .

كلمة في النص :

يتبيّن من النص السابق أن ابن خلدون قد أدرك أثر الضغط الاجتماعي على حياة الأفراد في المجتمع وأنه قد سبق بذلك دور كهايم أحد علماء أوروبا الحديثين . فهو يظهر هنا كيف لا يستطيع الابن أن يخالف ما نشأ عليه في كنف أبيه اذا عاش في الفخفخة والديباج ، وأن يؤثر عليهما حياة الخشونة فان العادة تضغط عليه من داخل نفسه والمجتمع يضغط عليه من خارجها ويرميه بالجنون فيعود عليه ذلك بأسوأ العواقب .

أسلوب المؤلف في هذا النص بسيط سهل خال من السجع وسائر ألوان التكلّف . ونراه يستعمل جمع التكسير « العوائد » مكان العادات ج عادة والعوائد : ج عائدة وهي ما يعود على الانسان من خير أو شر . وقد استعمل الكاتب نفسه مفرد اللفظة صحيحا في آخر النص حين قال : « وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته » .

وقد أراد بعضهم أن يبرىء ابن خلدون من هذا الخطأ اللغوي فقال بأنه استعمل العوائد بمعنى النتائج التي تترتب على مخالفة عادات العصر وهو رأي وجيه وليس مسلّما .

٤ — نص يبيّن أثر كل من القسر الاجتماعي والتقليد في المجتمع :

« اذا صار المصر الذي كان كرسيا للملك ، في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها ، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر ، لأن الرعايا تبع للدولة ، فيرجعون الى خلق الدولة ، إما طوعا — لما في طباع البشر من

تقليد متبوعهم ــ أو كَرْهاً ــ لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الاحوال ... » (ص ٣٧٤) .

كلمــة في النص :

يجمع ابن خلدون في النص السابق بين أثر القسر الاجتماعي وأثر التقليد في المجتمع ، أي يجمع بين نظريتي كل من دوركهايم في الضغط الاجتماعي و « تارد » في التقليد ، اللتّين ظهرتا في العصر الحديث ، وكان لكل منهما أنصارها . وابن خلدون أسبق الى كل منهما وأسبق الى الجمع بينهما . وقد انتهى بعض العلماء الحديثين بعد وجود النظريتين ، الى الجمع بينهما ، فقــالوا بأن كلا من القســر الاجتماعي والتقليد يفعل فعله في المجتمع، وهما موجودان معا لاينفي أحدهما الآخر .

فالرعايا في هذا النص يقلدون الدولة في الترف أو في نقصه أو يضطرون الى مسايرتها لما لها من ضغط وتأثير عليهم يصبحون مثلها إمــا طوعا بالتقليد أو قهرا بالأمر والطاعة .

أسلوب النص سهل واضح ليس فيه سجع أو صناعة .

٥ ــ نص يتحدث فيه ابن خلدون عن البلاغة (ص ٥٦٢) :

« ملكة البلاغة في اللسان تهــدي البليغ الى وجود النظــم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ، ولا وافقه عليه لسانه ، لأنه يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده ، واذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّه . وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عــن الاحتجاج لذلك كما يفعل أهــل القوانين النحوية والبيانية » .

كلمــة في النص :

يبيّن ابن خلدون هنا أثر العادة والممارسة في خلق ملكة البلاغة عند البليغ بحيث أنه يهتدي الى وجوب تركيب الكلام وفق الاساليب العربية ولا يستطيع أن

يحيد عنها ، وبحيث أنه يستطيع كشف الأساليب التي تخرج عليها بملكته دون أن يستطيع الاتيان بحجج على ذلك كعلماء النحو والبلاغة الذين تعلموها وفق قوانين وقواعد •

ويريد ابن خلدون فضلا عن ذلك أن يبيّن أن تعلم اللغة والبلاغة والنحو بممارسة الأمثلة البليغة الصحيحة وبالحفظ أفيد وأسلم من التعلّم عن طريق القواعد النظرية •

وهو يرى في مكان آخر أن الجمع بين القواعد والأمثلة الكثيرة خير الطرق ، ونظريته صحيحة ، وحديثه في البلاغة في مقدمته يدل على أنه ينظر الى التاريخ على أنه تاريخ حضارة وليس تاريخ الملوك والقوّاد فقط •

الأسلوب خالٍ من السجع ومن أي تكلّف آخر •

ونحب أن نلفت النظر أخيرا الى أن المؤلفين في عهد ابن خلدون ليسوا في مستواه تفكيراً أو ابتكاراً فإنه إشراقة من إشراقات الفكر الانساني لا تظهر في كل زمان ومكان ، بل تطلّ أمثالها على العالم بين الفينة والفينة •

خاتمة في علماء افذاذ آخرين لهم مميزات علمية خلقية شخصية نادرة :

بالاضافة الى القلقشندي احد علماء العهد المملوكي الثاني الذي سندرس له كتابه الرائع « صبح الاعشى في صناعة الانشا » •

١ — العز بن عبد السلام الشجاع في الحق المنافح عن مصالح الشعب •

وهو مخضرم بين العهدين الأيوبي والمملوكي الأول •

عز الدين بن عبد السلام : « عن كتاب الحركة الفكرية في مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة ص٢٠٤ وهو بدوره عن الطبقات الكبرى للسبكي ج ٥ ص٨٢—٨٤» •

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي • ولد بدمشق سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة للهجرة • وقدم مصر وأقام بها ، وانتهت اليه معرفة المذهب (أي المذهب الشافعي) ، مع الزهد والورع ،

وبلغ مرتبة الاجتهاد . وزادت اقامته بمصر علـى عشرين سنة . وهناك تنحى له العلماء عن أماكنهم ، وتأدب معه الشيخ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري ، وامتنع عن الافتاء من أجله. ولبس الشيخ عز الدين خرقة التصوف من الشهاب السهروردي، وأخذ نفسه منذ يومئذ بطريقة المتصوفة ، وحضر دروس الشيخ أبي الحسن الشاذلي من أئمة الصوفية ، وكان هذا الشيخ معجبا به كل الاعجاب . وهكذا بنيت شخصية عـز الدين :

أولا ــ على تفوقه في الفقه الى درجة الاجتهاد وقد قال عن أصحاب المذاهب الاربعة :
« لم يكونوا رسلا لا تجوز مخالفتهم » . (المرجع نفسه)
وثانيا ــ على ايثاره مسلك المتصوفة .
وثالثا ــ على قوة أخلاقه وصلابتها .

ومن أهم هذه الاخلاق ــ بالنسبة لزعيم ديني كبير كالشيخ عز الدين ــ شجاعته الادبية التي لا حد لها . وله في هذه الشجاعة الادبية نوادر كثيرة . منها ما وقع له مع ملوك بني أيوب . ومنها ما وقع له مع المماليك .

فمما وقع له مع بني أيوب أنه طلـع مرة الى السلطان بالقلعة في يوم عيـد « فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، وما السلطان فيـه يوم العيد من الأبّهة ، والأمراء تقبّل الارض بين يديه ، فالتفت الشيخ اليه وناداه :

يا أيوب ــ ما حجّتك عند الله اذا قال لك : ألم أبوّىء لك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟ فقال السلطان : هل جرى هذا ؟

قال : نعم ، الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها مـن المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة !

وظل الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته ، والعساكر واقفون . فقال :

يا سيدي : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي .

فقال : أنت من الذين يقولون : « انما وجدنا آباءنا على أمّة » ؟
فرسم السلطان بابطال هذه الحانة .

وسئل الشيخ بعد ذلك : أما خفته ؟ فقال : والله يا بني ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدّامي كالقط » • (الطبقات الكبرى للسبكي جـ ٥ : ٨٢)•

ومما وقع للشيخ عز الدين مع المماليك :

انه نظر في أمر هؤلاء المماليك ، فوجد أنهم ليسوا أحرارا بوجه من الوجوه ، وأن الرق ينسحب عليهم ويشملهم • واذن فمن حق المسلمين ألا يصححوا لهم بيعا ، ولا شراء ، ولا زواجا حتى يصبحوا أحرارا • ونادى الشيخ بهذا الرأي • وكادت تتعطل به مصالح القوم ، بل تعرضت للتعطل بالفعل • وكبر ذلك على المماليك ، وهم أمراء الدولة ووجوهها ، فأرسلوا اليه يقولون : ماذا تريد منا ؟ فقال لهم : أريد أن نعقد لكم مجلسا ، وينادى عليكم في الاسواق ، ويحصل عتقكم بطريقة شرعية !

وأذهل المماليك هذا الامر ، وذهبوا الى السلطان يشكون هذا الشيخ ، فحاول السلطان أن يقنع الشيخ بالعدول عن رأيه ، ولكن بدون جدوى ، ولما ألح السلطان عليه في ذلك غضب عز الدين ، وذهب الى داره ، وحمل حوائجه على حمار ، وأركب أهله على حمر أخرى ، ومشى خلفهم خارجا من مصر • فلم يكد يبعد عنها ، حتى هرعت اليه جماعات العلماء ، والصلحاء ، والتجار ، والخاصة ، والعامة • وعلم السلطان بذلك ، فلم ير بداً من الركوب اليه بنفسه ، ففعل ، واسترضاه ، ووعده بما أراد •

غير أن المماليك عزت عليهم نفوسهم ، وعظم الخطب عليهم ، وذهب الغضب ببعضهم الى التفكير في قتل الرجل ، فحمل السيف الى دار الشيخ ، وقرع الباب ، ففتح له ولد عز الدين ، فرجع الولد الى أبيه مذعورا ، يخبره الخبر • فما وهن الشيخ ولا تزعزع وأخذ يقول لولده في ثبات غريب :

يا ولدي : أبوك أقلّ من أن يُقتَل في سبيل الله !

ثم خرج الشيخ بنفسه ليلقى القاتل ، وكان يومئذ نائب السلطنة ، فلم يكد يراه هذا حتى جمد السيف في يده ، وقال للشيخ في ضراعة :

يا سيدي : خبّر أي شيء تعمل ؟

قال الشيخ : أنادي عليكم في الأسواق !
قال الرجل : ففيم تصرف الثمن ؟
قال الشيخ : في مصالح المسلمين .
قال الرجل : فمن يقبض الثمن ؟
قال الشيخ : أنا .

فصدع المماليك بالامر ، ونادى الشيخ عليهم في الاسواق ، وغالى في ثمنهم ، وقبضه كله ، وصرفه في وجوه الخير .

ومات الشيخ عز الدين ، وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ٦٦٠ هـ ، وسارت الجنازة به تحت القلعة ، وشهدها السلطان بيبرس ، فقال يومئذ لبعض بطانته : « اليوم استقرّ أمري في الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان قال للناس اخرجوا عليه لانتزع مني الملك » ! (طبقات الشافعية ، ٥ : ٨٤) .

وكما كان الشيخ شديدا في الحق على غيره ، فقد كان شديدا أيضا على نفسه : حكي أنه أفتى مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه أخطأ . فنادى في مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به ، فانه أخطأ (١) .

ولم يكن الشيخ عز الدين غريبا بهذه الاخلاق وأمثالها على عصره « فقد كان ذلك من خلق الصفوة المهذبة من فقهاء هذا العصر » :

« حكي أن قاضيا اسمه ابن عين الدولة لم يقبل شهادة لملك عظيم من ملوك بني أيوب ، هو الملك الكامل نفسه ، وذلك لما علم من ولعه بمغنية كانت بمصر ، اسمها (عجيبة) كانت تحضر اليه ، وتغنيه بالجنك على الدف ، في مجلس يحضره ابن شيخ الشيوخ » .

---

(١) راجع لزيادة الاطلاع : ابن حجر ، رفع الإصر (خ) و ١٦٨ — ١٦٩ ، وابن تغري بردي ،المنهل الصافي (خ جـ ٢) و ٣٣٦ — ٣٣٨ ، وابن الوردي تتمة المختصر ٢ : ١٧١ ، والسبكي ، طبقات الشافعية ٥ : ٨٠ — ٨٤ ، وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ١ : ٣٦٦ و السيوطي ، حسن المحاضرة ٢ : ٨٨ .

٢ - ابن تيمية العالم الديني المصلح المجتهد المنطقي الذي لا يتزعزع عن معتقده (١) :

من علماء العهد المملوكي الاول الذين قالوا بالاجتهاد •

هو ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحرّاني إمام الحنابلة في عصره وكان أعظم معاصريه في العلوم الاسلامية ، ولد في حرّان ، وحين سقطت بغداد انتقل به أبوه حتى جاء دمشق وهي مزدهرة بالعلم والعلماء فتلقى العلوم على شيوخها وغيرهم وبلغ عدد أساتيذه مئتين فوعى الحديث والفقه والخط والحساب والتفسير وهو يافع فقد كان قوي الحافظة ذكيا وكان منذ صغره زاهدا متقشفا قوي الحجة شديد العارضة • كان في السابعة عشر من عمره حين أفتى وناظر وخاض في علم الكلام وبدأ يؤلف وتولى بعض المناصب وهو في الواحدة والعشرين فطار صيته في تفسير القرآن • وحين رجع من الحج سنة ٦٩١ هـ وهو في الثلاثين من عمره كانت قد انتهت اليه الامامة في العلم والعمل والزهد والورع مع قدرة في التأليف وجرأة نادرة في المجاهرة بالرأي وتأييد الحق غير مبال بالموت فسمي محيي السنّة وآخر المجتهدين واتخذ سبيل التوفيق بين المعقول والمنقول وألّف في ذلك فاشتد تأثيره في الناس وكثر مناصروه وكانت له قدرة على تحريض الناس على الجهاد حين الحاجة كما فعل في جهاد التتار • وقد كثر حسّاده فأخذوا عليه أمورا خالفهم فيها وأبلغوا أمره الى السلطان في مصر فأخذ اليها وحوكم وسجن مع أخويه ثم أطلق وفاز على خصومه ثم سجن ثم أطلق وفاز على خصومه فعفا عنهم وأقام في القاهرة سبع سنوات ينشر العلم فعادت الفتنة وعاد هو الى دمشق بعد هذه الغيبة الطويلة فانصرف الى التعليم والتأليف والافتاء •

ثم حرّك عليه خصومه قضية الافتاء في الحلف بالطلاق بالثلاثة وهو يعتبرها

---

(١) ترجمته في كتيّب للاستاذ محمد كرد علي،وفي كتاب للشيخ بهجة البيطار • وفي فوات الوفيات ١/٥٧٠ ، والسلوك ١ : ٣٩٦ ، والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤ : ١٣٥ ــ ١٤١ وتاريخ ابن الوردي ٢ : ٢٨٥ ــ ٢٨٩ ، وشذرات الذهب ٦/٨١ والدرر الكامنة ١ : ١٤٤

كالحلف بالواحد وأصرّ على رأيه مخالفا أمر السلطان فسجن ستة أشهر في القلعة ثم أطلق فأثاروا عليه قضية زيارة قبور الانبياء والصالحين فقد كان لا يرى تلك الزيارة واجبة بحسب الدين فوضع في القلعة في قاعة خاصة ومعه أخوه يخدمه وهو منصرف الى التأليف والعبادة ثم منعوه من التأليف والكتابة وأخرجوا ما عنده من الكتب والورق والحبر فعظم عليه ذلك فمات سنة ٧٢٨ هـ وكان لنعيه وقع عظيم على الناس فتسابقوا الى اقتناء آثاره وبعض ثيابه . وبلغت مصنفاته ثلاثمائة أكثرها في التفسير والفقه وأصوله بينها كثير من الردود والاجوبة والفتاوى والقواعد الدينية والجدلية مثل تعارض العقل والنقل في أربعة مجلدات ، والرد على الفلاسفة في أربعة مجلدات و « اثبات المعاد » و « الرد على ابن سينا » و « الرد على الاتحادية والحلولية وعلى القدرية والمجبرية والرافضة والامامية وعلي بن مطهر ، وفي فضائل أبي بكر وعمر وفي الاجتهاد والتقليد وتفضيل الامام أحمد » .

ومن مؤلفاته : « فتاوى ابن تيمية » في خمسة مجلدات ، طبع سنة ١٣٢٦ هـ ، ومنها « منتقى الاخبار » شرحه الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) شرحا سماه « نيل الاوطار » ، طبع بمصر سنة ١٢٩٧ هـ . ومنها « الايمان » طبع في الهند سنة ١٣١٠هـ و « الجمع بين العقل والنقل » و « منهاج السنّة النبوية في نقض الشيعة والقدرية » ، و « الواسطة بين الحق والخلق » .

٣ ـ ابو الفداء صاحب حماه وهو مثال الملك العالم المثقف الاديب الشاعر :(١)
وهو من رجال العهد المملوكي الاول .

هو أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ) الملك المؤيد اسماعيل بن علي الايوبي صاحب حماة ، أطلق الملك الناصر يده فيها دون مراقبة ، وكان الناصر يبالغ في تكريمه ورفع قدره وكان هو يتوجه بهدايا من الخيل والرقيق والجوهر الى مصر كل سنة ، وكان

(١) ترجمته في فوات الوفيات ١ : ٣١ ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٢ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٢٩٥ ، وشذرات الذهب ٦ : ٨٩ والبدر الساطع ١ : ١٥١ ، للشوكاني .

محبا للعلم متمكنا في الفقه والطب والفلسفة ، قرّب أهل العِلم ورتّب لهم الارزاق وألّف كتبا نفيسة أصبحت مراجع في التاريخ والجغرافية ، أشهر كتبه « المختصر في أخبار البشر » وهو تاريخ عام في قسمين الاول في الجاهلية والثاني في الاسلام حتى سنة ٧٢٩ هـ وقدم له بمتابلة بين التواريخ (التقاويم) المعروفة في عصره قابل فيها بين التوراة العبرانية والسامرية واليونانية ووضع في ذلك جدولا لطيفا وتحدث في قسم الجاهلية عن تواريخ الانبياء ، والفرس القدماء ، وأفاض في العرب الجاهليين، العرب البائدة منهم والباقية . وقد أفاد في كتابه من نيف وعشرين كتابا منها كتاب الكامل لابن الاثير ، ويمتاز هو عنه بما تضمنه كتابه من الاخبار الادبية والعلمية والاجتماعية ، ولكتابه قيمة كبرى لدى علماء أوروبا . وله كتاب « تقويم البلدان » وهو جغرافيا عامة . اهتم فيه بتصحيح المعلومات الخاطئة قبله . وجعله في شكل جداول وقدم ما تجب معرفته من ذكر الارض والاقاليم ثم ذكر البلاد التي بلغت ٦٢٣ بلد مرتبة على الاقاليم ، وقد اهتم به الافرنج قبل اهتمامهم بتاريخه وترجموه الى اللاتينية والفرنسية .



الأدب في العهـــود الأربعـــة الأولى

تمهيـــد :

في الاهتمام بالادب في عهود الدول المتتابعة حتى آخر العهد المملوكي الجركسي :

كانت هذه العهود جديرة بان تقوم فيها نهضة أدبية • فالعدو رابض في البلاد والمجاهدون من الحكام وغيرهم يحاولون دفعه وطرده ، وكانت دولة تسقط واخرى تقوم وبلاد تتمزق ثم تتحد وعقائد دينية تسيطر ثم تحل محلها عقائد اخرى فيحزن جماعة ويفرح آخرون •

وكان بعض الحكام يحبون الأدب ويكافئون عليه وينقدونه ويتثقفون بـه ، وبعضهم ينظم ويكون لـه دواوين ويشـجع على النظم والتأليف • وكـان بعض السلاطين يقومون ببطولات جعلت الشعراء يلتفون حولهم •

وكان الاهتمام بالشعر اكثر منه بالنثر لانه كان اكثر شعبية وتعبيرا عن عواطف الجماهير حينئذ • أما الرسائل الديوانية فكانت تعبيرا رسميا عن شؤون الحكومات في تلك العصور • كان الشعر حينئذ يقوم مقام الصحافة السياسية • وكان موجّها يحض على استرداد القدس وغيرها من البلاد المغتصبة أو يبشر به ، وكان اقرب في اسلوبه الى عامة الشعب من النثر واقل جهدا في الصياغة •

وقد عني بعض الادب العربي على اختلاف الوانه حينئذ من شعر ، ورسائل ديوانية واخوانية ، وخطب حماسية ، وكتب في الجهاد والفروسية ، او في فضائل البلاد العربية ، بالنواحي النفسية الثلاث وهي الادراك والوجـدان والارادة وهي التي تعد الرجل العربي لخوض تلك الحروب ، فضلا عن الغريزة التي فطر عليهـا العربي من حيث الذّب عن حياضه ضد العدو الخارجي •

واعتمدت تآليف العلماء الاحاديث النبوية في فضائل البلاد ، وفيها قوة وتحريك واثارة ، واقتبس الشعر وكتب الجهاد والفروسية الآيات والاحاديث والسير التاريخية التي تحثّ على الشهادة وتعد بالجنة .

ومن امثلة اهتمام الفاطميين بالادب ان الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله بنى منظرة من خشب فيها طاقات مطلة على بركة الحبش وصور للشعراء المجيدين وجعل عند رأس كل شاعر مختارا جيدا من شعره فكان يدخل ويقرأ الاشعار ويضع على كل رف صرّة فيها خمسون دينارا . وكان كل شاعر يدخل ويأخذ صرّته بيده . ولا شك في ان الاجازة على الشعر تدعو الى اجادته . « الحياة الأدبية ، بدوي : ٢٣ عن خطط المقريزي ٢ : ٣٢٩ » .

ويروي عمارة اليمني كيف قدم على الفائز ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزّيك ، فلما انشدهما في قاعة الذهب : « النكت العصرية ص ٣٢ » .

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النعم

أفيضت عليه خلع الخلافة واعطاه طلائع خمسمائة دينار وارسلت اليه زوجة الخليفة بنت الامام الحافظ خمسمائة دينار واكرمه الامراء .

وقد أجرى الفاطميون الارزاق على الشعراء فجعلوها عشرين وعشرة دنانير وقد طلبوا الى الشاعر أبي عبد الله مسلم ان ينظم « السيرة المصرية » وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر . « خطط المقريزي ٢ : ٢٤٣ » و « الحياة الأدبية : بدوي : ٢٤ » .

وفعل الوزراء والولاة فعل الخلفاء ولا سيما ان الوزراء كانوا هم الحكام الحقيقيين . حدّث المقريزي عن دار الملك التي انشأها الافضل بن بدر الجمالي وعن مجلس العطاء بها وتفصيل ظروف من الديباج الاطلس مجموع ما فيها خمسة وثلاثون الف دينار في كل ظرف خمسة آلاف ، وذلك لتكون الجائزة حاضرة بين يديه لمن يجيد من الشعراء . « خطط المقريزي ٢ : ٢٤٣ » .

وكان مكين الدولة احد ولاة الاسكندرية يقتدي بالبرامكة في اغداقهم على الشعراء . وقرض الشعر كثير من حكام تلك العهود .

روى المقريزي للآمر الفاطمي حين عزم على السير الى بغداد ليعيد للدين وحدته تحت الراية الفاطمية :

دع اللوم عني لست عني بموثق   فلا بد لي من صدقه المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة   وأجمع شمل الدين بعد التفرق

« الخطط ، جـ ٤ : ٧٨ »

وكان طلائع بن رزيك شاعرا . وسنرى ميميته التي بعث بها الى أسامة بن منقذ يدعو فيها الى التعاون مع نور الدين زنكي ، ومطلعها :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم   وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم

« ديوان أسامة بن منقذ ٢٧٢ »

وكان الفاطميون يستمعون الى الشعر في بعض المحافل والمناسبات كمناسبة وفاء النيل وكان ينشد فيها شعر مرتجل ويجري فيها بعض النقد الادبي . من ذلك ان ابن جبر أنشد الخليفة الفاطمي في وفاء النيل قصيدة منها :

فتح الخليج فسال منه الماء   وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنها   كف الامام فعرفها الإعطاء

فأخذ عليه قوله ، وسال منه الماء ، وقالوا أي شيء يسيل منه غير الماء ؟

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير فأنشد :

ما زال هذا السد ينظر فتحه   إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى اذا برز الإمام بوجهه   وسطا عليه كل حامل معول
فجرى كأن قد ديف فيه عنبر   يعلوه كافور بطيب المندل

فأخذوا عليه سوء صياغة البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الخليفة بالمعاول ، وان كان يريد فتح السد بها .

ثم تقدم كافي الدولة ابو العباس احمد فأنشد قصيدة على البداهة مطلعها :

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد   للنيل ام لك يا ابن بنت محمد ؟

أمْ لاجتماعكمـا معاً في مَوْطـن وافيتمـا فيه لأصـدقِ مَوْعـد

« بدائع البدائه ص ٢٢٤ »

وكان الزنكيون يدركون اثر الشعر في تحريك النفوس : طلب نور الـدين زنكي من العماد الأصفهاني ان ينظم دوبيتات على لسانه في معنى الجهاد فحقّق له مطلبه ، ومنها هذا الدوبيت :

اقسمتُ سوى الجهادِ مالي أرَبُ والراحةُ في سـواه عنـدي تعَبُ

إلاّ بالجِـدّ لا يُنـال الطلبُ والعيشُ بلا جِدّ جهـادٍ لَعِب

« أبو شامة ، الروضتين ١ : ٢٠٧ »

وطلب مرة أخرى من العماد ان يصف معركة حضرها معه ضد الفرنجة ليثبّت قلوبِ المؤمنين ويثير حماستهم ، وطلب مرة ثالثة منه ان يبعث على لسانه رسالة الى الخليفة في بغداد تصف جهاده العدو وما أنزله به من هزيمة وخذلان . وذلك يدل على مدى اهتمامه بالشعر وادراكه مدى فائدته في الدعاوة والتوجيه المعنوي ، وبث الحماسة في الجند والشعب والاعداد للجهاد . وقد لبّاه العماد بقصيدة منها هذه الابيات :

مَنْ ذا الذي سار سيري في ولائكم غداةَ قال العدا : لا سيرَ بعد عصا

قد نال عبدُكَ محمودٌ بهـا ظفَرا ما زال يرقبه مِن قبلُ مُرتبِصـا

مِن خوف سطوته أنّ العـدو اذا أمّ الثغور على أعقـابه نَكَصـا

« الروضتين ، ١ : ٢١٨ »

وطلب نور الدين منأسامة بن منقذ (١) ان ينظم على لسانه قصيدة يتحدث فيها عن معاركه ويفخر بانتصاراته فنظم قصيدة في زهاء تسعين بيتا مطلعها :

(١) فارس ، من ابطال العرب خلال الحروب الصليبية ، شاعر كاتب مؤلف من كتبه « الاعتبار » وهو في سيرته الشخصية وحوادث عصره وتجاربه ، طال عمره حتى زاد على التسعين ومـات زمن صلاح الـدين . (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ) .

أبى الله إلا ان يكون لنا الامرُ ... لِتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

وبعد ذلك يقول :

وتخدُمنا الايامُ فيما نرومُهُ ... وينقادُ طَوعاً في أزمّتنا الدهرُ

وتخضَع اعناقُ الملوك لعزّنا ... ويَرهبها منا على بُعدنا الذكرُ

وما في ملوك المسلمين مجاهدٌ ... سوانا ، فما يَثنيه حر ولا قرّ

جعلنا الجهادَ همّنا واشتغالَنا ... ولم يُلهنا عنه السماع ولا الخمر

وثير حشايانا السروجُ وقمْصُنا الـدروعُ،ومنصوبُ الخيام لنا قصْر

وهمّ الملوكِ البيضُ والسمرُ كالدُمى ... وهمّتنا البيضُ الصوارمُ والسّمْر

نَسير الى الاعداء والطيرُ فوقنا ... لها القوتُ مِن اعدائنا ولنا النصر

وجيشٍ اذا لاقى العدوّ ظننتَهم ... أسُود الشرى عنّت لها الأدم والعفر

ترى كلّ شهم في الوغى مثلَ سهمِهِ ... نفوذا فما يَثنيه خوف ولا كثْر

بنا أُيّد الاسلامُ وازداد عزُّه ... وذلّ لنا مِن بَعد عزته الكبْر

قتلنا البرنسَ حين سار بجهله ... تَحِفّ بهالفرسانوالعسكرُ المَجْر

وفيسجننا ابنُ الفنْشِ خيرُ ملوكهمْ ... وان لم يكن خيرٌ لديهمْ ولا بِرّ

أسرناه مِن حصن العريمةِ راغماً ... وقد قُتلتْ فرسانُه فهمُ جَزْر

وسلْ عنهم الوادي بإقليسَ إنّه ... الى اليوم فيه مِن دمائهمُ غُدْر

ونحن أسرنا الجَوسلينَ ولم يكن ... ليَخشى مِن الايام نائبةً تعرو

وكان يظنّ الغِرُّ أنّا نبيعُه ... بمالٍ وكم ظنّ به يَهلِكُ الغِر

فلما استبحنا مُلكَه وبلاده ... ولم يبق مالٌ يستباح ولا ثغر

كَحلناه نبغي الاجرَ في فعلنا به ... وفيّ مثل ما قد ناله يُحرَز الأجر

« الديوان ٢٠١ ــ ٢٠٢ ، أو ٢٤٧ »

كان العصر اذاً مواتيا للادب ، الفاطميون جعلوه من مظاهر الأبهة ووسيلة

للدّعاوة ونشر المبادىء ومتنفسا لأمانيهم وآمالهم ، والزّنكيون اتخـذوه وسيلة لتثبيت ملكهم وبث الحماسة للجهاد •

وقد حدث تطور في الادب الرسمي تحت تأثير الحروب الصليبية ، فقد كـان الادب الفاطمي قبـل الحروب الصليبية ادبـا سياسـيا لنصرة المذهب الفـاطمي والاحتجاج له شعرا ونثرا بحيث كان يغلب عليه الطـابع العقلي ، ولكن الادب في ظلال الحروب الصليبية تأجج بالعواطف •

وكان امراء الاتراك لا يحفلون كثيرا بالادب العربي فأصبحوا يهتمون به لانه يبعث الحماسة في الجيش والشعب ويسجل انتصاراتهم ويشيد بأعمالهم [1] •

ولا شك في ان هذه الحروب كانت بالنسبة الى المسلمين مسألة حياة أو موت فكـان من المنتظر ان يتأثر الادب العربي بهـا كثيرا ، وان تطغى عليه عاطفة دينية جبارة ، وهكذا كان أدبا عاطفيا قويا حماسيا تغذيه عاطفة الدين والجنس واللغة ••

وقد غزر انتاج الادب شعره ونثره في هذه العصور واذا كان قد ضاع قسم كبير منه ، ومن الشعر بخاصة ، بما تتابع على البلاد من احداث ، فقد حفظت لنـا مجموعات الشعر التي وصلت الينا ، كما حفظت لنا دواوين الشعراء التي سلمت لنا ، كثيرا من الشعر الذي يعطينا صورة كافية واضحة عن خصائصه في هذا العهد وما طرأ عليه من اطوار وتغيرات • ولكن هذه الآثار لم تلق العنـاية الكافية ولم تأخذ قسطها الواجب من الدراسة بعد •

وكان من جملة الاسباب التي صرفت الباحثين عن هذه الدراسة ، وعن دراسة دور مصر والشام بخاصة ، في حفظ التراث الادبي والاسـلامي ان الناس في بداية النهضة العلمية اهتموا بالعصور الاولى منذ الجاهلية حتى نهـاية الدور العباسي الثالث في اواسط القرن الخامس الهجري وذلك طلبا للنماذج القوية التي تعتبر مثلا وقدوة وحوافز للشعور بالذات والنهضة ، ومنها ان الاستعمار الذي كان مسيطرا علينا لم يكن ليرضى بتوجيه العناية لبلدين يستعمرهما فيظهر دورهمـا النضالي في

(١) لقد سبقنا الى هذه الآراء الدكتور بدوي في « الحياة الأدبية ص ٣٦ » •

الماضي وما في الامكـــان ان يفعلاه في الحاضر والمستقبل • ومنهـــا ان المستشرقين اهتموا بافراد معدودين من العلماء والادباء مثل الغزالي وابن رشـــد والزمخشري والفخر الرازي من رجال الفكر ، ومثل الحريري والطغرائي وابن الفارض من رجال الادب ، ولم يعنوا بابراز دور هذين البلدين المتماسك المتكامل في حفظ التراث وفي النضال والتحرير [1] •

وفضلا عن ذلك فانهم لم يهتموا بمن كانت لهم روح قوميةمن الادباء والشعراء والمفكرين او من كان لهم دور في حركة التحرير وفي النهضة العربية الاســلامية في عصر نور الدين زنكي ومن بعده ، ولم يظهروا الحاح ابطـــال التحرير على فكرة الوحدة بين هذه الاقطار وقيمتها في حياة اهلها وما يرافقها من قوة وازدهـــار فلم يبحثوا في ابن الاثير والقاضي الفـــاضل والأبيوردي وعماد الدين الأصفهاني وابن التعاويذي وابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وابن الســـاعاتي وابن سناء الملك الذين صوروا نضال نور الدين وصلاح الدين ضد المغتصبين ، وربمـــا فعل بعض المستشرقين ذلك عن عمد لان لهم ارتباطاتهم الوثيقة بدولهم الاستعمارية •

وقـــد وصف المســـتشرق جب (*Cib, Arabic Littérature. P. 82 — 84*). هذه العهود بأنها العصر الفضّي على حين كان العصر قبلهـــا العصر الذهبي ، وذلك لانها في رأيه لم تمتز بالابداع والعبقرية ، بل ببراعة الصناعة والمهارة الفنية • وهذا الكلام فيه نصيب من الحقيقة ونصيب من المبالغة • ولاشك في ان بعض ادبها ادب مترف في موضوعاته واساليبه يتجه الى الحكام او الى التسلية وقطع الوقت بما فيه من عناية بالالفـــاظ وتلاعب بالمعاني الجزئية المحدودة من ألغاز وتعمية وميـــل الى الدعـــابة والى التوقيع الموسيقي في الشعر والنثر لرهافة الذوق والميـــل الى اللهو وسماع الغناء والاستمتاع بالرقص على انغـــام الموسيقا ، تلك الرهافة التي جعلته يتجنب الخشونة ويألف الرقة ، ولكنه جزء من ادب هذه العهود وليس ادبها كله ،

---

(١) يشاركنا في هذا الراي بل سبق اليه الدكتور زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص ١٦٨ •

فسائر هذا الادب كان يمثل النضال ضد المحتلين الغزاة والفرح بالنصر والتحرير وكان أدب قوة وبنـاء .

وقد بقي في العهد الفاطمي ـ الزنكي بعض شعراء يتكسبون بشعرهم ويتقربون به الى الحكام الذين كانوا يقبلون عليه فينقطعون اليهم . وقد نجد لدى بعضهم نغمة استجداء كما نرى في قول ابن التعاويذي الآتي يخاطب به أهل بغداد :

أترضَون يا أهلَ بغدادَ لي وعنكم حديث الندى يُسنَد

بأنيَ أرحل عن أرضكم أجوبُ البلاد وأسترفِدُ

ألا رجلٌ منكمُ واحدٌ يحرّكه المجد والسؤدَدُ

أما لِيَ فيكمْ سوى « شعرُه رقيقٌ ، وخاطرُه جيّد »

يَسرّكمُ ان يُغنّى به ويطربكمْ أنه ينشَد

وأقسِم أنّ رغيفا لديَّ مِن قولكمْ « جيّدا » أجْودُ

« الديوان : ١٣٩ »

على ان نغمة الاستجداء هذه تدل على ان هذا الشاعر لم يحظ بالاقبال المنشود على شعره ممن بيدهم ان يغنوه بالجوائز اذا شاؤوا فهو لذلك ينوي الرحيل عن بغداد الى بلدة اخرى .

ونهج الأيوبيون نهج الفاطمين والزنكيين في الاهتمام بالادب : فقد عقد صلاح الدين مجلسا لسماع الشعراء بعد فتح القدس « الروضتين جـ ٢ ص ٩٦ » . ويروي ابن خلكان أنه أنشده شاعر قصيدة مطلعها :

الله اكبر ، جاء القدس باريها وراش اسهم دين الله باريها

فأعطاه ألف دينار ، وانه منح سعادة الاعمى على قصيدة الف دينار . وطلب القاضي الفاضل من صلاح الدين بأن يجعل الجائزة للمهذب بن اسعد حين مدحه بقصيدة مطلعها :

ما نام بعد البين يستحلي الكرى الا ليطرقه الخيال اذا سرى

مشيرا الى قوله من قصيدة ةيمدح فيها الصالح بن رزّيك :

مَن أرتجي يا كريمَ الدهر يُنعشني	جدواه إنْ خاب رأيي في رجائيكا
أأمدحُ التركَ ارجو الفضلَ عندهمُ	والشعرُ ما زال عند الترك متروكا

« الروضتين ١ : ٢٤٠ »

ونظم كثير من ملوك الأيوبيين الشعر . منهم الأفضل بن صلاح الدين قال يشكو سوء حظه :

أما آن للسعد الذي أنا طالب	لإدراكه يوما يُرى وهو طالبي
ترى هل يريني الدهرُ ايديَ شيعتي	تَمكّنُ يوما مِن نواصي النواصب

« السلوك للمقريزي جـ ١ : ٢١٧ »

ولحفيد غازي بن صلاح الدين ، يوسف بن محمد بن غازي شعر حين مرت به التتار في حلب فهدموها :

يعزّ علينا أن نرى ربعكمْ يَبلى	وكانت به آيات حسنكمُ تتلى

« النجوم الزاهرة ٧ : ٢٠٤ »

وكان بهرام شاه احد امراء الأيوبيين له ديوان شعر مشهور بين ايدي الناس ومنه هذا الدوبيت :

كم يذهب هذا العمر في الخسران	ياغفلتي فيه وما أنساني
ضيعتُ زماني كلّه في لعِب	يا عُمْرُ ، فهل بعدكَ عمرٌ ثان

« النجوم الزاهرة ٦ : ٢٧٦ »

وللناصر داود بن المعظم عيسى ديوان من الشعر بقي الى يومنا هذا في دار الكتب المصرية ومنه شعر جيد كقوله :

عيونٌ مِن السحر المبين تُبينُ	لها عند تحريك القلوب سُكونُ
اذا ما رأتَ قلبا خلِيّا مِن الهوى	تقول له : كن مغرما فيكون

« المختصر جـ ٣ ص ١٩٠ »

وللملك الكامل يستحث أخاة الاشرف موسى لمساعدته على حرب الفرنجة في دمياط :

يا مسعدي ان كنت حقا مسعفي   فانهض بغير تلبث وتوقف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه   ما بين كل مهند ومثقف
أو تبطء عن انجاده فلقاؤه   بك في القيامة ، في عراض الموقف

« خطط المقريزي ٤ : ٢١٢ »

وله في الغزل :

اذا تحققتم ما عند صاحبكم   من الغرام فذاك القدر يكفيه
انتم سكنتم فؤادي وهو منزلكم   وصاحب البيت أدرى بالذي فيه

« الحياة الأدبية ، بدوي ٢٩ »

ومن اثر الشعر في نفوس الأيوبيين ماروي عن عز الدين فروخ شاه ابن اخي صلاح الدين حين ابلى مع عمه بلاء حسنا في معركة بانياس سنة ٥٧٥ هـ فقد قال انه ابلى ذلك البلاء متأثرا ببيتين للمتنبي هما :

فان تكن الدولات قسما فانها   لمن يرد الموت الزؤام تؤول
ومن هون الدنيا على النفس ساعة   وللبيض في هام الكماة صليل

« الكامل لابن الأثير ١١ : ٣٠٦ »

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي اليه .

وكان صلاح الدين يستفتح ببعض رسائله بالشعر ومنها كتاب ضمنه البيت التالي :

ما كنت بالمنظور أقنع منكم   ولقد رضيت اليوم بالمسموع

« بدائع البدائه ١٧٨ »

وكانوا يستعينون بالشعر في رسائلهم ليصفوا بعض احوالهم من ذلك ما كتبه شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين الى أخيه من اليمن . وقد حن الى الوطن والاصحاب ، والشعر لابن المنجم المصري :

وإلى صلاح الدين أشكو أنني ... من بعده مُضنَى الجوانح مولَعُ
جزِعا لبعد الدار منه ، ولم اكن ... لولا هواه لبعد دارٍ أجزع
فلأركبَنَّ اليه متن عزائمي ... ويَخُبُّ بي ركبُ الغرامِ ويوضِع
ولأقطعنَّ مِن النهار هواجراً ... قلبُ النهار بحرِّها يتقطع
ولأسريَنَّ الليل لا يسرى به ... طيفُ الخيال ولا البُروق اللُمَّع
وأقد مَنَّ اليه قلبي مُخبِرا ... أنـي بجسمي من قَريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعدَ طلعة ... مِن أفقها صبحُ السعادة يطلع

« الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٩٦ »

وكانوا يخصصون المجالس بعد الحوادث الهامة ليستمعوا الى الشعراء في المحافل العامة من ذلك ما رأيناه من استماع صلاح الدين للقصائد التي قيلت حين استيلائه على دمشق وحلب وبيت المقدس وسنرى نماذج منها .

وكانوا يعقدون مجالس أدبية يُنشِدون فيها الشعر ويستجيزون من حضر من الشعراء . انشد الملك الكامل في مجلس :

ترحلَ مَن حياتي في يديه ... فيا أسفي ويا شوقي اليه

واستجاز الحاضرين فقال احدهم :

ومن هذا يكون عليه مثلي ... وهذي الريح أخشاها عليه

وقال آخر :

ألا ياليته ان كان يأتي ... حياتي ، ثم موتي في يديه

« بدائع البدائه ص ٩٦ »

وقد يسمعون شعرا بالاعجمية فيطلبون من احد الشعراء ان ينظمه في العربية من ذلك ان الملك العزيز سمع دوبيتا بالاعجمية معناه انه جعل الليل برد دارا للحبيب (أي حامل البريد أو الممسك بخيل البريد) فطلب من وزيره يوسف بن المجاور ان ينظم في هذا المعنى فأرسل اليه :

قال له الليل انصرف راشداً ... فانّه استخدمني برد دارْ

« بدائع البدائه ص ١٥٠ »

وطلب الملك من وزيره ان ينظم غزلاً فيجارية رسمت على خدها بالمسك صورة حية وعقرب فقال على البداهة :

فليتهـا مِن غـادة مخلوقـة مِن طـربِ
سـألتها فـي قبلـة في خدهـا المـذهّب
فجـاوبت معجَبـة بكفـّـا المخضّـب
وأبأبـي وابأبـي مـن عظم هـذا الطلب،
وليس هـذا ممكنـا علـى ممن الحقـب
روضة خدي حرّست بحيّـة وعقـرب
مَـن رام ان يلثمهـا فليَرْقِهـا بالـذهب
وليشربِ الدرياقمِن رُضـاب ثغري الشنبِ

« الحياة الأدبية ، بدوي ٣٥ » عن « بدائع البدائه ص ١٥١ »

واتخذ الأيوبيون الشعر وسيلة لتثبيت عروشهم وغرس الحب لهـم في قلوب رعيتهم ووسيلة للدعوة للجهاد واثارة الحمية في النفوس واشعـارا بأنهم يتذوقون هذا الفن كالعرب ، فقد كان في اعماقهم أمنية ان لو كانوا من العرب حتى حـاول بعضهم ان يرجع نسبهم الى بني أمية ، فأحاطوا انفسهم بالشـعر كالأمويين ويجب ألا ننسى اثر البيئة العربية التي كانوا يعيشون فيها عليهم . « النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣ ومقدّمة الفرائد الدرّية » .

ولم يقتصر الشعر على المحترفين وانما اسهم فيه كثير من الناس ابناء الشعب الذين اتخذوه هواية لهم يعبّرون به عن ذوات نفوسهم او يملؤون به اسمارهم تسلية ومتعة او يتراسلون به وكان بين من قالوا الشعر فقهاء وعلماء وأطباء وقواد وجنود ومهندسون وجزارون واصحاب حرف اخرى من عامة الشعب ، كما نلاحظ في تراجم العلماء والشعراء في هذه العهود . وبذلك مثل هذا الشعر حيـاة الشعب الواقعية الحقيقة في سموهـا وانحدارها وجميع أحوالهـا . ومن الطبيعي أن أكثر هؤلاء الشعراء ، لم يرتفع الى مستوى المحترفين . ويرى ياقوت ان تاج الـدين الكندي

سمع شعرا للحافظ بن عساكر فقال : « هذا شعر اضاع فيه صاحبه شيطانه » .
« ارشاد الأريب ج ٥ : ١٤٥ » .

ويلاحظ ان الشعراء لم يرثوا الدولة الأيوبية حين زالت وحلت محلها دولة المماليك البحرية وذلك لان الناس عدوا دولة المماليك استمرارا لها وذيلا ، ولان المماليك انفسهم كانوا يقتدون في اعمالهم بالسلاطين الأيوبيين ويجرون على سياستهم في السلم والحرب والعمران وكل شيء ، ولان الدولة الأيوبية لم تنقرض دفعة واحدة ، بل استمر حكم بعض ملوكها في بعض المدن كحماة . وجرى الأمر نفسه للدولة المملوكية البحرية حين زالت وحلت محلها دولة المماليك البرجية .

وظهرت في العهد الايوبي طبقة من العلماء واشباههم تقول الشعر عن فيض عاطفي وعقيدة دينية لها طابعها الخاص وهي طبقة الشعراء الصوفيين . وكان شعرهم ينشد في حلقاتهم وقد يرقصون عليه . ومن مشهوريهم ابن الفارض وله ديوان شعر أهمه التائية واليائية واللامية ، وهي قصائد مشهورة .

وقد صور الشعر عصره بما فيه من احوال سياسية واجتماعية وحربية ومن أمثلة ذلك ما نرى في تصوير الأبيوري المتوفى سنة ٤٩٢ هـ لما حل بالقدس حين استولى عليها الفرنجة .

واذا كان الشعراء قد اشادوا بابطال الجهاد من سلاطين وامراء وقواد ، فانهم لم يظهر بينهم شاعر رسم صورة نور الدين او صلاح الدين كما رسم المتنبي صورة سيف الدولة في سيفياته ، وقد يكون من اسباب ذلك اهتمام هؤلاء الشعراء بالصناعة اهتماما مفرطا احيانا ، وشعورهم ، كالشعب ، بالضياع تحت حكم اجانب مستبدين يشترون بمال الشعب ثم يستبدون به ويرهقونه ويذلونه ويسلبون ماله ويقتلون أبناءه . وقد يرضى عن بعضهم شعورا منه باخلاصه للجهاد ضد المحتلين ، وقد يقبل بابعاده عن حقه في الحكم والادارة والجيش ، ولكنه لا يرضى بذلك الا مكرها عارفا بأنه يذاد عن حقه ويبقى في قلبه حسرة من تحكم الغرباء به . وفي هذه الحال يشعر هو نفسه بالغربة ، فلا تأخذ قريحة الشاعر ، ابن الشعب المعبر عنه ، ابعد مداها في مدحهم ويبقى في نفسه شيء يجر انطلاقته الشعرية الى الوراء .

وكان الأيوبيون يشجّعون على التأليف في الادب : طلب الكامل من ابن دحية ان يجمع له شيئا من شعر اهل المغرب ، فألف له كتاب « المطرب » الذي حققه الدكتور احمد احمد بدوي مع آخرين • « مقدّمة كتاب المطرب تحقيق د • أحمد أحمد بدوي وزميليه » •

وفي العهد المملوكي الاول كان الاشرف خليل بن قلاوون يعقد المجالس الادبية ويطارح الادباء فيها بذهن صاف وذكاء مفرط • « السلوك ١ : ٧٩١ » •

وألف بعض ملوك هذا العهد وامرائه في الادب ومنهم الملك المنصور الايوبي صاحب حماة محمد بن تقي الدين عمر فقد ألف كتابا في طبقات الشعراء • « المختصر ٣ : ١٢٥ » •

وقد حفز المماليك الاتراك على العناية بالشعر ما حفز أسلافهم الفاطميين والزنكيين والايوبيين ، بالاضافة الى أنهم كانوا يريدون ان يرفعوا من قدر انفسهم لما كانوا عليه من رقّ حتى يشيد الشعراء بمآثرهم وينسوا الناس ماضيهم فظهر امثال الشرف الانصاري والشهاب محمود في بداية عهدهم حتى وفاة الملك الاشرف خليل • ثم نلاحظ بعده في هذا العهد ، وفي عهد المماليك الجراكسة الذي يليه بصورة خاصة ، سوء اثر الحياة العامة واحداثها في الادب شعره ونثره فكان من صفاته :

١ ــ الضعف الموضوعي الذي يظهر في اختيار المقطوعات غالبا للتعبير عن فكرة قصيرة •

٢ ــ هلهلة البناء والصياغة التي نشأت عن توخي السهولة وعدم الرغبة في التنقيح وبذل الجهد ولوحظت في مصر منذ اواخر العهد الايوبي [1] •

---

(١) يفخر البهاء زهير وهو من شعراء اواخر العهد الايوبي بان شعره ابن ليلته لا ابن سنته كزهير بن ابي سلمى فيقول :

هذا زهيرُكَ لا زهيرُ مُزَيْنَةٍ ... وافاكَ لا هرما على عِلاتِهِ

دَعه وحولياتِه ثم استمعْ ... لِزهير عصركَ حُسْنَ ليلياته

٣ ــ قلة الابتكار والميل الى التضمين والاقتباس [١] .

٤ ــ الإيغال في العامية شيئا فشيئا وقد فتح بابها في القرن السابع في آخر زمن الأيوبيين البهاء زهير وصديقه ابن مطروح بأن استعملا بعض تعابيرها .

وهذا الاتجاه الى العامية جعل الشعر شعبيا ينحدر عن أرستوقراطيته التي كان يتجه بها الى الحكام دون غيرهم ، وربما كان من اسباب ذلك ان بعض المماليك الاتراك وكثيرا من المماليك الجراكسة كانوا لا يفهمون الشعر الفصيح جيدا ولا يهتمون به ويرعونه ، وربما كانوا أميل الى الشعر العامي لانهم كانوا اقدر على فهمه ، ولهذا قربوا الزجالين وشعراء العامية . وقد اقتدى علية القوم بالسلاطين في هجر العربية والحديث بالتركية احيانا ، وربما بدأ ذلك منذ بدء النصف الثاني من العهد المملوكي الاول فقد كان علاء الدين بن الاثير كاتب سر الناصر محمد لا يتحدث الابالتركية في مقر عمله .

وقد زهد الادباء المقتدرون في الشعر، الا ما كان منه للتملحاو للدعابة او المراسلات الاخوانية ولعل ذلك بدأ في العهد المملوكي الاول ايضا . وذلك حين انتهت الحروب الصليبية وخفت وطأة الغارات التترية وضعف الحافز على الشعر .

يقول ابن دقيق العيد :

وزهّدني في الشعر أنّ سجيتي بما يستجيد الناس ليس تجود
ويأبى لي الخَتم الشريف رديّه فأطرده عن خاطري وأذود

« الأدب في العصر المملوكي ج ٢ : ١٠٦ »

ومع ان الشعراء لم يهملوا حق السلاطين الاتراك حين انتصاراتهم في النصف الاول من هذا العهد الا انهم كما قلنا قبل كانوا يحسون بالغربة والضياع وهم في

---

(١) وهذا ما جعل مجير الدين بن تميم يقول :

اطالع كل ديوان اراه ولم ازجر عن التضمين طيري
أضمّن كلَّ بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

« الأدب المملوكي ج ٢ ص ١٩١ »

اوطانهم وبين اهلهم وأمتهم . ولعل الشعور بالغربة هو الذي دفع الى التصوف والشعر الذي نظم فيه ومنه الغزل الصوفي والى المديح النبوي والى الابتهال والحنين والشكوى . وهذا ما يفسر لنا قول الشاب الظريف خلال مدحة نبوية سنأخذ بعض ابياتها حين تتناول المديح النبوي :

قومٌ همُ العَرَبُ المحميُّ جانبهمْ	فلا رعى اللهُ الا أوجُهَ العرَبِ
أعزُّ عنديَ مِن سمعي ومِن بصَري	ومِن فؤادي ومِن اهلي ومِن نسبي

« ديوان الشاب الظريف ص ٥ — ٦ »

وهذا يفسر لنا المدلول النفسي للابيات التالية التي يرويها ابن خلكان والتي تشعرنا بأن الشاعر العربي كان يحن الى مرابع الحجاز لنزعته العربية المكبوتة ورغبته في ان يكون العرب اصحاب الدولة :

وما ذاتُ طوْقٍ في فروعِ أراكةٍ	لها رَنّة تحت الدجى وصُدوحُ
ترامت بها ايدي النوى وتمكّنتْ	بها فُرقة من أهلها ونُزوح
فحلّت بِزَوْراء العراق وزُغْبها	بسَعْفانَ ثاوٍ منهمُ وطَليحُ
تحنّ إليهمْ كلّما ذرَّ شارق	وتسجعُ في جُنح الدجى وتنوح
اذا ذكرتْهمْ هيجت ذا بلابل	وكادت بمكتوم الغرام تبوح
بأبرحَ مِن وجدي لذكراكمْ متى	تألّق برقٌ او تنسّم ريح

« مملوكي ٢ : سلام : ١٠٧ »

وهو إحساس يكاد يكون عاما لدى الشعراء .

وقد بينا قبل سبب الشعور بالاغتراب ، وهو تناقض احوال الحياة : فمماليك يأتون عبيدا ثم يحكمون ويستبدون ، وصراع بين الغزاة الصليبيين والتتار وبين الوجود العربي والاسلامي ، وبؤس في كثير من الاحيان وانهيار في الحياة الاجتماعية ، وضياع في النزاع والخصومات بين السلاطين والامراء والقواد ، وروح سلبية سيطرت على الناس فهم لا يبالون بشيء ثم اهمال للقيم الدينية والخلقية فلا يحافظ عليها اكثر الناس .

وكان يرافق الاحساس بالضياع والشعور بالاغتراب حنين نفسي الى الماضي في عهد الرسالة الاوّل حين كان الايمان ينقذ المؤمن من وهدة الانحلال . ومن ذلك كان الاكثار من الحج والاهتمام به وكانت المدائح النبوية .

وقد قلّ الشعراء المحترفون وكثر الهواة في العهد المملوكي وكان كل منهم يصبغ شعره بصبغته الثقافية الخاصة فيستعمل فيه اصطلاحاتها العلمية ، وقد بدأ ذلك منذ الدور الثالث العباسي على لسان المتنبي ، ولكنه لم يكن عاما ولم يبالغ فيه ، ومن امثلته قول المتنبي :

اذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل ان تُلْقَى عليه الجوازم

« ديوان المتنبي ، شرح العكبري ، ميميته في قلعة الحدث »

غير ان المتنبي لم يكن نحويا وإنّما كان النحو من بعض ثقافته .

وكان من اثر الروح الدينية في هذا العهد الاكثار من اقتباس الآيات القرآنية في الشعر والنثر .

وكان كثير من الشعراء غير متكسبين بمدحهم او ذمهم للسلاطين او القواد وانما كانوا يعبرون عن مشاعرهم الصادقة : فحين تولى السلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) رحب الناس بتولّيه وقال ناصر الدين بن كميل المتوفى سنة ٨٤٧ هـ :

تسلطَنَ الشيخ وزال العنا والناس في بشْرٍ وتيهٍ وفَيْخ(١)

فلا تقاتِلْ بصبيٍّ ولا تَلْقَ به جيشاً وقاتِلْ بشَيْخْ

« ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢ »

وحين بنى جامعه فظلم الناس بمصادرة الدور قال احد الشعراء :

بنى جامعا لله من غير حِلّه فجاء بحمد الله غيرَ موفّق

---

(١) الفيخ من الفيخة وهي السكرجة (القاموس ، المادة فاخت) .

كمُطعِمةِ الأيتام مِن كدِّ فرْجها رُوَيْدكِ،[1] لا تزني ولا تتصدقي
« المصدر السابق جـ ٢ ص ٧ »

وقال احد الشعراء حين تولى الملك الاشرف علاء الدين كجْك السلطنة صغيرا فاضطربت احوال البلاد :

سلطانُنا اليومَ طفل والاكابرُ في خُلْف وبينهمُ الشيطانُ قد نزغا
فكيف يطمع مَن مسّته مَظلمة انْ يبلغَ السؤل والسلطانُ مابلَغا
« المصدر السابق جـ ١ : ١٧٨ »

وقالَ أحد الشعراء في الطاغية تيمورلنك الذي فتك في الناس وهو يدعي الاسلام والحمية له :

قد بُلينا بأمير ظلَم الناسَ وسبّح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبحْ

وقال احد الشعراء ينقد السلطان حسن ، من سلاطين العهد المملوكي التركي الذي اولع بالنساء واللهو والطرب والخمر :

لمّا أتى للعاديات وزُلزلتْ حفظَ النساءَ وما قرا للواقعةْ
فلأجل هذا ، المُلْكُ اضحى لم يكن وأتى القتالُ وفُصِّلت بالقارعهْ
لو عامل الرحمن فاز بكَهْفه وبنصره في عصره للسابعةْ
« المرجع نفسه ، جـ ١ : ٢٠٩ »

وكان لهذا النقد الشعبي أثر احيانا في اقصاء السلطان عن العرش •

ومن الانصاف ان نقول انّ المماليك الاتراك قد نظموا الشعر • ومنهم قطلوبك المنصوري الذي قتل سنة ٧١٦ هـ ، وكان من مماليك المنصور قلاوون ومؤاخيا لسلار ، وولي عدة اعمال كبيرة منها ولاية صفد وكان ظالما مبذرا • ومن شعره في الشيب والغزل والفخر :

---

(١) رويدك : جاءت في الاصل فليتك ويكون على ذلك في الفعل بعدها خطأ نحوي وكان يجب ان يقول لا تزنين وقد اصلحناه اعتمادا على حفظنا القديم للبيتين •

لا تنكري شيب رأسي يا مُعَنِّبتي ... ما الشيب عارٌ اذا فعلي غدا حسنا

وسائلي مِن شباب الحي حين لَقُوا ... فوارس المغل ما[1] كانوا وكنت أنا

« الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ »

ومنهم لاجين بن عبد الله الذهبي (ولد سنة ٦٥٩ هـ) • ومن شعره وقد رواه عنه البدر النابلسي وهو في الزهد والحكمة :

مِيلوا عن الدنيا ولذّاتها ... فانها ليست بمحمودَه

اِتّبعوا الحق كما ينبغي ... فانما الأنفاس معدوده

وأطيب المأكول مِن نحلةٍ ... وأفخر الملبوس مِن دُوده

« الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٧١ »

ومنهم اسماعيل بن سودكين بن عبد الله السوري المصري الحنفي ابو عبد الله ابن ابي الطاهر الجندي (٦٤٤ ـ ٧٢٧ هـ) ومن شعره وقد أنشده ابنه محمد للسبكي عن أبيه :

وهو في طيف الخيال :

أتاني مَن أُحبّ وقد قضينا ... مِن الهجران عاما ثم عاما

وحلّ لثَامه فرأيتُ بدرا ... تبدّى عند ما شقّ الغماما

وقال تمنّ بي يا من تَعَنّى ... وذاق لهجريَ الموتَ الزؤاما

فلمّا ان مددتُ اليه كفّي ... لوى عني وأَظهر لي احتشاما

وولّى وهو يمجُنُ مِن دَلال ... فأرجفني وأعدمني المناما

« الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٧ »

فهذه المقاطع تدلنا على ان هؤلاء الأمراء كانوا يهتمون بالشعر العربي ويثقّفون انفسهم به حتى يستطيعوا نظمه •

---

(١) كان في الاصل كيف مكان ما وينكسر البيت بها فاصلحناه باجتهادنا .

ومن الانصاف كذلك ان نذكر ان السلطان قانصوه الغوري (٨٥٠ ـ ٩٢٢هـ) الذي قتل في معركته ضد السلطان سليم العثماني في مرج راهط كان عالما شاعرا . ومن شعره قصيدة مدح بها العالم الشاعر احمد الفرفوري جوابا على قصيدة مدحه بها ، ومطلع الفرفوري :

لك المُلْك بالفتح المبين مخلَّدُ   لأنك بالنصر العزيز مؤيَّدُ

ومطلع الغوري :

أجاد لنا القاضي ابنُ فَرفور أحمد   مديحاً به أثني عليه وأحمد

« الكواكب السائرة جـ ١ ص ١٤١ ـ ١٤٥ »

وكان بين السلطان قايتباي وجد الغزي مؤلف « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » مطارحات شعرية ، ولكنها كانت باللغة العامية . « الكواكب السائرة جـ١ : ٢٩٨ » .

ويظهر ان سلاطين المماليك الجراكسة ومن عاصرهم من سلاطين الدول المناهضة لهم في عصرهم كانوا يهتمون بالشعر في مراسلاتهم الموجزة . من ذلك أن الشاه اسماعيل قتل صاحب هراة وولده قبرخان فبعث برأس الاب الى ملك الروم [1] السلطان سليم وبرأس الابن الى السلطان قانصوه الغوري وكتبَ الى الاول رسالة مطلعها :

نحن أناس قد غدا شأننا   حبُّ علي بنِ أبي طالبِ

يَعيبُنا الناس على حبّه   فلعنةُ الله على العائب

وكتب الى الثاني رسالة مطلعها :

السيف والخنجر ريحاننا   أفٍّ على النرجس والآسِ

وشَرابُنا مِن دم أعدائنا   وكأسُنا جمجمةُ الرأس

فردّ عليه السلطان سليم بهذين البيتين :

---

(١) يقصد بالروم في هذا العهد الترك العثمانيون .

ما عيبُكم هذا ولكنه بغضُ الذي لقِّب بالصاحب
وكِذْبُكم عنه وعن بنته فلعنةُ الله على الكاذب

وكتب الغوري اليه بمقاطيع منها قول شيخ الاسلام البرهان بن ابي شريف :

السيف والخنجر قد قصّرا عن عزمنا في شدة الباس
لو لم ينازعْ حِلمُنا بأسَنا أفنيتُ سُلْطاً سائر الناس

« الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٩٦ »

وكذلك يدل على اهتمام ملوك العصر بالشعر العربي ان السلطان سليم بن ابي يزيد (٨٧٢ - ٩٢٦ هـ) الذي استولى على مصر والشام من ايدي المماليك الجراكسة له نظم بالفارسية والرومية والعربية . منه ما ذكر القطب الهندي المكي انه رآه بخطه في الكوشك الذي بُني له بروضة المقياس بمصر ونصّه :

الملك لله مَن يظفرْ بنيل غِنى يُسلَبْهُ قسرا ومن ذا يضمَن الدرَكا
لو كان لي او لغيري قدْرُ أنملة فوق التراب لكان الامرُ مشتركا

« الكواكب السائرة للغزي ج ١ ، ٢٠٩ »

وهنا نذكر حقيقة في هذا العهد وهي اهتمام الادباء باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية لا العربية وحدها . وهذا أضعف من شأن العربية ويمكن ان يتخذ حسين بن حسن البيري مثالا على ادباء عصره في ذلك فقد ولد ببيرة الفرات ثم انتقل الى حلب وجاور بجامع الطواشي ، وولي النظر والمشيخة بمقام ابراهيم بن ادهم .

ووصفه والد نجم الدين الغزي بالامام الكبير العلامة المفتي العارف بالله تعالى وذكر انه كان له ذوق ونظم ونثر بالعربية والفارسية والتركيةُ وله رسالة في القطب والامام ، وعرّب شيئا من المثنوي عن الفارسية وشيئا من منطق الطير عن التركية ومنه :

اِسمعوا ياسادتي صوتَ اليراعْ كيف يحكي عن شكايات الوَداعْ

ومنـه :

ما ترى قطكْ حريصا قد شبعْ　　ما حوى الدرَّ الصدَفْ حتى قنِعْ

وقد نظم الشعر بالعربية ومن شعره في استحكام الطبائع :

بقايا حظوظِ النفسِ في الطبعِ أُحكمتْ　　كذلك أوصافُ الأمورِ الذميمةِ

تحيّرت في هذيْنِ والعمرُ قد مضى　　إلهي فعامِلْنا بحسنِ المَشيئةِ

« الكواكب السائرة للغزي ج ١ ، ١٨٥ »

ونلاحظ ركاكة التركيب في البيت الثاني المترجم واضطرار الشاعر الى تسكين (الصدف) ليستقيم له الوزن ، كما نلاحظ جفاف الشعر الذي نظمه في العربية وخلوّه من مقومات الشعر ما عدا الوزن والقافية • وذلك يظهر ضعفه في مستوى الأداء الفني •



أ ـ الشـــعر

مذاهب الشعر وموضوعاته وفنونه في عهود الدول المتتابعة (١) :

عرفت مذاهب أدبية مختلفة في هذه العهــود تتأرجح بين التقليد في المعــاني والاساليب والتجديد فيها على تفاوت بين الشعراء ، وتفاوت بين الموضوعات بالنسبة الى الشاعر نفسه . وبين الفريقين المقلد والمجدد جماعة أخذوا من القديم معانيه ومن الجديد اساليبه فبقوا ينظمون في الموضوعات التقليدية ولكنهم اضافوا اليها النظم في الفنون (أو القوالب) الجديدة .

وثمة فنون كانت معروفة من قبل ولكنهــا زادت نموا وشيوعا ، فقــد أدت الحروب الصليبية ثم المغولية ، مثلا ، الى الاكثــار من ادب الجهــاد والحضّ عليه ووصف الجيــوش وآلات الحرب والحصون وابراز فضائل الشجــاعة والنخوة والبطولة والتضحية ، وهي فنون شارك فيها الشعراء والكتاب معا ، وكانت معروفة من قبل ولكن العناية بها ازدادت في هذه الحقبة .

وأدت هذه الحروب ضمن عوامل اخرى ، الــى انتشار التصوف وازدهــار الادب الصوفي شعرا ونثرا .

وقد بقي الشعر العربي غنائيا برغم ان الشاهنامة قد لفتت نظر العرب في هذه الحقبة وتحدّث عنها ابن الأثير في معرض حديثه عن الاطالة في الشــعر العربي وأثنى عليها وعدها بمثابة قرآن للفرس ، وكان ابو علي بن سينا قبله قد تحدث عن الالياذة

---

(١) لنا عودة الى هذا الموضوع حين ننتهي من الفنون التقليدية والمحدثة التي قررنا دراستها .

في فصل الخطابة والشعر من كتابه « الشفاء » . وقد استغرب ابن الاثير خلو الشعر العربي من الملاحم الطويلة ، ولكن العرب لم يتزحزحوا في زمانه عن اعجابهم بأدبهم الى اقتباس غيره الا في حدود القوالب والاوزان .

على ان كاتبا حديثا عالما هو عبد الله بن كنّون من علماء المغرب نشر مقالة بعنوان « أدب الفقهاء » في مجمع اللغة العربية بدمشق (ج ٤ مجلد ٤٢ ، ص ٦٧٨) رأى فيه ان الشعر العربي لم يخل من الملاحم وان قصائد المديح النبوي الطويلة احق بوصف الملاحم من المعلقات وبعض القصص الشعبية كسيرة بني هلال وسيف ابن ذي يزن وضرب امثلة على ذلك ميمية البوصيري وهمزيته وقصيدة الوتريات للبغدادي ، وذكر ان الاجيال المتعاقبة لا تزال تتناشد هذه الملاحم التي هي اطول نفسا واكثر حوادث واغنى بصور البطولة والكفاح في إثبات الوجود العربي من تلك . ونحن نراه محقا في ذلك كل الحق .

لقد استمرت المدرسة التقليدية في سيرها ووجدت لها انصارا حافظوا على هيكل القصيدة العام ونظامها كما حافظوا على عمود الشعر المألوف ، وذلك في المشرق . اما في المغرب والاندلس فقد حاول الشعراء التخلص من القيود والاغلال في الوزن والقافية ، واهمال الاعراب ، واستخدام الالفاظ الدخيلة والعامية .

على ان المدرسة التقليدية في المشرق اذا حافظت على اصولها فانها لم تجمد على معانيها ، بل جاءت بكثير من المعاني الجديدة ، الى جانب القديمة ، متأثرة بتطور الزمن وتبدل الاحوال وطروق الاحداث من حروب وغزوات ونكبات طبيعية .

وتباين الشعراء في استخدام فنون التعبير فمال بعضهم إلى الإكثار من التورية ومراعاة الانسجام بين اجزاء الكلام ومال آخرون الى الاكثار من الطباق والجناس ، وآثر آخرون ان يولوا عنايتهم الفنون الجديدة المستحدثة ، وجمع آخرون بينها وبين الفنون التقليدية .

فأما التورية والانسجام فقد أدت الى العناية بهما اسباب عديدة فنية ودينية فمن الفنية الرغبة في الإغراب والإطراف ومن الدواعي الدينية اضطرار المسلمين

احيانا الى تأويل المشتبهات في القرآن والحديث واقوال الصحابة • وكان رجال المذاهب المختلفة يؤولون هذه المشتبهات وغيرها من الكلام بما يتلاءم مع مذاهبهم : نقل ابن حجة عن الزمخشري خلال حديثه عن التورية قوله : « ولا نرى بابا في البيان أدق والطف من هذا الباب ، ولا أنفع ، ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات » •

وكانت التورية تأتي عند القدماء عفوا،وقد استخدمها شعراء العصور العباسية وتكلفوها ولكنهم لم يتخذوا منها مذهبا خاصا •

اما في عصور الدول المتتابعة فقد تطورت التورية لولع بعضهم بها ، واصبحت مذهبا شعريا خاصا اسماه بعض النقاد الاقدمين السحر الحلال ، وجعل من لا يأخذ به مقصرا •

وقد ظهر في مذهب التورية ثلاثة اتجاهات في أزمنة متتابعة : اتجـاه القاضي الفاضل ثم اتجاه الشرف الانصاري في الشام ثم اتجاه ابن نباتة • وسنتحدث عن هذه الاتجاهات الثلاثة في كلامنـا على الاساليب بعد ان ننتهي من دراسـة بعض النصوص والموضوعات • وقد اكثر الشعراء من التورية واصبحت لهم غرضـا في ذاتها يجهدون فيها ، عقولهم ويكسونها بثوب جميل من الرمز ويمزجونها بالعاطفة •

واما مذهب التطبيق والتجنيس فانه قد اشتد عوده لدى ادباء القرن السادس شعراء وكتابا فقد اكثروا من الطباق والجناس البديعيّين متعمدين ان يكون ذلك مذهبا لهم •

ولا شك في ان هذه الفنون البديعية قد وجدت لدى العرب منذ القديم وقبل ان يترجم حنين ابن اسحاق كتب أرسطو ، وربما ترجم العرب عن اليونان ما يقابل التسميات عندهم في العربية ولكنهم لم يقتبسوا عنهم الفنون نفسها وانما اخذها ابن المعتز ، وهو أول المؤلفين فيها ، من الشعر العربي منذ اقدم عصوره وقد اسـتجد بعض هذه الفنون اثنـاء تطور الشعر العربي ووصوله الى طور التـأنق في العصر العباسـي •

لقد اتخذ بعض الشعراء الاكثار من الطباق والجناس والاستعارة مذهبـا لهم

ولكن جماعة منهم اقتصروا على الاكثار من الطباق والجناس وحدهما ، وكان العماد الكاتب احد شعراء هذا الاتجاه وقد اشار اليه في خريدته كما اشار الى كتاب « لمح الملح » لابي علي سعد الحظيري الوراق والى التجنيس في قصائـد ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي .

ومن أشـهر الشعراء التقليديين الطغـرائي وحيص بيص وابن التعـاويذي والأبيوردي الشاعر العربي وابن المقرّب الاحسائي .

ومن اشهر البديعيين عماد الدين الاصبهاني وابو بكر الأُرَّجاني (ت ٥٤٤ هـ) وابن سناء الملك .

وأما مذهب الفنون الشعرية المستحدثة ففيه اتجاهان :

الاول : يتجه الى الاوزان والثاني : الى الفنون الشعرية المستحدثة وقوالبها .

فأما التجديد في الاوزان فقد كـان في محاولة المتأخرين في العصر العبـاسي والمولّدين استنباط بحور جديدة من تفعيلات البحور الستة عشر المعروفة في العصر العباسي باستقصاء ما يتولد من دوائر هذه البحور وقد وصلوا في هذه المحاولة الى استنباط ستة بحور جديدة وهي المستطيل وهو عكس الطويل ، والممتد وهو عكس المديد ، والمتئد والمنسرد، والمتوافر والمطّرد . ووجد الى جانبها بحر سابع هو بحر السلسلة.

واما الاتجاه الثاني فقد شمل التغيير في اللغة والاعراب والوزن والقافية مع تفاوت في الدرجة والمقدار لدى الشعراء وكان ثمرة هذا التغيير تشعب فنون النظم الى سبعة وقد ذكر صفي الدين الحلي انه لا اختلاف بين أهل البلاد من مشارقة ومغاربة الا في فنين منها .

والفنون السبعة لـدى اهل المغرب ومصر والشام هي : الشـعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والمواليا ، والكان وكان ، والحمّاق .

واهل ديـار بكر والعراق ومن يليهـم من سكان المشرق يبدلون بالزجـل والحماق ، الحجازي والقوما ، وهما فنان اخترعهما اهل بغداد للغناء بهما في سحور رمضان زمن العباسيين .

وفرّق صفي الدين الحلي بين الفنون المعربة والملحونة من هذه الفنون ، فثلاثة منها ، في رأيه ، معربة لا يجوز فيها اللحن مطلقا هي : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، وثلاثة منها لا تكون إلاّ ملحونة وهي الزجل ، والكان وكان ، والقوما ومنها واحد يحتمل الاعراب واللحن،على ان اللحن يستحسن فيه وهو المواليا(العاطل الحالي للحلي ص ٧ ، و ٨) ولم يتحدث الحلي عن لغة الحمّاق والحجازي وقد ذكر ابن تغري بردي بعض هذه الفنون اثناء ترجمته لابن الخباز العامري فذكر من فنونه المواليا والكان وكان والدوبيت والبلاليق •

وكان لشيوع هذه الفنون وخاصة ما هو في اللغة العامية الصرفة او تغلب عليه العامية اثر سيء على الشعر العربي وعلى الروح العربي العام في جميع البلاد اذ ساعد على نماء اللهجات الاقليمية وأدى بالشعر الفصيح الى شيء من الكساد والضعف خلال خمسة قرون • ولا شك في ان ازدهار هذه الفنون كان على حساب الادب الفصيح •

اغراض الشعر وفنونه في تلك العهود :

عالج الشعراء في هذه العهود اغراض الشعر العربي المعروفة واخترعوا بعض الفنون وتناولوا كثيرا من المعاني المولدة في العصر العباسي وقد دعت طبيعة العصر والاحداث وتلاقي التيارات المشرقية والمغربية الى ظهور آثار في المعاني الشعرية وطوابع عامة تطبع هذه العهود بمياسمها وهي تتكون من تجمع المميزات الذاتية لمختلف الشعراء وتكوينها اطارا عاما مشتركا بينهم يعبرون فيه عن عهدهم بصدق •

وسأتحدث عن بعض هذه الاغراض والفنون لأنّ هذا الكتاب الموجز لا يتّسع لها جميعها :

وقد كان من اثر الحياة العامة في الادب ولا سيما في العهدين المملوكيين ما يلي :

أ ــ زيادة العناية بالصناعة البديعية : التورية والجناس والطباق الخ ••
ب ــ الافراط في الرقة والسهولة في العاطفة والمعاني والبحر •

جـ ـــ إيثار الرقة والسهولة في الالفاظ حتى تقارب العامية •

د ـــ وصف الحشيشة لانتشارهـا على يـد الصوفيين منذ أوائل القرن السابع الهجري •

هـ ـــ السخرية لدى المصريين ووصف الطبيعة لدى الشاميين •

و ـــ المبالغة في المعاني والصور والإكثار من استعمال القسم •

ز ـــ التلاعب بالالفاظ وبالمعاني لدى المصريين حتى اصبح سمة لهم وان كانوا قد سبقوا اليه •

غير ان من الواجب عليّ قبل ان اتحدث في الموضوعات المختارة للتناول في هذا الكتاب الموجز ألا أدع الاحكام والآراء الواردة هنا ضبابية تعمّ جميع العهود في غير دقّة على حين انها لا تنطبق الا على بعضها ، وذلك توخيا لسلامة المنهج وصحة الاحكام •

ففيما يتعلق بالاساليب نجد ان ثلاثتها التقليدي والبديعي واسلوب القوالب الحديثة قد وجدت حقا في العهد الزنكي وكان التقليدي منها استمرارا للأسلوب العربي الأصيل الذي سمّي بعمود الشعر وكان البديعي منها معبرا عن روح العصر المتكلفة ولكن العناية فيه بالطباق والجناس كانت اكثر منها بالتورية التي ظهرت في آخره على لسان القاضي الفاضل واما اسلوب القوالب الحديثة فلم يكن قد شـاع كثيرا في المشرق العربي فقد وجدت دوبيتات نظمها العماد الاصفهاني على لسـان نور الدين زنكي ودوبيتات لابن قسيم الحموي (ت ٥٤٢ هـ) ولعرقلة الدمشقي (٥٦٧ هـ) وللعدل ابن بختيار • ووجدت موشحا للتاج البَلَطي الموصلي الذي كان حيا سنة ٥٧٢ هـ مدح به القاضي الفاضل • وهذا يدل على ان الموشـح قد عرف في العراق في وقت مبكر ، ووجدت ان طلائع بن رزّيك المقتول سنة ٥٥٦ هـ قد اطلـع على بيتين في الكان وكان لاحد عوام بغداد فانشأ في معناهما شعرا تقليديا ويدل ذلك على ان هذا الفن قد عرف في العراق خلال العهد الفاطمي الزنكي ولكنه لا يدل على أنه استعمل في غيره من البلاد العربية •

وقد وجدت كذلك مسمطة لأبي المعالي بن مسلم الشروقي احد شعراء العراق في الخريدة ، ووجدت أسامة بن منقذ من الشام يسمّط بعض القصائد القديمة وبعض قصائده ، ولكنني لم اجد اثراً لبقية الفنون المستحدثة لدى شعراء هذا العهد في المشرق العربي . وقد رأيت ان بعض شعراء مصر في هذا العهد يميلون الى السهولة في الاسلوب والالفاظ ويتبين ذلك في شعر طلائع ابن رزّيك .

أما في العهد الايوبي فان هذا التقسيم يحتاج الى شيء من التعديل لان الاسلوب التقليدي لم يعد ظاهرا كل الظهور كما كان الحال في العهد السابق فقد مال اكثر الشعراء الى الاسلوب البديعي على تفاوت فيما بينهم فيه من حيث الاكثار والاقلال ومن حيث قوة الاسلوب ولينه ومن حيث جزالة الالفاظ وسهولتها فالشعراء المقلون انتاجا كالشريف الجواني مثلا كانوا اقل صنعة والشعراء في مصر كانوا بصورة عامة أسهل الفاظا واسلوبا من شعراء الشام وتزداد السهولة في شعرهم كلما قرب الشاعر من آخر هذا العهد فابن سناء الملك المصري اسهل اسلوبا من العماد الاصفهاني وابن الساعاتي وابن عُنَيْن ولكن ابن مطروح والبهاء زهير اسهل شعراً منه .

وقد اكثر شعراء مصر في هذا العهد من استعمال التورية على طريقة القاضي الفاضل الذي سهّل لهم طريقها ، كما يقول ابن حجة الحموي ، ومن اشهر من سار على طريقته الاسعد ابن ممّاتي وابن سناء الملك وابن النبيه ، ومزج شعراء الشام في هذا العهد بين طريقة العماد الاصفهاني وابن منير الطرابلسي وابن القيسراني في التطبيق والتجنيس وبين طريقة القاضي الفاضل في التورية وحققوا الانسجام بين الطريقتين .

وكان اكثر الفنون المستحدثة ظهورا في هذا العهد الموشح فقد حمل لواءه في مصر ابن سناء الملك وفي الشام محيي الدين بن عربي.ويتلوه الدوبيت الذي نظم فيه بعض الشعراء . وظهر شيء من الزجل في شعر محيي الدين بن عربي الصوفي ولكن

لم نر غيره ينظم فيه الا معاصره وقرينه في الصوفية ابن الفارض في بيتين يتيمين من الزجل • اما بقية الفنون المستحدثة فلم اجد لها أثرا بعد •

وفي اول العصر المملوكي التركي نجد الفارق كبيرا بين شعراء الشام ومصر فقد ازدادت السهولة في اسلوب الشعر المصري والفاظه حتى قرب من العامية وشاعت فيه السخرية كما هي الحال في شعر الجزار والوراق والحمامي على حين نجد الشعر في الشام اكثر جزالة ومحافظة على اصالة الشعر العربي كما هي الحال في شعر الشرف الانصاري والشهاب محمود ، على اننا نجد شعراء في الشام قد مالوا الى سهولة الاسلوب والالفاظ كالشاب الظريف في أول هذا العهد • وزاد ذلك في آخره • ونلاحظ ان الشرف الانصاري يختط لنفسه طريقة في التورية تقوم على السهولة والانسجام يسايره بها معاصروه ومن جاء بعدهم في الشام وسنشرحها عند الكلام على الاسلوب بعد كلامنا على ما سنورده من موضوعات الشعر وفنونه •

ونستطيع ان نقول بأن اسلوب الفنون المستحدثة قد شاع كثيرا في هذا العهد ونظم الشعراء في جميع انواعه كالمواليا والزجل والقوما والكان وكان والحجازي بالاضافة الى الموشح والدوبيت اللذين شاعا قبل في العهد الايوبي •

وفي العهد المملوكي الجركسي نرى الاسلوب التقليدي يقل استعماله كثيرا فتجانب الشعر القوة والجزالة ويكثر الشعراء من الفنون البديعية في شعرهم ومن نظم المقطّعات ويكثرون من استعمال العامية في الفنون المستحدثة بدءا من الموشحات ، والزجل الذي تطور عنها ، وانتهاء بالقوما والكان وكان والحجازي والحوراني •••

وهناك ظاهرة مشتركة بين هذه العهود وهو وجود أدباء جمعوا بين الكتابة والشعر نجد منهم في العهد الزنكي الفاطمي ابن قادوس وحسن بن زيد الانصاري وابن قلاقس في مصر ، والخطيب الحصكفي وأسامة بن منقذ وابراهيم الطنزي في الشام ، والحريري وسعد الوراق الحظيري والحيص بيص في العراق • وعمارة اليمني في اليمن ، وان كان نبوغه قد ظهر في مصر بخاصة •

وفي العصر الايوبي نجد منهم القاضي الفاضل والاسعد بن مماتي وابن سناء الملك في مصر والعماد الاصفهاني في الشام وهو مخضرم بين العهدين الزنكي والايوبي ، وشرف الدين الانصاري ، وهو مخضرم بين العهدين الايوبي والمملوكي التركي .

وفي العهد المملوكي التركي نجد الشهاب محمود .

وفي العهد المملوكي الجركسي نجد ابن مكانس وابن حجة الحموي وبدر الدين محمد بن علي ابن فضل الله العمري وسراج الدين عمر البلقيني وتاج الدين بن عَرَبْشاه وقنصوة الغوري ، ولكن هؤلاء الشعراء لم يكونوا في مستوى سابقيهم شعرا وكتابة .



من موضوعات النضـال

ا ـ شعر النضال

تمهيد :

هذا الشعر الذي يمثّل أبهى صورة في حياة أمّتنا منذ بدء الاحتلال الفرنجي لبعض بلادنا في أواخر القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن التاسع ، هو قسيم النثر في فن الأدب النضالي • وقد أجلنا الحديث عن قسيمه النثري حتى يأتي دوره في كلامنا على النثر جملة •

وانّما بدأنا به قبل غيره لانّه يصور كفاح أمتنا ، ورد فعلها البطولي ، أمام عدوانين كاسحين مدمرين : العدوان الفرنجي الذي سمى نفسه « الصليبي » افتئاتا على المسيح الكريم عليه السلام ودينه ، والعدوان المغولي الوحشي الذي لم يعرف معنى من معاني الانسانية • وهذا الشعر يبين مشاعر امتنا المعتدى عليها، تجاه هذين العدوانين ، واتجاهها نحو التحرير ، وتصميمها عليه ، والسبل المتنوعة التي سلكتها لذلك ، ومنها الوحدة والعلم والخلق والجـد ، والتوجيه المعنوي عن طريق الادب والفن ، والتهييج الواضح للمستقبل ، وأخذ الشاعر والكاتب دور الملتزم والمناضل الموجه المتفاعل مع آمال امته وآلامها •

وقد زادنا رغبة في تقديمه ما رأيناه من اهمال برامجنا التعليمية إيّاه في جميع مراحلها الا ما كان من بعض الاهتمام به في زمن الوحدة بين مصر وسورية ومـا بعده ، والعهد بهذا البدء قريب ، ولا يزال غير متلائم مع قيمة هذا اللون من الأدب في حياتنا ، فاننا لم نستفد بعد من جهد أجدادنا في سبيل التحرير ، ولم نسـتلهم روحهم ، ولم نطلع على الذي فعلوه لتحقيق أهدافهم •

وهذا الاهمال كان مقصودا في نظرنا ، خطط له المستعمر ، ليخفي بل ليمحو صفحة مشرقة مشرفة من صفحات نضالنا ، فلا يرى مثقفونا هذا المثل من النضـال ليحتذوه ، سلوكا في الحياة ، وأدبا في الدرس •

وهو منّا ، بعد أن حصلنا على استقلالنا ، تقصير أو كسل يحمل عليه تـرك الامور تجري على ما كانت عليه قبل ، إيثاراً للراحة من التفكير والتخطيط والبناء للحاضر والمستقبل ، أو مسايرة لحكم العادة فيما نشأنا عليه زمن الاستعمار ، ولمن أنشؤونا عليه • وقد آن لنا أن نستيقظ ، وأن نستلهم الماضي ، ولكن لا لنجمد عليه، بل لنبني على أساسه ونتقدم ، لنجاري حضارات الامم المتقدمة ، ولنسهم معها ي بناء الانسانية • ولنا من سلوكنا السابق الروحي والعلمي والتاريخي ما يشفع لنـا بتحقيق أملنا في المستقبل •

ومن أمثلة هذا الاهمال التي يدركها كل من نال حظّا من التعليم في أيّ بلد عربي أنّ أيّ مثقف منا ، إلا من رحم ربّك ، لا يحفظ نصا واحدا مما قيل في فقد القدس وغيرها من المدن العربية زمن الحروب الفرنجية ، والتتارية ، أو مما قيل في تحريرها ، وقليل منا جدا من يحفظ شيئا قليلا في نكبة بغداد ودمشق وغيرهما على أيدي التتار ، أو بعض ما قيل في صمودنا أمامهم وتصميمنا على الخـلاص منهم • وهذا من أكبر العيب والعار علينا •

وكذلك من العار علينا ألا نسترشد بما حققوه في ميادين التوجيه المعنوي ، والحفاظ على التراث العلمي والادبي في ذلك الحين ، والنهضة بالتأليف في العلوم والآداب والفنون ، وفي افتتاح المدارس والمكتبات ، فان الحرب حينئذ بيننا وبين المغيرين لم تكن حربا عسكرية فقط ، وانما كانت حربا من أسلحتهـا العلم والادب والفن والصناعة ، وكانت في جزء منها حرب دعاوة وهدم لأعصاب العدو ، ورفـع لمعنويات المواطنين • هذا الى جانب أنها كانت حرب تفوّق في الأسلحة فكثيرا مـا كان العدو الفرنجي أو التتاري يباغتنـا بأسلحة جديدة فيجيب عليه بعض علمائنـا وصنّاعنا بما يبطل خطّته وأسلحته •

وفضلا عما للاستلهام الروحي والاسترشاد الخلقي النضالي بتاريخنا وتاريخ أدبنا ، من قيمة في بعث هممنا ، فإنّنا من وجهة أدبيّة صرفة يجب أن نعرف إذا كان هذا الشعر قد قام بواجبه نحو أمّته في الظروف العصيبة ، أو تلكأ ؟ وهل كان على مستوى المسؤولية حينئذ أو كان دونها ؟ وما هو تعليل ذلك في كلا الحالين ؟

ونحن نقف من هذا الأدب موقفا سلبيّا دون دراسة وتمحيص ، فنقول انه أدب منحطّ ، ظلما وعدوانا ، ومجاراة لأقوال أعدائنا فيه ، ولنظرتهم إليه •

ونرى أنّه لا يجوز لنا أن نتهمه بالقصور والانحطاط مادام أهله قد استطاعوا أن يحرّروا بلادهم من عدوان الغزوين الكاسحين المتتابعي الموجات ، وما دمنا نحن لم نستطع أن نحرّر بلادنا من العدوان الصهيوني ومن وراءه من مؤيديه ، ومادمنا في حيز التوجيه المعنوي لم نقم بما قام به أجدادنا من الجهد الرائع المشرّف ، برغم ما وصف به من قلة الابتكار •وليس هنا الآن مجال مناقشة هذا الوصف والاتهام • واذا كنا نسمي عهود هؤلاء الاجداد عهود انحطاط فماذا نسمي عهدنا وقد كتبت علينا الذلّة والمسكنة ما دامت أراضينا محتلّة ؟!

على أننا يجب أن نتوخّى الحقيقة في دراسة هذا اللون من الشعر ، وفي دراسة غيره ، فلا نغضّ النظر عن نقائصه وعيوبه الى جانب ما نكشف من فضائله ومزاياه فليس كل ما جاء منه وفيه رائعا كما أنه ليس كلّه سيئا ساقطا •

ويجب أن نعرف ما هو خط السير في هذا الشعر ، فنرصد مراحله ونرى كيف ساير الاحداث من مرحلة الضعف والمباغتة والهزيمة التي مني بها العالم العربي الاسلامي ، الى مرحلة الوجوم التي جاءت بعدها ، الى حال اليقظة والتخطيط والتنكر للاحتلال والاعداد للتحرير في جميع مناحي الحياة العامة • وفي طليعة ذلك السعي الى توحيد البلاد ، والاهتمام بالجيش والاسطول وعدّة الحرب ، والتعاون مع الشعب والتعاطف معه ليسهم في المعارك بقلبه ودمه وماله وأبنائه ، وبالتخفيف عن كاهله من اعباء وضع غريب في الحكم والجيش والسياسة : فانّ الحكام والقوّاد كانوا من الاعاجم ، اتراكا ، أو أكرادا ، أو جراكسة ، أو تتارا ، أو منحدرين من

أصل أوربي ، وكانوا اما مغامرين سياسيين عسكريين ، أو من المماليك المشترين بمال الأمة ، المنتقلين بقوة سيوفهم من حال الرقّ الى حال السيادة والسلطان ، مما يصعب على الشعب ان يتقبله ، الا على مضض وكره . وهو الشعب المقهور على أمره الذي أبعد عن ميادين السياسة والجيش بالقوة ، ولكنه استطاع بفضل حضارته الراقية وتعاليمه السامية ، أن يصهر هذا الاجنبي الحاكم في ثقافته وأن يحوّله على مدى الزمن الى واحد منه ، منسجم معه ، له ما له وعليه ما عليه ، وأن يجعله يحسّ احساسا صادقا أنه عربي في مشاعره وآلامه وآماله وسلوكه وبنائه العقلي الروحي الخلقي . وذلك برهان على أصالة الحضارة في هذه الامة العظيمة المنكوبة .

ثم تأتي مرحلة التفوّق على العدو نتيجة لأمرين : تحوّله الى الضعف وملله من طول الحرب ، وزيادة استعداد الأمة لكفاحه وتصميمها على طرده وتحرير البلاد منه .

ثم تأتي مرحلة النوم بعد طول اليقظة والاسترخاء بعد طول التوتّر التي عاد بها الحاكم الظالم الى ظلمه والشعب المظلوم الى اجترار بؤسه وألمه وحقده واستسلامه للقضاء .

وعلينا إذا أن نستعرض بعضا من نصوص اللمحات التاريخية يمثل مختلف هذه المراحل من حياة أمتنا ، في لياليها العابسة الكالحة ، وفي أيامها الزاهية المشرقة ، تلك النصوص التي أوردناها قبل بحسب تسلسلها التاريخي ، والتي نرجو أن يرجع اليها القارىء ليتذكر ويتابع ما نحاول جلاءه من أطوار الأدب ومميّزاته خلال النصر والهزيمة ، ومن تفاعل الشعر مع الأحداث ودوره في التوجيه .

ونحبّ أن ننبّه الى أنّنا لا يمكن أن نتذوق هذه النصوص النضالية القومية الدينية السياسية التي قيلت فيعهود سالفة، ونحكم عليها أحكاما صحيحة،إلا إذا بعثنا في أذهاننا ومخيلاتنا ومشاعرنا أجواء تلك العهود ، وعشنا مع أهلها ، وتنفّسنا هواءهم وعرفنا ما يحبّون وما يكرهون ، وما كان يهدّدهم من أخطار وما كان يثير مشاعرهم من أمور . وذلك لأنّ هذه النصوص مرهونة في العادة بأوقاتها وظروفها ومفاهيمها وأذواقها التي تختلف قليلا أو كثيرا عن أوقاتنا وظروفنا ومفاهيمنا وأذواقنا . فإذا عرفنا حقيقتها بعقلنا وعشنا هذه الحتمية بروحنا وخيالنا ومشاعرنا

سهل علينا أن نعذر الشاعر على أمور كنا نلومه عليها لو أنّه كان من شعراء عصرنا ، بل ربّما لمناه لو لم يقل ذلك الذي قاله .

وقد أحببنا أنّ نقدم للقارىء دراسة أدبية للنص الأول منها ، لنلفت نظره الى ضرورة القراءة الواعية المتأمّلة المتذوقة ، الهادفة الى الحقائق ، الباحثة عن الدوافع القادرة على بعث الأجواء الماضية الاجتماعية والنفسية ، وعلى تعليل الظواهر تعليلا علميا بعيدا عن العصبيّة والهوى ، مهما كان لون القارىء المذهبي أو السياسي ، ولنذكّره بأن هذا اللون الفني الأدبي قيل في كفاح أمّة في سبيل تحريرها من مغيرين عليها ، وبأنّ من أحبّ الحرية حق الحب احترم المناضلين في سبيلها ولو كان مباينا لهم في المذهب أو العقيدة أو الجنس .

أمّا النصوص الأخرى من شعر النضال فنستعرض بعضها استعراضا سريعا موجزا نستنتج منه بعض الخصائص والأحكام الأدبية العامة ، ساعين الى اعطاء صورة كافية واضحة عن هذا الشعر الجدير بالبحث والاهتمام ، وذلك خلال كلمتنا العامة فيه .

ا ـ النص الاول الذي نتقدم الآن بدراسته لشاعر مجهول ويبدأ بقوله :

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً   يطول عليه للدين النحيب [1]

موضوع هذا النص الأسى على ما أصاب بلاد الشام واهلها من نكبة على ايدي الصليبيين الذين جاؤوا راغبين في استعمار هذه البلاد مستترين وراء الدين ، والدين منهم براء ، ثم الدعوة الى الكفاح لطردهم وتحرير البلاد المحتلة منهم .

ولا عجب في ان تنطبع الابيات بطابع الأسى والبكاء فقد كانت البلاد حين هاجمها الفرنجة ضعيفة مقسمة بين أمراء يسعون وراء مصالحهم الخاصة وكان سكانها العرب مبعدين عن مجالي الحرب والسياسة ليس لهم طول ليدفعوا عنهم أذى الاعداء وكانوا يشعرون بالغربة في بلادهم فلم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا امام الاعتداء على مقدساتهم وانفسهم ونسائهم واولادهم واموالهم ولم يكن امامهم الا ان يبكوا على مصيرهم ولكن الشاعر لم يستسلم للمصيبة وانما نراه يحاول بعث

(١) ارجع اليه في مكانه من اللمحات التاريخية ص ٣٢ .

الهمم واحياء النخوة لتتجه النفوس المستيقظة الى الجهاد وتحرر انفسها وبلادها .

والشاعر حين ينظم في هـذا الموضوع يمثل في حزنه جميع الناس ويمثل في دعوته الى الجهـاد الجماعة الواعية الموجّهة من النـاس كالعلماء والمخلصين من الامراء ورجال السياسة وليس ذلك غريبا فمن طبيعة الشعر ان يكون له دور الموجّه في مثل هذه الظروف.ومن المؤسف اننا لم نعرف من هو الشاعر ولم نعرف تبعا لذلك الطوابع التي طبعت نفسه وحياته على اننا نستطيع ان ندرك امرين بسهولة اولهما ان الشاعر يمثل في هذه الابيات ضمير أمته والآخر انه انسان متحسس بالمصيبة التي اصابتها لعظم خطر الاحتلال على الأمة في المستقبل .

وقد رأينا الطابع الديني يسيطر على الأبيات ولعل بعضنا ينقد الشـاعر بأنه يستثير التعصب الديني وذلك مالم يقل به الاسلام الذي دعا الى التسامح وقـال في الآية الكريمة : (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي) ، ولكننا اذا رجعنـا الى الظروف التي احاطت بالشاعر عند نظمها ادركنا ان الفرنجة كانوا هم البادئين باعطاء هذه الحروب طابعا دينيا فقد اسموهـا هم دون غيرهم الحـروب الصليبية وجعلوا شعارهم الصليب وهدفهم القضاء على الاسلام والمسلمين واباحوا لانفسهم قتل النفوس وهتك الاعراض دون وازع ديني او خلقي واستولوا على المساجد فحولوها الى أديرة ونصبوا على محاريبها الصلبان كما ذكر الشـاعر في قصيدته فلا عجب ان يستثير ذلك الروح الديني في نفوس المسلمين وان يتحمسوا لدينهم حماسة اعدائهم وان يعدّوا هذا الحرب حربا دينية . هذا بالاضافة الى اننا لا يجوز ان نحكم على الأبيات بروح عصرنا ، بل بروح العصر الذي قيلت فيه وروح العصر حينئذ كـانت دينية والحضارة فيه كانت قائمة على الدين مطبوعة بطابعه .

وقد كان الشاعر ابن عصره وبيئته فكان مسلما غيورا على دينه ومقدسـاته وقومه واعراضهم وعلى بلاده وخيراتها ومصالحها العاجلة والآجلة .

واذا كانت الأبيات وليـدة البيئة والعصر وظروف الحـرب المحيطة بالأمـة وبالشاعر فاننا نرى فيهـا أثر البيئة واضحا فالشـاعر يتحدث عن الكفر وبطشـه والاسلام ومصيبته والناس وما أصابهم نساء ورجالا والمقدسات وما اعتراهـا من تغير وما اعتراها من اشياء يعتبرها المسلمون تدنيسا وكفرا واستهتارا .

واذا كان الشاعر قد نظمها مستجيبا لروح الامة حوله فانه قد طبعها بطابعه فلم يكتف يذكر ما أصابها بل اضاف الى ذلك توجيه هذه الأمة الى الجهاد والتحرر .

واذا نظرنا الى الأبيات نظرة كلية وجدناها ذات طبيعة خطابية فالشاعر فيها كالخطيب يحاول ان يؤثر على نفوس السامعين في النواحي الشعورية ليجعلهم يتحسسون الموضوع الذي يتكلم فيه وينفعلون به وان يؤثر على عقولهم ليجعلهم يقتنعون بضرورة الثورة والجهاد وذلك حين بين لهم حق الاسلام عليهم ، ثم ان يؤثر اخيرا على ارادتهم فيجعلهم يتحركون الى الهدف الذي يريده وهو طرد الغاصب وتحرير البلد وأهليه .

ووجدنا للأبيات كذلك طابعا شعبيا يظهر في اسلوبها السهل وألفاظها المأنوسة بحيث يفهمها كل فرد عادي بأقصى السهولة لان هدف الشاعر هو استثارة النخوة الشعبية ودفع الشعب الى الثورة والعمل على التحرر . ومن شروط الشعر الشعبي العام السهولة والبساطة بحيث يكون قريبا من الفهم .

واذا نظرنا الى الابيات نظرة تفصيلية وجدنا انها تنقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية: القسم الاول يشمل الابيات الخمسة الأولى والشاعر فيها يصف ما حل بالاسلام وبالبلاد وبأهلها وصفا الغرض منه اثارة المشاعر اعدادا لعرض الرأي الموجه ، والقسم الثاني يشمل الأبيات الثلاثة التالية وفيها يدعو الشاعر الى التأمل في عظم المصاب والى استنكار الرضى به والسكوت عليه ، والقسم الثالث ليس فيه الا البيت الاخير وهو قمة الأبيات وفيه الهدف الذي يريد الشاعر توجيه نفوس المستمعين اليه وهو الاستجابة لداعي الله في الجهاد .

والاقسام الثلاثة مترابطة بصلة منطقية ظاهرة بينها وكل قسم منها يستدعي القسم الآخر ولو ان الشاعر ترك احدها لعدت خطته ناقصة .

يقول في القسم الاول بان الكفر بقوة جبروته وعظم استعداده قد انزل بالاسلام ذلا عظيما يستحق بكاء طويلا شديدا من الاسلام نفسه ومن أهله فحقوق المسلمين الفردية والجماعية ضائعة ودماؤهم مباحة وسيوف الفرنجة الاقوياء باطشة

يهددون بها دماء المسلمين المسفوكة وهذا هو نصيب الضعفاء المتقاعسين فما اكثر المسلمين الذين سلبت ارواحهم واموالهم واكثر المسلمات اللاتي سلبت اعراضهن وليس من منقذ او منتقم ، وما أكثر المساجد التي تحولت الى أديرة والمحاريب التي غطّيت بالصلبان وقد اصبحت دماء الخنازير تُلطّخ المساجد ، والمصاحف تحرق فيها ، وكأنّ كلاً منهما طيب يتطيب به المغيرون تشفيا وانتقاما واستهتارا وتحقيرا .

والعاطفة في هذا القسم عاطفة أسى وحسرة وغيرة وحقد وغضب على الاعداء وتلهف للخلاص من شرهم .

ولم يعن الشاعر كثيرا بالصور البيانية فيه وانما عني بالتصوير الواقعي لانه مثير في حد ذاته ولا يحتاج الى ما يقويه من الصور الخيالية او البيانية والشاعر يعرض علينا المشاهد المؤثرة واحدا بعد الآخر ولكنه يحسن انتقاءها لانه شاعر عارف بأصول فنّه حقا ، بل هو اكثر من ذلك شاعر يتكلم بقلبه فيعنى باظهار ما يؤلمه . وقد استعمل التشخيص في البيت الاول وذلك حين جعل الكفر يُحلّ الضيم بالاسلام كأنه شخص وجعل الاسلام ينتحب مما أصابه ، واطلق الكفر والاسلام وأراد بهما اهلهما على طريق المجاز المرسل .

والصورتان البيانيتان فيه اللتان جاءتا في البيت الخامس وهما تشبيه دم الخنزير بالطيب لأنس الفرنجة به وحبهم اياه ، وتشبيه رائحة حرق المصاحف برائحة البخور لهما طابع واقعي ظاهر فهما من اطيب الطيب في نفوس الفرنجة حينئذ . وقد أحسن الشاعر الموازنة بين صور الماضي والحاضر في المسجد والمحراب وما يلحق بهما ليستثير النفوس .

ونلاحظ من حيث الاسلوب ان الشاعر لم يصرّع البيت الاول مع اعتقادنا بأنه استهلّ به الأبيات وذلك لانّ العاطفة المتأججة شغلته عن الكلفة ، وان الشاعر في البيت الثاني استعمل التقسيم المعنوي الموسيقي ، وأيد بموسيقاه الداخلية موازنته بين حالي المسلمين والكافرين من الضعف والقوة ، وانه لجأ في البيتين الثالث والرابع

الى استعمال كم الخبرية للتكثير وانه قد فرّع الشطر الثـاني في البيت الرابع من الاول ، واستعمل التشبيه البليغ في كل من شطري البيت الخامس فضـلا عن ان الشطر الثاني منه تفريع عن الاول ، ووازن ما أصاب المسلم والمسلمة في البيت الثالث وجانس بين سليب وسليب في شطري البيت الثالث وردّ فيهما العجز على الصـدر وكنّى عن العرض بكلمة حرم •

ويلاحظ فيها سهولة الالفاظ وبساطة الاسلوب وقرب المعـاني وعدم تكلف الصور البيانية والفنون البديعية وقرب الأبيات من الكلام العادي مع شدة التأثير والقدرة على الايحاء وذلك لاعتماد الشاعر على الايجاز وحسن اختيار اللمحـات الفنية الموحية المؤثرة واختيار الالفاظ العاطفية المثيرة •

ويقول في القسم الثاني بان هذه المصائب لوفكر فيهن طفل متدبرا عواقبهن لشابت جوانب رأسـه من الهول فكيف تسبى النساء المسلمـات في العواصم على الحدود ويبقى أي مسلم يشعر بطيب العيش واستمراء الحياة الا انني اقسم بالله ان للدين الاسلامي حقا عليكم ايها المسلمون بان تدافعوا عنه جميعا شيبا وشبانا • وقد صور عظم المصيبة « بشيب الطفل » ليحرك المشاعر ويوجه الى القيام بالواجب • وكرر معنى سبي النسـاء في هذا القسم بعد ان ذكره في السابق لانه اكثر ما يثير النـاس •

لا نلاحظ في هذه الابيات أيّ صورة بيانية ولكن الشاعر يحسن اختيار معانيه ويحسن التعبير عنها بقوة وجمال وسهولة وينتقل من الخبر الى الانشاء ويستعمل الاستفهام الانكاري الذي يهدف الى التقريع ويقابل في المعنى بين سبي المسلمات وطيب عيش المتقاعسين ويجانس بين طفل وتطفل ويؤكد كلامه بالقسم وأما ويطابق بين شبان وشيب ولكنك تشعر بأنه لا يتكلف هذه الفنون وبأنها لم تسيء الى جمال المعاني وقوة العواطف بل تراها قد زادتها حسـنا وشاركت في ابراز المتناقضـات والمتقابلات فيها •

ومشاعر الشاعر في هذا القسم هي الاستنكار والحسرة والغضب والحماسة والرغبة في الخلاص من الحال السيئة .

والالفاظ فيه مثلها في سابقه سهلة مأنوسة موحية مؤثرة والتراكيب ليس فيها غموض والمعاني واضحة .

اما القسم الثالث فيقتصر على بيت واحد يطلب فيه من ذوي العقول في أي مكان كانوا ان يعرفوا واجبهم فيستجيبوا لداعي الله الذي هو الجهاد ونراه يؤكد على طلب الاستجابة لان طلب الجهاد يلحّ على نفسه وهو المخلّص الوحيد من المأزق . وهو انما يخاطب ذوي البصائر ليجعل من لا يستجيب بمثابة البهيمة المهملة التي لا عقل لها ولا احساس . ويستعمل لفظة التقريع (ويْحكم) ليشعر السامعين بمبلغ العار الذي يلحق بالمتقاعسين .

ونراه في هذا البيت لا يستخدم صورة بيانية ولكنه يتصور المسلمين امامه يخاطبهم ويقرّعهم ويحثهم ونراه يستعمل جمل الأمر الانشائية ويستعمل التأكيد بتكرار أجيبوا .

لقد استعمل الشاعر لأبياته البحر الوافر الذي يصلح للحماسة والحرب وأداء العواطف القوية الثائرة ، واستعمل رويّ الباء ، والباء من الحروف الصالحة للروي ، وجعلها مضمومة ليكون فيها فخامة وكانت موسيقاه الداخلية المتكونة من تآلف الكلمات فخمة قوية النبرة مناسبة للموضوع والمعاني والمشاعر المعبّر عنها . واضاف الى هذه الموسيقا الاصيلة ما رأيناه من التقسيم الموسيقي في البيت الثاني ومن تكرار اجيبوا في البيت التاسع وذلك كله زاد الموسيقا حسنا وتوفيقا .

ولهذه القصيدة كما رأيت طابعان: الرثاء والحماسة وقد امتزجا امتزاجاً طبيعيا بفضل ما لدى الشاعر من تفاؤل وقدرة على التوجيه بالاضافة الى قوة احساسه بالمصاب واذا قارناها بمثيلاتها من القصائد التي قيلت في هذا العصر كقصيدة للأبيوردي ميمية في الموضوع نفسه مثلا ، وجدناها تمتاز عليها بشيئين الايجاز الجميل غير المخل بالمعنى ، وقوة الايحاء ، ووجدناها تشترك معها في قوة التهاب العواطف

واستيفاء المعاني الضرورية والتعبير عن المراد ببساطة وعدم تعقيد الصناعة الشعرية . واذا قارناها بسابقاتها من قصائد الحماسة كقصيدة أبي تمام في عمورية وقصيدة المتنبي في قلعة الحدث ، او من قصائد الرثاء كرثاء ابن الرومي لمدينة البصرة او رثاء مسلم بن الوليد لآل البيت أو رثاء الكميت لهم وجدنا ان القصائد الاخرى الموازن بها اطول نفسا واكثر استيفاء للموضوع ولكن الأبيات التي بين ايدينا اوجز تعبيرا ووجدناها على قصرها مثلها إيحاء ، ثم وجدنا انها اكثر منها شعبية فهي ببساطة الفاظها وسهولة تراكيبها وقرب فهمها وقوة ايحائها اقرب الى ان تتفهمها العامة وتتأثر بها من تلك . ولذلك نستطيع ان ننعتها بهذه الميزة الفريدة وهي انها شعبية موجّهة .

وخلاصة رأينا فيها انها استطاعت بما فيها من شحنة عاطفية دافقة ومن معاني جيدة والفاظ مؤثرة وموسيقا موفقة ان تؤدي غرض الشاعر من التأثير في نفوسنا وان تجعلنا نحكم عليها بأنها جيدة .

ب ـ والآن نتقدم بكلمتنا العامة في شعر النضال ..

لقد استطاع هذا الشعر أن يصوّر الاحداث العامة في هذه الفترة وان يمثل عواطف الجماهير العامة وعواطف الشعراء الخاصة ، وان يعبّر عن آلام الناس وآمالهم وتطلعاتهم ومخاوفهم وقوتهم وضعفهم تعبيرا قويا يقارب بعضه شعر الفحول في العصرين العباسيين الثاني والثالث كأبي تمام والمتنبي وأبي فراس والشريف الرضي والمعري ، الا انه لم يظهر شاعر فحل في مستوى هؤلاء يغطي على غيره من الشعراء لشعور الشاعر بالغربة في وطنه لان الحاكم وجنده كانوا غريبين عن الوطن الذي يستبدون بحكمه ويضطهدون غالبا ابناءه ، فكان الشاعر يحس بفاصل بينه وبين الحاكم وجنده ويشعر في نفسه بالازدواجية ، فهو يريد ان يؤيد الحاكم لانه يحارب الفرنجة أو التتار المغيرين الذين يشعر هو بضرورة الكفاح ضدّهم ، ثم هو يريد الخلاص من الحاكم نفسه لانه غريب عنه ظالم يستبدّ غالبا بالخيرات دونه ويذلّه ويسيء اليه .

وهذه الازدواجية كانت تزول بعض الزوال حين يوجد الحاكم المحبوب الموثوق به كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وبيبرس والاشرف خليل .

ولذلك كان الشعب يشارك هؤلاء وامثالهم في معاركهم طواعية ، وكان الشعراء يعبرون عن هذه المشاعر من الحب والاعجاب والثقة ، وحين كانت توجد الثقة كنا نرى الشاعر يقوم بدور الموجه المخطط فيدعو الى تحرير مدن جديدة او الى مهاجمة الخصم في عقر داره .

ان اعتياد الشعب العربي ترك المشاركة في شؤون الحروب والسياسة جعل الشعراء انفسهم لا يقتربون كثيرا من السلاطين والحكام ومعاركهم وشؤونهم الا من كانت له علاقة رسمية بهم . وقليلون من الشعراء من حضروا المعارك لسياسة الإبعاد هذه ولذلك لم يكونوا مشاهدي عيان ومشاركين في المعارك التي يتحدثون عنها الا قليلا منهم وفي احيان قليلة . لذلك كان اكثرهم لا يعيشون الحوادث كما كان يعيشها ابو تمام ، والمتنبي بخاصة ، وهو الذي كان يشترك مع سيف الدولة في معاركه .

وكان الشعراء قسمين : اما علماء مثقفين غلب عليهم طابع الدراسة والتفكير فكانوا غالبا يقلدون النماذج التي يحفظونها ويغلب في شعرهم الجانب الفكري على الجانب العاطفي والخيالي كالعماد الأصفهاني ، واما شعراء مثقفين كابن القيسراني وابن سناء الملك والشهاب محمود . ومنهم شعراء مقلّون لا نعرف عنهم شيئا غير ابيات قالوها في احداث هامة .

وكان المفروض ان تثير الاحداث العامة ، من حروب ونكبات ، ضمير الامة العام وتخرج شاعرا فذا او شعراء وكتابا نادرين ، ولكن اعتياد البعد عن الحياة العامة قد اضعف القرائح . وقد ظهرت بعض الومضات القوية في شعر ابن القيسراني وغيره ممن عددنا اسماءهم قبل وعرضنا بعض نماذج لهم ، غير ان النكبات توالت واشتدت حتى هدمت اعصاب الناس وجعلتهم يلجؤون الى الدعاء والاستغاثة والرضا اكثر منهم الى الثورة والتمرد ، الا ما كان احيانا من ثورة بعض الاعراب . وقد

شاركت الصوفية والحشيشة في زيادة ميلهم الى الاستسلام ولا سيما في العهدين المملوكيين الاول والثاني ، ومع ذلك فقد كان شعر النضال حتى آخر العهد المملوكي الاول في مستوى جيد وقارب بعضه ، كما اسلفنا ، شعر ابي تمام والمتنبي اللذين كانا مثَلهم المنشود في كثير من الاحيان • ومن هذا الشعر القوي دالية ابن القيسراني في مدح عماد الدين زنكي حين انتصر في الرها ، وبائية الشهاب محمود في فتح عكا على يد الاشرف خليل • وباقي هذا الشعر ليس سيئا فهو يقارب شعر ابي فراس والشريف الرضي من حيث الجودة الفنية •

وقد ظهرت طوابع شخصية قوية لدى كثير من هؤلاء الشعراء وظهرت لهم ابتكارات فنية في المعاني والصور والاسلوب حين تعرضوا لتجارب جديدة كابن القيسراني الذي تعرض لخروجه من بلده مرتين والذي ادهشه جمال جديد في الثغور هو جمال الصليبيات الأشقر السافر ، فصور الحروب فيحماسياته وتغزل بالصليبيات في ثغرياته •

ويلاحظ ان الشعر في العهد الأيوبي كان استمرارا للعهد الزنكي وان العصر المملوكي الاول كان استمرار للعهد الأيوبي في مستواه ومعانيه ، وان شعراء هذه العهود الثلاثة كانوا يمزجون بين تقليد ابي تمام والمتنبي وامثالهما في الاسلوب والمعاني وبين بعض التجديد في المعاني والأخيلة ، وانهم كانوا يرددون بعض المعاني العامة نفسها ولا يختلفون الا في بعض تفصيلاتها او في زيادة شاعر بعض مانسيه الآخر •

وكان هذا الشعر غنيا بالمشاعر عبر عن الحزن والبكاء والتلهف والغضب والسخط والبغض والفرح والرضا والتفاؤل والتشاؤم والشماتة والسخرية والاعجاب والتقدير والخوف والشجاعة والانهيار ورباطة الجأش والضعف والقوة •

وتفاوت هذا الشعر في اسلوبه من حيث استعمال الفنون البديعية والصور البيانية بين الاكثار البالغ كما في شعر العماد الاصفهاني وابن القيسراني احيانا ، وبين الاقلال الذي يكاد ينعدم فيه التكلف ، كما هي الحال لدى الشعراء الذين رثوا

القدس ووفقوا في التعبير عن عواطفهم ، ولكن الصناعة البديعية الكثيرة لم تسيء الى شعر المشهورين ، كابن القيسراني ، وابن سناء الملك ، والشهاب محمود ، بل زادته حسنا ، لان قوة العواطف والافكار والأخيلة والأداء اللفظي قد غلبت على الصناعة ، كما كانت الحال في بائية أبي تمام قبلهم . ومن هذا الشعر الذي لم تسيء اليه الصناعة قصيدة ابن القيسراني الدالية في فتح الرها :

هو السيف لا يغنيك الا جلاده　　　وهل طوّق الاملاك الا نجاده

وقصيدته الرائية في فتح بعرين :

حذارِ منا وأنّى ينفع الحذرُ　　　وهي الصوارم لا تبقي ولا تذَر

ومنه بائية ابن سناء الملك في حلب حين دخلت في حكم صلاح الدين :

بدولة الترك عزت دولة العرب　　　وبابن أيوب ذلّت دولة الصلُب

ومنه قصيدته في استرداد القدس على روّي النون :

لست أدري بأيّ فتحٍ تهنا　　　يا منيل الاسلام ما قد تمنّى

ومنه قصائد الشهاب محمود الثلاث الآتية ، ولا سيما الثالثة منها :

الاولى في انتصار الظاهر بيبرس على الفرات ، ومطلعها :

سِر حيث شئت لك المهيمن جار　　　واحكم فطوعُ مُرادك الأقدارُ

والثانية في انتصار بيبرس على نهر سَيْحان ، ومطلعها :

كذا فلتكن في الله تمضي العزائم　　　والا فلا تجفو الجفون الصوارم

والثالثة في استرداد عكا آخر معقل للفرنجة على يد الاشرف خليل ، ومطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلُب　　　وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

أما الشعراء المقلّون من الصناعة الذين رثوا المدن فلم يكن لهم غرض تفعي من جائزة على المدح او مكانة لدى السلاطين وانما عبروا عن عواطفهم وعواطف الجمهور حولهم تعبيرا طبيعيا جعل شعرهم مؤثرا . وقد شمل شعر النضال الانواع التالية :

أ ـ مدح القادة المنتصرين والاشادة بانتصاراتهم •

ب ـ رثاء الابطال الذين يموتون قتلا او على فرشهم وبيان عظم الخسارة بفقدهم وذلك في قصائد مستقلة كاملة •

ج ـ رثاء المدن التي نكبت باستيلاء الأعداء عليها وارتكاب الفظائع فيها كالقدس ، او تدميرها وارتكاب الفظائع فيها كبغداد ودمشق اللتين ارتكب فيهما التتار ما ارتكبوا • ويلحق به رثاء الممالك الزائلة وقصور الملوك المهدّمة •

د ـ وصف المعارك والقلاع المحاصرة والمدن التي يستولون عليها حربا او صلحا ، وهذا الوصف يأتي ضمن قصائد المدح والاشادة ، لا مستقلاً بقصائد خاصة بـه •

وكل نوع من هذه الانواع جزء من موضوع أدبي عام ، فالاشادة بالابطال المنتصرين جزء من المدح ، ووصف المعارك جزء من الوصف ، ورثاء الابطال والمدن جزء من الرثاء •

وحديثنا عن كل نوع منها هنا يرجع الى انها جزء من شعر الاحداث العامة الذي هو شعر النضال في هذه العهود ، ولكننا يجب ألا ننسى انها اجزاء من موضوعاتها العامة واننا يجب ان نردها الى موضعها الاساسي هناك حين ندرس هذه الموضوعات بالرجوع اليها هنا لنضمها اليها في ذهننا فنستوفي اجزاء كل موضوع منها •

ا ـ مدح الأبطال والاشادة بالانتصارات

١ ـ في العهد الفاطمي ـ الزنكي ••

رأينا في هذاالموضوع :

أ ـ قصيدة ابن القيسراني في فتح الرها (هو السيف لا يغنيك الا جلاده)[1]

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٤٠ .

وهي تمتاز بتأثر الشاعر بأبي تمام وبفخامة المعاني والصور والاسلوب وبالروح الدينيةالسائدة فيها .

ب ـ بائية ابن القيسراني حين استولى نور الدين زنكي على حصن إنّب ومطلعها (هذي العزائم ..) [1] ويظهر فيها تأثره بالشاعرين المتنبي وابي تمام معا ومطلعها مقتبس من مطلعيهما . ويظهر تأثره بمعاني ابي تمام في اكثر من مكان منها فالبيت الثاني على سبيل المثال وهو :

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت   تعثّرت خلفها الأشعار والخطب

مقتبس من قول أبي تمّام :

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به   نظم من الشعر او نثر من الخطب

ج ـ قصيدة طلائع بن رزّيك الى أسامة بن منقذ ونور الدين وهي تمتاز من حيث الاسلوب بواقعية الوصف والحوادث وتفصيله وسهولة التعبير حتى لكأنه يتحدث في اكثرها حديثا عاديا ثم تمتاز بالدعوة الى تعاون مصر مع الشام على اختلاف الدولتين مذهبا وذلك لمحاربة العدو المشترك ، وبالحديث عن اعداد الاسطول للحرب وبتعزية نور الدين عن هزيمته في بغرا ، وببيان مكانته في حرب الاعداء ، وانهاض همته لاستئناف الحرب . ومطلعها : (ألا هكذا في الله تمضي العزائم ..) [2] .

٢ ـ في العهد الايوبي رأينا :

أ ـ قصيدة ابن سناء الملك في دخول حلب تحت حكم صلاح الدين وفيها يشيد بمزايا صلاح الدين وبمكانة حلب وعظم موقعها وشوق اهلها الى وحدة البلاد تحت حكمه وسنتكلم عليها ايضا حين الحديث عن قصائد الوصف النضالية ، ومطلعها : (بدولة الترك عزت دولة العرب) .. [3] .

(١) راجع ص ٤٥ .

(٢) راجع ص ٤٧ .

(٣) راجع ص ٥٤ .

ب ـ قصيدة ابن سناء الملك في فتح القدس ومطلعها (لست أدري بأي فتح تهنا ...) [1] .

والقصيدة من البحر الخفيف ورويها النون وهي جيدة الموسيقا سهلة الاسلوب والعرض واضحة الالفاظ والتراكيب تذكرنا باسلوب البحتري وموسيقاه . وهو يشيد فيها بالفتح ومكانته في الدين الاسلامي وفي السماء . ويأتي بمعنى لطيف في البيت التالي يقرر فيه ان صلاح الدين هو صاحب البيت الذي يطرد منه مغتصبيه :

تخرج الساكنين منه ورب الـ　　　بيت في بيته أحق بسكنى

وقد اقتبسه من ابن القيسراني في داليته التي درسناها :

فقل للملوك الكفر تسلم بعده　　　ممالكها ان البلاد بلاده .

وبيت ابن سناء الملك أعذب موسيقا ولكن بيت ابن القيسراني أفخم أداء .

ويبين ابن سناء الملك فيها مقام صلاح الدين في حرب الفرنجة ويصف قوة جيوشهم ليعظم من النصر عليهم . ويشير الى ان اثوابهم من الحديد المجلل لهم من الرأس الى أخمص القدم .

ويجمع بين الفخامة والسخرية بالاعداء في عدة ابيات منها :

وتصيّدتهمْ بحَلْقة صَيْد　　　تجمع الليث والغزال الأغنّا

ويسخر فيها بملوكهم الذين ظنوا انهم لن يقهروا فكذب ظنهم :

كم تمنى اللقاء حتى رآه　　　فتمنى لو أنه ما تمنى

ج ـ أبيات قاضي غزة هبة الله بن محاسن في نصر الكامل بدمياط ومطلعها :

هنيئا فان السعد جاء مخلدا　　　وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا [2]

وقد اوجز الشاعر في ابياته ولكنه استوفى موضوعه فهنأ بالفتح وأبدى فرحته

---

(1) راجع ص ٥٨ .

(2) راجع اللمحات التاريخية ص ٦٤ .

وفرحة الناس والارض بـه ووصف كثرة المواكب التي جاء الفرنجة فيهـا ودفاع المسلمين وفتكهم بأعدائهم واتخاذهم الاسرى • وفيها عاطفة دينية وتورية لطيفة في الاسماء موسى وعيسى ومحمد التي يريد بها الاخوة الثلاثة الكامل محمد والمعظم عيسى والاشرف موسى ابناء الملك العادل الذين اتحدوا معـا على حرب الفرنجة ، وفيها جناس بين عيسى المسيح وعيسى اخي الملك الكامل •

د ـ ابيات شاعر مجهول في فرحة النصر بالمنصورة وهي سهلة العبارة والأداء مألوفة الالفاظ يقرب أسلوبها الفصيح من العامية وهي من حيث المضمون سـهلة المعاني تصف الحوادث وصفا بسيطاً واقعيا وفيها روح سخرية تعبر عن روح الشعب العربي في مصر في طريقة تناول الامور والاشياء وتعتبر خطوة تقارب بين لغة المثقفين واللغة العامية واتجاها نحو الادب العامي الذي تفهمه العامة وتتذوقه ، وقمة السخرية فيها الابيات الثلاثة الاخيرة من قوله (أعاده الله من قريب الى قولـه : من كل علج وكل كافر) [1] •

هـ ـ أبيات للشاعر جمال الدين بن مطروح قالها يهدد ملك الفرنسيين حين سمع النـاس بأنه ينوي العودة الى غزو مصر ، ومطلعهـا : (قـل للفرنسيس اذا جئته ••) [2] •

وهذه الابيات لها خصائص الابيات السابقة نفسهـا التي تشترك معهـا في الموضوع وسكون الرويّ دون الوزن وحرف الرويّ نفسه ولكنها امعن منهـا في السخرية واشد ايلاما للاعداء • وقمة السخرية فيها البيتان الاخيران : (وقل لهم ان أضمروا •••) و (دار ابن لقمان على عهدها •••) ودار ابن لقمان هي التي سجن فيها ملك الفرنسيين حين أسر •

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٦٩ •

(٢) راجع ص ٧١ •

٣ ـ وفي العهد المملوكي التركي رأينا :

أ ـ شينية الشرف الانصاري في عين جالوت وقد مدح بها ملك حماة الأيوبي المنصور ومطلعها (رعت العدا فضمنت ثلّ عروشها ...) [١] وقد غاب فيها ذكر قطز وبيبرس . ولم تكن هذه القصيدة في مستوى قصائد النضال السابقة ولا في مستوى قصائد الشهاب محمود اللاحقة في جميع عناصر الشعر من معنى وعاطفة وخيال واسلوب كما انها ليست مستوفية الخطة الضرورية لها . وغياب ذكر قطز فيها يدل على ان الشاعر كان يداري بيبرس او يخافه ولا يعطي لكل ذي حق حقه ولا يقول كل ما يعرف في وقت كان الحكم فيه للسيف . وهكذا غبنت هذه المعركة الحاسمة وغبن بطلها حقهما . وليس المسؤول عن ذلك الشرف الانصاري وحده بل جميع الشعراء الذين عاصروا المعركة . وهذا يدل على مدى تأثير اشخاص الحكام في مسيرة الادب حينئذ ولاسيما النضالي منه .

ب ـ ومن المؤسف انه لم يبق لنا مما قيل في بطل عين جالوت الا بعض ابيات ، وذلك على جلال هذه المعركة وكونها لا تقل عن كبار المعارك في تاريخنا كحطين واليرموك والقادسية بل لعلها كانت اعظم شأنا لانها اوقفت استمرار اكبر كارثة في التاريخ العربي . منها الابيات الاربعة التي قالها شاعر دمشقي مجهول حين دخل قطز دمشق ولكنها لا توفيه حتى بعض حقه وهي تبدأ بالبيت (هلك الكفر في الشآم جميعا ...) [٢] ومنها بيتا المؤرخ أبي شامة :

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدّد شملهم ... ولكل شيء آفة من جنسه

وعلى الرغم من اشادة البيتين بقطز واظهارهما الاعجاب به فان الشطر الاخير فيه الشيء الكثير من الحفيظة على الترك والشعور باستبدادهم في البلاد فقد جعلهم الشاعر آفة من جنس آفة التتار وذلك يدل على ألم ممض عميق في نفسه منهم لا

(١) راجع ص ٧٤ .

(٢) راجع ص ٧٥ .

يخففه الا انهم يدافعون عن البلاد امام من هو اسوأ منهم . وهذا هو معنى الازدواجية في نفوس شعراء هذا العصر الذي اشرنا اليه في المقدمة .

جـ ـ قصيدة الشهاب محمود في نصر بيبرس على نهر جيحان ومطلعها (كذا فلتكن في الله تمضي العزائم ...) [1] وقد تأثر في هذا المطلع بمطلع المتنبي في قلعة الحدث (على قدر أهل العزم ...) وبمطلع طلائع بن رزّيك المتأثر بدوره بمطلع المتنبي (ألا هكذا في الله تمضي العزائم ...) .

وفي قصيدة الشهاب معان وصور جديدة منها قوله :

عزائم حاذتها الرياح فأصبحت مخلّفة تبكي عليها الغمائم

وقد اعجب بهذه الصورة فكررها في البائية التي قالها في فتح عكا والتي سنذكّر بها قريبا . ومن هذه الصور الجديدة :

بجيشٍ تظلّ الارض منه كأنها على سعة الارجاء في الضيق خاتم

ومنها :

جلا حين أقذى ناظر الكفر للهدى ثغورا بكى الشيطان وهي بواسم

ويشيد بالترك في حالتي السلم والحرب :

من الترك أما في المغاني فانهم شموس وأما في الوغىْ فضراغم

ولم تخل من صور ساخرة ولكنها قاسية تتناول العدو من عل وتأتي في اسلوب فخم : [illegible]

فأهَوْوا الى لثم الأسنة في الوغى [illegible] كأنهم العشاقُ وهي المباسم

وصافحت البيضُ الصّفاح رقابَهم وعانقت السمرَ القدودُ النواعم

وقد اقتبسها من المتنبي استاذه ومثله الاعلى الذي يقول في سيف الدولة :

اما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللمم

وهذه الصورة المقتبسة مثل لكثير من الصور الحربية التي اقتبسها الشهاب محمود عن المتنبي في هذه القصيدة .

---

(1) راجع اللمحات التاريخية ص ٧٩ .

د ــ قصيدة الشهاب محمــود في المنصور قلاوون حين فتــح حصن المرقب ومطلعها (الله اكبر هذا النصر والظفر ...) [1] .

المطلع موفق لم يتأثر فيه بأحد ولكن اكثر معانيه في الابيات مقتبس من شعراء قدماء أو قريبي العهد من الشاعر ومثال ذلك البيت الثالث :

فانهض وسر واملك الدنيا فقد نحلت   شوقــا منابرهــا وارتاحت السرر

فقد اقتبس معناه من ابن القيسراني في قوله :

فانهض الى المسجد الاقصى بذي لجَب   يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقِب

واقتبس صورته من قول البحتري :

ولو ان مشتاقــا تكلف فــوق مــا   في وسـعه لسعـى إليــك المنبــر

وقد رأينا أنه جاء باحتراس جميل خلالها في قوله :

وكيف يسمو اليها من تأخر عــن   اسعاده منجداك القَدْر والقَــدَر

فقد ضم فيه المقدرة والمكانة الى القدَر ولو اكتفى بالقدر وحده لصار المعنى هجــاء .

ومن صوره اللطيفة في الابيات قوله يعبّر عن اخــلاق الممدوح التي فيهــا النقيضان القوة واللطف :

لها وان اشبهت لطف النسيم سرى   معنى الله اصف لا تبقي ولا تــذر

هـ ــ ولعل اروع قصائد شهاب الدين محمود بائيّته في مدح الملك الاشرف حين نصره في عكا ومطلعها :

الحمــد لله زالــت دولــة الصلـُب   وعزّ بالترك دين المصطفى العربي [2]

وهذا المطلع مقتبس من مطلع ابن سناء الملك في ضمّ صلاح الدين مدينة حلب إليه وهو :

بدولة التــرك عزّت دولة العــرب   وبابن أيوّب ذلّت دولــة الصلـُب

---

(1) راجع اللمحات التاريخية ص ٨٥ .
(2) راجع ص ٨٦ .

وقصيدة الشهاب محمود هذه أكمل قصائد النضال خطّة ومعاني وصورا ، فقد استوعبت ما يمكن أن يقال في هذا الفتح ولم تهمل أيّ معنى رئيسي •

وقد اختار لها وزن أبي تمّام ورويّه في بائيته ووصف فيها استعصاء عكّا على الفاتحين قبل الأشرف خليل ووصف قوّة الدفاع عنها بالسيوف والرماح والدروع والمجانيق بخاصة وصفاً فيه روح أبي تمّام والمتنبّي معاً واستمدّ من معانيهما وصوّرهما كثيرا ، ولكنّه أضاف الى ذلك شيئا من روحه وروح عصره ، وذلك بذكره النبيّ الذي بارك الأشرف خليل وبذكر الكعبة :

وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قُرَب

فقرّ عيناً بهذا الفتح وابتهجت ... بفتحه الكعبة الغرّاء في الحجُب

ففي هذين البيتين روح البوصيري التي تمثل روح عصره الدينية •

وجاء بصور جديدة ممزوجة بصور قديمة في انسجام وتناغم جميلين ، منها :

وخاضت البِيض في بحر الدماء وما ... أبدت مِن البِيض الا ساق مختضب

وخاض زرقُ القنا في زرق أعينهم ... كأنها شُطُن تهوي الى قُلُب

توقدت وهي تروى في نحورهم ... فزادها الريّ في الاشراق واللهب

أجرت الى البحر بحرا من دمائهم ... فراح كالراح اذ غرقاه كالحبَب

فالصور في الابيات الاربعة جديدة ما عدا صورتين : الشطن الهاوية الى القلُب والبحر من دماء الاعداء ، فهما قديمتان وقد اخذ الاولى من قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

وتكررت الثانية لدى شعراء كثيرين ، منهم في العهود التي ندرسها ابن سناء الملك في قوله :

وجرت منهم الدماء بحارا ... فجرت فوقها الجزائر سفنا

ثم وصف استجابة عكا للممدوح مشبهاً لها بغادة لانت عريكتها له وحثه على فتح الدنيا كلها فانّه لن يقف امامه شيء بعد هذا الفتح ووصف حرب المجانيق بين الفريقين وأتى بصورة ساحرة منها غناء السيوف في الاعناق وتطييب الاسوار بدم

الاعداء واعتقال معاقل الاعداء لهم ، وما حل بالمدينة من حريق وختم القصيدة بالدعاء للممدوح ولم يفخر بشعره هنا كما فعل في بعض قصائد اخرى .

ويلاحظ على قصائد الاشادة بالابطال في الادوار الثلاثة الاولى : الزنكي ـ الفاطمي ، والايوبي والمملوكي انها تشترك في مزج المعاني القديمة التقليدية والصور المألوفة بمعاني وصور جديدة وفي محاكاتها لقصائد الفحول السابقين كأبي تمام والمتنبي ، على تفاوت في مستوى الاجادة بين الشعراء من جهة وبين قصائد الشاعر نفسه ، من جهة اخرى .

ولم يكن التفاوت بين الشعراء بسبب تقدم بعضهم زمنا وتأخر الآخرين منهم فان تأخر العصر المملوكي الاول عن العهد الزنكي لم يجعل شعر الشهاب محمود دون شعر ابن القيسراني وكل ما في الأمر انه اقتبس ممن اقتبس منهم ابن القيسراني وزاد فاقتبس منه ومن الشعراء الذين جاؤوا حتى زمنه .

ومع ذلك فاننا نرى ان تكلف الصناعة البديعية كان اكثر ظهورا لدى ابن القيسراني ومعاصريه منه لدى شعراء العصر الايوبي كابن سناء الملك وابن مطروح ولدى شعراء العهد المملوكي كالشهاب محمود والشرف الانصاري .

ونرى ان شعر النضال لدى شعراء الشام كان اكثر فخامة منه لدى شعراء مصر ولكن شعراء مصر كانوا ألين اسلوبا واجمل موسيقا بحيث قاربت موسيقا ابن سناء الملك احدهم موسيقا البحتري . كذلك نلاحظ ان الشعراء المصريين وتراكيبهم اقرب الى السهولة والوضوح وانهم اقل تكلفا للمعاني والصور البعيدة وقد رأينا ان نص ابن مطروح ، والنص الآخر قبله ، في الملك لويس التاسع كانا من السهولة بحيث قاربا العامية واصبحا من الشعر الجماهيري الشعبي .

ونرى ان الروح المصرية الساخرة قد ظهرت في هذين النصين وقد أخذت فيهما السخرية طابع النكتة ولم يخل الشعر الشامي من السخرية ولكنها كانت قاسية ، روح الجد فيها تغلب على روح النكتة والاضحاك ، وقد يكون هذان النصان

ارهاصا بما سيتلوهما بعد في مصر من الاتجاه الى الشعر العامي ذي الطابع السهل في جميع عناصره •

ونلاحظ اخيرا اننا لم نجد في الدور المملوكي الثاني قصائد تشيد بالابطال المنتصرين وذلك راجع الى عدم وجود هؤلاء الابطال فيه فقد رأينا أن تيمور لنك قد هاجم فيه الشام وارتكب فيه الفظائع ولم يجد من يقف امامه • وقد جاء جيش المماليك من مصر بقيادة السلطان فرج بن برقوق ولكنه انهزم أمامه هزيمة منكرة وفرّ فرج الى مصر ليجمع جيشا جديدا ولم ينقذه من تيمور الا اضطرار هذا الى الرجوع الى بغداد لقيام فتن وراءه • وما وجدناه من الشعر ضمن رسالة جوابية على تيمور هو تهديد لا اشادة •

وقد نال برسباي احد سلاطين هذا العهد انتصارات في بعض جزر البحر الابيض كقبرص ورودس ولكننا لم نر شعرا يشيد به حتى الآن ولم نستوف البحث بعد في جميع مراجع هذا الدور استيفاء يقطع بعدم وجود مثل هذا الشعر • وذلك تقصير نعترف به ونعد بتلافيه • وقد يكون فقدان هذا الشعر اذا كان واقعا حقا راجعا الى ان العالم العربي قد ادركه التعب بعد الغزوين الكبيرين غزو الفرنجة وغزو التتار فخمدت فيه قرائح الشعراء في جملة أشياء قد خمدت فيه من حياته العامة على اننا نعتبر هذا القول ظنيا لا مسلما قاطعا • لا سيما حين تتمثل أمامنا مقدمة ابن خلدون التي كان فيها عبقريا مجددا في العلم حق التجديد •

خطة قصائد البطولة :

ويلاحظ على قصائد العهود الثلاثة الاولى التي تشيد بالابطال ان القصائد الطويلة منها بخاصة تشترك في خطتها العامة ، وهذه الخطة تشمل العناصر التالية :

١ ــ الاشادة بالفتح وبالفاتح وبيان مكانتهما في حياة الامة والاسلام وان الفاتح يعمل لله لا لنفسه وبأن له عزيمة ماضية لا تضارعها اية عزيمة اخرى •

٢ ــ تهنئة المسلمين بالنصر الذي رفع عنهم الذل وأعزّهم وأذلّ اعداءهم الكافرين ويرافقها الروح الدينية المتحمسة التي أذكتها هذه الحروب •

٣ ــ تصوير حالة المدينة حين كانت خاضعة للعدو وكيف كانت تنتظر الخلاص ، وتصوير المعركة امامها او حولها ، ومدى شدتها ، وصدود المدينة او القلعة ثم استجابتها ، واحيانا ذكر قيمة الخدعة في الحرب الى جانب القوة •

٤ ــ وصف القلعة إذا كانت هي المهاجمة ووصف الحرب حولها بالفرسان والسيوف والرماح ووصف حرب المجانيق بين الفريقين •

٥ ــ وصف استعصاء المدينة على الفاتحين من قبل واستجابتها للقائد الظافر ، لجعل الملك الممدوح خيرا من سابقيه •

٦ ــ وصف فرح الناس بالنصر وتعميم ذلك على الجمادات بتشخيصها واسباغ المشاعر عليها •

٧ ــ بيان ان الاعداء لم يعد لهم مفرّ او انهم قد قضي عليهم قضاء مبرما وبادوا عن آخرهم •

٨ ــ التفاؤل بانتصارات قادمة والتوجيه الى خطة العمل المستقبلة •

٩ ــ ختام القصيدة بالدعاء او بالاشادة بالفتح والفاتح •

١٠ ــ قد يضيف الشاعر الى ذلك فخره بشعره وان الشعر مهما سما مقصر عن تأدية الفتح والفاتح حقهما من الشكر •

وليست خطط جميع قصائد النضال كاملة كهذه الخطة ، واكثر القصائد استكمالا لها قيلت في العهد المملوكي الاول وهي قصيدة الشهاب محمود في فتح عكا ويليها في الكمال قصيدة ابن سناء الملك في فتح القدس ونصر حطين وهي من العهد الايوبي ، ويمكن ان تقاس خطة كل قصيدة من قصائد النضال السابقة بهذه الخطة الكاملة لتبيان ما فيها من نقص •

رثاء الأبطال :

رأينا في هذا الموضوع عدّة قصائد :

١ ــ منها في العهد الزنكي الايوبي :

أ ــ أبيات الحكيم المغربي في رثاء عماد الدين زنكي ومطلعها (عين لا تذخري المدامع

وابكي •••) [1] • وهي ابيـات صادقة العاطفة موفقة يستبكي بهـا عينه ويشيد بشجاعة المتوفى ومكانته ويكره الدنيا التي لا أمان لها ويتمنى الموت ويستهين بكل خطب بعد الشهيد ويأسى على أنه لم يستكمل خطته في استعادة البلاد وتوحيدها •

ب ـ رثاء أبي يعلى التميمي في عماد الدين [2] ولم يكن موفقا كله لان بعض معانيه تناول العبرة بما أصابه وتحوّل حاله من القوة والغنى والمال والعزّة الى الموت ، وكان تركيز الشاعر على ذلك اكثر من تركيزه على بيان حزنه وخسارة الامة بفقده وكأنه شامت يفرح بأنه لم يكن ملكا فيهلك كما هلك عماد الدين :

فايـاك لا تغبط مليكـا بملكـه ودعه فان الدهر لا شـك قاصمه
وقل للذي يبني الحصون لحفظـه رويدك ما تبني فدهـرك هادمـه

فما أبقى بعد هذا الكلام للشامتين ، وكلامه ليس صحيحا لأن من لم يكـن ملكاً فانه لا ينجو من الموت أيضا • والفرق بين الفريقين أن عمـاد الدين وأمثـاله يموتون شجعاناً أعزّة على حين يموت غيرهم جبناء أذلة • وأبو يعلى في هذه الأبيات إما أنّه حزين على المتوفى أراد أن يبكيه فخـانه التوفيق ، أو حاسد شامت يبدي الاعتبار بموت انسان يكرهه ، ونرجح الاحتمال الاول •

ج ـ مرثية العماد الأصفهاني لنور الدين زنكي [3] وفيها عاطفة قوية ، شخصية من جهة ، لعلاقته بالمتوفى ، وعامة من جهة أخرى ، لمشاركته جماهير الناس فيهـا • وهي مستوفية للمعاني مستقصية لها لا تكاد تترك معنى من معاني الرثاء الا جاءت به وقـد ذكرت مآثر المتوفى وجلائل أعماله وسيرته مع الناس ، وفي الجهـاد لنصرة الاسلام ورفع شـأنه ، ومطلعها (الدين في ظلم لغيبة نوره •••) •

ونراه يأتي فيها بسلسلة من الابيات يصدرها بمن ومن ومن على طريقة زهير :

مـن للمساجد والمدارس بانيـاً لله طوعـاً مـن خلوص ضميـره

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٤٢ •
(٢) راجع ص ٤٢ •
(٣) راجع ص ٥٠ •

ويستغل أكثر من مرة لقب نور الدين فيستهل مطلعه بأنه نور الدين حقاً وكأنه لا نور له سواه بياناً لعظم المصيبة بفقده ، ثم يعيد المعنى بقوله : (ما كنت أحسب نور دين محمد يخبو ...) .

وقد بيّن خلو مكانه باستعراض ما كان يقوم به من أعمال جليلة يرعى بها مصالح الناس ومنها استعراض الجيش واقامة العدل ، ويبدي أسفه على أنه مات قبل ان يحقق أمنيته في فتح القدس وكأنه آثر لقاء ربه على لقاء الناس الذين ليس لهم مثل همته في تحرير البلاد .

والقصيدة فخمة المعاني والصور والمشاعر والأسلوب ولكن غلب عليها التقليد والاقتباس من نصوص الأدب السابقة ونعتقد أن اطالته البالغة فيها قد أضعفت من نفحتها العاطفية الصادقة وانه لو أوجز واختار اللمحات الموحية دون غيرها لكان أكثر اجادة وقدرة فنية .

ولا شك في أن موهبة العماد في الشعر أضعف منها في التأليف والنثر ، كما لا شك في أن طابع الاستقصاء العلمي قد غلب عليه وحبذا لو غلب عليه طابع حسن الانتقاء الفني .

٢ – ورايننا في العصر الأيوبي :

مرثية العماد الاصفهاني في صلاح الدين الأيوبي[١] . وهي تمتاز بما امتازت به مرثيته في نور الدين زنكي من طول النفس واستقصاء المعاني والصور التقليدية التي قيلت قبله وفي ترتيب المعاني والصور وفق خطة مدروسة ترتيباً يدل على عقل علمي .

وهو يستبدل بالتساؤل بمن في المرثية السابقة التساؤل بأين في هذه المرثية كقوله:

أين الـذي شرف الزمـان بفضله   وسمت عـلى الفضـلاء تشريفاته

غير أنه لا يستغني عن من فهو يكرر التساؤل بها عن معاني متنوعة .

وتدور معانيه فيها حول الاشادة بصلاح الدين وأعماله العظيمة في كل الميادين ونراه يبالغ في بعض المعاني والصور كقوله :

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٦٥ .

ما كنت اعلـم ان طـودا شامخـا يهـوي ولا تهـوي بنا مهواتـه

وهو ينظر الى قول المتنبي راثياً :

خرجـوا بـه ولكـل باك حولـه صعقات موسى حين دُكَّ الطـور

ولكن عاطفته فيها صادقة فنية برغم ضعف نفحته الشعرية وقدرته على الايحاء لتفكيره العلمي وعدم قدرته على الابتكار .

ولعله كان على صلاح الدين أكثر منه لوعة على نور الدين ولكننا رأيناه يتمنى الموت حين رثى نور الدين ولا نراه يتمناه حين رثى صلاح الدين . ونجـد أنه يكرر في رثائه معنى جاء به في رثاء نور الدين ولعله جديد عنده وهو أن المتوفى قد ضجر من الأحياء ورغب في لقاء ربه وذلك في قوله :

أضجرت منا أم أنفت فلـم تكـن ممـن تصـاب لشـدة ضجراتـه

وربما ترك لنا أن ندرك ضجره من الحياة بعد صلاح الدين من قوله بأنه يعز عليه ألا يرى وجهه بعـد ذلك .

ومن مميزاته في هذه المرثية أنه أحسَّ بعدم الوفاق بين أبنـاء صلاح الدين من بعده فوجّه اليهم في آخر القصيدة نصيحته اليهم بالتزام خطة أبيهم في كل شيء :

لا تقتـدوا الا بسـنة فضلـه لتطيب في مهـد النعيـم سِناتـه

لقد ذكرْنا الآن بمراثي درسناها من العهدين الزنكي ــ الفاطمي والأيوبي ، ونلاحظ أننا لم نجـد مراثي تستحق الذكر في أبطـال العهدين المملوكيين الاول والثاني[1] ، إما لعـدم استيفائنا المراجع وتقصيرنا ، وإما لأن السلطان كان يخلفه سلطان جديد يغتصب الملك منه أو من ابنه فليس من المعقول في ذلك العهـد الذي يقوم الحكم فيـه على السيف أن يرثي الشاعر السلطان السابق فيغضب السلطان اللاحق لا سيما وانه لم يكن يربطه به مبدأ أو جهاد في سبيل مثل أعلى ، بل وظيفـة كتابية يتقلّدهـا .

(1) كل ما وجدناه مقطوعتان في رثاء الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر ولكمال الدين ابن العطار وبيتان للاول ، ثم بعض أبيات في رثاء النـاصر محمد بن قلاوون رجّحنا أنها قديمة في رثاء أخ لاخيه .

وقد يكون لذلك سبب آخر هو ضعف المودة بين الشعب والحكام في هـذين العهدين أكثر منه في العهدين السابقين : الزنكي ـ الفاطمي ، والأيوبي •

ولنا ملاحظة أخـرى هي أن المراثي التي قيلت في الابطـال كانت متقاربة في المستوى الفني ما عدا مرثية أبي يعلى في عماد الدين التي كانت سيئة ولا عجب فمن جهة كان راثي نور الدين وصلاح الدين واحدا وهو عماد الدين زنكي ومن جهـة ثانية كان العهد الأيوبي استمراراً للعهد الزنكي ـ الفاطمي •

ج ـ رثـــاء المـــدن :

رأينا في هـذا الموضوع قصائد كثيرة :

١ ـ منها في العهد الفاطمي ـ الزنكي :

قصيدة أحد الشعراء المجهولين حين استولى الفرنجة على المدن العربية وقتلوا ونهبوا وحولوا المساجد الى كنائس ، وهي تعبر عن الحـزن وتدعو الى الدفـاع والتحرير ومطلعها (أحل الكفر بالاسلام ضيماً) • وقد درسناها دراسة وافية (راجع ص ٣٢ ثم ص ٢٠٦) •

٢ ـ ومنها في العهد الأيوبي :

أ ـ قصيدة شهاب الدين بن المجاور في رثاء القدس حين أسلمها الملكان الكامل والأشرف موسى الى الفرنجة متآمرين على ابن أخيهما الناصر داود معهم ، ومطلعها : (أعيني لا ترقي من العبرات)[١] • وفيها لوعة صادقة وشعور بوحدة البلاد المقدسة وتشخيص لها واشراك للنبي في قبره بالأسى على تسليم المدينة وعلى خيانة الكامل لأهلها وتمجيد للقدس وبيان لمكانتها الدينية العظيمة وأسى على تشتيت أهلهـا ، وتقريع شديد للمتآمرين وتذكير لهم بأن مجدهم جـاء بفضل مساعي صلاح الدين المجيدة التي يكادون يهدمونها • ويضمن في آخـر الأبيات بيت دعبل الخزاعي : (مدارس آيات خلت من تلاوة) تضميناً موفقاً جميلا يخلع على قصيدته الجلال •

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٦٥ .

ب ــ أبيات لشاعر مجهول في رثاء القدس حين زارها خلال هدنة مع الصليبيين بعد استيلائهم عليها في المرة الثانية : مررت على القدس الشريف مسلّماً ... [1]

وفيها يأسى على ما أصاب عمرانها من تغير وبلى ويأسى على ذكرياته فيما ويبدي حزنه الشديد حين رأى أحد الفرنجة يهدم بعض أبنيتها ــ وكأن التاريخ اليوم يعيد نفسه في هذه الناحية أيضا ــ ويفديها بنفسه مظهراً عاطفــة دينية صادقة يتوخى أن يشاركه فيها جميع المسلمين .

٣ ــ **ومنها في العهد المملوكي الاول** رثاء بغــداد حين نكبها المغول للشيخ تقي الدين اسماعيل التنوخي ومطلعها (لسائل لدمع عن بغداد أخبار ...) [2]

ويمتاز هــذا الرثاء بحرارة العاطفة وقوة التأثير لصدوره من القلب ، وبروعة التصوير الذي شارك في الايحاء بهول المصيبة ومثّلها للسامعين . وهــو يلمس فيه مواقع الأنفة والغيرة من نفوس الناس فيتحدث عن هتك الأعراض وقتل بني العباس ويبرز عظم المصيبة بهلاكهم وبتدمير بغداد ويجعل ذلك من علامات يوم القيــامة ، ويثير المشاعر الدينية والنخوة بوصفه نساء آل البيت وقد أخذ نسبايا ويتمنى لو أنه هلك مع الهالكين ، ولكن القدر أبقاه ليتألم ، والأبيات دمعة قلب وحرقة كبد .

٤ ــ ومنها ابيات في وصف هجوم القراصنة الفرنجة على ثغر الإسكندرية (٣) .

٥ ــ ومنها في العهد المملوكي الثاني مرثية بهاء الدين البهــائي في دمشق حين نكبها التتار بقيادة غازان سنة ٨٠٣هـ ومطلعها : (لهفي على تلك البروج وحسنها... الحــدثان) . [4]

وهذه المرثية ليست في مستوى المراثي السابقة جودة ، ولا نستطيع أن نعمم ما نراه فيها على شعر الاحداث في العهد الذي وجدت فيه لأننا لم ندرس منه غيرها ، ولذلك نكتفي بملاحظاتنا العامة عليها .

---

(١) راجع ص ٦٦ .
(٢) راجع ص ٧١ .
(٣) راجع ص ٨٥ ــ ٨٦ .
(٤) راجع ص ٩٠ ــ ٩١ .

فالشاعر يبكي المدن الثلاث دمشق وحماة وحلب لما أصابها على أيدي التتار ويعدد ما أصاب هذه المدن محاولا استثارة العواطف دون نجاح ، لفقدانه النفحة الشعرية ولوضعه بعض الصور في غير مكانها دون مبرر فني وهو لا يثير الحزن على الرغم من عظم المصيبة ولا يثير الإعجاب بشعره .

ومن صوره الضعيفة التي تجعلنا نبتسم ولا نتأثر قوله : وتبدل الغزلان بالثيران، وقوله : أعروسنا لك أسوة بحماتنا ، وقوله : حزني على الشقراء قبل حماتنا واقتباسه شطر المتنبي (هو أول وهي المحل الثاني) وقوله : لا تدعي الأحزان يا شقراءنا ... فالموقف موقف حزن وليس موقف غزل لتستعمل فيه الالفاظ والمعاني الغزلية وليس موقف شماتة بعدوّ لتحمل هذه الالفاظ على السخرية والتهكم .

وفي القصيدة تعابير ركيكة كما في البيت الثالث (وشكا الحريق فؤادها ...) وكاستعماله اللولو بالتخفيف كما تستعمله العامة مكان اللؤلؤ بالهمز وقوله (فقلوبهم في الفتك صخر لا أبو سفيان) .

وبين الأبيات والجمل في القصيدة ضعف ارتباط .

ونحن لا نشك في صـدق عاطفته فهو يرثي مدينة دمشق العزيزة عليه وبعض بلاده ولكننا نؤمن بعجزه عن التعبير عما في نفسه لأن موهبته الشعرية ضعيفة حاول أن يعوّض عنها بثقافته ومحفوظاته فخاب .

ولعل ازدياد بعد الشعب عن الحياة العامة من حرب وسياسة وانفصاله عـن حكامه الغرباء وشعوره بالغربة في وطنه للظلم والقهر المحيقين به وكثرة المصائب التي ألمت به ، قد أضعفت ملكات الشعراء وجعلتهم ينصرفون عن الجد الى اللهو وعـن الرفيع من الأمور الى التافه . ولكن هذا الحكم لا نلقي به على أنه قاطع وانما نقوله على سبيل الظن والاحتمال لقـلة ما اطّلعنـا عليه وما درسناه من الشعر النضالي في هـذا العهـد .

ونلاحظ مما أسلفنا أن رثاء المدن في العهـد المملوكي الثاني قد انحـدر عن المستوى الذي كان عليه في العهود الثلاثة السابقة . هذا إذا جاز لنا أن نحكم عليه

بالشاهد الوحيد الذي درسناه . ويلاحظ على هـذا الشاهد أنه واقعي في أفكاره ومشاعره وصوره ولغته وأسلوبه وأنه يقرب جداً من المستوى العامي في أسـلوبه وألفاظه ، ولكن الألفاظ لا تؤدي فيه أحياناً المضمون الـذي يريده صاحبه لضعفه في الأداء .

ونرجو أن يتاح لنا حكم أحسن على هذا الشعر حين تتوافر لنا نماذج كثيرة منه في مختلف أنواع الأحداث العـامة .

وأما رثاء المـدن في العهود الثلاثة السابقة فهي متقاربة المستوى من حيث أداء العواطف والأفكار والأخيلة ومن حيث الاسلوب اللفظي والخطـة ، ولكننا نلاحظ ظهور الخطأ النحوي في رثاء بغداد (سبيوا) وهو في مستهل العهد المملوكي الأول ، غير أن مثل هذا الخطأ قد وقع في رثاء القدس لشهاب الدين بن المجاور في العهـد الأيوبي (العـالي ، نواح ينحن) فلا نستطيع أن نقول بأنه سمة من سمات العهـد المملوكي الأول . وقد يكون هذا الخطأ لسهو من الشاعر نفسه أو لضعفه في النحو أو التحريف من النسّاخ .

ويلحق برثاء المدن رثاء الممالك والدول أو رثاء بعض آثارهـا أو آثار ملوكها ومن ذلك : رثاء عمارة اليمني للدولة الفاطمية ورثاء القاضي الفاضل لقصر العـزيز ابن صلاح الدين .

د ـ وصف المعـارك :

رأينا في هـذا الموضوع قصائد كثيرة :

١ ـ منها في العهد الفاطمي الزنكي :

وصف سير الجيش من مصر الى فلسطين ووصف معركته مع الفرنجة في ميمية طلائع بن رزيّك التي مطلعها : (ألا هكذا في الله تمضي العزائم...) وذلك في قوله :

تذرنا مسير الجيش في صفر فما انـ ـثنى نصفه حتى اثنى وهو غانم[١]

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٤٨ .

الى قـــوله :

نقتّلهم بالـــرأي طـــوراً وتـــارة ... يدوسهم منّــا المــذاكي الصلادم

وهذا الوصف يمتاز بالواقعية والبساطة كقوله في مسير الجيش في الحرّ :

يهجّـــر والعصفور في قعـــر وكـــره ... ويســـري الى الأعـــداء والليل نائـــم

ب ــ ومنها في العهد الأيوبي :

أ ــ قصيدة ابن سناء الملك في وصف حلب حين دانت لصلاح الدين صلحــاً ومطلعها : (بدولة الترك عزت دولة العرب ... الصلب) [1] .

وهو يبيّن فيها مكانة حلب في أرض الشام من حيث الموقع والاستعداد لنزال الخصم ، وميلها الى صلاح الدين وســـوء حالتها السياسية قبله من حيث حكمهـــا بالخصيان والصبية الصغار ، ويصف رفعة الممدوح ورفعة المدينة ويجعل ضمها اليه فتح الفتوح ويجعله مغيثاً منجداً لهـــا ولدولة الخلافة .

وفي القصيدة نفحة شعرية جيدة ومشاعر صادقة وأداء قوي ومعـــان مستوفاة مناسبة للموضوع وصور قوية شخّص بها المدينة وجعلها كالعاشق لصلاح الدين .

وقد أشاد فيها بالترك ولم ينس قومه العرب ، وأشار الى ضعف هؤلاء الحربي السياسي حينئذ اشارة لطيفة . ولعله أراد بدولتهم دولة الخلافة في بغداد أو دولتهم التي يتوق الى وجودها . والاحتمال الأول أقرب وأقوى .

وقد جعل قصيدته على وزن بائية أبي تمام وفي رويّه نفسه وفي حركة الرويّ .

ب ــ قصيدة ابن سناء الملك في فتح القدس وفيها يصف شـــدة الأعداء وشدة الحملة عليهم والفتك بهم : وذلك من قوله :

حمـــلوا كالجبـــال عظمـــاً ولكـــن ... جعلتهـــا حمـــلات خيلك عهنـــا [1]

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٥٤ .

(٢) راجع ص : ٥٨ .

هـذا المعنى مقتبس من القرآن الكريم (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، الى قـوله الساخر بالأعـداء :

صنعتْ فيهـمْ وليمـةَ عـرسٍ رقـص المشـرفيّ فيهـا وغـنّى

جـ ــ ومنها في العهد المملوكي الاول :

بائية الشهاب محمود في استيلاء الأشرف خليل على عكا (٢) . وفي هذه البائية جـاء أكمل وصف للمعارك رأيناه في قصائد الاشادة بالابطال التي رأيناها . وقـد جـاء موزعاً في عـدة أماكن منهـا .

فقد وصف موقع عكا الحصين ووسائل الدفاع عنها وما أحـاط بها من فرسان يدافعون عنها بسيوفهم ورماحهم وما كانت تلقيـه مجانيق أسوارها من حجـارة ، ووصف مفاجأة الأشرف خليل لها وذلك من قوله (سوران بر وبحر حول ساحتها) الى قوله الى قوله (لم ترض همته ...) .

ثم وصف المعركة حولها قبل أن ترمى بالمنجنيقات وذلك من قوله (وخاضت البيض في بحـر الدماء حتى قوله ــ فراح كالراح اذ غرقاه كالحبب) . ثـم وصف حصارها بجيوش كالسيول لاشتراك الشعب مـع الجيش في الحصار ، والتراشق بالمجانيق بين المهاجمين والمحاصرين. وذلك من قوله : (وجئتها بجيوش كالسيول..) الى قوله (فاستغفلتهم ولم تطلق ، ولم تهب) .

وقد وردت في بعض صوره سخرية لاذعة قاسية بالأعـداء كغناء البيض في الأعناق وارتقاص الأبراج تحت حجارة المجانيق وتطييب الأسوار بدم الأعـداء ، واعتقال المعاقل للأعداء الذين احتموا بهـا .

ويلاحظ أن قصائد العهود الثلاثة في وصف المعارك متقاربة جودة وفخـامة ولكن خيرها في نظرنا بائية الشهاب محمود في عكا فهي أسهبها وصفاً وأحسنها أداء على الرغم من تأخر عهـدها .

---

(١) راجع ص ٨١ ــ ٨٢ .

د ــ ولم نجد حتى الآن وصفا للمعارك في العهد المملوكي الثاني ، إمـا لعـدم وجوده فعلا وعـدم اهتمام شعراء ذلك العهد به لعدم وجود أبطال منتصرين في هذا العهد ، الا ما نعلمه من استيلاء برسباي على بعض جزر البحر المتوسط التي كانت تهدد سواحل الشام ومصر ، وإما لتقصيرنا نحن عن استيفاء المراجع .

عناصر الشعر الأساسية في شعر النضال .

معروف أن عناصر الشعر الأساسية أربعة : التأثير والتفكير والتصوير والتعبير فلنحاول الكلام على كل عنصر منها مكتفين بقبسات :

ا ــ التأثير :

سادت العاطفة الدينية في هذا الشعر كله بجميع أنواعه وكانت هي الموجّه العام لجميع المشاعر من حب واعجاب وكره وسخرية واشفاق وحزن ويكفي أن نأخـذ قصيدة كدالية ابن القيسراني أو بائية الشهاب محمود لنجد أمثلة عليها ونكتفي من ذلك بمثالين الاول في الاعتزاز بنصر عماد الدين زنكي لأنه شد من أزر الاسـلام وأعـزه وهو من الدالية :

سمت قبة الاسـلام فخـراً بِطَـوله ... ولم يـك يسمو الدين لولا عمـاده

والثاني في الاشادة بنصر صلاح الدين في حطين واسترداد القـدس واظهـار الاعجاب به والفرحة بالفتح ومشاركة الناس جميعهم في الفرحة وهو هذان البيتان من أبيات محمد بن أسعد الحلبي المشهور بالجوّاني المصري : (١)

قـد جـاء نصر الله والفتـح الذي ... وُعد الرسولُ فسبّحوا واستغفروا
مـن كان هـذا فتحـه لمحمـد ... ماذا يقـال لـه وماذا يذكـر ؟

ب ــ التفكير :

ذكرنا أن المعاني القديمة غلبت على الجديدة في قصائد الاحداث العـامة ولا حاجة لتعدادها أو ذكر بعضها ويكفي الرجوع الى احـدى القصائد التي أوردناها

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٥٧ .

للاستشهاد عليها ، أما الجديدة فمنها على سبيل المثال هذا المعنى الطريف لابن القيسراني:

فقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها ان البلاد بلاده

وهذا المعنى القديم الجديد لابن القيسراني كذلك وفيه يشبه القلوب التي شكتها الرماح ، فعلقت بها ، وشربت منها بالآبار التي ينتزح منها الماء وقد استعملة قبلُ عنترة لصدر حصانه في المعركة وحده ولكنّ الشاعر هنا جعل الصورة جماعية فخمة مرعبة للعدوّ ، وجعل القلوب نفسها آباراً للدم .

وللأسنة عما في صدورهم مَصادرٌ أقلوب تلك أم قُلُبُ

وهذا المعنى أيضاً وفيه يشبه الدماء بالثياب المعوّضة عن الثياب المسلوبة :

أجسادهم في ثياب من دمائهم مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا

وهذا المعنى الذي يوجّه فيه الى فتح القدس :

فانهض الى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقَب

وقد اقتبسه بعض الشعراء بعده عنه .

ومن المعاني المستجدة في وصف المعارك خلال العصر الأيوبي قول الجَوّاني المصري في فتح القدس وقد استمده من قسمي الشعر والنثر في ثقافته وهو :

نثر ونظم طعنه وضرابه فالرمح ينظم والمهند ينثر

ومن المعاني المستجدة في العصر المملوكي ما أشرنا اليه قبل من قول الشهاب محمود في بائيته متحدثاً عن الفتك بالفرنجة :

وخاض زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطَن تهوي الى قُلُب
توقّدت وهي تَروَى في نحورهم فزادها الريّ في الإشراق واللهب
أجرت الى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح اذ غرقاه كالحَبَب

ومنها للشهاب محمود في وصف أخلاق السلطان قلاوون بالقوة واللطف معا :

لها وإن أشبهت لطف النسيم سُرىً معنى العواصف لا تُبقي ولا تذَر

ومن معاني هذه العهود ماستمد من البيئة والحياة الدينية الاجتماعية كهذا البيت لأبي حكيم المغربي :

فاسكبوا فوق قبره ماء ورد   وانضحوه بزعفران ومسك

ومن المعاني التي تداولها هذا العهد معنى سبق اليه أبو تمام في بائيته وهو تشبيه المدينة المفتتحة بالفتاة البكر التي كانت تستعصي على الرجال قبل ثم لانت لأحدهم وهو في وصف عمورية :

بكر فما افترعتها كف حادثة   ولا ترقت اليها همة النوب

وقد جاء به ابن القيسراني في نصر بارين :

والسيف مفترع أبكار أنفسهم   ومن هنالك قيل الصارم الذكر

وكان هذا المعنى حينئذ مستساغاً ولا نستسيغه اليوم .

ج - التصوير :

غلبت الصور القديمة على الجديدة في شعر النضال ومن هذه الصور القديمة على سبيل المثال قول ابن القيسراني في رأس الابرنس المقتول التي حملت على رمح الى حلب :

عجبت للصعدة السمراء مثمرة   برأسه ان إثمار القنا عجب

وهي مقتبسة من خطبة الحجاج : « اني لأرى رؤوساً قد أينعت ، وحان قطافها » ، غير أن ابن القيسراني قد عدل في الصورة .

ومن الصور الفخمة التي اقتبست من القديم ي العهد الزنكي الفاطمي وأدخل عليها بعض التجديد قول ابن القيسراني في وصف المعركة :

والنبل كالوبل هطال وليس له   سوى القسي وأيدٍ فوقها سحب

والجديد فيها هو جعل القسي والأيدي التي تطلق السهام كالسحب .

ومما جمع بين القديم في الصورة البيانية وأضاف اليها جديدا من الصناعة البديعية قول ابن القيسراني في نور الدين زنكي :

ضـربت كبشهم منهـــا بقاصمـة   أودى بها الصلب وانحطت بها الصلُب

فاستعمال الكبش للقائد مقتبس من الجاهلية ومنه قول عمرو بن مَعدي كرب :

فـازلتُ كبشهمُ ولـــم   أر من نزال الكبش بُدّا

والجناس بين الصلب (أسفل الظهـر والصلُب ج صليب) من أثر الصناعة البديعية في عصره ثم هو من أثر العداوة بين المتقاتلين المختلفين في الدين مما جعلـه يجعل الصلبان رمزاً للصليبيين المهاجمين •

ومن الصور المستجدة في العهد الأيوبي قول محمد بن أسعد الحلبي الجواني المصري في خيل صلاح الدين التي كانت تتعثر في المعركة برؤوس الأعداء مع احتراس الشاعر من اصابتها بالعـرج :

تمشي على جثث العدا عُرْجا ولا   عَـرَجٌ بهـا لكنهـا تتعثـر

ومن الصور الجـديدة البديعة فيه قول ابن سناء الملك في فتـح القـدس ونصر حطـين :

وتصيدتهـم بحلقـة صيـد   تجمَع الليث والغـزال الأغنّـا

وجرت منهم الدمـاء بحـارا   فجرت فوقهـا الجـزائر سـفنا

صنعت فيهم وليمـة عـرس   رقـص المشرفي فيهـا وغـنّى

ومنها قول الجواني المصري مستمدا صورته من ثقافته الدينية العربية :

غاراتـه جمـع فان خطبت لـه   فيهـا السيوف فكل هـام منبـر

ومن الصور الجديدة في العهـد المملوكي الاول قول الشريف الانصاري في عـين جالوت :

بعـين جالوت خضت بحـر وغىً   يخـال فلكا بالأسـد مشـحونا

والجديد هو ماجاء في الشطر الثاني أما ما جاء في الشطر الاول فانه قديم :

ومنه قول الشرف الأنصاري أيضا في واقعة عين جالوت ومدح المنصور الأيوبي :

أقـدمت مقتحمـاً عـلى نشّابهـا   تكسو الجياد رياشها من ريشها[1]

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٧٤ .

فكأنهـــا بالنبـل مـن نشابهـا   أهـدت إليـك لآلـئاً من كيشهـا

فقد جعل الجياد تكتسي من ريش السهام التي تنغرز فيها رياشاً وجعل المنصور يقدم مقتحما النبل وكأن هذا النبل لآلىء مهداة من كنانات الأعداء .

ومن أروع الصور الجديدة الواقعية في هـذا العهـد قول محمد بن يوسف المهمندار في معركة الفرات يصور سرعة اجتياز بيبرس الفرات مع جنده الى الأعداء :

لمـا سـبقنا أسـهما طاشـت لنـا   منهـم الينـا بالخيـول الضمّر(١)

لـم يفتحوا للـرمي منهـم أعينـا   حتى كُحِلْنَ بكل لَدْنٍ أسْـمر

فقد جعل فرسان بيبرس يسبقون سهام الأعداء اليهم فلم يكد هؤلاء يسددون سهامهم اليهم حتى سبقوهم فعبروا الفرات وكحلوا أعينهم برماحهم قبل أن يفتحوها لإطلاق السهام وهذا ينظر الى قول أحدهم في الاعتبار والتأسّي :

ما بـين طرفـة عـين وانتباهتهـا   يغيّـر الله من حـال الـى حـال

والصورة خيالية ظاهرة المبالغة ولكنهـا حسنة الدلالة على السرعة الشديدة المباغتــة .

ومن صور هـذا الشاعر الجديدة قوله في وصف سيف بيبرس :

ذهب العجاج مـع النجيع بصقلـه   فكأنـه في غمــده لـم يشهـر

ومن الصور الجميلة التي قيلت في معركة الفرات قول الموفّق عبد الله بن عمر الأنصاري في الملك الظاهر بيبرس :

الملـك الظـاهـر سـلطاننـا   نفـديـه بالأمـوال والأهـل

اقتحـم المـاء ليطفـي بـه   حـرارة القـلب مـن المغـل

ومن الصور الجميلة التي فيهـا جزئيات متكاملة قـول الشهاب محمود في معـركة الفـرات :

لمـا تراقصت الرؤوس وحـرّكت   مِن مطـربات قسيّك الأوتـارُ

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٧٧ .

خضتَ الفـراتَ بسابحٍ أقصى منى هـوج الصَّبـا مِن نعـله آثـار
حملتكَ أمـواج الفرات ومن رأى بحـراً سـواكَ تُقِلّـه الأنهـار
رشّت دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطِرْ منهم على الجيش السعيد غبـار

فهذه الصورة العامة قد ربط الشاعر بين جزئياتها حتى جعلها منسجمة متناغمة فحين غنت أوتار الأقواس تراقصت على نغماتهـا رؤوس الأعداء وحينئذ خاض الممدوح الفرات بفرس جريه كالسباحة . وهو لسرعته تتمنى الرياح الشرقية الهائجة لو تلحق بآثار نعله لقد حملتك أمواج الفرات وأنت تخوضها ومن أعجب العجب أن يحملك النهر وأنت البحر ولم يسمع من قبل ببحر تحمله الأنهار . لقد رشت دمـاء الأعداء تراب المعركة فلم يتصاعد شيء من الغبار على جيشك المظفر السعيد .

ويلاحظ في هذا التصوير العام للمعركة ان الشاعر مزج فيه بين الصور الواقعية والصور البيانية الخيالية ووفق في هذا المزج .

وقد يأتي في صور الشاعـر بعض مـا نستقبحه فقد جـاء في شينية الشرف الانصاري هذا البيت في خطاب الملك المنصور الايوبي :

فرشت حماة لوطء نعلك خدّهـا فوطئت عينَ الشمس مِن مفروشها

فنحن نستحسن الشطر الثاني منه الذي يشبّه فيه مدينة حماة بعين الشمس رفعة وعزّة ، ولكننا لا نستحسن الشطر الاول الذي يجعل حماة تفرش خدها ليطأه المنصور بنعله .

وفي العهد المملوكي الثاني نجد الصور في القصيدة النضـالية الوحيدة التي درسناها فيه وهي مرثية البهائي في دمشق وحماة وحلب فقد وضعها الشاعر في غير امكنتها ولم يوفق بها ومثالها قوله :

أعروسـنا لـك أسـوة بحماتنـا في ذا المصـاب فأنتمـا أختـان

وقوله :

لأنت عيونـك بالدمـوع ملونـا دمعـا حكى اللولو مع المرجـان

الاسلوب اللفظي :

تأثر هذا الشعر بالذوق العام الذي كان يميل الى الصناعة البديعية في هـذه العهود ولكن العاطفة وأداء المعاني والصور لم تسمح للشاعر بانيجري وراء التكلف الى الغاية التي وصل اليها كتاب الدواوين في المراسلات الرسمية وكثيرا مـا كانت الصناعة تقلّ حتى لتكاد تختفي او يوفق الشاعر فيها فتظهر طبيعية لا تجـور على المعنـى .

ومما جاء من الصناعة خلال العهد الزنكي ــ الفاطمي في شعر النضـال على سبيل المثال لا الحصر ، الجناس في قول ابن القيسراني :

مدينة افك منـذ خمسـين حجـة　　　يفلّ حديـد الهنـد عنهـا حداده

والمقابلة في قوله :

الى أين يا أسرى الضلالة بعـده　　　لقد ذلّ غاويكـم وعـزّ رشـاده

والتقسيم الموسيقي في قول الشاعر المجهول صاحب البائية في القدس :

فحـق ضـائع ودم مبـاح　　　وسـيف قـاطع ودم صـبيب

ويلاحظ في هذا البيت الترصيع الى جـانب التقسيم وذلك في قوله ضـائع وقـاطع .

ومما جـاء من الصناعة البديعية في شعر النضال خلال العهد الأيوبي :

الاقتباس في قول محمد بن اسعد الحلبي الجواني المصري :

قد جـاء نصر الله والفتح الـذي　　　وعد الرسـول فسبحوا واستغفروا

يا يوسـف الصديق انت لفتحهـا　　　فاروقهـا عمـر الامـام الأطهـر

وذلك من الآية : (اذا جاء نصر الله والفتح) ومن جزء من آية : (يوسـف ، ايها الصديق) .

ومن الطباق السهل قول ابن سناء الملك في فتح القدس :

قـد ملكت البـلاد شرقا وغربـا　　　وحـويت الآفـاق سـهلا وحزنـا

واغتدى الوصف في علاك حسـيرا　　　اي لفـظ يقـال او اي معنـى

ومن الصناعة البديعة في العهد المملوكي الأول :

الجناس الجميل في قول ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني الذي كان حاضرا معركة الفرات مع بيبرس :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

وقد تركز هذا الجناس غير التام في كل من البيتين بين القافية والكلمة التي قبلها . ويلاحظ في البيتين ايضا لزوم مالا يلزم .

ومن اقتباس الشهاب محمود الجيد في وصف امواج الفرات :

وتقطّعت فرقا ولم يك طودها اذ ذاك الا جيشك الجرار (١)

فهو من الآية : (فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

ومن اجمل الجمع والتفريق (اللف والنشر) قول الشهاب محمود في نصر بيبرس على الفرات :

شكرت مساعيك المعاقلُ والورى والتربُ والآساد والأطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم وسقيت تلك وعمَّ ذا الإيسار

ومن التقسيم الجميل قول محمد بن يوسف المهمندار في معركة الفرات :

وقد اطرخمّ الأمر واحتدم الوغى ووهى الجبان وساء ظنّ المجتري

ولكن كلمة اطرخم الغريبة عنا قد أساءت الى البيت ، وان كانت من حيث موسيقاها جيدة للدلالة على اختلاط الأمر وشدته .

وقد لاحظنا خلال دراستنا لقصائد النضال أن الصناعة البيانية لم تكن تتعقد مع تقدم الزمن بل كان بعضها من بعض بدءاً من العهد الزنكي الفاطمي وانتهاء بالعهد المملوكي الاول ولكنا في العهد المملوكي الثاني لاحظنا أن الشاعر بهاء الدين

---

(١) راجع اللمحات التاريخية ص ٧٧ .

البهائي لم يضع فنونه الصناعية في المواضع المناسبة لهـا جواً وعاطفة ومعنى فقـد استعمل مراعاة النظير مثلا في بيته :

أعروسـنا لـك أسـوة بحماتنـا في ذا المصـاب فأنتمـا أختـان

وهذه الاستعارة في تشبيه المدينة المصابة بالعروس مع التورية باسم الحمـاة أم الزوج قاصداً بها مدينة حماة ليست خفيفة الظل في مثل هذه الكارثة التي ألمت بالبلاد وليست مما يستحسن • وقس على ذلـك كثيرا من فنون الصناعة البديعية التي أوردهـا •

الأوزان والقوافي :

رأينا تأثر كثير من شعراء النضال ببائية أبي تمام وميمية المتنبي ولا سيما البائية فقد جاروها وزناً ورويا • وبعضهم احتفظ بحركة رويها كابن سناء الملك والشهاب محمود • وبعضهم حرك الروي بحركة أخرى كابن القيسراني •

ومن التأثر بالقدماء في هذه الناحية أبيات لابن منير الطرابلسي مطلعها :

فـدتك الملـوكُ وأيامهـا ودام لنقضـك ابرامهـا

فقد تأثر فيها بوزن أبي العتاهية في بيتين على روي اللام له وهما في الخليفـة المهـدي :

أتتـه الخـلافـة منقـادة اليـه تجـرّر أذيالهـا
فلـم تـك تصلـح إلا لـه ولـم يـك يصلح إلا لهـا

وقد رأينا من عيوب القافية ما يسمى بالايطاء وهو تكرار القافية في بيتين بينهما أقل من سبعة أبيات وذلك في أبيات أبي حكيم المغربي التي يرثي بها عماد الدين زنكي فقد كرر كلمة زنكي كما رأينا في بيتين ليس بينهما الا ثلاثة أبيات ، على أننا نحكم على الأبيات كما وصلت الينا ولا ندري اذا كانت في الأصل على غـير ذلك •

وقـد استعمل الشعراء وزن الدوبيت في الشعر النضالي ومن ذلك ما نظمه العماد الأصفهاني على لسان نور الدين زنكي [1] •

---

(١) من هذه الدوبيتات قوله :

للغزو نشـاطي وإليه طربـي ما لي في العيش غيره من أرب
بالجدّ وبالجهـاد نجح الطلب والراحة مستودعـة في التعب

الفاظ شعر النضال وتراكيبه :

جاءت ألفاظ بعض هذا الشعر سهلة مأنوسة وكذلك تراكيبه بحيث يفهمها أبناء الشعب غير المثقفين بسهولة ومن ذلك الأبيات البائية في رثاء القدس والأبيات الرائية والحائية التي قيلت في تهديد لويس التاسع ملك فرنسا والسخرية به وجاءت ألفاظ بعضه الآخر وتراكيبه رصينة تحتاج الى ثقافة لغوية نحوية في فهمها وتوجه الشاعر بهـا الى الملك الذي يمدحه والى جماعة المثقفين وذلك في مثل دالية ابن القيسراني وقصيدة ابن سناء الملك على النون وبائية الشهاب محمود في عكا . وكلا النوعين يعـد موفقاً في لغته لأن الشاعر جعلها ملائمة للجماعة التي يريد أن يكلمها فوافق بهـا مقتضى الحـال .

ومن ملاحظاتنا على الألفاظ أن الشعراء كانوا يستعملون أحياناً ألفاظاً قاسية في الحديث عن الأعـداء ومنها على سبيل المثـال ما جـاء في البيتين التاليين لابن قسيم الحموي :

ألم تـر أن كلب الـروم لمـا ... تبـين أنـه الملـك الرحيـم

وكذلك :

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي ... أزحت به مافي الجناحين من نبـل

وما جـاء في بيت ابن القيـسراني :

لقـد كان في فتح الرهـاء دلالـة ... على غـير ما عنـد العلوج اعتقاده

فالعلوج : ج علج وهي تطلق على غير العربي في حالة العداء والحرب والتحقير، ومعناها عبد القن من الأعاجم ، وجاءت هذه الالفاظ في رائية المنصورة :

ويستريح المسيـح منهـم ... من كـل علج وكـل كافـر

ومن ملاحظاتنا على الألفاظ كذلك استعمال بعض الشعراء مصطلحات فقهيـة كما في البيت التالي لابن القيسراني :

وأصبح الذين لا عينـاً ولا أثـراً ... يخـاف والكفـر لا عين ولا أثـر

ومما لاحظناه وقوع بعض الشعراء في أخطاء نحوية ، من ذلك ما رأيناه في بيت شهاب الدين بن المجاور في العصر الأيوبي :

فمن لي بنوّاح ينحن على الذي شجاني بأصوات لهنّ شجاة

وما رأيناه في بيت الشاعر المجهول الذي يسخر بملك الفرنسيين :

فذلك البحر تعرفوه والسيف ماض منه وحاضر

وما رأيناه في بيت لتقي الدين التنوخي من رثائه بغداد :

آل النبي وأهل العلم قد سبيوا فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ؟

ولم نجد خطأ نحوياً في شعر النضال خلال العهد الزنكي الفاطمي وانما وجدناه في العهد الأيوبي ثم المملوكي .. وقد لاحظنا استعمال بعض الشعراء ألفاظاً أعجمية شاع استعمالها لدى المماليك في شؤون السلم والحرب . ومن ذلك ما جاء في شينية الشرف الأنصاري في عين جالوت مثل الجاليش بمعنى الراية ، والشاويش بمعنى عريف الجند ، والاكديش وهو حصان الحمولة ، ويكون من أصل غير عربي أو مولّداً بين أصلين ، والكيش بمعنى الكيس أو الكنانة وربما كانت هذه الكلمة هي كلمة خيش نفسها المستعملة في عامية الشام . وقد بدأنا نرى الألفاظ الأعجمية في شعر النضال في بدء العهد المملوكي .

شعراء النضال في العهد الزنكي ـ الفاطمي :

عرف منهم في مصر ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٨هـ الذي مدح طلائع بن رزّيك حين قتل أرناط قائد الفرنجة ، والمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ الذي مدح طلائع بن رزيك بالشجاعة والإقدام في حرب الصليبين . وعرف منهم في العراق الأمير مجد العرب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ الذي مدح أبا سعيد تمرتاش لظفره على الفرنجة سنة ٥٣٤ هـ . وصلاح الدين الأبيوردي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ صاحب المرثية في القدس التي مطلعها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراحم

وعرف منهم في اليمن عمارة اليمني الذي عاش زمناً طويلا في مصر وقتل فيها سنة ٥٦٩ هـ ومدح ابن رزّيك حين انتصر على الفرنجة كما مدح صلاح الدين وأخاه توران شاه ، ولكنه تآمر مع جماعة على صلاح الدين فقتله .

وعرف منهم في الشام ابن قسيم الحموي المتوفى سنة ٥٦٢ هـ الذي مدح نور الدين زنكي . وابن القيسراني وتوفي سنة ٥٤٨ هـ وكان أكثر منه صناعة في شعره ، وعرقلة الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ الذي مدح الصالح بن رزّيك ثم صلاح الدين ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ وكان بطلا في الحروب وشاعراً كاتباً .

ويلاحظ من هذا التعداد أن الشام في هذا العهد كان أخصب في عدد الشعراء وفي مقدار انتاجهم في هذا الموضوع وبهذا كان هذا العهد في الشام عهد احياء لشعر الحماسة الذي كان قد كسدت سوقه في القرن الخامس الهجري بعض الكساد في الشام وقد يكون عهداحياء في الشام للشعر بجميع موضوعاته اذا رأينا بقية الموضوعات بعد تسير مسيرة شعر النضال .

ثم نرى أن مصر تلي الشام في الخصب ونلاحظ أن مصر في هذا العهد قد أنتجت شعراء مصريين وكان العهد بها قبل هذا العهد أن يأتيها الشعراء من خارج مصر فيمدحون أمراءها وينظمون الشعر في الموضوعات المختلفة ولذلك نعد هذا العهد عهد نهضة لشعر النضال في مصر وقد يكون عهد نهضة للشعر في جميع موضوعاته اذا سارت هذه الموضوعات مسيرة شعر النضال .

ويلي مصر العراق بشاعريه مجد الدين العامري وصلاح الدين الأبيوردي . ويلي العراق اليمن بشاعره عمارة اليمني .

ويلاحظ ان أكثر هؤلاء الشعراء عرب أقحاح معروفة أنسابهم في القبائل العربية وسبب ذلك ان العرب حين صرفوا عن شؤون السياسة والملك انصرفوا الى الشعر والعلم والتأليف .

شعراء النضال في العهد الأيوبي :

ان الذين عرفناهم من شعراء مصر الشريف الجواني (ت ٥٨٨ هـ) والأسعد بن ممّاتي (ت ٦٠٦ هـ) وابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) وابن النبيه (ت ٦١٩ هـ) وأيدمر المحيوي (ت ٦٤٧هـ) وابن مطروح (ت ٦٤٩هـ) والبهاء زهير (ت٦٥٦هـ).

ومن شعراء الشام سعادة الأعمى وقد كان حياً في أول حكم صلاح الدين وابن رواحة الحموي (ت ٥٨٥ هـ) وابن الفرّاش الذي مدح صلاح الدين ..

حصار حلب والعماد الكاتب (ت ٥٩٧ هـ) ووحيش الأسدي وكان حياً سنة ٥٧٠ هـ ونشوء الدولة بن المبارك (ت ٦٠١ هـ) وابن الساعاتي (ت ٦٠٤ هـ) وابن عنين (ت٦٣٠ هـ) •

ويلاحظ أن الشام ومصر كانا فرسي رهان في هذا الموضوع خلال العصر الأيوبي من حيث عدد الشعراء ومن حيث انتاجهم ويرجع ذلك في نظرنا لسببين : الأول ان أقاليم الشام ومصر وما يليهما من الجزيرة والعراق وليبيا والحجاز واليمن كانت تؤلف وحدة تحت حكم الأيوبيين ، بالاضافة الى وحدة المشاعر حينئذ في العالم الإسلامي ، والثاني ان الفرنجة قد حاولوا غزو مصر في الاسكندرية وفي دمياط فزاد ذلك في اندفاع المصريين في نظم شعر النضال •

وقد شارك في شعر النضال خلال هذا العهد شعراء وفدوا من شرق البلاد العربية كالعماد الأصفهاني الذي وفد من أصفهان وذكر بعضهم أن أصله عربي ، ومن شعراء النضال من أصله غير عربي كأيدمر المحيوي وهو من المماليك ، وابن الساعاتي وأصله فارسي ، ولكن يلاحظ أن أكثرهم عرب أقحاح •

شعراء النضال في العهد المملوكي الاول :

أكثر من تولى عبء شعر النضال في هذا العهد شرف الدين الأنصاري والشهاب محمود في الشام وكان الى جانبهما شعراء آخرون ولكن كان لهما الصدارة ولا سيما الشهاب محمود •

وأشهر الشعراء في مصر خلال هذا العهد ابن نباتة الذي كان يتنقل بين مصر والشام • وكان أشهر شعراء العراق صفي الدين الحلي الذي تنقل بين العراق والشام ومصر وكان ينافس ابن نباتة في المنزلة ولكن كلا الشاعرين لم يعرف بأنه شاعر نضالي على الرغم من أنهما عاصرا الملك الناصر محمد الذي كانت له معارك مع التتار في الشام ولا سيما غازان ، على أن لصفي الدين بعض الشعر يحرض به الملوك الأرتقيين في ماردين على حرب التتار وسنرى بعض شعره النضالي في ذلك حين ندرس شعره •

وتتساءل هنا عن قلة عدد شعراء النضال في هذا العهد اذا قيس بالعهود السابقة مع كثرة الشعراء الذين قالوا في الموضوعات الأخرى ولا سيما غير الجدية • أترى

كان ذلك لبعد الحاكم عـن الشعب المحكوم ومنه الشعراء أم كان لانصراف الناس الى اللهو أو التصوف أم للأمرين معـاً .

شعراء النضال في العهد المملوكي الثاني :

لم نعرف من شعراء النضال في هذا العهد الا بهـاء الدين البهائي صاحب المرثية في دمشق وحماة وحلب حين نكبها التتار وقد بينا رأينا في مستوى هـذه القصيدة قبل وأكثرنا من التساؤل عن قلة عدد شعراء النضال في هذا العهد أولا ثم عن ضعف ما رأيناه من شعر النضال ثانياً وحاولنا تعليل ذلك في أكثر من مكان فلا حاجة لاعادته هنا . ثم عرفنا بدر الدين بن علي .. ابن فضل الله العمري بما أورده من شعره خلال رسالته الجوابيةعلىتيمور التي كتبها بلسان سلطانه الملك الظاهر برقوق ، وهـو في أبياته مثل البهائي لا يرفع كثيراً من نظرتنا الى مستوى شعر النضال في هذا العهد .

موضوع المـديح :

المديح في هذه العهود ثلاثة أنواع : أ ـ المدح النبوي ب ـ المدح الذاتي أو التقليدي للعظماء والأصحاب والأقرباء ج ـ مدح الابطال في المعارك وقد درسناه خـلال شعر النضال .

١ ـ المدح النبـوي :

عوامل ازدهاره في هذه العهود :

أصبح المدح النبوي غرضاً رئيسياً منذ العصر الأيوبي ، وهو قديم منذ عصر النبي ولكن الاكثار منه هو الجديد . ولم أجـد حتى الآن مدحاً نبوياً في العهـد الفاطمي ـ الزنكي . ولكني وجدت مدحاً في آل النبي .

كانت عوامل ازدهاره كثـيرة : منها النزاع بين السلاطين ، وفساد الحيـاة الاجتماعية ، وانهيار الأوضاع الاقتصادية ، واستفحال خطر الأعداء على البلاد من الشرق والغرب ، صليبيين وتتارا ، واتخاذ الحروب الصليبية والتتارية طابعاً دينياً ـ فكان من الطبيعي أن يدافع الشعراء المسلمون عن الاسلام ومقدساته وأن يمدحوا رسوله على نحو ما نرى في ميمية البوصيري وهمزيته ، وأن يقوم علماء أصول الدين بالبرهنة على عقائد الاسلام ومناقشة عقيدة الفرنج . وقد رأينا من قبل في قصائد

المعارك الصليبية كيف كان الشعراء يدافعون عن الاسلام ويهاجمون عقائد خصومهم [1] .

دفعت هذه العوامل الناس الى الاستشفاع بالنبي شعوراً منهم بالضعف . وبعض هذه العوامل كان موجودا من قبل ، لكنها لم تكن بهذه الدرجة ولم تجتمع كلها في وقت واحد كما هو الحال في هذه العهود ، لأن العرب كانوا قبل القرن الرابع الهجري لا يزال لهم بقية مكانة في الحرب والسياسة . أما في هذه العهود فقد فقدوها إلا لماما .

بدأ الناس يستشفعون بالنبي ويتوسلون اليه ليذهب عنهم الكرب وتنكشف الغمة منذ العهد الفاطمي ــ الزنكي فقد استسلموا الى ما تأتي به المقادير بتوكل متواكلٍ لا يرافقه علو همة أو محاولة مناضلة لتغيير الواقع .

وقد شجع الفاطميون ، ومن بعدهم الأيوبيون والمماليك ، هذا الاتجاه وعنوا بالتصوف وزادوا من الاهتمام بالحج وسلكوا اليه طريقا جديدا يمر بالنيل وصعيد مصر الى ثغر عيذاب على البحر الأحمر وذلك ادّراء لخطرين : خطر الصليبيين الذين وصلوا الى خليج العقبة وبرزخ سيناء ، وخطر الأعراب ..

وقد جدد المماليك في مظاهر الانطلاق والسير الى الحج فصنعوا المحامل التي بقيت الى بداية القرن العشرين وكان يرافقها احتفالات دينية فخمة في الذهاب والإياب . وكان ذلك كله يثير عواطف الشعراء وأحاسيسهم الوجدانية الصادقة فينظمون المدائح في النبي . وقد ذكر الشرف الأنصاري في مدحة نبوية له أنه أنشدها داخل الحجرة النبوية وانها أول مدحة له في النبي (عن الأدب في الشام للدكتور موسى باشا ص ٤٠٩) .

ومن العوامل المساعدة على ازدهار النبويات شيوع التصوف وما كان له من

---

(١) يمكن الرجوع الى عدة قصائد . منها على سبيل المثال بائية الشهاب محمود في عكا التي مطلعها :

الحمد لله ذلت دولة الصلب   وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

وقد درسناها من قبل في شعر النضال . ص ٨٦ .

أثر في الناس ، وما دار حول البردة النبوية من حكايات وأحاديث ، ثم ما قام به أحد وزراء الظاهربيبرس وهو بهاء الدين بن يوحنا سنة ٦٥٩ هـ من خطة مدروسة لإثارة حماسة الناس للنبي وللديار المقدسة أو الاستفادة منها ، فقد اشترى مكاناً للآثار النبوية على النيل وأودع فيه الآثار النبوية ومنها البردة فتوافد الناس أفواجاً على المكان (بدائع الزهور لابن اياس ج ١ ، ص ٩٩) .

ازدهرت المدائح النبوية نتيجة لذلك كله ، والبوصيري وهو من شعراء العهد المملوكي أوضح مثال لازدهارها لدى شعراء مصر والشام وغيرهم ، وقد تطورت هذه المدائح حين سخّر الشعراء الفنون البديعية لهذا الغرض فظهرت البدائع النبوية وكانت ثمرة لازدهار المدائح النبوية في عصر ازدهار البديع ، ومن الشعراء من ألّفوا دواوين خاصة بمدح النبي ومن ذلك ديوان « بشرى اللبيب بذكرى الحبيب » لابن سيد الناس اليعمري و « أهنا المنائح في أسنى المدائح » للشهاب محمود بن سليمان . وهما من العهد المملوكي التركي .

وقد بقي لنا كثير من هذه المدائح بحيث يصعب حصره ، وممّن نظم في مدح الرسول علماء مثل الرحالة ابن جبير في العهد الأيوبي ، وابن بنت الأعز ، وابن دقيق العيد ، وابن الزملكاني، والحسن بن صافي الشاعر ، العالم النحوي في العهد المملوكي التركي .

وساعد عامل جديد ظهر في آخر العهد الأيوبي على ازدهار المدائح النبوية وهو ظهور نار عظيمة في المدينة كانت تضيء بالليل من مسافة بعيدة دون أن يكون لها حر ، وقد دامت أياماً وتواترت الأخبار عنها فنظمت عند ظهورها مدائح نبوية (ابن الوردي تتمة المختصر ، ج٣ ص ١٩٤ ، ١٩٥) وقد وصف سيف الدين علي بن قزعل[1] هذه النار[2] بقوله :

---

(١) واضح انه مخضرم بين العهدين الايوبي والمملوكي التركي .

(٢) يتبين من وصف هذه النار التي ظهرت قرب المدينة المنوّرة في الحجاز سنة ٦٥٤هـ ، في النجوم الزاهرة (ج ٧ ، ص ١٦ ــ ١٨) ، أنها انفجار بركاني رافقه زلزلة عظيمة وكانت المقذوفات البركانية النارية فيه تبرد فتتحول الى حجارة سوداء . وقد استغاث الناس منها بقبر النبيّ واقلعوا عن المعاصي وتقرّبوا إلى الله بالطاعات .

ولما نفى عني الكرى خبر التي ... أضاءت بأحْد ثم رضوى ويذبل
ولاح سناها من جبال قريظة ... لسكان تيما فاللوى فالعقنقل
وأخبرتَ عنها في زمانك منذرا ... بيوم عبوس قَمْطَرير مطوَّل
ستظهر نار بالحجاز مضيئة ... لأعناق عيس نحو بُصرى لمُجتل
فكانت ، كما قد قلت ، حقاً بلا مرا ... صدقتَ ، وكم كذَّبتَ كل معطّل(1)
لها شرر كالبرق لكن شهيقها ... فكالرعد عند السامع المتأمّل
وأصبح وجه الأرض كالليل كاسفاً ... وبدر الدجى في ظلمة ليس ينجلي
وأبدت من الأيام كل عجيبة ... وزلزلت الأرضون أيَّ تزلزُل

« ابن الوردي تتمة المختصر ج ٢ : ١٩٥ »

استفاد الشعراء من نار الحرّة هذه معنى جديداً أضافوه الى المعاني التقليدية التي تدور حول المدينة المنورة والحجرة الشريفة وأخبار النبي ومعجزاته ، ومنها الإسراء والمعراج . وكانوا يجعلون ذلك وسيلة للتكفير عن ذنوبهم ولرضى الله وكشف الغمة أو المرض عنهم . وربّما اتخذ الشعراء العرب المدائح النبوية وسيلة للتغني بالعرب أمام طغيان الأعاجم على شؤون السياسة والحرب ، مثال ذلك قول الشاب الظريف (٦٦١ — ٦٨٨ هـ) في نبوية له مطلعها :

أرضَ الأحبة مِن سفح ومن كُثُب ... سقاكِ منهمرُ الأنواء مِن كَثَب

والأبيات المعنيّة منها هي :

أعزّ عنديَ مِن سمعي ومن بصري ... ومِن فؤادي ومن أهلي ومِن نسبي
لهم عليَّ حقوق مذ عرفتهمُ ... كأنني بين أمٍّ منهمُ وأب
إن كان أحسنَ ما في الشعر أكذبُهُ ... فحسْن شعريَ فيهمْ غيرُ ذي كذب
يا ساكني طيبةَ الفيحاءِ هل زمَن ... يدني المحبّ لنيل الحب والأرَب
أرض مع الله عينُ الشمس تحرُسها ... فإن تَغِبْ حرستها أعين الشهب

« ديوان الشاب الظريف ص ٥ — ٦ »

---

(1) المعطّل : المنكر لصفات الله ، وهم الطائفة المعروفة بالجهمية اتباع جهم بن صفوان .

وفي الأبيات اعتزاز عربي وثورة على النفوذ الأعجمي ولم يقف الشاعر هنا فقط هذا الموقف ، بل كان يشبّب بالنساء العربيات خلافا لأهل عصره الذين أكثروا من التشبيب بالأعجميات والتتريات والتركيات .

ا ـ مدح النبيّ في العهد الأيوبي :

كان الشعراء يمدحون الخلفاء وأشراف الشيعة بصلة نسبهم بالنبي ويُضفون عليهم بعض النعوت النبوية كعظم الهيبة ونور النبوة وغض بصر الناس احتراما لهم . (ومن ذلك قصيدة لابن الساعاتي مدح بها المواقف الشريفة الإمامية الناصرة لدين الله أمير المؤمنين)[1] مطلعها :

لقد خلّف المبعوث خيرَ خليفة ... قؤولٌ لما يرضي الإلهَ فعولُ

ومنها :

ومَن كان نورُ الوحي فوق جبينه ... ثنى كلَّ طرف عنه وهو كليل

فروعٌ الى العباس تنمَى أصولها ... وما خيرُ فرع أسلمته أصول

ترى اليوم طلقاً حين يذكَر جعفرٌ ... ويسمى إليه حمزة وعقيل

له شرَفُ البيتِ العتيق وزمزمٍ ... وما ساقه حادٍ اليه عَجول

« ديوان ابن الساعاتي ١ : ٥٢ ـ ٥٣ »

وكان آل النبي في نظر شعراء السنة يمثلون العباسيين أبناء علي من فاطمة .

وكان لقصيدة بانت سعاد أثرها في هذا العصر فقد حاول شعراء كثيرون معارضتها ومنهم ابن الساعاتي (٥٣ ٥ـ ٦٠٤ هـ) الذي بقيت لنا قصيدته كاملة . بدأها بالحديث عن كثير من مشاعر الحب دون أن يستعمل الغريب ككعب ، ووصف الفراق في نفسه وبكاءه على الأطلال التي فارقها سكانها وشكا من قسوة الحبيبة ومن الفراق :

جَدّ الغرام ، وزال القالُ والقيل ... وذو الصبابة معذور ومعذول

---

(١) الخليفة العباسي في بغداد .

يا دميــة الحي ، ما حزني لفرقتكم
دعوى،ولا وجديَ العذريُّ منحول

أبكي وأنــدب رسمَيْها بكاظمــة
وفيهما لِعليــل الشــوق تعليــل

وينتقل ابن الساعاتي من الغزل السهل اللفظ غير المترابط الى المدح مثل كعب غير أن كعباً شُغل بإهدار النبي دمه وطلب الصفح منه على حين شُغل ابن الساعاتي بأن مدحه للنبي سيذيع صيته ويعلي مكانته وانطلق يمجد هداية الرسول وصفاته :

ومِن عجائبِ ماتَحدّى الركاب به
صيتٌ يطـير بفضلي وهو محمول

وكيف أخمَلَ في دنيــا وآخرة
ومنطقي ورســولُ الله مأمـــول

هــو البشير النذير العدلُ شاهدُه
وللشهــادة تجـريح وتعديــل

وتؤثر الحروب الصليبية في مغاني ابن الساعاتي فيأخذ بالنظرية المحمدية [١] ويذكر أن العالم انما وجد إكراماً لرسول الله وانه سيد الرسل وان التوراة والانجيل قد شهدا برسالته وهذه المعاني لا توجد عنــد كعب .

لولاه لم تكُ لا شمس ولا قمَرٌ
ولا الفراتُ وجـاراه ولا النيــل

ولم يجب آدم في حــال دعــوته
نعــم ولــم يــك قابيل وهابيــل

فسيّد الرسل حقّاً لا خفــاءَ بــه
وشافعٌ في جميع النــاس مقبــول

بثّت نبوتَــه الأخبــارُ اذ نطقت
فحدّثت عنــه تــوراة وانجيــل

وهو يمدح مع الرسول صحابته :

أُسْدٌ إذا نازلوا ، شُهْب إذا سفروا
لُدٌّ إذا جادلوا سُحْب إذا سيلوا

فـلا مَفاريحُ إنْ نالت رماحُهمُ
ولا مَجازيعُ في البأساء إنْ نيلوا

« ديوان ابن الساعاتي ١ : ٤٨ ــ ٤٩ »

* وقد تأثر في هذا بكعب حين يقول :

في عصبة من قريش قــال قائلهــم
ببطن مكــة لمــا أسلموا زولــوا

---

(١) تحدثنا عن هذه النظرية حين تحدثنا عن التصوف خلال كلامنا على الحياة الاجتماعيــة .

* راجــع الموازنة بين « بانت سعاد » وقصيدة ابن الساعاتي في « الحيــاة الأدبية ، بدوي ٥١٨ ــ ٥٢٠ » .

وقد رأينا أحد الشعراء المخضرمين بين العهدين الأيوبي والمملوكي ، وهو نجم الدين بن إسرائيل ، يمدح الله بقصيدة [1] :

ب ـ في العهد المملوكي التركي :

عارض البوصيري أيضا « بانت سعاد » ولكنه لم يبدأها بالغزل بل بالدعوة الى التوبة فقال :

إلى متى أنت باللذات مشغول   وأنت عن كل ماقدّمت مسؤول

ومضى في إنذاره وتحذيره ، وظهر تأثير الحروب الصليبية عليه فقد هاجم الاعتقاد بألوهية المسيح :

فأخسرُ الخلق مَن كانت عقيدتُه   في طيّها لنشور الخلق تعطيل
وأمةٌ زعمت أن المسيح لها   ربٌّ غدا وهو مصلوب ومقتول
فثلّثتْ واحداً فرداً نوحّده   وللبصائر ، كالأبصار تخييل
تبارك الله عما قال جاحده   وجاحد الحق عند النصر مخذول

ثم يتحدث في هذه القصيدة عن فضل النبي ومعجزاته وظهر مرة أخرى عنده أثر الحروب الصليبية اذ يصف النصارى بالظلم لأنهم لا يقرّون برسالة النبي :

قل للنصارى الألى ساءت مقالتُهمْ   فما لها ، غيرَ محض الجهل ، تعليل
مِن اليهود استفدتم ذا الجحودَ كما   مِن الغراب استفاد الدفنَ قابيل

ويعدّد بعد ذلك غزوات النبي وما ظهر فيها من بيّنات على صدق رسالته وتحدث عما قاساه المسلمون الأقلّون من أذى المشركين وما قاموا به من جهاد وصبر .

قوم لهم في الوغى من خوف ربهمُ   حسنُ ابتلاء وفي الطاعات تبتيل
كأنهم في محاريبٍ ملائكةٌ   وفي حروب أعاديهم رآبيل

ويختم بالاشارة الى معارضته كعباً وانه يرجو لنفسه الغفران كما غفر النبي لكعب إساءته اليه :

---

(١) بدأها بقوله : « فوات الوفيات ٢ : ٤٣٧ » وهي تبلغ اثنين وستين بيتاً .

يا ناق ما دون الأثيل مُعَرّس   جدّي فصبحك قد بدا يتنفس
واستصحبي عزماً يبلّغك المنى   لتَخال تغبطك الجواري الكُنّس

لما غفرت لـه ذنباً وصُنتَ دماً — لولا ذمامُك أضحى وهو مطلول
رجوتُ غفرانَ ذنبٍ موجبٍ تلَفي — بـه إلى النفس إملاء وتسويل

« الحياة الأدبية لبدوي ٥٢٠ ـــ ٥٢٢ »

وأجمل قصيدتين في مدح الرسول وصلتا الينا عن هذا العهد ميمية البوصيري وهمزيته، فأما ميميته فقد نظمها إثر فالج أصابه ويروى أنّ الرسول جاءه في منامه بعد أن أنشدها هو مراراً فمسح بيده على وجهه وألقى عليه بردته فانتبه وهو معافى .

وهو يبدأ القصيدة بالغزل ليتناسب مطلعها مع حب النبي ويهيىء بذلك الجو لحبـه العظيم أو يرمز له به ويقربه من الأذهان وهو يجعـل غزله يدور في مواطن الرسالة بين مكة والمدينة في ديار بني سـلَم :

أمِن تذكّرِ جيرانٍ بذي سلَمٍ — مزجتَ دمعاً جرى مِن مقلةٍ بدَمِ

ويصف الحب الشديد الذي لا يكتمه الدمع ويعلّله كما يعلل أسباب بكائه وأرقه:

أيحسب الصبُّ أنّ الحبَّ منكتمٌ — ما بين منسجمٍ منه ومضطرِمِ
لولا الهوى لم ترِق دمعاً على طلَلٍ — ولا أرقتَ لذكْرِ البانِ والعلَمِ
نعم سرى طيفُ من أهوى فأرّقني — والحب يعترِض اللذاتِ بالألمِ

ويغتنم الفرصة هنا ليطلب ترك هوى النفس ، والعدول عن اللذات :

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على — حب الرضاع وإن تفطمه ينفطِمِ
كم حسنت لذّةً للمرء قاتلة — مِن حيث لم يدْرِ أنّ السم في الدسمِ

ثم يشيد بمكارم النبي ويذكر أنه خير العرب و[illegible] . وتؤثر الحروب الصليبية فيه أيضا فينكر ما ادّعته النصارى من ألوهية المسيح :

محمد سيّد الكونين والثقليـن — والفريقين مِن عُرب ومن عجم
منزّهٌ عن شريك في محاسنه — فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادّعته النصارى في نبيّهمُ — واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
فمبلغ العلم فيه أنّه بشر — وأنّه خير خلقِ الله كلّهم

« الحياة الأدبية لبدوي ٥٢٢ ـــ ٥٢٥ »

ويتحدث فيها عن الإسراء والمعراج ويمدح الصحابة ويختم القصيدة مستغفراً عن ذنوبه مستشفعاً بالنبي

وأما القصيدة الهمزية فقد انطلق فيها الشاعر حتى بلغت ستة وخمسين وأربعمائة بيت حافظ فيها على جمال الأسلوب وقوة العبارة وتأثر فيها بعصره وحوادثه أيضاً فبدأها بتفضيل النبي على جميع البشر دون استثناء :

كيف ترقى رقيّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاولتها سماءُ
انّما مثّلوا صفاتِك للنا ... س كما مثّل النجومَ الماء

ثم يشيد بأمجاد النبي وطهارة سلالته منذ كان في صلب آدم :

مَن لحوّاءَ أنها حملت أحمـ ... ـدَ أو أنها به نفَساء
يوم نالت بوضعه ابنةُ وَهْب ... مِن فخارٍ ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضلَ مما ... حملت قبلُ مريمُ العذراء

ويتحدث فيها عن مراحل حياة النبي منذ ولد حتى أرسل ويتحدث عن مكارمه ومعجزاته ويناقش اليهود والمسيحيين في إنكارهم رسالة النبي ظلماً . وهنا يظهر في شعره أيضاً أثر العصر من حروب ومجادلات دينية ومن قوله في ذلك :

قومَ موسى عاملتم قوم عيسى ... بالذي عاملتكمُ الحُنَفاء [1]
صدّقوا كتبكمْ ، وكذّبتم كتْـ ... ـتبَهم ان ذا لَبئسَ البَواء
ما لكمْ إخوةَ الكتاب أناساً ... ليسَ يُرعى للحق منكم إخاءُ
يحسد الأول الاخيرَ وما زا ... ل كذا المحدَثون والقدماء
أإلهٌ مركّب ما سمعنا ... بإلهٍ لذاتِه أجزاء
قتلتْه اليهودُ فيما زعمتمْ ... ولأمواتكمْ بَه إحياء

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٥٢٥ ـ ٥٢٧ »

ويمدح في القصيدة صحابة النبي ولا سيما الخلفاء الراشدين ، ثم يناجي

---

(١) في الشطر الثاني اضطراب في التعبير لا يعطي المعنى المقصود .

الرسول ويصف زيارته قبره ، ولعلّه نظم هذه القصيدة أثناء الزيارة أو بمناسبتها ، ويستشفع به ويسأل الله غفران ذنوبه .

ج ـ في العهد المملوكي الجركسي :

لابن مليك الحموي (٨٤٠ ـ ٩١٧) في النبي هذه القصيدة يعارض بها تائية ابن الفارض ويستمد معانيه من نظرية الحقيقة المحمدية التي قال بها ابن عربي :

فأنت الذي لولاه ما كان آدم ... ولا كان نوح قد نجا في السفينة
له المعجزات الباهرات وكم لنا ... بها ظهرت من آية بعد آية
وفي ليلة الإسرا من الله قد دنا ... وخاطبه في الحضرة القدسية
وداس بنعليه البساط تكرماً ... ومن نال هذا غيره في البسيطة ؟
ولو أنّ عشب الأرض أقلام كاتب ... لها البحر حبر عنه في الوصف كلّت
فلا تحسبوا ما قلته حق قدره ... فما ذاك إلا حسب قدري وقدرتي
أيا ابن كريم وابن خير كريمة ... بك اليوم أرجو كشف ضرّ كريمتي
وأرجوك في الحشر الصراط تجيزني ... جواز جزاء عن اجازة مدحتي
فإن تمّ لي هذا فقد تمّ لي الهنا ... وحزت نعيماً وانقلبت بنعمة
فدونك ياذا البرّ مني مدائحاً ... لعلّ يكون البرء فيها لعلّتي

« الديوان ، ص ٢٤ »

ويلاحظ على هذه النبوية ما يلي :

١ ـ أن الشاعر يجاري بها تائيّة ابن الفارض التي تنافس كثير من الصوفيين ومادحي النبي في مجاراتها .

٢ ـ أن الشاعر يستمد معانيه من نظرية الحقيقة المحمدية لابن عربي القائلة بأنه لولا النبي لما كان آدم ولا كان العالم . وذلك ما لا يقوله الشرع وما نهى عنه النبي أيضا .

٣ ـ أنه يرى كل ما قاله في النبي ، على مبالغته في المدح ، هو في الحقيقة دون قدر النبي .

٤ ـ أنه يتوسل بهذه المدحة الى النبي ليكشف عنه بشفاعته لدى الله ضرّ كريمته

وليشفى من علّتــه وذلك قياسا على ما حصــل للبوصيري من الشفاء حــين مــدح النبي •

٥ ــ أن الشاعر صادق الإيمان قــوي العاطفة حسن التخيل قوي النسج جــزل الاسلوب سهل العبارة ينقاد له النظــم والقافية بسهولة ، وأنّه كان موفقاً في هذه الابيات من الوجهة الفنية • الا أن في بعضها تقديماً وتأخيرا جعلها دون الأبيات الأخرى في قوة النسج • (البيت : وأرجوك ••) •

٦ ــ أنه في هذه الابيات لا يساوي البوصيري ولكنه يقاربه حرارة عاطفة وصدق لهجــة وسهولة تعبير وجودة معنى وحسن صور •

ب ــ المــدح التقليدي :

ا ــ في العهــد الفاطمي ــ الزنكي :

كان المدح في جميع العهود ضرورة للشعراء المحترفين يعيشون منهــا ، وكان كلّ من الشاعر وممدوحه ضرورياً للآخر •

وكان أهمّ أغراض الشعر في تلك الحقبة • وقد تلوّن زمن الفاطميين بالعقائد الفاطمية نصرة للمذهب أو مصانعة للحكام الفاطميين •

ومعظم الشعر الذي قيل في الفاطميين وفيه عقائدهم قد باد ، وفيه مدح المغالاة• وكان من عمل المحتسب زمن الأيوبيّين مراقبة تعليم الصبيان حتى لا يحفظوا شيئاً من ذلك • ولم يبْق مخضرمو الدولتين الفاطمية والأيوبية شيئاً ممّا مدحوا بــه الفاطميين •

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٧٠ » عن « نهاية الرتبة ١٠٤ »

فالقاضي الفاضل لم يبق من مدحه لأحدهم غير الغزل في مطلع القصيدة وبيت التخلّص الى المــدح :

تــرى لحنيني أو حنــين الحمــائم	جرت فحكت دمعي دموع الحمــائم
فــلا تسمعوا إلاّ حــديثاً لناظري	يُعــاد بألفاظ الدمــوع السواجم

فإنّ فؤادي بعدكم قد فطمته عن الشعر إلاّ مدحةً لابن فاطم

« معاهد التنصيص : ٦٣٧ »

ونرى أن نعرض نماذج قصيرة مما مدح به الحكام في تلك الحقبة تأييدا لقولنا : صعد الخليفة الحافظ لدين الله المنبر يوم عيد فوقف الشريف ابن أُنس الدولة بإزائه وقال مشيرا الى الحاضرين :

خشوعاً فانّ اللهَ هـذا مَقامُه وهمساً فهذا وحيُه وكلامُه
وهذا الذي في كلّ وقت بروزه تحيّاته مِن ربّنا وسلامُه

« خطط المقريزي ، ٢ : ٣٣ »

وقال علي بن محمد الأخفش من قصيدة يمدح بها الآمر :

الى ذُروة النور العَلائي انه الى ذروة النور الإلهي يُنسَب

وقال من قصيدة أخرى يمدح الخليفة الحافظ :

صرفَ جريال يَرى تحريمَها مَن يرى الحافظَ فرْداً صَمَدا
بشَرٌ في العين إلا أنّه مِن طريق العقل نورٌ وهُدى
جلّ أن تدركه أعينُنا وتعالى أن تراه جسدا

« الخريدة ، ٢ : ٢٢٥ قسم مصر »

وقال عمارة اليمني الشاعر السني يمدحهم :

وَلاؤُكَ دَيْن في الرقاب ودين وودُّكَ حِصن في المَعاد حصين
وحبُّك مفروض على كلّ مسلمٍ يقول بحبّ المصطفى ويَدين

« النكت العصرية : ٣٦٢ »

ويقول من قصيدة يعزّي فيها بالفائز ويهنىء بالعاضد :

لئن عرَضتْ للفائز الطُّهر نُقلةٌ فأنت ، أميرَ المؤمنين ، مُقيم
وان حسدتنا جنةُ الخلد قربَه فقربُك منّا جنّةٌ ونعيم
ورثت الهدى بالنص منه وقولِه أخي وابنُ عمي ، إنْ عدمتُ يقوم

وقد سن ذاك المصطفى في ابن عمّه فمِن شرفيْكم • حادثٌ وقديم
حكت بَيعةَ الرضوانِ بيعتُك التي يصحّ بها الإيمانُ وهو سقيم

« النكت العصرية : ٣٤٦ »

ويقول مادحاً العاضد في شهر رمضان :

جلَتِ الخلافةُ منك فوق سريرها كنزَ الهدى وذخيرةَ الإسلام
وبقيةَ الله التي ببقائها تجري الأمور على أتمِّ نظام
بالعاضد المهدي قدّس ذكرُه صحّتْ لنا الأيام بعد سَقام

« النكت العصرية : ٣٤٣ »

ويقول :

كذلك وصّى المصطفى في ابن عمّه الى منجد يوم الغدير ومتْهِمِ

« النكت العصرية : ٣٤٣ »

ويقول مهنئاً العاضد يوم كسْر الخليج :

سجوداً فهذا صاحب الركنِ والحَجَر ووارثُ علمِ النمل والنحلِ والحجَرْ

« النكت العصرية : ص ٢٣٥ »

وقال عمارة في قصة الأبصار والبصائر ، في رؤية هلال رمضان والعيد : (١)

ولما تراءت للهلال بصائرٌ يغطّي الهوى أبصارها بضَباب
وقفنا فهنّأنا الصيامَ بعادلٍ سَنَاه مَدى الأيام ليس بخاب

« النكت العصرية ١٦٨ »

---

(١) كان يرى الفاطميون صوم رمضان ثلاثين يوما ، وكان شعبان عندهم تسعة وعشرين يوما وقد اعتمدوا في ذلك على علم النجوم ، فما كانوا يعنون برؤية الهلال بعيونهم ، مكتفين برؤيته ببصائرهم التي اعتمدت على علم الفلك . وكان له في دولتهم اعظم حظ من العناية والرعاية . (الحياة الأدبية ، بدوي ، ص ٦٨) .

وقد حظي وزراء الفاطميين بنصيب موفور من المدح وكثر مادحو الأفضل وزير المستعلي والآمر ، ومادحو طلائع بن رزّيك الوزير المثقّف . وذلك لقوة نفوذ الشعراء وسلطانهم حينئذ .

ومن أمثلة مدح الوزراء قول ابن الزيد يمدح الأفضل وزير المستعلي والآمر :

لولا وجودُك في الزمان وَجودُك الـ ... محيي المكارمَ بعدَ بُعدِ وفاتِها
لم يُعرَفِ المعروفُ في الدنيا ولو ... طفنا عليه في جميع جهاتِها

« الخريدة ، مصر ورقة ١٢١ ب »

وقول أبي الصلت بن أميّة يمدحه :

الله زان بك الأيامَ من ملكٍ ... لك الحُجولُ من الأيام والغُرَرُ
لله بأسك ، والأيام طائشةٌ ... والخيلُ توري ونارُ الحرب تستعر
هي السماحةُ إلا انها شرَفٌ ... هي الشجاعة إلا انها غَرر
اللهَ في الدين والدنيا فمالهما ... سواك كهفٌ ولا ركن ولا وَزَرُ
مَلْك تبوّأ فوق النجم مقعدَه ... فكيف تطمع في غاياته البَشر

« طبقات الأطباء ٢ : ٥٦ »

وكذلك كثرت الأماديح في طلائع بن رزّيك .

قال المهذب ابن الزبير فيه :

وتلقى الدهر منه بليث غاب ... غدت سمر الرماح له عرينا
تَخال سيوفه إمّا انتضاها ... جداولَ والرماحَ لها غصونا
وتحسب خيله عُقبان دَجْنٍ ... يرُحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت ... سنىً يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الإصباح عَدْواً ... أثارت للعجاج بنا دُجونا

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٧٢ »

وقد جمعوا بين الوزير والخليفة في مدح واحد أحياناً على قدم سواء ، كقول المهذّب بن الزبير :

يا واحد الدهر لا ردّ عليّ إذا ما قلت ذلك في قولي ولا دَرَكُ
ما كان بعد أمير المؤمنين فتى فيه الشجاعة إلاّ أنت والنسُكُ
فالفعل منه ومنك اليوم متّفق والنعت منه ومنك اليوم مشترك
يدعى بصالح أهل الدين كلّهم وأنت صالح من بالدين يمتسك

« خريدة القصر (ط) ١ : ٢١٣ »

ويقول عمارة اليمني في الجمع بينهما :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً فوز النجاة وأجر البرّ في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلَهما وزيره الصالحُ الفرّاج للغُمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائلَه إلاّ يدُ الصنعَيْن السيفِ والقلم
وجودُه أوجد الأيام ما اقترحت وجودُه أعدم الشاكين للعَدَم
قد ملّكته العوالي رقّ مملكة تعير أنف الثريا عزّة الشمَم
خليفة ووزير مدّ عدلُهما ظلاّ على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما فما عسى يتعاطى مِنّة الدِّيَم

« الروضتين ١ : ٢٢٣ » و « النكت العصرية ٢ : ٧ »

وقد اهتمّ الفاطميون بالمدح فأطالوا الوقت المخصّص لأماديح الشعراء وقد قصره الخليفة الحافظ مرّة فقال أحمد بن مفرّج يخاطبه :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً هلاّ أمرت ندى كفّك يختصر
والله لا بدّ أن تجري سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأثر

« خريدة القصر ، ٢ : ١٧٣ »

ويشترك المدح الفاطمي في مصر والمدح في الشام للسلاجقة والزنكيّين في الاهتمام بالصناعة اللفظية واستعمال الألفاظ المألوفة حتى لتقرب أحياناً من العامية ، وفي استعمال الصناعة البديعية وفي الإكثار من تشبيه الممدوحين بالشمس والقمر وغيرهم بالنجوم تقليداً للأقدمين .

قال ابن قسيم الحموي في معين الدين أنر :

ومستصغرٍ في الله كلَّ عظيمة ... ولو أنه منها على الموت مشرفُ
كأنّ الملوكَ الغرّ حول سريره ... يريك عنان الدهر كيف تُصرَّف
فإن تلقه تلقَ ابنَ هيجاء دهره ... نجومٌ على شمس الظهيرة عُكّف
سخي جريءٌ لوذعيٌّ كأنه ... اذا ما بدا غيث وليث ومُرهَف

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ١٠٤ »

وقال ابن القيسراني في مجير الدين آبق :

فكنتَ كالشمس سَمَتْ اذْ سمتْ ... ونورُها في أفقها مائل
وأين ينأى في قلوب الورى ... مَن حبّه في كلها ماثل

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ١٠٤ ــ ١٠٥ »

وأكثروا من وصف أقلام الممدوحين من الوزراء وكبار الكتاب تقليداً لأبي تمام في مدح بعض مثقفي عصره المتازين ، ومن ساروا على غراره :

قال عمارة اليمني يمدح طلائع بن رزّيك مع الخليفة الفائز :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً ... فوزَ النجاة وأجرَ البرّ في القَسَم
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلهما ... وزيرُه الصالحُ الفرّاجُ للغُمَم
اللابسُ الفخرَ لم تُنسج غلائله ... إلاّ يدُ الصنعَين : السيفِ والقلمِ

« النكت العصرية : ٣٧٣ »

فهنا يمدح عمارة الوزير بأن الذي ألبسه رداء المجد شيئان : سيفه وقلمه . ومن هذا القبيل ما يرد في الإخوانيات من مدح بلاغة الكتب وحسنها . قال ابن قسيم الحموي في كتاب وصل اليه من صديق :

حييّ كتاباً فضضتُ خاتمَه ... عن مثل وشي الرياض أو أملحْ
يا كرّم اللهُ وجهَ كاتبه ... عرّض لي بالجفاء أو صرّحْ

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ٤٤٠ »

وقال في كتاب آخـر :

وصل الكتاب فما فضضت ختامه حتى تأرّج طيبه وتضوّعا
كالروض إلا أن وشي سطوره أسنى لدى عندي وأحسن موقعا
فأزرت مني الطرف أحسن ما أرى منشوره والسمع أطيب ما وعى

« العماد الكاتب ، الخريدة ١ : ٤٥٥ »

ومن ذلك ما ردّ به ابن قسيم على كتاب وصل اليه من ابن منير الطرابلسي :

[illegible]ت الكتاب فأهلاً بـه يسحر النواظر تمنيقه
[illegible]ن أخجل الروض موشيه لقد فضح الـدر منسوقه
[illegible]ريب الصناعة تجنيسه نفيس البضاعة تطبيقه
[illegible]صلني بعد طول الجفا كما واصل الصب معشوقه

« العماد الكاتب ١ : ٤٥٩ ــ ٤٦٠ »

[illegible] العهد الأيوبي :

كان أبطال الجهاد يحظون بأكبر نصيب من المدح ، ولاسيما صلاح الدين منهم [illegible] أكثر من خمسين شاعراً ، غير أن هـذا المدح أدخلناه في أدب النضال .

وكان الشعراء في هـذا اللون من المدح يمدحون بطل الجهاد سـواء أنجح أم أخفق ، وسواء أحارب في البر أم البحر ، وكان سلطاناً أم أميراً أو وزيرا .

وكان بعض الشعراء يفخرون بشعرهم في نهـاية أماديحهم ، ومن ذلك قـول ابن الساعاتي في نهاية قصيدة له :

مـدح تـذهب الليـالي وتفـنى وتحـوز البقـاء والتخليـدا

« الديوان ١ : ٥٢ »

وذلك دليل على شعورهم بشخصهم الى جانب الممدوح وهم يأتسون في ذلك بشعراء العصر العباسي الفحول كأبي تمّام والمتنبي .

وقد يمدح الشاعر السلطان في المدح التقليدي فيشيد بما يُقام في قصره من مجالس المتعـة واللهو :

قال ابن الساعاتي (٥٥٣ ــ ٦٠٤ هـ) يمدح الملك العزيز عثمان الذي استقلّ بملك مصر بعد وفـاة أبيه صلاح الدين :

وكم عاطـل من لذّة زان جيـده	نـدى ملك ضنّ الحيا وهو جـائد
فتـى بعـوالي سـمره وسـيوفه	تعـزّ المعـالي أو تهـون الشدائد
شـربنا لديـه التبر ، والتبر ذائب ،	على صفحات التبر ، والتبر جـامد
ومـا هي إلاّ قبـلة من ملاحـة	لهـا بقلوب الزائرين مَشـاهد
بحيث تمـاثيل الرياحـين عكّف	لهـا وأباريق المُـدام سـواجد
فأقسم أمّـا الحسن منك فباهـر	وأمّا ضجيع الخـود منك فماجـد

« ديوان ابن الساعاتي جـ ١ : ١٠٣ »

ويلاحظ أن الشاعر لا يكتفي بوصف مجلس المتعة لدى السلطان بـل ينوّه بالحرص على اللذة وبذلها ويصف الملك بأنه ضجيع للخود ومع ذلك فهو ماجد وذلك حرصاً من الشاعر على اللذة وتصويراً لما يحرص عليه الملك منها .

والأبيات جميلة من حيث الأداء الفني ولكنها تصوّر انحلال القصر وعـدم جدّيته وعـدم سير الابن على خطة الأب .

وقد مدح شعراء هذه الحقبة العلماء ومن ذلك قول ابن عُنَيْن أحد شـعراء العهد الأيوبي (ت ٥٩٧ هـ) ، وهو في نيسابور ، يمدح الفخر الرازي ويشيد بأصله العربي وعلمـه متأثراً في أحد معانيه بأبي العلاء المعرّي :

ريـحَ الشمال عساك أن تتحمـلي	خـدمي إلى صدر الإمـام الأفضل
مـن دوحـة فخـرية عمـريـة	طابت مغـارس مجـدها المتأثّـل
مكيّـة الأنساب زاكٍ أصلهـا	وفروعهـا فـوق السماك الأعـزل
لـو أن رسْطاليس يسمع لفظـةً	مـن لفظـه لعرتـه هـزّة أفكل
ولحـار بطليْموس لو لاقـاه من	برهـانه في كـل شـكل مشـكل

فلو انهم جمعوا لديه تيقنوا   أنّ الفضيلة لم تكن للأوّل

« الديوان ٥٣ ـ ٥٤ » و « معجم الأدباء ٧ : ١٢٣ »

فقد حاكى الشاعر أبا العلاء في معناه الذي رأى فيه أنه قد سبق الأوائل كما حاكى المتنبي في ذكر بعض فلاسفة اليونان وعلمائها كرسطاليس وبطليموس .

وقد رأى ابن عُنَيْن حمامة لجأت الى مجلس هذا العالم هرباً من جارح لحق بها فمدحه بقصيدة مشهورة جيّدة مطلعها :

مَن نبّأ الورقاء أنّ محلّكم   حَرَمٌ وأنك ملجأ للخائف

« الديوان : ٩٥ »

وقد يمدح شاعر شاعراً آخر ومن ذلك قول شهاب العزازي يمدح شهاب الدين التلعفري من موشح ، وهما شاعران مخضرمان بين العهدين الأيوبي والمملوكي التركي ، ونلاحظ أن فنّ الموشح قد استعمل في المدح استعمال القصيد منذ أواخر العهد الفاطمي الزنكي وأوائل الأيوبي ، يقول العزازي :

بات طرفي يتشكى الأرقا   وتوالت أدمعي لا ترتقا
شاعر فاق فحول الشعرا   بقواف مثل إطراق الكرى
باسمات تجتلي منها الورى   ثغَراً يبسم أو زهراً يُرى
كلّما لاح سناها مشرقاً   سجد الغرب لنور المشرق

« فوات الوفيات ٣ : ٣٤٥ »

ونكون بهذا الجزء من الموشح قد دخلنا في العصر المملوكي التركي .

ج ـ العهد المملوكي التركي :

كان سلاطين هذه الحقبة كلّهم يرغبون في المدح حتى قلاوون الألفي الذي كان لا يفصح بالعربية ، نرى الشهاب محمود يمدحه .

وكان الشعراء يقلدون من سبقهم في معانيهم ولا يجدون عيباً في ان يأخذوا المعاني عن غيرهم اذا أخرجوها في قالب حسن .

يقول أحدهم وهو مجير الدين بن تميم :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيري
وآخذ كل بيت فيه معنى فشعري نصفه مِن شعر غيري

« ابن تغري بردي المنهل الصافي (خ) ٣ : ٣١٤ »

وكانوا أحيانا يأخذون المعاني القديمة فيوردونها كما هي ، مثال ذلك قول لحلّي يمدح المنصور بن أرتق ، من قصيدة ، بعد الغزل :

وأظلُّ في جول البلاد كأنني سيف ابن أرتقَ لا يقرّ بغمدهِ
الصالحُ الملكُ الذي صلحت به رُتبُ العَلاء ولاح طالع سعده
ملِكٌ حوى رتب الفخار بسعيه والمُلْكَ إرْثاً عن أبيه وجده
متسهّل في دست رتبة ملكه متعصّب مِن فوق صهوة جُرْده
واذا بدا ملأ العيونَ مَهابةً واذا سخا ملأ الأكفَّ برِفْده
كالغيث يُولي الناس جُودا بعدما بهر العقولَ ببرقه وبرعده
فالدهرُ يُقسم أنه مِن رِقِّه والموتُ يحلف أنه مِن جنده
والوحش تعلن أنها مِن رهطه والطير تدعو أنها مِن وفده
نشوانُ مِن خمر السماح وسكره ما إن يغيّب رأيه عن رُشده

« الديوان ، قسم المدائح ، المنصوريات »

فواضح أن الشاعر لا يجدد في الصور القديمة وانما يأتي بها كما وردت عند الأقدمين ولكنه يكثر من حشدها بحيث تتوالى وتزدحم وتدل على غزارة ثقافته الأدبية .

وكانوا أحيانا يوردون المعاني القديمة ولكنهم يجددون في قالبها ويضيفون اليها بعض تكملات فتخرج في صورة جديدة . مثال ذلك قول صفي الدين في إحدى قصائده يمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بن أرتق وهي من غير الأرتقيات قال بعد أن تغزل :

فخلِّ تذكار زوراء العراق اذا جاءت نسيمُ الصبا بالمندل العبِق
فهذه شهُبُ الشهباء ساطعةٌ وهذه نسمةُ الفردوس فانتشق
فتلك أفلاكُ سعد لا يلوذ بها مِن ماردٍ لخفيِّ السمع مسترق

سماءُ مجدٍ بدا فيها فزيَّنها نجم تخرّ لديه أنجم الأفق
ملك غدا الجودُ جزءاً مِن أنامله فلو تكلّفَ تركَ الجود لم يُطِق
أعاد ليلَ الورى صبحاً وكم ركضت جيادُه فأرينا الصبحَ كالغسق
مشتّتٌ الغَرْم والاموالِ ما تركت يداه للمال شملا غير مفترق
اذا رأى ماله قالت خزائنه أفديك مِن ولد بالثكل ملتحق
مَلَكْتَ به اكتست الأيام ثوبَ بَها مثلَ اكتساء غصون البان بالورَق
تهوى الحروبَ مَواضيه فانْ ذُكرتْ جُنّت فلم تر منها غير مندلِق
حتى اذا جُرِّدت في الرَّوع أغمدها في كل سابغةٍ مسرودة الحَلَق
يا أيها الملك المنصورُ طائرُه ومَن أياديه كالأطواق في عنُقي
أحييتَ بالجود آثار الكرام وقد كان الندى بعدهم في آخر الرمق
لو أشبهتكَ بحار الروم في كرَم لأصبح الدرّ مطروحاً على الطرق
لو أشبه الغيث جوداً منك منهمرا لم ينجُ في الأرض مخلوق مِن الغرق

« الديوان ، المدائح ، الأرتقيات المنصوريات »

ويلاحظ أن الشاعر في هذه القصيدة يتناول بعض المعاني القديمة المعروفة في المدح فيجدد عرضها وصياغتها ويضيف اليها بعض تكملات فتبدو وكأنها جديدة مثال ذلك البيتان الأخيران فقد عرف منذ القديم تشبيه الانسان الكريم بالبحر وبالغيث ولكن أضاف الى معنى البحر كون البحر الحقيقي لو ساوى ممدوحه في الكرم لأصبح الدر مطروحاً في الطرق وأضاف الى معنى الغيث أنّه لو ساوى الممدوح لغرق كل من في الأرض ، وفي كليهما مبالغة ظاهرة .

د ــ العهد المملوكي الجركسي :

لم نجد في العهد المملوكي الثاني مدائح في مستوى المدائح الجيدة في العهود السابقة ، وكذلك لم نجد حتى الآن مدائح في الخليفة العباسي في القاهرة وذلك ، في رأينا ، لضعف مكانته حينئذ فيها . ورأينا بعض السلاطين يمدحون بشعر عامي في قالب الزجل . وبقيت أنواع الممدوحين هي نفسها ويظهر ان قلة قليلة من الشعراء كانت على صلة بالسلاطين أو المتنفذين الكبار الذين لم يشجعوا الأدب تشجيع سابقيهم ، الا نفراً منهم كالسلطان قانصوه الغوري ، ولذا لم يتسابق الشعراء الى

مدحهم فيما يظهر ، وخمدت قرائحهم في هذه الناحية . هذا بحسب ما وصل اليه علمنا حتى الآن .

ومن المدائح التي قيلت في السلاطين ما قاله بدر الدين بن محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله العمري [1] في السلطان برقوق بعد أن فاز على خصميه الأمير يلبغا الناصري والأمير منطاش وكان بدر الدين قد انحاز الى خصمه منطاش ثم تحول اليه بعد فوزه واحتال في الخروج من دمشق اليه وسيّر اليه مطالعة ، فيها من شعره :

« المواعظ والاعتبار ، للمقريزي ، ج ٢ ، ص ٥٧ »

يقبّل الأرضَ عبدٌ بعد خدمتكم ... قد مسه ضرَرٌ ما مثله ضرر

حصر وحبس وترسيم أقام به ... وفرقة الأهل والولدان ، والفكَرُ

لكنه ، والورى مستبشرون بكم ، ... يرجو بكم فرَجاً يأتي ، وينتظر

والشغلُ يقضي ، لأنّ الناس قد ندموا ... اذ عاينوا الجورَ مِن منطاشَ ينتشر

جورا كما فرّطوا في حقكم ورأوا ... ظلماً عظيماً به الأكبادُ تنفطر

والله إن جاءهم مِن بابكم أحد ... قاموا لكم معه بالروح وانتصروا

اللهُ ينصركم طول المدى أبدا ... يا مَن زمانهمُ مِن دهرنا غُرَر

فهذه الأبيات ليس فيها نفس طويل ولعل ذلك لأنها وردت ضمن كتاب نثري . وفيها الى جانب المدح لون من الاعتذار من الشاعر عن نفسه وعن الناس في انحيازهم لخصوم برقوق ، وشيء من هجاء خصومه ووصفهم بالظلم ، وفيها من صفات الشعر الوزن والقافية ومن صفات السياسة المكر والانحياز الى الأقوى والنفاق ، وينقصها الخيال وعمق المعاني وفخامة لتعبير . وبعض تعابير عامي مثل : « الشغل يقضي » .

---

(١) توفي الكاتب صاحب السر هذا بدمشق سنة ٧٩٦هـ وبوفاته ووفاة اخيه حمزة انقطع بيتهما الذي تولى امور الكتابة زمناً في مصر والشام .

الرثاء في فترة الدول المتتابعة

تمهيد :

البكاء على عزيز أمر غريزي في الانسان وقد عبّر عنه الشعراء منذ أقدم العصور الأدبية بالمراثي • ويمكن أن نقسم مراثي هذه الحقبة التي ندرسها الى نوعين:

أ ـ المراثي الخاصة التي قالها الشعراء في البكاء على عزيزين عليهم أو على أناس لهم صلات شخصية بهم ، وهي المراثي التقليدية التي عرفناها في جميع العصور ويدخل فيها مراثي العظماء الذين يرثيهم الشعراء في الأحوال العادية • ويلحق بها التعازي التي تقال لأهل الميّت وذويه •

ب ـ المراثي التي قيلت في ملاحم وأحداث عامة أو في أبطال اشتركت الأمة كلها في تقديرهم ، أو في ممالك ودول زالت ، أو في مدن دمرت ، أو سقطت في أيدي الأعداء •

وهذا التقسيم اصطلاحي لجأنا اليه لبيان أثر الحروب الصليبية والتترية في الأدب وفي باب الرثاء منه بخاصة ، وقد اقتضته طبيعة البحث •

ولما كنّا قد أوردنا مراثي الملاحم والأحداث والمدن والأبطال في شعر النضال فإننا نكتفي هنا بالحديث عن المراثي الخاصة :

١ ـ المراثي الخاصة في العهد الفاطمي ـ الزنكي :

أكثر شعراء هذا العهد من رثاء العلماء الذين نالوا فيه مكانة سامية لدى الحاكمين زنكيين وفاطميين ولدى الشعب •

ومنه رثاء نجم الدين اللبودي في شمس الدين الخسروشاهي المتوفى سنة ٥٦٢ هـ . قال :

أيا ناعيا عبد الحميد تصبرا علي فإن العلم أدرج في كفن
مضى مفرداً في فضله وعلومه وعدت فريد الهم والوجد والحزن
فيا عين سحي بالدموع لفقده فما حسن صبري بعدك اليوم بالحسن
تلقته أصناف الملائك بهجة بمقدمة الأسنى على ذلك السنن
تقول له : أهلاً وسهلاً ومرحبا بخير فتى وافى إلى ذلك الوطن

« عيون الأنباء ٢ : ١٧٣ »

والشاعر في هذه الأبيات حار العاطفة صادقها ، حسن التصوير ... الإيمان ، جميل المناجاة ، عذب الألفاظ ، سهل الأداء ، أحسن اختيار ... الساكن الذي يقيد النفس ويصور اللوعة باللفظ والنغمة المختنقة .

ولم يقف الرثاء في هذه العهود على علية القوم ، بل اتخذ اتجاهاً شعبياً أحياناً ، فنرى الشعراء ومنهم قضاة وذوو مكانة اجتماعية ، يرثون أصحاب الحرف الصغيرة من الناس لمودة بين الطرفين :

ومن ذلك رثاء القاضي النفيس حيدرة بن الحسين الذي كان يقيم بقوص حوالي سنة ٥٣٣ هـ ملاحاً من أهلها . يقول :

من لجر اللبان في الثقلين ولإلقاء المرسى على الأتبطين
واعتقال المدرى وقد سكن الريح برغم السفار في تشرين
والمجاذيف من بها مستقل بعدما قد أتاك ريب المنون
من يشالي لصحبه كل وقت بنشيد جزل وصوت حزين
يهتدي في الظلام بالقطب والجدي وفي الصبح بالضياء المبين
فتشق البحار في الليل شقا حركات تولدت من سكون
كانت المركب التي أنت فيها حرماً آمناً كحصن حصين
فهي اليوم بعد فقدك عطل بل حطام ملقى ليوم الدين

« الطالع السعيد للأدفوي : ١٢٤ »

ولا شك في أنّ هذا الرثاء صادق العاطفة خال من الغرض ، جدّي النظرة إلي الحياة ، قريب من ذوقنا الحاضر الشعبي ، ظاهر الواقعية في أمرين : أولهما اللغة ، فقد استعمل بعض العامية ، وثانيهما وصف الأعمال العادية التي يقوم بها الملاّح • وهذا الرثاء على بساطته جيّد •

وقد رأينا بعض الشعراء يخرجون عن المألوف في الرثاء فيبدؤون مراثيهم بالغزل وربّما كان ذلك لفقدانهم العاطفة الصادقة فيها نحو المرثي •

ومن ذلك مطلع القاضي الفاضل في رثاء بني رزّيك :

أستودع الله في أظعانهم قمراً ... إليه لو ضلّت الأقمارُ تحتكم

« مختار شعر القاضي الفاضل ص ٨ »

ب ـ العهد الايوبي :

من رثاء كبار القوم فيه قول ابن النبيه يرثي عليّ ابن الخليفة العباسي من قصيدة هي المرثية الوحيدة في ديوانه :

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره ... إلاّ من استصلح من ذي العِباد
والموت نقّاد على كفّه ... جواهر يختار منها الجياد

« الحياة الأدبية ٢١٠ ، د• بدوي »

وقد اكتفينا بهذه الأبيات الثلاثة من المرثية • ويتّضح منها أن الشاعر يجري على غرار أسلافه الشعراء منذ الجاهلية في إيراد الحكم للتعزية في الميّت وكأن الشاعر قد وضع المتنبّي نصب عينيه على أنّه ليس له عمقه فمعنى الأبيات معروف مشهور تقوله العامة منذ أقدم العصور وقد كرّره في الأبيات الثلاثة ، على أنّ الصورة في البيت الثالث جيّدة صوّر فيها الشاعر الموت بجواهري خبير يعرف كيف ينتقي أحسن الجواهر ويضمّها إليه •

ومن المراثي الخاصة في هذا العهد قول ابن سناء الملك يرثي أمّه بهذا الموشح :

ما زال لي منذ دهاني الزمان
أنس شجاع واصطبار جبان
وعَبْرة خالعة للعنان
لا تقبل الصون وترضى الهوان

وناظري قد غاب عنه كَراه   ترى سُراه
أو بفسح الدهر في شراه

صبراً جميلاً أين صبر جميل
ذاك سبيل ما إليه سبيل
وقتي قصير وحديثي طويل
حسبُك من راحته في العويل

وجلُّ ما يبغيه لقيا الوفاه   وهي شِفاه
تبري خُطوبا خاطبته شِفاه

حزني على أمّيَ حزن شديد
تبلى الليالي وهو غضّ جديد
فقل لنار القلب هل من مَزيد
وقل لصَرف الدهر هل من مَحيد

غلطتُ دع دهري وما قد نواه   فهل عساه
يأتي إلاّ دون ما قد أتاه

لهفي على من شطّ منها المزار
وأظلمت من بعدها كلّ دار
وصار للمقدار فيها الخيار
وقد بكى الليل لها والنهار

هذا لفقد العُرْف ما قد شجاه   وللصلاه
هذا أطال الوجد فيها بُكاه

يـــا ليتني سابقهـــــا للممـــــات
ولا أرى نفسي بشـــــرّ الصفـــات
منتــزَعَ الصبــر عــــديم الثبـــات
فـــــكم ثــكالى قـــلن مستعجـلاتْ

هـــذا المسيكــين مــا بقي لهُ حيــاه   هدّ قواه
واهــاً عليـــــه ثــم واهــاً وواه

« الحياة الأدبية ص ٢٠٢ : د. بدوي »

ويلاحظ هنا أنّ الموشّح قد استعمل في العصر الأيوبي للرثاء ، وأنّ هـــذا الموشّح يمتاز بقوة العاطفة وصدق اللهجة وجمال الأداء وسهولة المعاني والألفاظ والتراكيب وحلاوة الموسيقا وخدمة الصور للمعنى والعاطفة مع قربها وكونها تقليدية معروفة وهو في مجمله يشبه شعر المهجريّين الإبداعيّين في عصرنا الحديث .

جـ ـ العهد المملوكي التركي :

من المراثي الخاصة ما قيل في الأقارب ومثاله قول صفي الدين الحلي يرثي خاله وجماعة من أقربائه قتلوا في واقعة لهم مع آل أبي الفضل الذين قتلوا خـــاله صفي الدين بن محاسن بمسجده غدرا وكانت بين الفريقين ثارات :

جبــالٌ بأريــاح المنيــة تنسَفُ   غدت وهي قاعٌ في الوقائع صفصف
مَحتهــا رياح للمنــون عواصف   على أنها لا تتّقى حــين تعصــف
أفي كــل يــوم للمنيــة غــارةٌ   تغير عــلى سرب النفوس فيخطَف
كأنّ حبــال الساحرين نفوســنا   وتلك عصــا موسى لهــا تَتلقَّف
أغارت على الأقيال من آل سنبِس   فأصبح فيهــم صَدْعُها يتصرف
رجال لو أن الأسدَ تغشى ديارَهم   لكنت عليهــا منهــم أتخــوّفُ
شموس أرانا الموتُ في الترب كسفَها   وما خلت ان الشمس في الترب تكسَف
أتاها فلم تدفَع من السيف وقعةٌ   ولم يُغن منــه السامري المضعَّف
ولا الخيلُ تجرى بين آذانها القنــا   تقَرطُ مِن خُرصانِه وتُشنَّف

ولا رَدّ عن نفس ابن حمزةَ[1] جأشها ... ولا الجيش من أمواجه الارض تَرجُف
ولا صارمٌ ماضي الغِرار بكفّه ... مضاربُه في الرّوع بالدم ترعُف
عَروفٌ بأحوال الضّراب تؤمّه ... عزيمة شهم منه بالضرب أعرف
ألا في سبيل المجد مصرعُ ماجد ... ثمارُ الأماني من أياديه تُقطَف
اذا ما أراد الضدّ غايةَ ذمّه ... توصّل حتى قال في الجود مسرف
تصدّع قلبُ البرق يومَ مُصابه ... ألستَ تراه خافضاً حين يَخْطف
وما زال بدر التمّ يلطم وجهه ... على فقده حتى اغتدى وهو أكلف
فيا هالكا قد أطمع الخطبَ هُلكُه ... وكان به طرف النوائب يَطْرِف
لقد كنتَ حصنا مانعا بك نلتجي ... حذارَ العدا واليومَ باسمك نحلف
فان كنتَ في أيام عيشك كعبةً ... يُلاذ بها فاليوم ذكْرك مُصحَف
فبعدك لا شملُ اللّهى متفرق ... بجود ولا شملُ العُلا متألّف
سأبكيك بالعز الذي كنت مُلبسي ... وكنتُ به بين الورى أتصرف
وأنزِف من حزني دمي لا مدامعي ... وأيُّ دم أبقيتَ فيّ فيُنزف
سقى اللهُ تُربا ضمّ جسمَك وابلاً ... ينمّق روضاً بُرْدُه ويُفوّف
اذا أنكرت أيدي البِلى عَرَصاته ... ينمّ على أرجائه فيُعرّف

« ديوان صفي الدين ، قسم المراثي »

يعظم صفي الدين من شأن قومه المقتولين ويرى أن الموت عادة فيهم وهم رجال أفتك من الأسود وأعظم من الشموس ولم يمنع عنهم المنية حسن استعدادهم للقتال بالدروع السامرية والخيل المطهمة والرماح المقومة والجيش الكثير والسيوف المرهفة .

ثم يخص بالذكر خاله فيصفه بقوة العزيمة وشدة الضراب وعلو المجد وكثرة الكرم والكمال حتى لا يجد أعداؤه ما يذمونه به إلا الاسراف في الجود . وهو يبالغ في المعنى والخيال فيرى أن البرق قد تصدّع لمهلكه ، وأن البدر قد لطم وجهه

---

(١) ابن حمزة خاله المقتول غيلة .

عليه حتى أصابه الكلف ، وأن الخطب قد طمع فيهم بعد موته ، على حين كانت عينه تطرف به في حياته ، وكان لهم في حياته حصناً وكعبة فأصبح لهم الآن قسَماً ، وذكرُه مصحفاً ، فلا عطايا بعده للسائلين ولا أمجاد مثل أمجاده تجتمع لانسان ، وسيبكيه بدمه لأنه سبب عزه على حين لـم يبق فيه دم بعد موته ، ثم يدعو لقبره بالسقيا حتى يصبح روضة تنم عمن فيها بطيب عرفها وإن درست معالمه بعوامل البلى .

ويلاحظ أن الرثاء الذي يأتي به الحلّي في قومه كغيره من الرثاء لا يختلف عن المدح إلاّ في أنه يقال في أموات ، بصيغة كان ، على حين أن المدح يقـال في الأحياء بصيغة الحاضر . ويرى أن المعاني التي يأتي بها هي المعاني التقليدية التي كان يقولها العرب منذ الجاهلية والتي هي الفضائل العامة التي يفخر بها العربي . وفيها خصوصية عامة تنطبق على بعض المرثيين وهي أنهم عظماء لهم جيش ضخم ، وهي مطبوعة بطابع المبالغة وتشتمل على رثاء جماعة ثم اختصاص فرد من بينهم . وهي فخمة التأليف والنغمة تظهر فيها قدرة الشاعر على النظم وموهبته ونفحة شعرية طبيعية فيه . وهو متأثر بأبي العلاء في قوله ألا في سبيل المجد . وتأثر بعصره من حيث الصناعة البديعية التي غطت عليها قوة العاطفة . ومن الصناعة البديعية ما يسمى بحسن التعليل وقد رأيناه في تعليل كلف البدر بأنه لبكائه على الموتى ، وفي تصدع قلب البرق ، وفيها الجناس وهو كثير عنده مثل (صرفها ويتصرف) .

ومن المراثي الخاصة رثاء الاصدقاء أو من يلوذ بهم ومنها ما قاله صفي الدين يرثي ولد صديق له :

يا قضيبـاً ذوى وكـان نضـيرا ... مـا رأينـا لـه الغـَداة نظـيرا

أظلمتْ بعـده الديارُ وقـد كا ... ن سراجـا بهـا وبـدراً منـيرا

غيبتـه الأرضون عنـا ومـا خلتُ ... أديـمَ التراب يحـوي البـدورا

لا ، ولا خلتُ ان شُهبَ الدراري ... بعد أوج العـلا تحلُّ القبـورا

يا حبيبـا فراقـه أخـرب القلـ ... ـب وقـد كان منـزلا معمـورا

جـاء بالنـدب أصوات نواعيـ ... ـك وكـادت قلوبنـا أن تطـيرا

فنفينا الرقاد عن كل عين ... فجّرتها دموعها تفجيرا
ما رأى الناس قبل مثواك يوما ... كان بالبين شرّه مستطيرا
ولقد خفتُ مِن فراقك يوما ... باكيا بالثبور يَنعي ثبيرا
فبرغمي ألا أرى منك وجها ... يَرجع الطرفُ مِن سَناه حسيرا
كنتَ ريحانةَ القلوب فقد وا ... رى بك التربُ عنبراً وعبيرا
كنت شهما معَ الحداثة في السن ... وجلْداً على البلاء صبورا
وحملتَ الأثقال عني فأمسى ... بكَ طرفي بين الأنام قريرا
فجزاك الآلهُ عن ذلك الصبـ ... ـر على الهول جنة وحريرا
وأراك الآلهُ في جنّة الخلد ... نعيما بها ومُلكا كبيرا

« الديوان ــ قسم المراثي »

يلاحظ أن صفي الدين يرثي الولد هنا على لسان أبيه :

(وحملت الأثقال عني فأمسى ...) ويرى أنه يجعل الرثاء مناسبا للمقام فالمرثي طفل صغير لذلك وصفه بأنه كان مناط الأمل لوالده وأنه سراج ونور له ، ووصف لوعة القلب عليه . ويظهر أنه كان مريضا يتوقع أهله موته لأن الوالد كان يخاف موته من قبل : (ولقد خفت من فراقك يوما) .

وكان ريحانة القلب وكانت فيه مخايل من الشهامة والصبر والمساعدة تدل على أنه لو عاش لكان ولداً موفقاً عظيماً .

ويدعو الشاعر أخيرا على لسان الأب للابن بالجنة وسعادتها الدائمة . وعلى الرغم من أن المعاني ملائمة للمقام كما قلنا قبل فإنها لا تخلو من المبالغة مثال ذلك قوله :

لا ولا خلت أن شهب الذراري ... بعد أوج العلا تحل القبورا

وقوله :

ما رأي الناس قبل مثواك يوما ... كان بالبين شره مستطيرا

وهي في مجموعها تذكر بأبيات أبي تمّام في رثاء ولدي ابن طاهر غير أن أبيات أبي تمّام أجمل .

وتلاحظ كثرة الاقتباس من القرآن في هذه الأبيات : جنّة وحريرا ، نعيماً بها وملكاً كبيرا .

ومن المراثي الخاصة رثاء الأتباع من خدم ومماليك وجواري . قال الحلّي يرثي مملوكاً كان ربّاه صغيراً حتى صار كاتباً فطناً وسيداً :

هجرت بعدك القلوبُ الجسوما ... حين أمست منك الربوعُ رُسوما
وخلتْ مِن سَناك زُهرُ المَغاني ... فاستحال النهار ليلا بهيما
يا هلالا أودى به الخسفُ لمّا ... صار عند الكمال بدرا وسيما
وقضيبا دنا لذيذُ جَناه ... فذوى حين صار بدرا قويما
ما ظننا المنونَ ترقى الى البد ... ر وان الحِمام يغشى النجوما
هدّ قلبي من كان يؤنس قلبي ... اذ نبذناه بالعَراء سَقيما
ونأى يوسفي فقد ذهبت عينا ... ي مِن حزنه وكنت كَظيما
يا صغيراً حوى عظيم صفات ... أوجبت في قلوبنا التعظيما
خلُقا طاهرا وكفّا صَناعا ... ولسانا طلقا وطبعا سليما
كنتَ رِقّي فصرتَ مالكَ رِقّي ... بحِجىً منك يستخفّ الحُلوما
ويدٍ قد ثنت عِنانَ يراع ... أنبتتْ في الطّروس دُرا نظيما
ومقالٍ اذا دعاه لبيب ... ظنّ أني منك استفدت العلوما
واذا ما تلوتَ نظمي ونثري ... خالني منك أطلب التعليما
يا خليلاً ما زال خصما لخصمي ... كيف صيّرتَ لي الغرام غريما
كيف جرّعتني الحَميم مِن الحُز ... ن وقد كنتَ لي صديقا حميما
نمتَ عن حاجتي فأحدثتَ عندي ... لتنائيك مُقعَدا ومُقيما
وترحّلتَ عن فِنائي رحيلا ... صيّر الحزنَ في الفؤاد مُقيما
لستُ أنساكَ والمنيةُ تُخفِي ... منك نُطقاً عذبا وصوتا رخيما

ومسحتُ الجبين منك بكفي فأعاد المَسيحُ قلبي كَليما
كنتُ أمّلتُ أن تشيّعَ نعشي وتواري في الترب عظمي الرميما
وتوقعتُ أن أردَّ بك الخطب فأمسي نواك خطبا جسيما
قد تبوأتَ قاطنا جنّة الخلد فأورثت في فؤادي الجحيما
وتفردت بالنعيم من العيش وأبقيت لي العذاب الأليما
فسقى عهدَك العهادُ فقد فزتَ بزُلفى الجنان فوزا عظيما
وعليك السلامُ حيّاً وميّتاً ورضيعا ويافعا وفَطيما

« الديوان ــ قسم المراثي »

يبدي صفي لدين لوعته لفقد غلامه ونشعر من هذه اللوعة عليه أن الغلام ليس رقّاً عنده بل هو ولد كريم عزيز عليه ، بل لعلّه عنده أعزّ من الولد وأغلى من الصديق . ويظهر من شعره أنه كان يعقد الآمال عليه وأنه هلك حين اكتمل وأن مخايل ذكائه قد أصبحت شمائل ونشعر أن علاقته به ليست علاقة لذة ومتعة بل هي علاقة بنوة وصداقة وثقة وأن ما امتاز به هذا الغلام من صفات فريدة جعل له في قلبه مقاماً فريدا ، فهو أنس للقلب ، حزن عليه حزن يعقوب على يوسف ، وهو ذو خلق طاهر ومهارة في الصناعة ولسان طلق وطبع سليم وعقل وافر وقدرة على الكتابة عجيبة حتى لكأن ما يكتبه درّ ، وهو واسع المعرفة ، حسن الأداء للشعر والنثر ذو صداقة وفية حتى أصبح بهذه الصفات ، على رقّه ، سيداً لسيده . لقد جرعه بموته العذاب وأقعده عن الحركة والسفر وأسكن فؤاده الحزن . ثم صوّره في حال الموت وقد عرق جبينه فمسح هو بكفه عرقه فجرح هذا العرق قلبه ، وكان يأمل أن يسبقه الى الموت وأن يردّ به المصيبة فسكن في جنة الخلد وأبقاه في جحيم الدنيا ويختم أبياته بالدعاء بالسقيا لمعهده، وبتحيته حياً وميتاً وفي كل مرحلة من سنّه. ونلاحظ أن الصناعة البديعية لا تفارقه كأهل عصره وأنه يكثر من الجناس كالحميم والحميم ، والطباق كالجنة والجحيم ، والتورية كالمسيح والكليم ، والاقتباس من القرآن مثل نأى يوسفي وقد ذهبت عيناي من حزنه وكنت كظيما . على أن هذه

الصناعة البديعية لم تفسد الشعر لسهولته وقرب معناه وقوة عاطفته وصدقها ، ومطابقتها لواقع الغلام وواقعه هو في حبّه وتقديره له ولحالة البيئة والعصر .

ومن المراثي الخاصة رثاء السلاطين والعظماء الذين تكون للشعراء علاقات بهم ومن ذلك قول الحلّي يرثي السلطان الملك المنصور :

يا بدوراً تغيب تحت التراب   وجبالا تمر مرّ السحابِ

إن في ذلك اعتباراً وذكرى   يتوعّى بها ذوو الألباب

قل لصادي الآمال لا ترِدِ العيش فإن الحياة لمع سراب

أين ربّ السرير والجيزة البيـ   ـضاء ذاتِ النخيل والأعناب

عرصاتٌ كأنهنّ سماء   قد توارت شموسها في الحجاب

أين ربّ الآراء والرتبة العلياء والماجدُ الرفيعُ الجنابِ

والذي لقّبوه بالأبلج الوهّا   ب طورا والعابسِ النهّاب

ليث أبناء أُرْتقَ الملكُ المنـ   ـصور ربّ الاحسان والأنساب

صاحب الرتبة التي نكص العا   لَم من دونها على الأعقاب

ومُجلّي لَبْس الأمور اذا بر   قع قبحُ الخطا وجوه الصواب

حاز حلم الكهول طفلا وأعطي   ورَعَ الشيب في أوان الشباب

جل عن أن تقبّل الناس كفيه   فكان التقبيل للأعتاب

لم ترنّح أعطافه نشوة الملـ   ـك ولا يزدهيه فرط اعتجاب

رافع النار بالبقاع اذا أخمـ   ـد بردُ الشتاء صوتَ الكلاب

ومُحيل العام المَحيل اذا اعتا   د لسانُ الفصيح نطقَ الذباب

عرفوا ربعَه وقد أُنكِر الجو   دُ برفع اللوا ونصب القِباب

وقدورٍ بما حوت راسياتٍ   وجِفانٍ مملوءة كالجَوابي

ملِك أصبح الخلائقُ والأيا   م والأرض بعده في اضطراب

فاعتبرْ خضرةَ الرياض تجدْها   أثَر اللطم في خدود الروابي

حملوه على الرقاب وقد كا   ن نداه أطواقَ تلك الرقاب

ما أظن المَنون تعلم ماذا   قصفت بعدَه من الأصلاب

يا رجيمَ الخطوب فاسترقِ السمع فأفْق العُلا بغير شِهاب

فلْيطُلْ بعده على الدهر عتبي رُبَّ ذمٍّ ملقَّب بعِتاب

أيها الذاهب الذي عرَّضَ الأموال والناس بعده للذهاب

طار لبُّ السماح يوم تُوفيتَ وشُقتْ مرائر الآداب

لوْ يَردُّ الردى بقوة بأس ونحيب اليَراع والقِرْضاب

وعلا في الملا عويل العَوالي لوقيناك في الأمور الصعاب

بأسود بيض الوجوه طِوال الـ باع شمٍّ الأنوف غُلْب الرقاب

تركوا اللهو للغُواة وأفنَوا عمرهمْ في كتائب أو كتاب

وجياد مثلِ العقارب نحو الـ روع تسعى شوائل الأذناب

كل طِرفٍ مطهَّمٍ سائل الغـ رة جعدِ الرُّسْغين سَبْط الاهاب

كنت ذخراً لنا لو أن المنايا جُنِّبتْ عن رفيع ذاك الجَناب

لم أكن جازعاً وأنت قريب لبعاد الأهلِين والأنساب

كان لي جودك العميم أنيساً في انفرادي ومَوطنا في اغترابي

ما بقائي من بعد فقدك إلا كبقاء الرياض بعد السحاب

« الديوان ، قسم المراثي »

يرثي صفي الدين هنا الملك المنصور بن أرتق ولي نعمته الذي مدحه في حياته بالأرتقيات التسع والعشرين على احرف الهجاء ، وهذه القصيدة ليست منها •

وهو يستهل المرثية بتشبيه المرثي بالبدور والجبال ، واستغراب ان تدفن هذه البدور والجبال تحت الارض ويشير الى ان فترة حياته كانت قصيرة تمر مر السحاب ويدعو الناس الى الاعتبار فالحياة سراب وماذا يأمل الانسان من الحياة بعد موت هذا الملك العظيم •

ثم يتساءل الحلّي عنه أين هو الآن وماذا جرى بسريره وقصوره ودياره ويصفه بأصالة لرأي وعلو الرتبة وبالمجد والكرم والشجاعة والتفوق على الاقران وحل المعضلات والحلم والورع والهيبة والاحترام والتواضع وعدم العجب والكرم في

أيام الشدة والبرد والمجاعة ونصب اللواء عاليا ليفد اليه طالبو المعروف وزلزلة الامور بعده وحزن الدنيا عليه فما خضرة الرياض الا من اثر لطم الروابي خدودها لفقده . ان المنايا لم تعلم ماذا فعلت باخترامه والعدو سيطمع في بلده . لقد ضاع بعده الناس والاموال وجن الكرم وحزنت عليه الآداب والرماح والسيوف . ولو كان يمكن فداؤه لفدته انفسنا واسود شجعان كرام النفوس أعزة أقوياء أهل جد قضوا عمرهم بين العلم والقتال والخيول الكريمة التي تشيل بأذنابها عتقا كأنها العقارب وهي مضمرة حسنة الخلقة . ولا عجب فقد كنت لنا ذخرا لا نبالي في قربك ببعدنا عن اقاربنا وكان جودك مؤنسا لنا في غربتنا . فما بقائي بعدك وانما أنا كالارض الطيبة فقدت المطر فأصبحت جدباء .

في هذه القصيدة لوعة صادقة ومدح تقليدي بصفات معروفة منذ الجاهلية الا ان الشاعر اضاف اليها العلم ومعاشرة الكتب . وفيها سهولة في التعبير وصناعة بديعية كثيرة تظهر في كثير من الطباق والجناس والاقتباس مما يستطيع القارىء ان يتبينه بنفسه مثل : وجبالا تمر من السحاب (اقتباس) الوهاب النهاب (طباق وجناس ناقص في الوقت نفسه) كتائب وكتاب (جناس غير تام) .

وفيها بالاضافةالى ذلك جمال في الموسيقا بحيث نحس فيها نغمة بحترية لعلها جاءت من استخدامه البحر الخفيف مع حسن اختياره للكلمات مفردة ومجتمعة .

وقد اكثر الشعراء في هذه العهود من رثاء العلماء الذين نالوا فيها مكانة سامية بسبب تشجيع العلم وتقدير اهله من الحاكمين فاطميين وأيوبيين ومماليك ، ومن الشعب ايضا .

ويظهر في بعض المراثي التي قيلت في العلماء استعمال اصطلاحات العلوم التي يمتازون بها من ذلك ما جاء في قصيدة شرف الدين الحصني الدمشقي التي يرثي بها محمد بن مالك النحوي صاحب الالفية المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .

يا شتاتَ الأسماء والأفعال	بعد موت ابن مالكِ المِفضالِ
وانحرافَ الحروف مِن بعد ضبطٍ	منه في الانفصال والاتّصال

مَصدَراً كان للعلوم بإذن اللـه من غير شبهة ومحال
أدغموه في الترب من غير مثل سالماً من تغير الانتقال
يا لسانَ الأعراب يا جامع الإعراب يا مُفهماً لكلّ مقال
كم علومٍ بثثتها في أناس علموا ما بثثتَ عند الزوال

« بغية الوعاة ٥٥ »

لا شك في ان هذا الراثي جاد في رثائه بالاضافة الى ذوقه وذوق عصره ، ولكننا بحسب عصرنا وذوقنا الآن نقرأ هذا الشعر فلا يثير فينا الحسرة بل الابتسامة وتتخيل ان الشاعر يهزل وأنه اميل الى الدعابة في رثائه منه الى الجد .

ومن رثاء العلماء قول صفي الدين الحلّي يرثي شهاب الدين محمودا كاتب السر في دمشق (المتوفى سنة ٧٢٥ هـ) :

حبلُ المنى بحبال اليأس معقود والأمن من حادث الأيام مفقود
والمرء ما بين أشراك الردى غرَضٌ صميمه بسهام الحتف مقصود
لا تعجبنَّ فما في الموت من عجَب إذْ زال حدٌّ به الانسان محدود
فالمستفاد من الأيام مرتجَع والمستعارُ من الأعمار مردود
وللمنية أظفار اذا ظفرتْ رأيت كل عميدٍ وهو معمود
لم ينج بالبأس منها مع شراسته ليثُ العرينِ ولا بالحيلة السِّيد
قد ضل مَن ظن بعض الكائنات لها مكث وللعالَم العلوي تخليد
ألم يقولوا بأنّ الشهب خالدة طبعاً ، فأينَ شهابُ الدين محمود
مَن كان في علمه بين الورى علَماً يُهدَى به إن زوت أعلامها البِيد
ومَن روت فضلَه حُساد رتبته وعنعنت عن أياديه الأسانيد
فضلٌ به أوجهُ الأيام مشرقة كأنه لخدود الدهر توريد
مهذّب اللفظ لا في القول لجلجةٌ منه ولا عنده في الرأي ترديد
لا يهدمُ المَنّ منه عمرَ مكرُمة ولا يُعمَّد بالمَطل المواعيد
إن كان يُقصَد مقصودٌ لِبذلِ ندىً فإنه للندى والفضل مقصود

لـه اليراع الذي راع الخطوبَ به في حلية الطرس تصويبٌ وتصعيد

أصمُّ أخرسُ مشقوقُ اللسان اذا طارحتَه سُـمعت منـه الأغاريـد

إن شاء تسويدَ مبيضٍّ الطروس فمن إنشائه لبَياضِ النـاس تسـويد

لو خَطَّ سطرا ترى عكس القياس به الشمسُ طالعةٌ والليـلُ موجـود

والسائراتُ التي راقت لسامعهـا ألفاظهـا وحلت منهـا الأناشـيد

رشيقةُ السبك لا المعنـى بمبتَذلٍ منها ولا لفظُها بالعـرف مكـدود

يا صاحب الرتبة المعذورِ حاسدُها إنّ السعيد على النعمـاء محسود

ما شام بعـدك أهلُ الشام بارقةً للفضل حين ذوى من ربـه العـود

اليك كان يُعزّى العـلمُ منتسبا واليوم فيك يعزّى العـلم والجود

كم خطبة لك راع الخطبَ موقعُها وكم تَقلّدَ منه الدهـرَ تقليـدُ

ولفظة لا يسد الغـيرُ موضعَهـا غـراءُ تحسب ماءً وهي جلمـود

وجحفلٍ لجـدال البحث مجتمـعٍ كأنـه لجَـلاء الحـرب محـدود

قد جرّد الشوسُ فيه قُضُبَ ألسنةٍ في معركَ يومُـه المشهورُ مشهود

عقـرتَ كلَّ كمـيٍّ فـي عقيرته بـه وأزرُك بالتحقيـق مشـدود

بصـارم لا يردّ الـدرعُ ضربتَه ولـو ثنى نسجَه المـردودَ داود

حتى اذا نكص القومُ الكميُّ به وأعوزت عنـد دعـواه الأسـانيد

ألقَوْا مَقاليدَهم فيه الى بطـلٍ شـهمٍ الى مثله تُلقى المقـاليد

يا مُفقدي، مع وجودي فيض أنعُمِه، همّي، وموجِدَ وجدي وهو مفقود

وجاعـلَ الفضل فيما بيننا نسـبا إذْ كـان في نسـب الآبـاء تبعيد

قد كان يجدي التأسي عنك دفعَ أسى لو أنّ مثلك في المِصريْن موجود

قد أخلقتْ ثوبَ صبري فيك حادثةٌ أضحى بها لِثياب الحـزن تجـديد

برغـم أنفيَ أن يدعوك ذو أمَـلٍ فلا يسحُّ عِهـادٌ منـك معهـود

وان يرى ربعك العـافي وليس بـه مرعى خصيب وظـل منك ممـدود

أبكي اذا ما خلا، أوصافَ مجدك لي، فكري فأطلبُ صبري، وهو مطرود

وألتجـي بالتسـلي ان ستخلّفنا أنباؤهـا النسرَ أو أبناؤك الصيد

فسوف ترثيك مني كل قافية بها لذكرك بين الناس تخليد
وأسمعُ الناس أوصافا عرفت بها حتى كأنك في الأحياء معدود
فلا عدا الغيثُ تربـاً أنت ساكنه مع علمنا أن فيه الغيثَ ملحود
ودام ، والظلُّ ممدود بساحته والسدرُ والطلحُ محضور ومنضود

« ديوان صفي الدين ــ قسم الرثاء »

يرثي صفي الدين في هذه القصيدة صديقه كاتب السر في دمشق الشاعر شهاب الدين محموداً الذي رأينا له عدة قصائد في تخليد انتصارات المماليك على الصليبيين والمغول .

والشاعر هنا صادق العاطفة اذ لا يبتغي مكافأة من ورثته او مكانة عندهم وانما هو يعبر عن اسفه لفقده .

وهو يستهل القصيدة بالحديث عن حتمية الموت وان كل شيء هالك ويكرر هذا المعنى في عدة أبيات على عدة أوجه لينتهي بأن الفلاسفة الذين يقولون بخلود العالم العلوي المادي مخطئون فاذا كانت الشهب في فلسفتهم لا تفنى فكيف هلك شهاب الدين محمود ، وهكذا يخلص الشاعر الى الحديث عن صفاته .

وهو هنا يرثي عالما كاتبا شاعرا خطيبا رئيسا عظيما كريما قوي الحجة حاضر البديهة متين المناظرة ويذكر هذه الصفات في المرثي مبينا انه انفرد فيها وبلغ في كل منها اعلى الدرجات . ويوائم بين معاني مدحه وبين [illegible] المدوح وصفاته الحقيقية ولذلك لم يتحدث عن الشجاعة والفروسية وانما [illegible] عن القلم والمناظرة والحجة والأسانيد وقوة الرأي والتغلب على الاقران به . وهو يستعمل المصطلحات العلمية المناسبة لمعاني مدحه ولكن برفق وتأن وبعد عن الغلظة مثل عنعنت والأسانيد ولجلجة وقد استطاع ان يجعل من مرثيه المثل الاعلى للانسان المثقف . وقد كان شهاب الدين محمود كذلك حقا ، وقد صدق الشاعر في كل ما قاله فيه . وهو يذكر صداقته له ويعتز بهذه الصداقة ويعترف بفضله عليه ويصف كرمه وصعوبة التأسي عنه فليس مثله في المصرين موجودا فما اصعب الصبر عليه ويرجو ان يخلفه ابناؤه في كمال

صفاته ويعاهده على تكرار المراثي فيه وهي ستخلد بالمرثي لشهرته وكماله ، ثم يدعو لقبره بالسقيا على عادة العرب مع علمه بأن الغيث مقيم في هذا القبر .

وعلى ان نسج القصيدة فخم واسلوبها في معظمها محكم فان بيتين منها جاء فيهما بعض المعاظلة التي أضفت عليهما الغموض وهما البيتان اللذان يبدءان بيامفقدي ، وأبكي اذا ما خلا .

والمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المرثية كلها تقليدية وكذلك الصور فانها ليس فيها جديد ولكن الشاعر هنا ابن عصره في استعمال الالفاظ المأنوسة ثم في الاكثار من الصناعة البديعية من طباق وجناس وتورية واقتباس . وهي لا تخفى على القارىء ، ولكنها على كثرتها لم تسيء الى القصيدة بقدر ما أساءت اليها المعاظلة التي تحدثنا عنها .

وقد كثر في هذا العصر الرثاء الساخر الذي يرثي الشاعر فيه متهكما حماره ، أو ثوبه المهلهل ، او بغلته ، او خروفا هزيلا أهدي اليه . وهذا الرثاء يدخل في باب الدعابة وانما ذكرناه هنا لان مظهره الرثاء وان كان يقصد به هجاء إنسان أو شكوى الدهر بعامة .

قال أبو الحسين الجزار وقد مات حماره :

مات حمار الأديب قلت لهم ... مضى وقد فات منه ما فاتا
مَن مات في عزّه استراح ومن ... خلّف مثلُ الأديب ما ماتا

ورآه بعض أصحابه ماشيا بعد موت الحمار فداعبه فأجابه :

كم من جهول رآني ... أمشي لأطلبَ رزقا
وقال لي صرت تمشي ... وكلّ ماش ملقّى
فقلت مات حماري ... تعيش أنت وتبقى

« مطالع البدور ۲ : ۱۹۱ ــ ۱۹۲ »

ويلحق بباب الرثاء قصائد التعزية وتتجه فيها القصيدة الى أهل الميت تحثهم على الصبر وتشيد بهم بأنهم خير خلف لذلك السلف العظيم وقد يصرف الشاعر جهده الى مدح الحي .

ومن التعازي الموجزة قول صفي الدين الحلّي في مطلع رسالة الى ابناء الملك المنصور يعزيهم فيها بوالدهم :

ما مات من أنتمُ أغصانُ دوحته — فالذكر منه مقيم بين أحياء
لما اقتضى الدهر منه وِتْره وقضى — عفٌ الازار حميد الفعل والراء
كنتم له خلفاً يُهدي الثناء له — كالماء يورَد أو كالورْدِ للماء

ومنها قول الحلّي يعزي احد الامراء بمصاب له :

لا أرى اللهُ مجدَ مولاي سوءا — لا ، ولا ريعَ بعدها بمُصاب
فكفاه الإلهُ حادثَ دهرٍ — وتوالى له جزيل الثواب

ومنها ما كتب الى أحد الاعيان :

لا شغلَ الله لكم خاطرا — ولا عرتكم بعدها شائبة
ولا أرتكمْ لصروف الردى — حادثة تصمي ولا نائبة

ومن التعازي المتوسطة الطول قول الحلّي :

لِدوا للموت وابنوا للخراب — فما فوق التراب الى التراب
كذلك قال خير الخلق طرّاً — رسول الله ذو الأمر المُجاب
فمرجع كل حي للمنايا — وغاية كل ملك للذهاب
بنو الدنيا فرائسُ للمنايا — ونابُ الموت عنها غيرُ ناب
ومن يغترُّ في الدنيا بعيش — فقد طلب الشراب من السراب
دعا ابنك للردى من ليس يُعصَى — وداعي الموت ممنوع الجواب
أرانا فقدُه الأيامَ سودا — ونادي الأنس مغبرٌ الجناب
وما طيب الحياة بغير بِشرٍ — وما حسن السماء بلا شهاب
فلُذْ بالصبر في اللائي وأحسن — عزاءك واغتنم حُسنَ الثواب
فإنك من أناس ليس يخفى — على آرائهم وجهُ الصواب

« ديوان الحلّي ـ قسم التعازي »

ويلاحظ ان الخطاب في التعازي يتوجه به الى الحي قريب الميت ولا يتوجه الى

الميت وانما يكتفي بالحديث عنه ، كما يلاحظ في آخر الأبيات تهوين الخطب في موت البنات والنساء وهو من أثر الروح الجاهلية والنزعة البدويّة •

ومن مراثي هذا العصر ما جدد فيها أصحابها في قالب الشعر على خلاف شعراء العصور السابقة الذين كانوا لا يخرجون في المراثي عن الأوزان التقليدية في اشكالها المعروفة المبسطة •

من ذلك هذه المرثية التي رثى بها صفي الدين الحلّي السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه سنة ٧٣٢ هـ وقد حضر موته مسمطا لقصيدة الوزير ابي الوليد احمد بن زيدون الاندلسي المشهورة : أضحى التنائي • وسنكتفي بذكر مقطعين منها مثالا عليها كلها وهي طويلة :

كان الزمان بلقياكم يمنّينا وحادث الدهر بالتفريق يثنينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

خلنا الزمان بلقياكم يسامحنا لكي تزان بذكراكم مدائحنا
فعندما سمحت فيكم قرائحنا بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم ولا جفّت مآقينا

« ديوان الحلّي ــ قسم الرثاء »

ولعل هذا النمط من التسميط في الرثاء يأتي علينا غريبا ولا سيما انه يوحي الينا بالموسيقا والغناء والطرب ، ونتساءل : أألف هذا النمط من الشعر عمداً لكي يرثي به الميت على ألحان حزينة ؟ نقول هذا اجتهادا الآن وليس لدينا نصوص تثبت ما قلناه ، ونرجّح نفيه •

د ــ العهد المملوكي الجركسي :

من رثاء الأقارب في هذا العهد قول الامام المتوكل على الله يحيى شرف الدين يرثي زوجه الشريفة فاطمة بنت عبد الله المتوفاة حوالي سنة ٩١٠ هـ ، وكانت عالمة فاضلة في غاية الجمال والكمال :

هي النفس حنّت من شجاها وأنّت ... فغيم تلوم العين إن هي شنّت
مراجلُ حزن في فؤادي أوقدت ... فمن فيضها تلك الدموعُ استهلت
وهل ينبغي لي ان أرى اليوم ساليا ... وفاطمةٌ في باطن اللحد سُلّت
عقيلةُ آل المصطفى الطهر والتي ... بكل الامور الصالحات تحلّت
فلذّة قلبي بل سويداءُ مهجتي ... ومطّلبي من كل شيء ومنيتي
وما فاطمٌ إلا من الحور أخرجت ... لنعرف قدْر الحور ثمّتَ رُدّت

(ملحق البدر الطالع ، ص ١٨٦)

هذه الابيات زاخرة بالعاطفة تأتي في مستوى المراثي الشخصية الجيدة لا الرائعة الفريدة عبّر فيها الزوج عن لوعته الصادقة ببساطة ولغة سهلة ووصف واقعي وقوة تحسّس للمصيبة .

وقد وجدنا شاعرا (*) يرثي نفسه قبل موته بمدة وهو في القاهرة وكان

(*) قائل هذه الابيات هو ابراهيم بن عمر بن حسن الرباط (٨٠٩ — ٨٨٥هـ) ، وقد كنى نفسه أبا الحسن ، الخرباوي البقاعي . ولد في خربة روحا من البقاع ونشأ بها ثم تحول الى دمشق ثم الى بيت المقدس ثم القاهرة ثم عاد الى دمشق ، ولقب ابن عويجان (تصغير اعوج) . درس العلوم الدينية على اشهر علماء عصره في المدن التي عاش فيها وعرف بتيهه وعجبه بنفسه ورميه الناس بالقذف والفسق والكذب والجهل . اتهمه السخاوي وغيره بأنه يضمر خلاف ما يبطن من الدين . وعرف بحب الخلاف في الرأي ووصف بأنه كان يقابل المعروف بالاساءة وانه كان يتناقض رأيه في الرجل بحسب سخطه ورضاه عنه وبحسب ما ينتظره منه من منفعة . وقد قال بعضهم :

ان البقاعي البذيء لفحشه ... ولكذبه ومحاله وعقوقه
لو قال ان الشمس تظهر في السما ... وقفت ذوو الالباب عن تصديقه

وقال فيه العلاء بن اقبرس :

لك الحمد الجزيل بلا امتنانِ ... وفضلٌ بالعطاء بلا نزاع
فطهّر قلبَنا من كل غِلّ ... وجنّبنا الخبيث من البقاع(عي)

وكان الناس يكرهونه في البلاد التي يحلها لتهجمه على الأئمة المشهورين كالغزالي وابن تيمية وحين مات لم يصلّ عليه التقي بن قاضي عجلون وغيره .
« عن الضوء اللامع للسخاوي ج ١ : ١٠٠ — ١١١ »

القاضي عز الدين الحنبلي يستكثر ابياته عليه ويقول لعلّه ظفر بها لغيره . وقال السخاوي إنّ سجيته انبعثت لها لمزيد حبه في مدح نفسه وهاهي الأبيات :

نعَمْ انني عما قريب لَميّتٌ — ومن ذا الذي يبقى على الحدَثان
كأنيَ بي أنعى اليكَ وعندها — ترى خبرا صُمَّتْ له الأذُنان
فلا حسد يبقى لديك ولا قِلىً — فتنطقَ من مدحي بأي معان
وتنظر أوصافي فتعلمُ أنها — علت عن مُدانٍ في أعزّ مكان
ويمسي رجال قد تهدم ركنهم — فمدمعهم لي دائم الهملان
فكم من عزيز بي يذلّ جماحه — ويطمع فيه ذو شقا وهوان
فيارُبّ من يُفجَا بهولٍ بوُدّه — ولو كنت موجودا اليه دعاني
ويارُبّ شخص قد دهته مصيبة — لها القلبُ أمسى دائم الخفقان
فيطلبُ من يجلو صداها فلا يَرى — ولو كنتُ جلّتها يدي ولساني
وكم ظالم نالته مني غضاضة — لنصرة مظلوم ضعيف جَنان
وكم خطة سامت ذويها مَعرّةً — أعيذت بضرب من يدي وطعان
فان يرثني من كنت أجمع شمله — بتشتيت شملي فالوفاءُ رثاني
وإلا نعاني كلُّ خُلْق ترفّعت — به هممي عن شائن وبكاني

« الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي ج ١ ، ١٠٠ — ١١١ »

وأبياته سيئة المستوى معاني وصورا واسلوباوالفاظا واين هذه الابيات من قصيدة مالك بن الريب المتوفى زمن الخليفة عثمان بن عفان في العهد الراشدي ، يرثي نفسه فيها ومنها :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد — سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوكا يجر عنانه — الى الماء لم يترك له الموت ساقيا

« عدّة الأديب : للأستاذ المرحوم سليم الجندي ورفيقيه »

وقد وجدنـا معنى جميلا لابن مليك الحموي في موت الرجـال على ظهور الخيل ، وهو :

وفوق ظهور الخيل ماتوا فأصبحوا   وفي كـل سرج فوقها لهـم قبـر

وقد ذكر الخفاجي بعد هذا البيت انه توارد فيه مع ابن حجة ومع ابن نباتة في مرثية له وانه كان يظن هذا المعنى للمحدثين ثم رآه في أشعار المتقدمين كأبي نواس في قصيدته التي مطلعها :

أجـارة بيتَيْنـا ابـوك غيـورُ   وميسـور ما يرجى لـديكِ عسير

حيث يقول :

اليكَ أتت بالقـوم هُوجٌ كأنما   جماجمُهـا تحت الرجـال قبـور

« الريحانة ج ١ ، ص ١٩٢ »

ويظهر من هذه الامثلة ان الرثاء في العهد المملوكي الجركسي ليس فقيرا كمّا فقط بل هو سيء نوعا ، ولعل ذلك راجع الى أمرين الاول ان هذا العهد لم يكن فيه كفاح ضد المحتلين من صليبيين أو تتـار بالمعنى الصحيح ، لأنّ الحروب الصليبية كانتْ قد انتهت في العهد المملوكيَ الاول على يد الملك الاشرف خليل ، ولأنّ التتار كانوا قد دخلوا في الاسلام خلال هذا العهد ولم تكن البلاد تتوقع هجومهم حين هاجمها تيمور وكان الناس فيها قد استلموا الى الدعة والخمول ولم يبق لديهم حافز للكفاح او لنظم الشعر . والثاني ان ما كتب في تراجم الرجال خلال هذا العهد كان خاضعا لأذواق المؤلفين ولعلهم لم يكونوا في مستوى ذوقي أدبي رفيع فلم يأتوا في كتبهم بنماذج جيدة للأدباء ولم يكثروا منها كما فعل العماد الاصفهاني في الخريدة خلال العهد الزنكي والأيوبي وكما فعل الخفاجي في العهد العثماني حين ألّف كتابه الريحانة .

* * *

الغــزل في عهــود الــدول المتتابعــة

ا ــ العهد الفاطمي ــ الزنكي :

اهتم الشعراء بالغزل وجعلوه لهم غاية فنظموا فيه القصائد المفردة ووضعوه في أول قصائد المديح بل جعله بعضهم في افتتاح إحدى مراثيه . وظهرت قصائد رائعة فيه عبرت عن عاطفة الحب تعبيراً جميلاً .

وتنوعت عاطفته بين الرضى والسخط والعتب والشكوى والاعجاب والنقمة . ولم ينحدر في جملة حالاته عما قيل في العصور الماضية . فأبيات أسامة بن منقذ أحد شعراء العهد الفاطمي ــ الزنكي « ٤٨٨ ــ ٥٨٤ هـ » التالية من الغزل الجيد الذي يوازن بالغزل العذري الأموي :

ولّوا فلما رجونا عدلَهم ظلموا ... فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مرّ يوما بفكري ما يريبهمُ ... ولا سعت بي الى ما ساءهم قَدَمُ

ولا أضعتُ لهم عهدا ولا اطّلعتْ ... على ودائعهمْ في صدري التهمُ

حفظتُ ماصنعوا،أغضيت حين جنَوْا ... وفيت اذا غدروا،واصلت اذا صرَموا

حرمت ما كنت أرجو من ودادهم ... ما الرزق الا الذي تجري به القسم

محاسني منذ ملّوني ، بأعينهمْ ... قذىً ، وذكريَ في آذانهم صممَ

وبعدُ ، لو قيل لي : ماذا تحبُّ ، وما ... مُناكَ مِن زينة الدنيا ، لقلت : همُ

هم مَجال الكرى مِن مقلتيّ ، ومِن ... قلبي محلُّ المنى ، جاروا أو اجترموا

تبدلوا بي ، ولا أبغي بهم بدلا ... حسبي هم،أنصفوا في الحكم أو ظلموا

« الروضتين ١ : ٢٣٧ » و « الديوان ص ٤٤ ، ٣٢١ »

فهو في هذه الابيات مثال المحب المولع الثابت على العهد مهما أساء اليه

الحبيب . وهي تعبر عن احواله النفسية وحال حبيبه ولا يهتم فيها بالاوصاف الجسدية [1] .

وقد تغزل الشاعر في هذه الحقبة ليعبر عن شعوره ، فهو يقلد من سبقه ومن حوله حينا ويجدد حينا آخر بزيادة أو تغيير او تجديد كلي : ومن التجديد الكلي الغزل بالصليبيات وبالعنصر التركي . وسنتحدث عنهما قريباً .

وبقي الشاعر ، يستهل به قصائد المديح ، ولكنه قصر قسما من شعره عليه فنظم فيه قصائد مستقلة وحده ، وحاول ان يجدد في المعاني .

وكان يتمم معنى النسيب والغزل احيانا بوصف الخمر والحديث عنها سواء أشربها أو لا فقد كان ذكرها يستدعي الحديث عن الساقي والساقية ، وقد يجعل الشاعر الخمر والساقي والساقية طريقه إلى الغزل والنسيب .

ومن أهم ما يلاحظ في هذا العهد تغزل بعض شعرائه بالصليبيات مع ما بين المسلمين والصليبيين من حرب ، ثم شيوع الغزل بالغلمان ، ثم الغزل بالجنس التركي .

١ ـ الغزل بالصليبيات :

يذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » في حوادث سنة ٥٨٦ هـ ان « السنة » استهلت والسلطان محاصر لحصن عكا وأمداد الفرنج تفد اليهم من البحر في كل وقت ، حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ، ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء لينكحوها في الغربة . فيجدوا راحة وخدمة وقضاء وطر . قدم اليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء وأجملهن بهذه النية ، فاذا وجدوا ذلك ثبتوا على

---

(١) مما يلاحظ على هذه الابيات ان قائلها اسامة جعلها ملائمة لموضوع القصيدة الاساسي وهو عتاب عمه على سوء معاملته بعد حسن العلاقة بينهما . وهو في هذا يجري على عمود الشعر الجاهلي الذي يجمل المقدمة الغزلية اطاراً متلائماً مع موضوعها الرئيسي بحيث يرتبطان بسلك نفسي يوحدهما .

الحرب والغربة ، حتى إن كثيرا من فسقة المسلمين تحيزوا لهم من اجل هذه النسوة واشتهر الخبر بذلك •

لا غرابة إذاً في أن نرى بعض الشعراء يتغزلون بنساء الفرنجة وغلمانهم • فمن قول ابن القيسراني :

لقـــد فتنتْـــني فرنجيـــة   نســيمُ العبـير بهـــا يعبـق
ففـــي ثوبهـــا غصُـــن ناعـــم   وفي تاجهـــا قمــــر مشـــرق
فـــإن تـــك في عينهـــا زرقـــة   فـــإن ســـنان القنـــا أزرق

« ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و ٦٣ — ٦٤ »
والخريدة ، شام ، ١ : ٩٩ »

يقول ابن القيسراني هذا على الرغم من انه كان قد أجلي عن وطنه قيسارية في فلسطين ثم عن عكا وبرغم انه كان قد نيف على الستين حين زار ثغور الساحل وهي بيد الفرنجة ولكن الجمال قد فتنه •

فلا عجب اذا رأينا القاضي الفاضل بعد في العهـد الأيوبي يكتب الى صلاح الدين ناصحا وشاكيا من ظهور المنكرات في اتباع السلطان في رسـالة : « المملوك ينهي ان الله تعالى لاينال ما عنده الابطاعته ولا تفرج الشدائـد الا بالرجوع اليه والامتثال لأمر شريعته ، والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية • وقد طلع الى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلاّ ما يستعاذ منه •• بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد وتتصدع بذكرها الاكباد ، والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكـرات في أتباعه [1] وشيوع المظالم في ضياعه ، وخراب البلد •• » •

وكان بعض الشعراء يذهبون أثنـاء الهـدنة الى كنائس الافرنج ويشاهدون الصليبيات السافرات ويتغزلون بهن ، في الثغور التي بأيدي الفرنجة • منهـم ابن القيسراني الذي زار كنيسة بربارة في أنطاكية فقال :

---

(١) اي اتبـاع السلطان •

بدينِــكَ يا قَسُّ برِبــارة ... وما بتَّ تتلوه في الحِندسِ
أجرني من الصور الناطقات ... وقد قمن حولك في مَدرَس
اذا هن أقبلن وقت الصلا ... ة في كل لون من الأطلس
وجالت مَناطقُ أوساطها ... وضاقت بها حلل السندس
فلولا التحرج في ملتي ... طلعت عليهن في برنس
وقمت ألحِّن قدامهن ... غير بليد ولا أخرس
ولم تك فرسانها في الطعان ... بأشجعَ مني ولا أفرس
ألا حبذا ما استثار الهوى ... بتلك الكنائس من كُنَّس
ترى كل فاتنة وجهُها ... معرّى بشمس الضحى مكتس
فرنجية ساكنٌ عِقدُها ... وزنارُها قلِق المجلس
اذا قبّلتْ صورة أقبلت ... عليها بناظرها الأشوس
فياليتني عندها دمية ... تراني ولا ريبَ في ملمس
فأقسم لو أنني أستطيع ... تحولتُ صورة مرجرجس

« الديوان (خ) ق ٧٠ ــ ٧١ »

وقال وقد حضر الصلاة في كنيسة السيدة :

أصاحِ متى عجتَ بالسيدة ... فسل عن فؤاديَ في الأفئدهْ
وقلبَكَ حذِّرْه من أن يُصادَ ... فإن بها للهوى مصيدهْ
وجوهٌ تباهي قناديلَها ... ببهجة نيرانها الموقدهْ
ترى كل مستضعَف خصرُه ... اذا مادعا طرفَه أنجده
وذاتِ روادفَ عند القيا ... م تحسبها أنها مُقعدَهْ
وبدرٍ من الشَّعر في غاسق ... يضاحك أبيضُه أسودَه
فياليَ من ذلك الزربرقان ... اذا زرقن الليلَ أو جعّده
وطيفِ خيالٍ اذا ما رأيـ ... ـت أمرده قلتُ ما أمردَه
وسرحِ عيونٍ كحيلِ الظباء ... تُغانِج غادته أغيدَه

« الديوان : خ : و ٦٩ » و « الخريدة ، شام ، ١ : ص ٨ »

وقـال :

أمعظمـةَ الصليـب وددتُ أنـي ... وديـنِ الله عنـدكم صليـبُ
اذا أقبلـتُ قبّلنـي حبيـب ... أسـرّ بـه وعانقنـي حبيـب
وهـل بيني وبـين العـود فـرق ... يـرى الا التفجـعُ والنحيـب
هبينـي صورة نحيـا عليهـا ... أجيـب اذا دعيـتُ ولا تجيـب

« الديوان (خ) و ٦٤ »

وقـال :

كـم في الكنـائس مِن مبتّلـة ... مثـلِ المَهـاة يَزينهـا الخفَـرُ
مـن كـلِّ سـاجدة لصورتهـا ... لو ألصَقت سـجدت لهـا الصوَر
قديسـةٌ في حبـل عاتقهـا ... طـول وفي زُنّـارهـا قِصَـر
غرَسَ الحيـاء بصحـن وجنتهـا ... ورداً سـقى أغصـانـه النظَـر
وتكلمت عنهـا الجفـون فلـو ... حاورتَهـا لأجـابك الحَـوَر
وجلت مدارعُهـا غدائرَهـا ... فـأراك ضعفـي ليـلةٍ قمـر

« العماد الكاتب ، الخريدة ق الشام ١ : ١٢٠ »

وقال في فرنجيات يظهرن في نوافذ البيوت :

تـرى قصـورا ، كأنهـا بِيَـع ... ناطقـةٌ في خلالهـا الصـوَرُ
هـالاتُ طاقـاتِهـن آهلـة ... يبسـم في كـل هـالة قمَـر
سـوافرٌ ، كلـّمـا شَـعرن بنـا ... برقعهـنّ الحيـاء والخفَـر
مـن كـل وجـه كأنّ صورتَـه ... بـدر ، ولكـنْ ليـلُه شَعَر
فهـو اذا ما السـلوّ حـاربـه ... كـان لتلـك الضفـائر الظفَـر
فيا عـذولي فيهـن دع كلَفـي ... وانظر الى الشمس هل لها طرُر
وكـن مُعيني على ذوي خِـدَع ... إن سـالم القلبُ حـارب النظر
سـرتُ وخلّفتُ فـي ديارِهـمِ ... قلبـاً تمنّيت أنـه بصـر
ولـم أزل أغبـط المُقيمَ بهـا ... للقـرب حتى غبَطتُ مَن أُسِروا

« الديوان (خ) و ٦٣ ــ ٦٤ »

لقد تمنى ابن القيسراني ان يكون بين الاسرى ليرى هؤلاء الفرنجيات وهـو شيخ قد نيف على الستّين • ونلاحظ باختصار ان التغزل بالفرنجيات شعرا قد حمل لواءه ابن القيسراني وبعض معاصريه ويظهر أنه قد دفن معهم فلم نعد نرى بعـده شاعرا يتغزل بهن ، اللهم الا ماكان من غزل بالروميات ، وهـو معروف قبله بزمن طويل •

الغزل بالغلمان :

انتشر الغزل بالغلمان على ألسن أكثر الشعراء في ذلك العهد ، من أولع منهم بالغلمان حقيقة ومن قلّد ، وحارب هذا الشذوذ بعض الكتاب والشعراء • وكان لانتشاره أسباب :

منها التصوّف الكاذب ، فقد كان البعد عن مسؤوليات الحيـاة واللجوء إلى التكايا سبباً إلى انتشار اللـواط بين بعض اللاجئين إليها باسـم التصوّف ، غير الصادقين فيه •

ومنها إقلاع رجال الحرب عن الزواج لاشتغالهم بها عن تكوين أسرة وتحمّل أعبائها •

ومنها كثرة وجود غلمان من العناصر الأجنبية كالإفرنج والترك والتتر امتازوا بالجمال وكانوا ينتقون دائما جميلين أقوياء ويشترون صغارا •

ومنها أنّ بعض الأجناس كالتتار كانت تعرف هذا الشذوذ في بلادها •

وكان الشعراء الذين يتغزّلون بالمذكر في صدر الدولة العبّاسية زمن أبي نواس من الشعراء الذين عرفوا بالخلاعة والمجون وكانوا قلّة بين الناس • أما في هذا العصر فقد نظم فيه أو قال به رجال عرفوا بمكانة علمية أو سياسية أو قيادية مرموقة وكثر انتشاره بين الناس •

على أنّ كل غزل استعمل فيه ضمير مذكّر ليس غزلا في الغلمان فقد تحدّث ابن رشيق بأنّ بعض الشعراء يستعملـون التعبير بالمذكّر عن المؤنث على عـادة

المحدثين وسلوكا لطريقتهم لئلا يخرجوا على نظام عصرهم ، أو ليكنّوا بذلك عن الرقة والرشاقة (العمدة : جـ ١ ، ص ١٩٨) .

وقد عرفنا من شعراء الغزل بالمذكر الحقيقيين ابن دفتر خوان الذي تغزّل بألف غلام في ديوانٍ شعري خصّصه لذلك .

وعرف عن ابن منير أنّه كان مولّعاً بالغلمان :

أولع بابن العفريت ، وتتر . وقد أرسل تتر إلى الشريف الموسوي ببغداد مع هديّة فاختاره الشريف ضمنها فغضب ونظم قصيدة منها هذه الأبيات :

عذّبت قلبي يا تتَرْ	وأطرْتَ نومي بالفكر
هذا الشريف أضلّني	بعد الهداية والنظر
فاخش الإله بسوء فعلك واحتذْرِ كلّ الحذَرْ	
ردّ الغلام وما استمرّ على الجحود ولا أصرّ	

« ابن حجة ، الخزانة : ١٤٦ »

وقد كثر الشعراء الذين أولعوا هذا الولع المريض ومنهم من زاد مرضه مرضا بالتعلّق بمن لم يكن عليه مَسحة من جمال ، بل فيه سمات قبح فقد عرف عن ابن قسيم مثلا أنّه تغزّل بغلام مجدور .

ونجد كثيرين لم يولعوا هذا الولع الشاذّ المحرّم ولكنّهم قالوا الشعر فيه تقليداً . وذلك يدلّنا على مدى تأثير المجتمع أو الروح العامة في الفرد حتى يفعل ما يخالف رأيه .

وقد حاول الشعراء التجديد في مطلع القصائد فنرى ابن القيسراني يستبدل بسعدى وريّا ماريّا :

اذا ما زرتُ ماريّا	فما سُعدى وما رَيّا
لها وجه مسيحيّ	ترى الميتَ به حيّا

« ديوان ابن القيسراني (خ) و : ٧٦ »

وقد اقتدى هؤلاء الشعراء بأبي نواس في ثورته على الأطلال :

صفـة الطـلول بلاغـة الفـدم	فاجعـل صفاتـك لابنـة الكـرم
تصف الطـلول على السماع بهـا	أفـذو العيـان كأنت في الحكـم
واذا وصـفت الشـيء متّبعـا	لم تخـلُ من غلَطٍ ومن وهْمِ

وليس البدء بذكر المدن ومواطن الحضارة مكان الأطلال البدوية بالتجديـد الأصيل الذي هو البدء بالموضوع المقصود مباشرة • وقد فعل بعضهم ذلـك ، ولا سيّما في قصائد النضال ، ولكنَّ أبا تمّام والمتنبّي قد سبقاهم إليه •

ب ـ العهد الأيوبي :

من الغزل الجميل في هذه الحقبة الأبيات التي غنّتها أمّ كلثوم ولا نزال نطرب لها غناءً ومعنى : وهي أبيات ابن النبيه ، الشاعر الأيوبي : « الديوان : ص ٦ » :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّعـا	ملَكَ الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذُق ظُلم الحبيب كظلْمه	عذبا فقـد جهـل المحبّة وادّعـى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصـ	بر الجميل فقد عفـا وتضعضعـا
هـل في فـؤادك رحمـة لمتيّـمٍ	ضمّت جوانحـه فـؤادا مُوجَعا
هل من سـبيل أن أبث صبـابتي	أو أشتكي بلواي أو أن أتوجّعـا
إنّـي لأستحيي كمـا عوّدتنـي	بسـوى رضـاك إليك أن أتشفّعا

الأبيات حلوة الرجاء ، جميلة التودّد تنمّ عن رقة الشاعر وصدق حبّه وأنه يقول الشعر عن تجربة •

ولم يتغزل شعراء هـذا العهد بالصليبيات ولكنّهم تغزّلوا بالجمال التركي • وكان ابن عنين [1] مفتونا بضيق العيون التركية وصغرها •

يقـول :

لا تعرضـنّ لضيّـق المُقـَـل	فتبيت مـن أمـن علـى وجَـل

(١) شاعر دمشقي هجا صلاح الدين والقاضي الفاضل فنفي من دمشق وبقي شريدا مدة ثم عاد واصبح وزيرا فيها غير محمود السيرة (٥٤٩ ـ ٦٣٠هـ).

واتـرك ظبـاء التـرك سانحـة لا تعتـرض لحبـائل الأجَـل
مـن كـل مـا ئسـة منعّمـة غرْثـى الأياطـل فعمة ِ الكفَـل

« الديوان ، ص ١٠ ، ٤١ »

ولم يقتصروا في ولعهم بالجمال التركي على النساء بل ولعوا كذلك بالغلمان الأتـراك .

قال الأديب شرف الدين أبو الطيب أحمد بن أبي الوفا الربعي الموصلي المعروف بابن الحـلاوي (ت ٦٥٦ هـ) في غلام من الترك من أبيات :

من الترك لا يُصبيه شوق إلى الحمى ولا ذكـرُ بانات الغُوَيْر يروقـه
على خدّه جمر من الحسن مُضرَمٌ يُشَبّ ولكن في فؤادي حريقـه
إذا خفق البرق اليمـانيّ مَوْهنـا تذكّرتـه فاعتـاد قلبي خُفوقـه
حكى وجهَه بدرُ السماء فلو بـدا مع البدر قال الناس هـذا شقيقه
على مثله يستحسن الصبّ هتكه وفي مثله يجفو الصديقَ صديقه

« النجوم الزاهرة ٧ : ٦٠ »

ويقول فتيان الشاغوري (٥٣٣ ــ ٦١٥ هـ) في اللواحظ التركية :

أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي لكنْ متى ما طلبت العطف منه أبى
ظبي من الترك أصمتني لواحظـه وأسهمُ الترك إن أصمت فلا عجبـا

« الخريدة للعماد الكاتب ١ : ٢٥٤ »

وهذا المعنى ينظر إلى قول نور الدين زنكي :

إنّ قنطاريّات الفرنج ليس لها إلاّ سهام الأتراك غير أنّ نور الدين قاله في الحرب ونقله فتيان الشاغوري إلى الغزل .

وقد أرّخ بعضهم لمن أحبّ الغلمان كأحمد بن يوسف التيفاشي (ت ٦٥١ هـ) الذي ألف في ذلك :

« نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب » . ذكر فيه أوصاف الغلمان المرد وأحوال من شغف بهم وما قيل فيهم .

ولم يتورّع ابن الساعاتي عن التغزّل بغلام صغير متعبّد كان يجلس في جامع دمشق مرتديا ثوبا ملوّنا :

وغزالٍ لاح في حلّتهِ جمعت من كل لونٍ مقترح
أشرقت ألوانها من وجهه فهو مثل الشمس في قبوس قزح

« ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٩٠ »

تطور النسيب :

واقتدى بعض الشعراء بأبي نواس في الخروج على وصف الاطلال ساخرا (عاج الشقي ... وغيرها) . فسخروا مثله بكل ما يتعلق بالاطلال وملاعب الأحبة في الجزيرة العربية واسماء الحبيبات العربيات المألوفة كهند ودعد والرباب والعريب وزينب ...

واستعاضوا عن ذلك بما حولهم من طبيعة جميلة او طلبوا الوقوف على مرابع مدنية .

فهذا عرقلة الدمشقي من شعراء العهدين الزنكي والأيوبي[1] يطلب الوقوف بباب جيرون وباب البريد ويطلب الشرب والغناء والنزول بالاماكن الطبيعية الجميلة :

قف بجَيْرون أو بباب البريد وتأمل أعطاف بان القدودِ
يا نديميّ غنياني بشعري واسقياني بنيّة العنقود
عرّجا بي ما بين سطرى ومقرى لا بأكناف عالجٍ وزَرود

« الديوان ٣٢ ــ ٣٣ »

(١) ترجمته في الزركلي « الأعلام ج ٢ : ١٩١ وغيره » (٤٨٦ ــ ٥٦٧ هـ) .

وابن عُنَيْن بعد غيابه عن وطنه ورجوعه لا تعجبه مرابع الحجاز بل مرابع الشـام :

تلك المنـازلُ ، لا أعِقّةُ عالِـج ورمالُ كاظمـةٍ ولا وادي القُرى

« الديوان ص ٤٠ »

ولا يريد فتيان الشاغوري ان يذكر اسماء الامكنة والحبيبات في البادية بل يريد ان يعرّج على البلدة التي يحبها :

دعِ العُرَيْب والنقـا وزينبـا تجـذب للبـين بُـرى أعناقِهـا
وعُجْ على دمشق تُلْفِ بلـدة كأنمـا الجنـات مِن رُستاقهـا

« العماد ، الخريدة ، الشام ، ج ١ : ٢٤٨ »

جـ ـ العهـد المملوكي التركي :

قصر بعض شعراء هذه الحقبة شعرهم على الغزل ، أو كان الغزل أكثر شعرهم ، كشمس الدين محمد بن سليمان التلمساني المشهور بالشابّ الظريف (ت ٦٨٢هـ) فقد كان أكثر شعره غزلاً ومنه :

لا أسـهر الله طرفاً نام عن سـهري وعذّب القلب بالأشجان والفكـر
ولا سقى داره يوما ، إذا سـقيت دارٌ بدمعـي ، إلا وابلُ المطـر
يا قوم قد شفّني وجدي ببدرِ دُجىً علـى قضيب أراك ناعـم نضِـر
ظبيٌ من الإنس لولا سـحرُ مقلته ما بتّ فيه بليـل غير ذي سـحَر
في حاجبيـه وعينيـه ومنطقـه شبه من القوس والأسـهام والوتر
روض الجمال وأفق الحسن فهو لذا قد راح يجمع بين الغصن والقمـر

« الديوان ص ٤١ »

والأبيات جميلة جمع فيها الشاعر بين وصف المحاسن الجسدية وصفاً عامـاً

وبين وصف حالته النفسية من السهد والبكاء وحال حبيبه من النوم والهناء . وهو فيهـا صادق الصبابة شديد اللوعة يدعو بأن يبعـد الله عن حبيبه كلّ شـرّ من دموع أو سـهر .

وهو يستمدّ أوصافه الجسدية من عصره وما قبل عصره ، ويضمّ الى ذلـك ما يعرف في علم البديع بالجمع والتفريق وفي عـلم البيان بالتشبيه المتعدّد ، وذلك في قوله : « في حاجبيه وعينيه ... » .

ومن الذين جعلوا ديوان شعرهم كلّه غزلا التلعفري (ت ٦٧٥ هـ) وسنرى نماذج من غـزله .

وقد استعمل شعراء هذا العهد ألفاظ الحرب ومعانيها في الغزل كما رأينا قبـل لدى فتيان الشاغوري أحـد الشعراء المخضرمين بين العهدين الفاطمي ـ الزنكي والأيوبي (وأسهم الترك إن أصمت فلا عجبا) ، كقول الشرف الأنصاري :

مَلامُك في الهوى يُغري ويُشجي ... فهل من عاذرٍ لـي منك يشجـي

أما مـن مسـلم ينهـاك عنّـي ... فإنـي منـك في أسـر الفرنـج

« الديوان ص ١١٤ »

ومنه قـول التلعفري : (٥٩٣ ـ ٦٧٥)

حميت شقيق الخدّ بالمقلة الكحـلا ... وثقّفت رمح القدّ بالطعنة النجلا

وأوترت قوسيْ حاجبيْك ففوّقت ... من الناظر السامي إلى مقلتي نبلا

وأطلعت من حبس الجمال طلائعـاً ... فما أرخص الأسرى وما أكثر القتلى

« الديوان ص ٥٠ »

وأولع هـذا العهد بالغلمان أيضا . وقد تغزل الشاب الظريف بغـلام بدوي على عادته في حبّ الجمال العربي والعرب :

بـدوي كـم جـدّلت مقلتـاه ... عاشـقاً فـي مقـاتل الفرسـان

ذو محيّا يصيح يا لَهلالٍ　　ولِحاظٍ تقول يا لَسنان

« الديوان : ٢١ »

وقد تغزل بالغلمان حتى شرف الدين الأنصاري العالم الوقور العظيم المكانة فقال في مُغَنّ رومي اسمه موزون :

روحي فداؤك يا موزون من قمرٍ　　تهتكي فيه معدود من الفُرَصِ

« الديوان : ٢٧٨ »

ويظهر أنّ الشعر كان لا يروج ويقبل عليه الناس إلّا إذا جارى العصر في هذا النوع من الغزل . يقول ابن الوردي : (الديوان طبعة حجرية سنة ١٣٣٠هـ ص٤٤).

أستغفر الله من شعر تقدّم لي　　في المرد قصدي به ترويج أشعاري

ولا نكاد نفتح ديواناً من الشعر إلّا وجدنا فيه هذا النوع من الغزل مهما كانت أخلاق صاحبه .

وقد تصدى كثير من المصلحين لمحاربة هذا الشذوذ ومن هؤلاء ابن قيم الجوزية في كتابه : « إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان » . وانضم اليهم في محاربتها بعض الشعراء كابن الوردي الذي يقول :

من قال بالمرد فاحذر أن تصاحبه　　فإن فعلت فثِق بالعار والنار
بضاعة ما اشتراها غير بائعها　　بئس البضاعةُ والمشتريْ والشاري
يا قومُ صار اللواط اليوم مشتهرا　　وشائعا ذائعا من غير إنكار
ذنب به هلكت مِن قبلنا أُمَمٌ　　والعرش يهتزّ منه هزّ انكار
جناتُ عدْن عن اللوطي قد حَرُمت　　الله أكبر ما أعصاه للباري
أستغفر الله من ذنب تقدّم لي　　في المرْد قصدي به ترويج أشعاري
لكنّ ذلك قولٌ ليس يتبعه　　خَنَا وحاشاي من أفعال أشرار
قوم اذا حاربوا شدّوا مآزرهمْ　　دون النساء ولو باتت باطهار

« الديوان (ط حجرية) سنة ١٣٠٠هـ ص٤٤ »

ويقـول ابن الوردي :

ما المـرد أكبـرُ همّـي ... ولا نهـايـة علمـي
ولسـت مـن قـوم لـوط ... حـاشـا تقـاي وحلمـي
وإنمـا خَـرْجُ دهـري ... كـذا فنفّقت شـعري

« سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب ص ٢٥٥ والمرجع السابق نفسه »

وقد بلغ من استساغة الناس حينئذ لهذا الغزل انهم كانوا يبدؤون به قصائدهم في مدح الملوك والأمراء ، بل أخذ بعضهم يبدأ به قصائد المديح النبوي •

ومن الغزل المذكر في هـذه الحقبة قول التلمساني :

أيهـا المـودعُ قـلبي ... نـارَ وجـدٍ تتـوقّـد
كيـف تستـأهـل نـارا ... مهجـة تهـوى محمـد
نجـم حسـن لفـؤادي ... فيـه وجـدي يتجـدد
نـوؤه بالطـرف والنـا ... رُ بقـلبي ليـس تخمـد

« ديوان الشاب الظريف ص ٣٣ »

وبلغ بهم الأمر أن شبّبوا بالملك العادل سلامش الذي ولي العرش بعـد أبيه الملك الظاهر بيبرس ، لجماله ، فقيل ثغر سلامشي •

وقـد ظهر في أواخر العهد الأيوبي وفي العهد المملوكي التركي نوع من الغزل غريب هو التغزّل بحـور الجنّة ونسائها ومُرْدها ، وقـد شارك فيه الخليعون والصالحون • وأكثر من ذلك غرابة أن نرى رجلا عالمآ عاقلا مثل ابن قيّم الجوزيّة الذي حمل لواء الإصلاح مع أستاذه ابن تيميّة ، يعانيه ولعلّ ذلك كان منه من قبل التعويض عن الغزل العـادي •

وقـد ثار شعراء هـذا العهد على المطالع البدوية كسابقيهم فيأبى التلعفري ذكر ربوع لا يعرفها ويصرّح بأنه لا يعنيه إلاّ الجمال الذي يثيره :

ياصاحِ دعْنيَ من ذكر العقيق ومن ... مَنازلٍ ليس لي في نعتهـا شـانُ
ما لـي وما لربوعٍ لست أعرفهـا ... ما الحب نعـمُ ولا الأوطان نَعمانُ

لولا الروادف تهتزّ القدود بها   ما شاقني الرمل من يبرينَ والبانُ
أجَلْ ولولا الظباء النافرات لَما   سألتُ هل سنحت بالجِزْع غزْلانْ

« الديوان ص ٤٥ »

ومن استبدال الشعراء الطبيعة الجميلة بالأطلال قول الشرف الأنصاري في قصيدة يمدح فيها الأمجد :

لم يُنسه البعد روح الأنس عندكمُ   فلم يجدّد لعهد القرب تذكارا
سنا هواكم الى لبنان أرشده   فلم يقل يا لبيني أوقدي النارا

« الديوان ص ٢٠٤ »

والجميل في ذلك انهم أحبوا أن يعبّروا بصدق عن اللذات الفعلية التي كانوا يتذوقونها . فمن قول الشرف الأنصاري .

سَقياً لأوطار وأوطان   بين سَنيرٍ لي ولبنان
أُركض أفراس التصابي من اللذات في أرحب ميدان

« الديوان ص ٤٩٢ »

وقد فضلوا الحديث عن اسم حبيبة حقيقية لا خيالية :

شآمية شامت يمانيّ لحظها   عليّ وأنضاني بمرأى ومسمع
يُذكّرني لمعُ البروق ابتسامَها   فترعَد أحشائي وتنهلّ أدمعي

« الديوان ص ٣٠٥ »

الغزل بالأتراك :

وقد آثر أكثر الشعراء أن يشبّبوا بالأتراك وغيرهم من العناصر الأعجمية ومنهم قلة ، كالشاب الظريف ، آثرت في معظم غزلها العنصر العربي مخالفة ذوق عصرها واتجاهه العام ، قال الشاب الظريف :

قف بالركائب أو سقها بترتيب   عسى تسير الى الحي الأعاريب

واسأل نسيماً تَفَتّتْ أعطافَنا أُصُلا   من أين جاءت ففيها نفحةُ الطيب
يا ربةَ الهودج المحميّ جانبُه   إلامَ حبُّكِ يغريني ويُغري بي

« الديوان : ١٤ »

قال الصفدي (في شرح اللامية ، ١ ، ١١) : « وأما المتأخرون فانهم تغزّلوا بالعيون الضيقة ، وهي عيون الأتراك » ، وما ألطف قول القائل :

أباديةَ الأعراب عني فإنني   بحاضرة الاتراك نِيطتْ علائقي
وأهلَكِ يا نجلا العيون فإنني   فُتنتُ بهذا المنظر المتضايق

« شرح اللامية ١ : ١١ »

أقول نعم ، فان في الخمر معنى ليس في العنب ، وما أحق المتأخرين بقول القائل : « كم ترك الأول للآخر » . ومنه قول ابن نباتة :

وخاطر عنت الأشواق تعجبه   جآذر الترك لا زيّ الأعاريب
من كل أغيد ضاقت عينه فمتى   يجود لي من تلاقيه بمطلوبي

« الصفدي ، الغيث المنسجم ٢ : ١٦ » و « مملوكي ٢ ، سلاّم : ١١٥ »

ويلمح الشاعر هنا الى قول المتنبي :

مَنِ الجآذرُ في زِيِّ الأعاريبِ   حمرُ الحُلى والمطايا والجلاليب

وبسبب هذا التغير في مقاييس الجمال كان الشعراء يرددون معاني الغزل التقليدية في معارض جديدة أو مجددة كقول الشاعر (شرح اللامية ج١ ص١٨٢) :

أصغي الى قول العذول بجملتي   مستفهماً منه بغير ملال
لتلقُّطي زهرات ورد حديثكم   من بين شوك ملامة العُذال

« شرح اللامية ١ : ١٨٢ »

وهو ينظر الى قول بشار :

وكأنّ وقعَ حديثها   قِطَعُ الرياض كُسين زهرا

ولكنه أضاف اليه احتمال الأذى من العذال في سبيلها كما يحتمل وخز الشوك في سبيل الحصول على الورد .

د ـ العهد الجركسي :

كان بعض شعراء العهد المملوكي الجركسي يستهلّون مدائحهم بالغزل التقليدي وقد لا يقفون فيه على الاطلال بل يتحدثون عن حالاتهم النفسية مع الحبيب وعن محاسنه الجسدية ومن ذلك ما قاله أمين الدين أبو عبد الله بن محمد الأنصاري الحمصي الحنفي كاتب سرّ دمشق (ت سنة ٨٠٠ هـ) :

جفونٌ من تأرّقها دَوامِ	مدامعُها تفيض على الدوامِ
فديتُ عيونَ من حَرَمتْ عيوني	مُناها من لِقا طيب المنام
وراشت من لواحظها نبالا	مراشِفها شَفين من السقام
اذا لاحظنني فيصيب قلبي	علَى اللحظات موفورُ السهام
لها شفتان قد شفتا فؤادي	ولا شفّتاه إلا للغرام
أدامت لي مُدامته ارتشافا	يموت من الصبابة وهو ظام
وثغر من يعيش به ارتواءً	فواسكراه من ذاك المدام
ولما رام بدر الافق فخرا	وتشبيهاً بما تحت اللثام
بدت تختال عُجْباً عن عقود	وتبسم عن جمان باتنظيم
فأزرى ثغرها بالدر نقصا	وأخجل وجهُها بدرَ التمام
بعيشك يا كريمَ الخيمِ كن لي	معينا ان مررت على الخيام
وقل صبّ تَوصّل في أوان	له قلب تقطّعَ بالأوام
ولبٌ هام بالذكرى ودمع	كوبل عطاءِ فخر الدين هامِ

« النجوم الزاهرة جـ ١٢ : ١٦٤ »

ويلاحظ أن الشاعر قد أحسن التخلص في البيت الأخير الى المدح ، وان المتغزل به أنثى ، وقد تبين ذلك أكثر من مرة في القصيدة ، وأنّ الشاعر على كثرة تكلفه الصناعة البديعية ولا سيما الجناس قد أحسن التغزل فجاء بمعاني لطيفة وصور جميلة وعبر عن عواطف أصيلة في النفس الانسانية ، وانه قد غلب على معانيه وصوره

وتعابيره الطابع التقليدي ، وان نفسه غزلة فاستجاب له الشعر بسهولة وأجاد الأداء .

وقد ابتدؤوا بعض المدائح النبوية بالغزل أيضاً كقول أحمد بن عبية (٨٣١ — ٩٠٥ هـ) :

بأبي أزجّ حواجب وعيون — سلبت بصادٍ للقلوب ونون
ففؤاديَ المعتلّ منه ناقص — بمثال ذاك الأجوفِ المقرون
يا نظرةً قد أورثت قلبي الردى — بأبي جفون معذّبي وجفوني
نظرتْ غزالا ناعساً يرعى الكرى — فهي التي جلبت اليّ منوني
قال العذول وقعتَ في شرك الهوى — فأجبت هذا من فعال عيوني
يا قاتل الله العيونَ فانها — حكمت علينا بالهوى والهون

. . . . . .

خدعوا فؤادي بالوصالِ وعندما — ثبت الهوى في أضلعي هجروني
هجروا ولو ذاقوا الذي قد ذقته — تركوا الصدودَ وربما وصلوني
لم يرحموني حين حان فراقهم — ما ضرّهم لو أنهم رحموني
ومن العجائب ان نسَوْا ودي ومن — ودّي لهم كلّ الورى عرفوني

. . . . . .

ما مَخلَصي في الحب من شرك الهوى — إلاّ بمدح المصطفى المأمون
زين الأعارب في القِراع وفي القِرى — ليث الكتائب لم يخف لمنون
بدرٌ تبدّى في حنينٍ للوغى — فسبى عداه بصارم وحنين
في البأس ما في الناس مثلُ محمد — كلا ولا في الحسن والتمكين
هو فاتح كالحمد ، أوّلِ سورة ، — وجميعُ أهل القرب كالتأمين

« الكواكب السائرة ج ١ ، ص ١٢٥ »

وقد جاء ابن عبية في المقدمة الغزلية ببعض مصطلحات نحوية أساءت في نظرنا الى سائر غزله المعنوي والمادي . وليس المديح النبوي نفسه إلا لوناً من الغزل المتسامي الذي عبر عنه فيه صاحبه عن حبه وتقديره للنبي . ويغلب على الغزل الذي تستهلّ به المدائح النبوية أن يكون رصيناً مناسباً لموضوع مدح النبي خالياً من

التبذل وقد رأينا في هـذا العهد شاعرا أديباً هو النواجي (ت ٨٥٩ هـ) يجعل ألفاظ غزله في مطلع تبوية له مستمدة من مصطلحات الحديث النبوي وأسماء رجاله وذلك لأن نفسه كانت منغمرة في هـذا الجو القدسي فهو يقول :

يا مَن حـديثُ غرامي فيمحبتهـم — مسلسل وفـؤادي فيـه معلـول
روت جفونكـمُ أنـي قتلت بهـا — فيـاله خبـرا يرويـه مكحـول

ومن ألوان الغزل في هذا العهد ماهو شبيه بالعذري ويعنى الشاعر فيه بالأحوال النفسية أكثر من الجسدية ومثاله قـول ابن مليك الحموي :

ذَكَر الغضا فحنت عليـه أضلعي — وبكـى العقيقَ فساقطتْه أدمعـي
لله درّ دمـوع عينـي إنّهـا — وقعت مـن الأجفان أحسنَ موقـع
مَن لـي بقلبي يومَ كاظمةٍ وقـد — ودعتُهمْ لو خلّفـوا قلبي معـي
رحلوا فكان القلب أولَ راحـل — والصبر آخـرَ ظاعـن ومُودِّع

« الريحانة ج ١ ص ١٨٩ »

ومن أنواع الغزل في هذا العهد الغزل الصوفي وهو في عشق ذات الإلـه ومثاله الأبيات التالية لعائشة الباعونية :

حبيبي أنـت مـن قـلبي قريبُ — وعن سـرّي جمـالُك لا يغيـبُ
خلعتَ الحسن في خلـع التجلّي — فشاهدتُ الجَمـال ولا رقيـبُ
وأبّدتَ الوصـال فـلا صُـدود — ولا وهْـمٌ ولا شـيء يريـب
وطفت عـليّ في حـان التصـابي — بكـأسٍ عيشُ شـاربـه يطيـب
براحٍ نلتُ أقصى الرّيّ منـه — وفي زيٍّ تـراءت لـي الغيـوب
وزالت باستـوا شـمسي ظلالـي — تجـلٍّ ليـس يُعقبـه غـروب
وصرتُ الى مَقـام ليس فيـه — سـواك حبيب (قلبي له) نصيب
تنادمنـي وتسقينـي مُدامـي — وتحضـرني لديـك فـلا أغيـب
وتـذكـرني وتشـهدني جمـالا — تقـدّس أن يكـون لـه ضريب
فـلا خـوف وأنت أمـان قـلبي — ولا سـقم وأنت لـي الطبيـب
ولا حَـزنٌ وأنت سـرور سـري — و لاسـؤلٌ وأنت لـي الحبيـب

« الكواكب السائرة ، ج ١ ، ٢٩١ »

يلاحظ انها تستعمل معاني الغزل الانساني ومعاني الخمر وألفاظهما في حديثها عن الحب الإلهي وانها تصور بواسطتهما مختلف انفعالاتها الروحية وهي في ذلك استمرار للشعراء الصوفيين قبلها ومستوى التعبير الفني في هذه الابيات ليس جيدا وقد أساء اليه اضطرار القارىء في الشطر (سواك حبيب قلبي له نصيب) الى لفظ الياء كالكسرة في قلبي ليستقيم له الوزن وذلك لا يجوز في العروض • وقد يكون ذلك وقع من تحريف النسّاخ •

ومن أنواع الغزل في هذا العهد الغزل بالمذكر الذي استمر فيه لاستمرار الانحراف الخلقي في المجتمع ومثاله هذه الأبيات لابن مُلَيْك الحموي [1] التي يتغزل فيها بالعذار والخال :

طِرازُ ذاك العِذار مَن رقَمَه	ودرُّ دمعي بفيه من نَظَمَهْ
وخَالُه فوق كنز مَبْسِمه	بالمسك قفلا عليه من خَتَمه
منْ لي به ظالمَ الجفون سطا	ظلماً على صبّه وما رحِمه ؟ !

« الريحانة ، ج ١ ص ١٨٩ »

فالكلام عن العذار في الأبيات يدل دلالة قاطعة على أن المتغزل به غلام •

---

(١) هو علاء الدين بن مُلَيْك الحموي (٨٤٠ – ٩١٧ هـ) ترجم له في خبايا الزوايا لوحة ٥٣ ب باسم « علاء يدين » وفي ديوان الاسلام لوحة ٨١ أ . وفي الكواكب السائرة ١/٢٦١ .

الشـعر الخمـري والحشيشي

ا ـ الخمري :

تمهيد يشمل العهود الأربعة :

كان شرب الخمر منتشرا في هذه الحقبة ، حمل عليه سوء الحالة الاجتماعيـة حينئذ وضعف الأخلاق وكان الناس يشربون الخمر جهرة ، بل ان الحكومة أحياناً كانت تأخذ ضريبة من دور اللهو والخمر والفاحشة وقد رأينا ان بيبرس يغلق هذه الدور ويحطـم آنية الخمر ويحرق الحشيشة ويعـاقب على شرب الخمر وتنـاول الحشيشة بالقتل والصلب فيبالغ في العقوبة ومع ذلك فلم يكن النـاس يؤخذون بالشدة دائما كما كان حالهم مع بيبرس ، فأكثر المماليك كانوا ينغمسـون في اللهو وكان الناس غالبا بل دائما على دين ملوكهم . ولطبيعة الشام ومصر ووفرة ما فيهما من حانات ومتنزّهات وعنب وتمر أثر كبير في الشرب واللهو لتوافر الخلوات للشاربين واللاهين بمنجى عن عيون المراقبين ، بل ان انتشار الأديرة فيهما قد ساعد على ذلك بما كان يتوافر حول الأديرة وفيها من كروم وخمر وتساهل واستثمار .

لذلك كثر تغني الشعراء بالخمر وعنُوا بوصفها ولعاً بها أو تقليدا للمولعين حتى لا يُعدّ الشاعر مقصرا عن غيره في هذا الميدان .

وشاركت الحروب الصليبية ثم التترية في انتشار فلسفة الاستمتاع بالحياة قبل زوالها ، فان تعرض الناس للقتل والأسر والنهب والافتراق عن الاهل والبعد عـن الوطن والتعرض لزوال النعمة وللظلم وسائر اصناف الشر دفع كثيرا من الناس الى انتهاز فرصة العيش للعبّ من لذاتها قبل الموت والفناء أو قبل الذل والقهر أو لنسيان حالة الشقاء والاضطهاد والالم والحزن ، ولذلك نرى الشعراء يدعون كثيرا الى طرد

الهموم بالخمر او الحشيشة ، ونحب ان نقول هنا ان هذا هو رد فعل الضعيف فهو شبه انتحار للمجتمع ، وكان الأفضل الكفاح في سبيل الأفضل •

كان لهذه الفلسفة المستمتعة المتشائمة أصولها الاولى لدى أبي نواس وأصحابه وانتشرت اثناء هذه الحقبة في بلاد فارس على يد عمر الخيام ثم امتدت الى الشام وكان من فرسانها عرقلة الكلبي وابن الساعاتي والتلّعفري وغيرهم •

وكانت الخمر في هذه الحقبة و فيغيرها مطية الى المجون والعبث والإباحية ففي مجالسها كان يخلع العذار ويستمتع بالغناء والرقص ويتمادى في ذلك الى الاستمتاع بالجواري والغواني والغلمان وبالأحاديث المستهترة العابثة وتبادل النكات والنوادر المضحكة أو الساخرة أو الماجنة •

وكانت مجالس الخمر تقام غالبا في رحاب الطبيعة تحت ظلال الأشجار ، وعلى حوافّ البرك والأنهار أو في الأديرة والدور على منظر المطر الهاطل والرعد الهادر والبرق اللامع كما كان الأمر في العهود السابقة منذ الجاهلية •

ا ـ العهد الفاطمي ـ الزنكي :

قد يصف الشاعر الخمر بعد أن يدعو إلى مباكرتها والاستمتاع برغبة العيش على رغم الزمان • ثم يذكر تمرّده على الدين وعصيانه أوامره في شربها ، ويزيد فيجعلها قبلة يسجد لها على تسبيح الأوتار وقد غفل الدهر عنه • وذلك ما نراه عند ابن قسيم الحموي في المقطوعة التالية :

باكرا شمس القناني	تدركا كلّ الأماني
وخذا في لذّة الـ	ـعيش على رغم الزمان
من عُقارٍ تبعث النـ	ـجدة في قلب الجبان
قهوة ألبسها المز	ج قميصا من جُمان
فهي من أبيض صاف	لاح في أحمرَ قانِ
كخدود الورد من تحـ	ـت ثغور الأقحوان
عاصيا الخلقَ إذا الخلـ	ـق عن الغيّ نهاني

وإذا الله إلـــى الرشـــــد دعـاني فدعانـــي
إنمـا البغيـة أن أصـ ـبح مخلوعَ العِنـانِ
ساجـداً في قبلـة الكأ س لتسبيح المثـاني
حيث لا يعلـم دهـري أبـداً أيـن مكـاني

« الخريدة ١ : ٤٤٩ ــ ٤٥٠ »

ونراه هنا يشبّهها بالشمس ويصف بعثها الشجاعة في قلب الجبان ويشبّه حبابها باللؤلؤ ، ولونها بحمرة الورد ثم يعود فيشبّه حبابها بالأقحوان .

ومن معانيهم أحيانا أنهم يدمنون شربها وأنهم يواصلونه من مغيب الشمس حتى شروقها قال أبو الحسن علي بن أبي البشر الكاتب :

شربنـا مع غروب الشمس شمساً مشعشعة إلـى وقت الطلـوع
وضـوء الشمس فوق النيـل بادٍ كأطـراف الأسنّة في الـدروع

ويسكرون أحيانا بجمال الطبيعة فتطلب نفوسهم الخمر ولا يرضون أن يشربوا إلا بالكؤوس الكبيرة و يستثقلون من لا يستجيب لداعي الهوى والمتعة .

قال أبو الصلت أمية [1] (٤٦٠ ــ ٥٢٩ هـ) يستسقي الخمر في بركة الحبش في القاهرة يوم سحاب :

لله يومي ببركـة الحبش والأفقُ بين الضيـاء والغبَش
والنيـل تحت الريـاح مضطـرب كصـارم في يمـين مرتعش
ونحـن في روضـة مفوّفـة دُبّج بالنَّوْر عطفها ووُشـي
قـد نسجتهـا يـدُ الغمـام لنـا فنحـن من نسجهـا على فُرُش
فعاطِنـي الـراح إنّ تاركهـا من سَورة الهمّ غير منتعش
وأسقنـي بالكبـار مترعـة فهـي أروى لشـدّة العطش

(١) هو أبو الصلت الداني أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني ، حكيم أديب سجنه الأفضل شاهنشاه ونفاه فرحل الى الإسكندرية ، ثم انتقل الى المهدية واتصل بأميرها يحيى بن تميم الصنهاجي وابنه ومات فيها .

فأثقـل النـاس كلّهـم رجـل　　دعـاه داعي الهـوى فلـم يطِش

« خطط المقريزي ٣ : ٢٥٠ »

فأثقل النـاس عند الشاربين أن يجـالسهم على الشراب من لا يشرب ومن لا تستثيره دواعي السرور •

وقد يغلب وصف الطبيعة على وصف الخمر • مثال ذلك قول أبي الصلت بن أميّة نفسه في هذه البركة مرّة أخرى :

علّلْ فـؤادك باللذات والطـرب　　وباكـر الراح بالنايـات والنّخَب
أمـا ترى البركـة الغنّـاء لابسة　　وشيا من النَّوْر حاكته يدا السُحب
وأصبحت من جديد النبت في حُلَلٍ　　قد أبرز القطر منها كـلّ محتجب
من سوسن مشرق بالطّل محجَره　　وأقحوان شهيّ الظَّلْم والشَّنَب
وانظر إلى الورد يحكي خدّ محتشم　　من نرجس ظلّ يبدي لحظ مُرتقب
والياسمين وقد أربـى على دُررٍ　　والراحُ من دُرَرٍ تطفو على ذهَب
كم مرّة قـد شفينا فيـه غُلّتنـا　　بجاحـم من فـم الإبريـق ملتهب
شمس من الراح حيّانا بها قمـر　　مُوفٍ على غصُن يهتزّ في كثُب
أرخـى ذوائبـه وانهـزّ منعطفـاً　　كصعدة الرمح في مُسودّة العَذَب
فاطرب ودونكها فاشرب فقد بعثت　　على التصابي دواعي اللهو والطرب

« الحياة الأدبية ، بدوي : ٨٦ »

فهذه الأبيات فصّلت في وصف الطبيعة بالنسبة إلى سابقتها ووصفت الساقي فاستمدّت أوصافه من الطبيعة بتأثير التداعي والتقليد ، ولكنّ الأبيات السابقة أكثر حرارة وعاطفة •

وقد يبلغ الولع بالخمرة واللذّة حـدّ المجون على أسـلوب أبي نُواس في الحياة • ومن ذلك قول يحيى بن علي الكتبي : « الخريدة جـ ١ ورقـه ١٠ » وعنه « الحياة الأدبية ، بدوي : ١٠٢ » :

أنا نـائب الشـرع النواسـي دعنـي وباطيتـي وكاسـي
أهـوى الغـزالة كاعبـا وأهيـم بالظبـي الخماسي
من كـل معتـدل ، رشيق القـد ممشـوق خلاسـي
لكـن لإفلاسـي حببت السـامري بـلا مسـاس
لـي منـزل لا شـيء فيـه كأنـه كيسـي وراسـي

ب ــ العهد الأيوبي :

شاع الحديث عن الخمرة بين الشعراء في هذا العهد فأوحى ذلك إلى الشعراء المتصوفة أن يتخذوا من الخمر وسـيلة للحديث عن نشوتهم بالاتصال بالآفـاق السماوية كما فعل ابن الفارض وابن عربي وغيرهما •

قال ابن الفارض : (وينسبها زعلول سلام في الأدب المملوكي جـ ١ ص ٢٣٧ لتلميذه ابن الخيمي) :

وقم بنا نحو ابنة الكرم ام الزهـر وزوج المـاء أخت النهـار

ثم اجلهـا عـذراء مـن ذاتهـا	صيغت حلاهـا والحباب النثـار
صهباء ، خمـر ، قرقف ، سلسل ،	مدامة ، راح ، سلاف ، عقـار
كوجنـة الساقي فـلا غـرو أن	يخلع أن تجلـى عليهـا العذار
صفـراء لا أمـلك في حبهـا	مالا ، ولا أملـك عنهـا اصطبـار
ولا أخـاف النـار في شربهـا	لأننـي أشربهـا وهـي نـار
ما أذهبت عقـلي ولكـن أطـا	رتـه إلـى أفـق المعـالي فطـار
فعاطنـي يـا صـاح كاساتهـا	وأسقني واشـرب نهـاراً جهـار
وهـات يمنـاي مـن صرفهـا	كأسـاً وأخـرى هاتهـا باليسـار

ويلاحظ على ابن الفارض هنا أنه يلمح بعض التلميح إلى أن خمرته ليست الخمرة المعروفة ، فهي خمر لا يملك ثمنها وهي خمر أطارته إلى أفق المعالي ولا يخاف النار في شربها • وكل ذلك قرائن على أنها الخمر الروحية لا المحسوسة • ولا يوجد هذا التلميح في كل خمرية صوفية •

ونرى أنّ خمرته هنا هي الخمرة الإلهية ، فهو يسكر بالاتصال بالأجواء العليا السماوية عن طريق قلبه وينتشي بالمعاني الروحية التي تخطر في باله ، ويستعير ألفاظ الخمر المادّية ، ومعانيها للخمرة الروحية لتقريبها إلى الأذهان إذْ ليس في معاجم البشر ما يدلّ عليها إلاّ بطريق هذه الاستعارة الرمزية .

فهو يشبّه مواجده الروحية بالشوق إلى الشرب ، وسكره بثمرات خلواته الصوفية بسكر الشاربين ، ونشوته بنشوتهم .

ولقد زاد الاهتمام بالخمر في هذه الحقبة حتى أصبح لها في دواوين الشعراء أبواب خاصة بها وبالمجون حتى إن نور الدين الإسعردي أبا بكر محمّدا (٦١٩ — ٦٥٦ هـ) نديم الملك الناصر صاحب حلب ، وكان شابًّا خليعاً مستهترا ، أفرد ديوانا خاصّاً للخمريات والهزليات سمّاه « سلافة الزرجون في الخلاعة والمجون » . وقد تابعه في ذلك كثيرون .

ولا يكتفي الشعراء الخمريون غالباً بوصف الخمر بل يصفون أنفسهم يشربونها على مشهد الغواني الحسان وعلى أنغام الموسيقا . قال عرقلة الكلبي يستسقي الخمر بين أصحابه وأمامهم غانية جميلة :

أدر يا طلعة البدرِ ... علينا أنجم الخمرِ
وقطّعْ ليلنا بالكأ ... س حتى مطلع الفجرِ
على فتّانة العينيـ ... ـن والنهدين والثغرِ
لنا في وجهها قمر ... ومن نغماتها قمْري
كذا فليشرب الصهبا ... ءَ مثلي يا ذوي الشّعرِ
كذا في ليلة الجمعـ ... ـة بل في ليلة القدرِ
مع الفتيان في الحانا ... ت بين الطبل والزمرِ

« خريدة ، شام ج ١ ، ٢٧٠ »

وهم يرددون كثيراً أنهم يريدون أن ينتهبوا اللذات قبل أن يصيح بهم صائح الموت . يقول عرقلة في مطلع خمرية له :

نديمـي قـم فقد صفت العقـارُ　　وقـد غنّى علـى الأيـك الهَزار
إلى كـم ذا التواني في الأمانـي　　أفـقْ مـا العمـر إلا مُستعـار

« الخريدة : شام ١ : ٢٧٠ » و « الديوان : ٣٩ »

وقد لا يذكر الشاعر الهموم ولكنّه يدعو إلى اغتنام بهجة الأيّام والأعمار قبل أن تولّي • قال عرقلة :

خرف الخـريف وأنت في شغُلٍ　　عـن بهجـة الأيـام والحقب
أوراقـه صفـرٌ وقهوتنـا　　صفـراء مثـل الشمس في لهب

وقد يجمع الشاعر بين دعوته إلى اتهاب اللذات ورغبته في صرف الهموم ، وبين لذّاته بالخمر واستمتاعه بوجه الساقي ، قال ابن الساعاتي :

قم نتهبِ اللذاتِ قبـل فواتهـا　　فإنّك غـمر لم تذُق لذّة النَّهبِ
فيانعمة الحسنى بوجـه مديرهـا　　وإن كان صرف الدهر بالغ في الذنب

« الديوان جـ ١ : ١٤٧ »

ويؤثر الشاعر غالبا أن يصوّر مجلس شربه وأن يكون هذا المجلس في محراب الطبيعة الجميلة •

قال ابن الساعاتي يصف مجلس خمر بأرض النيرب من دمشق في هيكل الطبيعة البديع وعلى منظر المطر والبرق ومسمع الرعد : « الديوان ٢ : ١٦٨ » :

لله يـوم النـيربـين ووجهـه　　طلْق وثغـر اللهو ثغـر أشـنب
وكأنمـا فنَـن الأراكـة منبـر　　وهَزارُهـا فوق الذؤابـة يخطب
والرعدُ يشدو والحيا يسقي وغصـن البـان يرقص والخمائـل تشرب
وكأنمـا السـاقي يطوف بكأسـه　　بدرُ الدجى في الكفّ منه كوكب
بكر بها نقعُ الغَليـل ومُعجبٌ　　نقـعُ الغليـل بجـذوة تتلهبُ
يفتضّها مـاءُ الغمـام ويا لَـه　　عجبًا غداةَ الدَّجْن وهو لها أب
حمـراءُ حاربنا الصروف بصرفهـا　　فزجاجُهـا بـدم الهموم مخضّب
والقطر نَبْل ، والغديرُ سوابـغٌ　　مَوضونة والبرق سيفٌ مُذْهَب

نلاحظ أنّ الشاعر في هذه الأبيات قد شبّه الطبيعة أوّلا بأشياء دينية : المنبر والخطيب ، ثمّ شبّهها بأمور فنّية : يشدو ، يسقي ، يرقص ، يشرب ، ثم بأشياء حربيّة : نبل ، سوابغ ، سيف ، ثم نراه يشبّه الخمر بالبنت والماء بالأب الذي يتزوّجها فيكون ذلك من قبيل الإلغاز والإغراب ، ويستعين بها في حرب الهموم ، ثم هو يأتي في ثلاثة أبيات من أبياته بما يسمّى مراعاة النظير وهي الثاني و الثالث والأخير .

جـ ـ العهد المملوكي التركي :

كان من أثر الأديرة في وصف الخمر أن اقتبس بعض الشعراء كثيرا من معانيهم والفاظهم فيها من النصرانية . من ذلك قول التلعفري (٥٩٣ ـ ٦٧٥ هـ) :

عـُجْ حين تسمع أصوات النواقيس ... من جانب الدير تحت الليل بالعيس
وانزل بحانة يوحنا وصاحبه ... يوشعْ وتوما وكركرْ ثم كُرْكيس
صفت فرقّت وراقت وهي ذات سنى ... تجلّ في الوصف عن عيب وتدنيس
مستخبرا عن كميت اللون صافية ... قد عتقتها أناس في النواويس
مرّ الزمان عليها فهي تخبر عن ... ما كان من آدم قدما وابليس
ترى الرهابين صرعى من مهابتها ... اذا بدت بين شمّاس وقسيس
تتلى الاناجيل تعظيما اذا حضرت ... لها بأشرف تسبيح وتقديس
لها أحاديثُ تَرويها اذا مُزِجت ... في كأسها عن سليمانٍ وبلقيس
لو ذاق منها غزال السِّرب مضمضة ... لخافه [illegible] سَطاها ضيغمُ الخِيس
يسعى بها من نصارى الدير بدر دجى ... يَميس في [illegible]ية مثلِ الطواويس
فاصرف بها صَرف خطب الدهر مغتنما ... ما دامت الشمس مع تلك الشماميس
واحذر مَلال قِلال الدير مجتليا ... كأسَ المدامة إلاّ فارغَ الكيس

« الديوان التلعفري ص ٢٠ ـ ٢١ »

فقد تأثر الشاعر في أخيلته ومعانيه وهو يشرب الخمر في الدير بما يتصل بالدير من شعائر ومشاعر وأشياء فهو يذكر النواقيس وأسماء مسيحية ويصف الخمر

بالطهر متأثرا بنعت السيدة العذراء وينعتها بالقدم فيتداعى الى خياله عصيان آدم وكبرياء ابليس مارا بذكر مقابر المسيحيين التي تعتق قربها او فيها ويصفها وصف اجلال لانه في مكان عبادة ويذكر بمزاجها سليمان وبلقيس لما تنضح به شاربها من شعور بالقوة والرفعة فلو كان غزالا في سرب لهاجم اسدا في عرينه وأرهبه ثم يشبه ساقيها النصراني بالبدر وبالطاووس ويعلمنا انه يشربها لينسى همومه ويشبهها بالشمس فيجانس بين هذه وبين الشمامسة وينصح الشارب ألا يملّ شربها من قلال الدير ما دام في كيسه شيء من المال وهو يصور في البيت الاخير حقيقة حاله •

وقد عرف بعض الشعراء بالاستهتار في وصف مجالس الخمر • ومنهم الشابّ الظريف الذي يقول في خمرية له :

ناوليني الكأس في الصبحِ	ثم غني لي على قدَحي
وأديري شمسَ وجهك لي	فضياءُ الشمس لم يلُح
واشغلي كفَّيك في وتر	لا تُهَدِّيها الى السَّجح
واذا أطربتني وبدا	باتشائي حالُ مفتضحي
عانقيني باليدين كما	يفعل الأحباب من فرَحِ
وإذا عانقتُ من طرَبٍ	غصن بان منك متَّشح
فدعي أزرارَ طوقِك عن	صدرك الفتان بالمُلَح
ثم روحي بالأمانَ فمش	لي بسرٍّ قطُّ لم يبُح

« الديوان : ٢٤ »

فالشاب الظريف هنا يستسقي غادته الجميلة الخمر ويتملى جمال وجهها ويرغب أن يستزيد فيسمع جمال موسيقاها وغنائها ويطمع في أن تعانقه بعد ذلك ويعانقها وأن تدع أزرار طوقها تنفتح عن صدرها المليح وأن تمتعه بقوامها الذي يشابه غصن البان ويعدها بعد ذلك كله بصون سرها !! •

فالشاعر هنا لم تعد تكفيه لذة الشرب والسماع ، بل يصمّم أن يستبيح جميع فنون اللذات الجسدية •

وقد يذكر الشاعر دواعيه إلى الخمر وغيرها من أسباب المتعة • يقول التلّعفري :

تلك الجنان التي حيث التفتّ ترى ... قصراً مثيراً به حُور وولدان
تدعوك فيه إلى اللذات أربعة ... بيع الحياة بها ما فيه خسران
ظلّ ظليل وماء بارد غدِق ... وجوسق مشرف عالٍ وبستان

« الديوان ص ٤٥ »

فدواعيه إلى الشرب هنا مرأى الحور والولدان في قصور بديعة مثيرة تحفّ بها البساتين والظلال والمياه ••

وقد يصف الشاعر الخمرة وصفا يشعرنا بكثرة تجاربه فيها • يقول شرف الدين الانصاري يتحدث عن الخمر ويتغزل :

قم فاصطحِبْها وأرحْ سرّكا ... صبّحكَ الله بما سَرّكا
وعاطني منها المُدام التي ... أشرب منها دائماً سرّكا
يا يوسفَ الحسن الذي وصفه ... ان يملك الناس ولا يُملَكا
إن دمعت عيني فمن أجلها ... بكى على حاليَ من لا بكى
أوقعني إنسانها في الهوى ... « يا أيها الانسان ما غرّكا »

« الديوان ص ٣٨١ »

يشكو الشاعر سيطرة الخمر على نفسه ويطلب من الساقي ان يبادله الكؤوس ويجعل من عادة هذا الساقي ان يملك الناسَ ولا يملَك ويصف نفسه بانه لا يبكي الا لحرمانه حتى بكى الناس من اجله ويقتبس شطره الاخير من الآية الكريمة « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » •

ويردّد التلعفري في أبياته التالية ما قاله عرقلة الكلبي قبله في ضرورة انتهاب اللّذات قبل مداهمة الموت :

يا نديمي كم ذا التواني عن اللهو ، وهذي المُدام والأوتار
فاصرِف الهمّ إن ألمّ بصرفٍ ... ذات معنى فيها العقول تحار

واغتنمها من كفّ ظبية خدْرٍ في يديْها من صبغها آثار

« ديوان التلعفري ص ١٥ »

ولكنه يزيد على صاحبه أنّه إنما يشربها ليبعد عنه طيف همومه المؤرّقة وأنّه يشربها من كفّ حسناء كالظبية قد اصطبغت يداها بها .

ح ــ العهد المملوكي الجركسي :

لم نستكمل دراستنا عن هذا العهد ومطالعة مراجعه . ولم نجد فيه حتى الآن إلا ثلاث مقطوعات قصار في الخمر ، ونرجو أن نستدرك هذا النقص .

أولاها ــ لابن مكانس (ولم يذكر الابشيهي في المستطرف ، ج ٢ ، ص ٢٥٥) حيث وجدناها أهو الأب أم الابن . ونلاحظ أن الشاعر اتخذ لها قالب المقطوعة لا قالب القصيدة لفقر الفكرة عنده أو لأنّ خاطرة عنّت له عنها فنظمها في بيتين، وهاهما :

نزل الطلّ باكراً وسروري تجددا
والندامى تجمّعوا فاجل كأسي على الندى

وواضح أنه من حيث المضمون يتحدث عن رغبته في شرب الخمر صباحاً وليس بشيء . وهو من حيث الشكل يجانس جناساً غير تام بين الندامى ويورّي بالندى في آخر البيت الثاني مريداً الندى بمعنى الكرم الذي يدفعه الى سقي ندامه المجتمعين الخمر . وكأن الغرض من هذين البيتين هو ايراد الجناس والتورية المذكورين .

وثانية هذه المقطوعات ــ لشهاب الدين الحجازي (ت ٨٧٤ هـ) :

كأسنا يا صاح صرفاً جُليت بين الندامى
لم نجد ماءً لمزجٍ فقنعنا بالندى ما

« المستطرف في كل فن مستظرف ص ٢٥٥ »

ويبدو لي أنّ غرض الشاعر هنا ليس وصف الخمر والتحدث عنها وانما هو ايراد الجناس الملفّق بين قافيتي البيتين (الندامى الندى ما) وقد حذف الهمزة

بعد ما ، وأصلها ماء ، ثم التورية بالندى مريداً أنه أحل الندى محل الماء بينما يتوهم السامع أنه قنع بأصدقائه الندامى عن المـاء .

والثالثة ـ لتقي الدين بن حجة (٨٣٧ هـ) وهي هذان البيتان :

حيّـا بهـا عاصرهـا في كأسـها مشـرقـة بـاسـمة كالثغْــر
وقـال هـذي تحفـة في عصرنـا قلت اسقينها يـا إمـام العَصْرِ

وأتصور أن غرض الشاعر منهما ليس وصف الخمر وانما هو التورية بكلمة العصر في آخر البيت الثاني موهماً أنها بمعنى القرن من الزمان وهو يريد عصر الخمر مصدر عصر وهي المناسبة لموضوع البيتين ويصح أن تكون التورية في عصر الأولى بحيث يريد انه لم يعصر مثلها لأنها تحفة هذا الزمان وانه أحسن من يعصر الخمـر فهو إمـام في ذلـك .

ب ـ الشـعر الحشيشي :

أ ـ العهـد الفاطمي ـ الزنكي :

لم يعرف تناول الحشيشة في هذا العهد وبديهي ألاّ يوجد شعر فيها خلاله .

ب ـ العهـد الأيوبي :

عرفت الحشيشة في النصف الأخـير من العهـد الأيوبي وأوّل من استعملها المتصوّفة الحيدريون ، ونظم الشعراء فيهـا وظهرت المفاضلة بينها وبين الخمـر ، وقد تكون هذه المفاضلة للإدلال على القدرة الفنـّية كما نرى ذلك عند نور الدين الإسعردي[1] (ت ٦٥٦ هـ) الذي نراه يفضّلها تارة على الخمر وتارة نراه يذمّها ويفضّل الخمر عليهـا .

لك الخـير لا تسمع كـلام المفنّد ودونـك في فتْياك غـيرَ مقلّـد
سألتَ عن الخضراء والخمر فاستمع مقـالة ذي رأي مصيب مسـدّد

(١) ترجم له في (فوات الوفيات جـ ٢ ، ص ٣٣٣) والقصيدتان في مدحهـا وذمهـا في المرجع نفسه .

وحقّك ما بالخمر بعض صفاتها ... أتشرب جهراً في رباط ومسجد
عليك بها خضراء غير مبالغ ... بأبيض وَرْق أو بأحمر عسجد
ولكنْ على رغم المُدام هدية ... تنزّه عن بيع لغير التزهّد
رياحينه يحكي الجِنان اخضرارُها ... وخمرهمُ كالمارج المتوقّد
مُدامتُهمْ تنسي المَعاني وهذه ... تُذكّر أسرار الجمال الموحّد
هي السرّ ترقى الروحُ فيها الى ذرا الـ ... مَعالم في مِعراج فهم مجرّد
بل الروح حقّاً ، لاتحلّ بربعها ... هموم ولا يحظى بها غير مهتد

وتدلّ هذه الأبيات على أنّ الحشيشة لم تكن محرّمة في زمن الشاعر ، وأنها كانت تتناول في المساجد والخوانق . وقد تبيّن لنا أنّ الملك الصالح أيّوب قد حرّمها على الناس في آخر العهد الأيوبي ، ثم حرّمها بعده بيبرس في العهد المملوكي التركي .

وقال الأسعردي في ذمّها وتفضيل الخمر :

أترضى بأن تمشي شبيه بهيمة ... بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدعْ رأي قوم كالدوابّ ولا تُدِرْ ... سوى دُرّة كالكوكب المتوقد
مُدامٌ إذا ما لاح للركب نورُها ... وقد حل ليلاً عاد بالنور يهتدي
حشيشتهم تكسو المَهيب مَهانة ... فتلقاه مثل القاتل المتعمّد
وتبدي على خدّيه مثل اخضرارها ... فيُضحي بوجه مظلم اللون أربد
وتفسد من ذهن النديم خياله ... فينظر مبيضّ الصباح كأسود
وخمرتنا تكسو الذليل مَهابةً ... وعزّاً ويلقى دونه كلّ سيّد

ج ـ العهد المملوكي التركي :

تغنى بعض الشعراء بالحشيشة في هذا العهد كما تغنّوا بالخمر ، وقد أعجب بعضهم ببستان في مصر تزرع فيه سُمّي البستان الكافوري . ومن شعرهم فيها قول ابن الصائغ جلال الدين أحمد بن المعزّ ذاكراً أنّه لا حدّ على الحشيشة ، على الضدّ من الخمر :

عاطيتُ من أهوى وقد زارني ... كالبدر وافى ليلة البدر
والبحرُ قد مدّ على متنه ... شعاعه جسراً من التبر

خضـــراءُ كافـوريـةٌ رنّحـت | أعطـــافه مـــن شـــدة الســـكر
يفعـل منهـا درهـمٌ فـوق مـا | تفعـــل أرطـال مـن الخمـــر
فـراح نشوانـاً بهـــا غافـــلا | لا يعـرف الحـلو مـن المُـــر
قـال ، وقـد نـال بهـــا أمره | فبـات مـــردوداً الـى أمـري
قتلتـنـي قـلت نعـم سـيّدي | قتليـــن بالســـكر وبالبحـــر

« الخطط : ٣ و ٢ : ٢٦ »

وهذه الابيات تصور الغيبوبة بالحشيشة وتجعلها كالغيبوبة بالخمر ، كما تصوّر استغلال السكر بها لارتكاب الفاحشة في الحبّ الشاذ .

وقد يقول الشاعر إنّه يفضّل الخمر فإذا لم يجدها قنع بالحشيشة . قـال ابن الصاحب أحمد بن يوسف في نشدان السكر :

يـا نفسُ ميـلي الـى التصـابي | فاللهـوُ منـــه الفتـى يعيـش
ولا تمـلّي مـن سـكر يـومٍ | إنْ أعـــوز الخمـــر فالحشيش

« النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ ــ ٣٨٠ »

فهو لا يتناول الحشيش إلا اذا فقد الخمر . ولكنّنا نرى هذا الشاعر نفسه يقول بأنّ الحشيشة نهـايةُ مرامه :

في خـمـار الحشيش معنى مَرامي | يا أُهـيْل العقـــول والأفهـــام
حرّموها مـن غـير عقـل ونقـل | وحـرام تحـريم غـير الحـرام

« المرجع نفسه ، والشذرات ٥ : ٤٠٣ »

ونراه في هذين البيتين يستعمل الجدل الفقهي فيقول : لقد حرّموا الحشيشة بقياسها على الخمر ، غير مستندين إلى عقل ولا نقل ولا يجوز تحريم ما ليس حراماً . ويصوّر لنا البيتان المعركة بين فريقين من الفقهاء والشعراء في تحليلها وتحريمها .

د ــ العهد المملوكي الجركسي :

لم نستكمل دراستنا عن هذا العهد ومطالعة مراجعه ، ولم نجد فيه حتى الآن أيّ نصّ عن الحشيشة ونرجو أن نستدرك هذا النقص لأننا نتوقع وجود مثل هذه النصوص فيـه .

الفنون المستجدة

تمهيد :

اقتصر التجديد في أوائل العصر العباسي على استعمال المزدوج والمخمس ، ولم يتناول البحور فقد كان ينظم منهما على بحور الشعر المعروفة وبخاصة الرجز ، فكان الشاعر ينظم الشطور ويربط بين كل اثنين منها بقافية ويجدد القافية في كل بيت من القصيدة فيكون من ذلك المزدوج ، أو يجمع بين أربعة شطور في قافية واحدة يجددها في كل دور ويلحق بالشطور الأربعة شطراً خامساً يجعل القافية فيه لازمة في كل القصيدة فيكون من ذلك المخمس .

واستمر التيار التقليدي المعروف في الشعر منذ الجاهلية أثناء هذه الحقبة ولكن تطور الحياة في المشرق والمغرب قد أدى الى وجود تيار جديد في الشعر من حيث الفنون ومن حيث الأوزان وقد جاء بعض هذا التطور من المشرق ، ومما جاءنا منه الدوبيت والمواليا ، وجاء بعضه الآخر من المغرب ، ومما جاءنا منه الموشح والزجل .

الموشح :

لن نتحدث عن نشأة الموشح وأطواره في الأندلس والمغرب، وسنكتفي بالتحدث عن أحواله حين انتقل الى الشرق العربي في بداية العهد الأيوبي . وعلى ذلك فاننا لا نجد خلال العهد الفاطمي ـ الزنكي أيّ موشّح . وقد انتقل هذا الفن الى

(١) ارشاد الأريب ٥ : ٤٣ .

المشرق بعد أن اشتد عوده : حمله اليه الوافدون من الأندلس من الأدباء والمتصوفة والفقهاء وسائر العلماء ممن حفظوا الموشحات أو حملوا معهم دواوينها .

الموشح في العهد الايوبي :

أول من درس هذا الفن في المشرق العربي وألّف فيه ووضح طرقه لسالكيه والمعجبين به القاضي ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » وقد شفع تأليفه بنماذج جيدة من الموشحات الأندلسية المشهورة وبموشحات أخرى نظمها . ومن تجديده فيها انه زاد عدد الفقرات والأجزاء التي تتألف منها الاقفال ولم يكتف بخمسة أو ستة أقفال كما هو تقليد الموشح التام بل أوصلها الى أحد عشر قفلا في بعض الموشحات .

ومن تجديده فيها انه أخضعها لما كانت تخضع له القصائد التقليدية من المعاني والصناعة البيانية والبديعية . وقد رأينا من موشحاته رثاءه في أمّه وذلك في فن الرثاء خلال العهد الأيوبي فراجعه في مكانه .

وكان للشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي الذي استقر في الشام خلال العهد الأيوبي أثر كبير في انتشار الموشحات . وقد كان لانتشار التصوف الواسع في العالم الاسلامي مشاركة في شيوع هذا الفن لأن المتصوفة كانوا يحملون موشحات ابن عربي الى كل مكان وساعدهم على نشرها سهولتها وبعدها عن التكلف وسماحة طبع ناظمها وصدق انفعالاته الروحية . وقد كان فيها أكثر توفيقاً وأسلس فناً من معاصره في مصر القاضي ابن سناء الملك فاقتدى بها الوشاحون الذين نظموا بعده موشحات غزلية أو موشحات مدحية ولكنهم لم يحافظوا على سهولة لفظه وطبيعة فنه.

ويبلغ مجموع موشحاته في ديوانه الأكبر سبعا وعشرين موشحة وله فيه زجل واحد وقد ألّف هذا الديوان في دمشق بعد أن استقر فيها وهو ثاني دواوينه ، أما ديوانه الاول « ترجمان الأشواق » فقد ألّفه في مكة بعد أن عشق « نظام » بنت ابي خاشة إمام مقام ابراهيم .

يمكن أن نقسم موشحات ابن عربي قسمين : قسماً مغرقاً في معاني الصوفية ومصطلحاتها وفكرة وحدة الوجود بحيث لا يفهمها أو ينتبه اليها إلا من عرفها

ودرسها ، وقسماً ترقّ ألفاظه وتخفّ معانيه ويكثر فيه الغزل الذي يحتمل المجـال الانساني والمجال الصوفي الإلهي فتألفه وتحبه كل الأنفس •

وترجع رقة ابن عربي في غزله الى أنه كان صادق التجربة فيه فقد كان بلا الحب الانساني في مكة قبل أن يأتي الى الشام ليستقر فيها وعشق ابنة إمام مقام ابراهيم المسماة نظـام وكانت حسناء ، فساعدته تجربته على الانتقال بالتداعي من أحـوال الحب الانساني الى أحوال الحب الإلـهي ولا شك في أن الجمال الانساني عنـد الصوفيين مجال لعبادة الله ودليل على حسن إبداعه ولطفه بخلقه •

وفي القسم الاول من الموشحات يظهر طابع ابن عربي المميز في الموشحات الذي كان فيه إماماً لمن بعده من المشارقة والمغاربة فقد نقـل الموشحات من عالم الغـزل الإنساني والغناء الفردي الى عالم النشوات العـلوية ، والاتصال بالذات العليّة ، والانقطاع عن أدران الحياة الدنيوية ، والاحساس الروحي بوحدة الوجود الإلـهية الكونية • وأصبح الصوفيون يتغنون بهـا في حلقات ذكرهم • ومن أمثلته الموشح التالي : « ديوان ابن عربي طبع مكتبة المثنى ببغداد ص ٢٠٠ »

انـــي أنـــا النيّـــر الغاســـقْ   مثل ماأنا الصامت الناطقْ، اذا كَـتَـبْ

تِـهتُ بالذي فيّ مِـن مجلـَى
وأنــا بــه البصــر الأجـلى
مثــلَ ما أنا الموردُ الأحلى

لا أخــاف من فجــأة الطـارق   إنه به الهــائمُ العاشقْ ، لذا أرغَـبْ

رُبّ وارد جــاء من عنــده
يطلــب الأمــانة مِن عبــده
والوفــا بما كان مِن عهــده

أمتطــي الجيـــادَ السـوابقْ   ألتقي بهيّ الغَرانقْ ، مِن المطلَبْ

أشـتهي يرينـي اجلالـــي
عنـدما يتفَصَّل اجمـــالي

إنـــي لــك النائبُ الوالــي

أعــرف الكذوب مِن الصــادق والذي يجيءُ به الفاسقْ، مِن المذهبْ

قلتُ للذي كان أوصى بــه
عنــدما نسكتُ بأنْتصابــه
حشــلاه مزجت بأوصــابِه

أنـــا والــوليّ المتفـــارقْ بالذي أنا فيه مِن فارقْ، عسى يَغلبْ

آمــري لقد حرتُ في أمري
ضاق مِن هوايَ منكم صدري
فعــلى على سُنّتي تجــري

أرســلِ الخيــولَ والســلالِقْ ، هي تَجيكَ برأس المنافقْ ، وبالأريبْ

هذا الموشح تام وهو ما يسميه بعضهم مُرأَّساً أو ذا رأس وقد ذيل قفله بفقرة بائية : « اذا كتب » وتألف فيه كل قفل من ثلاث فقرات وكل بيت من ثلاثة أجــزاء كل جزء فقرة واحدة ، والبيت قد يسميه بعضهم الدور ، والقفل الاول قــد يسميه بعضهم ، ومنهم ابن عربي ، المطلع .

وفي هذا الموشح تظهر الفكرة الرئيسية الصوفية الفلسفية لدى ابن عربي وهي فكرة وحدة الوجود فهو يستهل الموشح بأنه النيّر الغاسق والصامت الناطق ويريد أن يدل بهــذه المتناقضات التي يجمعها بأن النور والغسق والصمت والنطق مظاهر للوجود الواحد ، وهو يعبر عن الفكرة نفسها في الدور الأول بأنه تائه بالمجلى الذي في نفسه على انه بهــذا المجلى الذي فيه ، من اتصال المخلوق بالخالق ومعرفته بموقع ذاته من الوجود وخالقه ، صاحب البصر الأكثر جــلاء وقدرة على معرفة الحقيقة ، كما انه ، بهــذا الضياع نفسه الذي يحسه في ذاتــه ، هو المورد لمعرفة الهــداية والحقيقــة .

وهو لا يخاف مفاجأة الطارق ، لأن هذا الطارق مثله هائم عاشق للذات التي انبثق عنها ، لذلك تستمر رغبته في الاتصال بهذه الذات ، فهذا الوارد انما جاء من

عندها ليطالبه بالأمانة التي أودعتها فيه وليكون وفياً لعهدها . وبأداء الأمانة يسرع حثيثاً كأنه على جياد سوابق ليلتقي في وحدة الوجود بالذات الروحية المنشودة التي رمز لها بالغرانق ، ثم يكون أكثر تصريحا بمعناه الصوفي حين يشتهي أن يريه مصدر الوجود مكانته الجليلة ويفصل إجماله فما هو الا العالم الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر ، والصورة المحسوسة الصغرى لوحدة الوجود الكبرى . وقد عبّر عن ذلك بقوله : إنني لك النائب الوالي . وهكذا بانبثاقه عن الذات واتحاده معها وهما في الأصل وحدة يستطيع أن يعرف ما تعرف وأن يبين الصدوق من الكاذب ، والفاسق من التقي ، وأن يذوق الحلو والمرّ في حال تعبده ووصله وهجره . وهكذا يأمل أخيرا أن يزول الفرق بينه وبين آمره ويرى أن آمره يجري على سننه لأن الآمر والمأمور واحد . ويختتم الموشحة أخيراً من حيث الفكر الصوفي بأن المظاهر البشرية قد تجمع في الذنب والعقوبة بين المنافق والصادق العارف بالحقيقة ، لأن السلطة الزمنية البشرية تطبق القانون البشري وتأخذ بالظاهر :

أرسل الخيول والسلالق هي تجيك برأس المنافق وبالأديب . وهذا القفل من الوجهة الفنية تتمثل فيه الخرجة وقد جاءت عامية كما يتطلب فن الموشح : هي تجيك ..

ومن موشحاته السهلة التي يأتي فيها بالمعاني الصوفية في غلالة من المعاني والألفاظ الغزلية الإنسانية ، ممزوجة بألفاظ المشاعر والشعائر الدينية ، الموشح الذي عارض فيه موشح ابن زهر المشهور :

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

وقد جعل الفقرة الأولى من مطلع هذا الموشح آخر قفل من موشّحه وجعل فيه الخرجة فصحى لا عامية . وإليكه : « ديوان ابن عربي ط مكتبة المثنى ببغداد : ٣٩٢ » .

عندما لاح لعيني المتكا   ذبت شوقاً للذي كان معي

أيها البيت العتيق المشرف

جاءك العبد الضعيف المسرف
عينـه بالدمع شوقاً تذرف
غـربـة منـه ومكـراً فالبكـا ليس محمـوداً إذا لـم ينفـع

كلّمـا عدّدت فيه قـال لي
ليس هـذا فيّ بل في أيّلي
سأرى حكم قُلَيْب قد بلي
بهـواها مستغيثاً قـد شـكا وأنـا أعـلم شـكوى الجـزَع

أشرقت شمس لـه ما أشرقت

عرفت الموشحات إذاً في الشام عن طريق الموشّحات التي حملها الوافدون عليه من الأندلس والمغرب وموشحات ابن عربي • وكانت موشّحاته تنشد في حلقات الذكر فأعجبت الناس لأنها تجمع بين الغزل القدسي (الرمزي) والموسيقا والغناء •

ويعني ذلك أنّ شيوع الموشحات في الشام كان في القـرن السابع الهجـري بعد أن استقرّ ابن عربي في دمشق •

وصار الشعراء ينظمونها في موضوعات غير صوفية يأتي الغزل أوّلها لأنـه أليق شيء بها وقد نظموها أيضا في المدح وفي وصف الطبيعة والإخوانيات •

ومن أشـهرهم أبو محمد الواسطي (ت/٦٢٦ هـ) وعثمان البلطي والقاضي الفاضل ، وابن سـناء الملك •

ج ـ العهد المملوكي التركي :

ازدهر فنّ الموشحات فيه ، ونظم فيه صوفيون وشعراء آخرون وعلماء مارسوا النظم • وكثر الوشّاحون في مصر والشـام على السواء بل إنّ بعضهم لا يستطاع تمييزه أهو مصري أم شـامي ، وذلك يدلّ على أنّ تلك العهـود لم تكن تعرف العصبيّة الإقليمية وأن كلّ بلد عربي كان بلداً لأي عربيّ يحلّ فيه •

وممّن نظم الموشحات في هذا العهد ابن دانيال وشمس الدين بن الدهان وابن

الوكيل ، والتلّعفري والنصير الحمّامي والواعظ الواسطي (ت ٧٣٣ هـ) والسراج المحّار (عمر بن مسعود الكناني الحلبي) والسراج العزازي .

والموشّحات في هذا العهد أيضا قسمان منها ما جاء على بحور الشعر المعروفة وهو اكثرها .

وقد استخدمت في جميع موضوعات الشعر من غزل ومدح ورثاء ومجون وزهد وتصوف ومديح نبوي .

وقد يخرج الشاعر فيها من المدح الى الغزل وينهيها به على غير عادة العرب في القصيدة وربما فعل ذلك حتى تكون الخرجة عامية او مجونية ، رغبة في ان ينزه المديح عن ان تكون الخرجة فيه غير جدّية أو فصيحة .

ومن امثلة هذا الانتقال دون المجيىء بالخرجة المذكورة قول أيدمُر المحيوي (ت ٦٧٤ هـ) مادحا في موشح بدأه بالغزل :

كم موقف ليس للسلاحِ لاحي في الأرؤوس
وكاتبُ الموت بالرماح ماحي للأنفس
جبانه ظاهرُ افتضاح ضاحي لم يُرمَس
رزنتَ اذ خفّت الحلوم شاهر مجوهرا يفعل ما تشتهي المنون

ثم انتقل الى غزل الختام فقال :

وشادنٍ بات للتجافي جافي وصدّه
عاهدنا أنه يوافي وافي لعهده
فمورد الأنس والتصافي صافي بوعده
زارك من نحوه النسيم عاطر مخبرا ان اللقا في غد يكونْ

« الحياة الأدبية ، بدوي ، ص ١١٥ »

ويلاحظ على هذا الموشح غير الانتقال من المدح الى الغزل في آخره هذه الصناعة البديعية الملتزمة في أبياته التي تأخذ الفقرات المفردة لاحي ، ماحي ، ضاحي ،

جاقي ، وافي ، صافي . من الكلمات التي تسبقها مباشرة وهي : السلاح ، الرماح ، افتضاح ، التجافي ، يوافي ، التصافي .

وفي ذلك من التكلف المفرط ما فيه ، كما يلاحظ فيه اللحن في غير الخرجة .

ولم يلتزم المصريون بأصول الموشح كما جاءهم من الاندلس والمغرب وهذا موشح لشهاب الدين العزازي تتبين به بعض ما أدخلوه من تغيير :

كأس رويّة — جلا علينا النديمْ — أم سنا مصباحْ
أم شمسُ حسنٍ — قد توجتها النجوم — في سما الافراح
هات الكؤوسا — ممزوجة بالرضاب — من ثناياكا
واخطب عروسا — تروق تحت الحباب — لسجاياكا
وادع الجليسا — لمجلس وشراب — مثل ريّاكا
واشرب سبيّةْ — بها النفوس تهيمْ — ولها ترتاح
مِن بنتِ دنٍّ — أليس نحن الجسومْ — وهي الارواحْ
خذها مداما — وجرّ ذيل المجونْ — أيّما جرّ
وافضض فِداما — لها من الزرْجونْ — طيّبُ النشرِ
حيّا النّدامى — بها سقيمُ الجفونْ — ناحلُ الخصرِ
مدّ الربيعْ — للورد أيّ بساطٍ — حُفّ بالآسِ
قمْ ياخليعْ — الى الصّبوح بشاطِي — نهرٍ باناسِ
فما الهجوعْ — وقد دعاك تعاطي — جذوةِ الكاسِ
في سندسيةْ — أجرت عليها الغيومْ — مدمعاً سحّاحْ
من ماء مُزنٍ — وصاب منها النسيمْ — أرَجاً نفّاحْ
لنا خليلْ — نراه منذ ليالي — غائبٌ عنّا
وما الشمولْ — لذيذةٌ وهو سالي — أليس منّا
قل يارسولْ — بأننا في ظلالْ — روضةٍ غنّا
زيرجديةْ — وثمّ شادٍ وريم — وبقايا راحْ
ويومُ دجنٍ — وقد دعاك النديم — أجب ياصاح

سقياً لدهر قضى بعَلٍّ ونهْلِ وبغــــزْلانْ

وطيبِ عمرِ قضى بليلةِ وصلِ مالها ثانـــي

خلعتُ عذاري فيها وقلت لخِلي ولنـــدماني

في البابلية لاتسمع من يلومْ واهجُرِ النُصّاحْ

واشرب وغنِّ ياليلةً لو تدومْ دامت الافراحْ

« فوات الوفيات ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ابن شاكر الكتبي »

فقد تلاعب العزازي في اجزاء الاقفال والابيات وفقراتها ولم يكتف باللحن في الخرجة ولحن كثيرا في الابيات . وهذا مقطع من موشح آخر لشهاب الدين العزازي يبين لنا فيه تغييرا من نمط آخر ، ولنا فيه رأي سنبينه :

أقســمتُ عليكَ بالأسيل القــاني ان تنظر في حال الكئيب الفانــي

او تَقْصُــر عن إطــالة الهجــران يا من ســلب المنامِ من اجفــاني

ما أليقَ هذا الحسن بالاحســانِ

والله لقد ضاعفتَ عندي الكمــدا مذ جزت من الهجر الطويل الأمــدا

أدركْ رمقي أو هبْ فؤادي جلَدا يا من أخذ الروح وأبقي الجســدا

ما أصنعُ بعــد الروح بالجثمــانِ

« فوات الوفيات لا بن شاكر ١ : ١٦٦ »

ففي هذا الموشح يستعمل الدوبيت وزنا لكل اقفاله وابياته ووزن الدوبيت هــو :

فعْلن فعِلن مستفعلن مفعولن : مرتين ، فجمــع بذلك بين الدوبيت الــذي احترعه اهل المشرق وبين الموشح الذي اخترعه اهل المغرب ولذلك ســمي الموشــح الدوبيتي .

وثم تغيير آخر فهو قد جعل القفل شــطرا واحدا يأتي خماسيا بعد شــطور

الدوبيت الاربعة ، بالاضافة الى انه جعل موشحه أقرع ، وجعل شطور بيته الاول الاربعة من قافية القفل .

وعندي ان هذا اللون من النظم اقرب الى المخمس الدوبيتي منه الى الموشح ولا أرى فيه تجديدا ، ولكن هكذا سماه بعضهم ، ولذلك عده آخرون خارجا على نظـام الموشح وهم محقون .

وقد اشترط في الخرجة ان تكون عامية وان يمهد لها بكلمة قال او غنى او بما في معناها وان تكون على ألسنة الناطق او الصامت وآثروا فيها ان تكون على السن الصبيان والنسوان والسكارى .

ومن امثلتها قول محمد بن فضل الله السديد يمدح كمال الدين ابا الفضل في موشح خرج به من المدح الى الغزل ليجعل الخرجة خفيفة على النفوس : « الأدفوي ، الطالع السعيد ٣٤٥ ــ ٣٤٧ » :

في مربعٍ قد خلا	من أهله في السبت عمرانْ
فإن يكن أمحلا	فمدمعي كالسحب هتانْ

.. .. ..

وغادةٍ تنجلي	فينجلي القلبُ الحزينْ
بها يُحلّى الحَلِي	ويسحرُ السحرُ المُبينْ
قلبت لها والخَلِي	لم يدرِ الداء الدفينْ
بالله مَن ينطلي	عليكِ من تألفينْ

.. .. ..

لولا عليّ انطلا	تركتِ أمي وأبي من ثانو
كفاه الله البلا	يبيت سواي ذا الصبي في أحضانو

فهذه الخرجة باللغة العامية على لسان فتاة فيها طيش وخفة ظاهران وحديثها ترويه امرأة على لسانها .

وقد سلك فيها الشاعر مسلك القصة القصيرة وخرج على عمود الشعر العربي فجعل الفتاة تتغزل بالشاب وبشكل غير محتشم .

وربما كان من اقدم الموشحات التي نظمت في الشام في غير التصوّف موشحة شهاب الدين التلعفري المخضرم بين العهدين الأيوبي والمملوكي الذي اجاب بها على موشحة اخوانية ارسلها اليه شهاب الدين العزازي الشاعر الذي كان يعمل بزازا في القاهرة . وهذه هي الموشحة الجوابية :

ليس يروي ما بقلبي من ظما   غير برق لائح من اضَمِ

ان تبدى لك بانُ الأجرعِ
وأُثَيْلات النقا من لَعْلَعِ
يا خليلي قف على الدار معي
وتأمل كم بها من مصرع

واحترز واحذر فأحداقُ الدمى   كم أراقت في رباها من دم

حظّ قلبي في الغرام الوَلَهْ
وعذولي فيك مالي وله ؟
حسبي الليل فما أطوله
لم يزل آخرُه أولَه

في هوى أهيفَ معسولِ اللمى   ريقه كم قد شفى مِن ألَمِ

سائلي عن أحمدٍ مما حوى
من خلال هي للداء دوا
ما سواه وهو ، يا صاحِ ،سَوا
ناشرٌ من كل فن ما انطوى

بحر آداب وفضل قد طما   فاخشَ من تياره الملتطِمِ

العزازي الشهابُ الثاقبُ

شكـــره فرض علينـــا واجب
فهو اذ تبلوه نِعـم الصاحب
سهمُه في كـل فن صـائب

جـائل" في حلبـة الفضـل كمـا جـال في يوم الوَغى شـهم كمِي

شـاعر ابــدع في اشعـاره
ومتى انكـرتَ قولي بارِه
لو جرى مِهيار في مِضماره
والخوارزمـيُّ في آثـــاره

قلت عـودا وارجعـا مَن أتتمـا ذا امـرؤ القيس اليـه ينتمـي

« ديوان التلعفري ص ٤٠ و فوات الوفيات لابن شاكر جـ ١ ص ٣٥١ »

بدأ الموشحة بالغزل متلطفا وانتقل منه الى مدح الشهاب العزازي صـاحبه اعترافا بالفضل واعتزازا بالصداقة ، فهي تجمع بين الغزل والمدح •

ومن اشهر وشاحي الشام السراج المَحّار ابو الخطاب عمر بن مسعود الحلبي الكناني الذي عاش في كَنَف بعض ملوك حَمـاة الأيوبيين في العهد المملوكـي ، ومدحهم •

وقد نقل الموشحة في الشام من موضوعها الصوفي الى موضوعي الغزل والمدح وأضفى عليها ما كان يسود في الشام من الصناعة البديعية المتمثلة في التورية وفي الجناس والطباق وسائر ألوان البديع • ومن موشحاته الغزلية هذه الموشحة :

ترى دهر" مضى بكمُ يؤوبُ ، شبيبا ؟
ويضحي روضُ آمالي الحبيبُ ، خصيبا ؟
عسـى صبّ تملكه هـواه
يعـاود جفنَ مقلتِه كـراه
ويبلغ مِن وصالِكمُ مُنـاه
ويَرجعُ دهرنا عمـا جنـاه

ويجمع شملَنا حسنٌ وطيب ، قريبا
ويصبح ، حيث ادعوه ، الحبيب ، مجيبا

أرى أمدَ الصدود بكم تمادى
وكم لمتُ الفؤادَ فما أفادا
وتأبى عَبرتي الا اطّرادا
ونارُ صبابتي الاّ اتقادا

فخدّي ردّه الدمعُ السكوبُ خضيبا
وقلبي كاد أشواقا يذوب لهيبا

وبي رشَأ بناظره يصولُ
حسام في ضرائبه العقول
على وجَناته لدمي دليل
ولكنْ ما إلى قَوَدٍ سبيل

حبتْه من ضمائرها القلوبُ نصيبا
فكان لها وإن كره الرقيبُ حبيبا

غزال وهو في المعنى هلالُ
قريب ، وصله مالا يُنال
وغصن راح يعطفه الدلال
كذا الاغصان تَثنيها الشمال

اذا مالت بعطفيه الجَنوب هبوبا
تَثنّى في غلائله القضيب رطيبا

كلفتُ بحبه حلوَ المعاني
أعاني في هواه ما أعاني
أراه وإن تباعد عن عياني
كبدر التمّ : قاص وهو دانِ

يُرينا حين تطلعه الجَنوب عجيبا
جمالا لا يُكلِّفه الغروب مغيبا[1]

ونلاحظ ان رقة الشاعر وسلاسة طبعه في الغزل قد تغلبت على صناعته البديعية فأصبحت سهلة خفية ونلاحظ ان صناعته تكون اكثر ظهورا في موشحاته المدحية . ونلاحظ انه وشح الجزء الاول والثاني من القفل بالباء فاصبح يتألف كل جزء من فقرتين وهذا التوشيح عادة جرى عليها الوشاحون في بعض موشحاتهم واستحسنوها بعد ان استعملها احد الاندلسيين فاكثروا منها وآثروا ان يستعملوا فيها البـاء او الفاء او الراء لخفة هذه الحروف وموسيقيتها .

وكان بعض الوشاحين يجيدون فن الايقاع الموسيقي كشمس الدين بن الدهان الذي كان يحسن الضرب على القانون ويلحن موشحاته بحسب الايقاع مما ساعده على اجادة العنصر الغنائي فيها . ومن موشحاته الموشحة التي مطلعها :

يا أبي غصنُ بانةٍ حَمَلا ، بدر دجى بالجمال قد كملا ، أهيفُ

فريدُ حسن ما ماس او سفَرا
إلا أغار القضيبَ والقمـرا
يبدى لنـا بابتسـامه دُرَرا

في شهَد لذّ طعمه وحلا ، كأن أنغامه نسيمُ طَلا ، قرقفُ[2]

وقد علّل « يوهان فك » كون الموشح جـاوز العراق ولم ينتشر فيـه بان الموسيقا الفارسية قد سبقت الى التغلغل في العراق قبل الموسـيقا العربيـة وبان الموشحة ترتبط بالموسيقا العربية كل الارتباط ولا تزال كذلك الى اليوم (دراسات في اللغة ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ص ١٩٠) .

---

(١) الفوات ، ابن شاكر : ١ : ١٣٩ وابن تغري بردي المنهل الصافي (خ) ٣: و ٤٨٧ .
(٢) الصفدي ، اعيان العصر (خ) جـ ٦ ، ق ١ و ١١١ .

على اننا نرى بعض الشعراء العراقيين ينظمون في الموشح حين يرحلون الى الشام ومصر ويتذوقونه ومنهم صفي الدين الحلّي الذي سندرس شعره ٠

العهد المملوكي الجركسي :

استعمل الموشح خلال هذا العهد في الهزل استمراراً للعهد المملوكي الاول ودخلت فيه روح الدعابة المصرية ٠ ومن الامثلة الدالة على تمصير الموشح قول ابن سودون هازلا يتشوق الى بعض الوان الطعام والحلوى اللذيذة : « ابن سودون ، قرّة الناظر ، ورقة ٤٢ — ٤٣ (خ) » :

لا زال قلبي بحبّ الحلو معمورا
والموز في أصحن القَطْرور مغمورا
كيما أناديهما في الناس مسرورا

يا موزُ ياقطر زورا منزلي زورا   قلبي يحبكما ما قلت ذا زورا

٠٠   ٠٠   ٠٠

في الصحن ان جيت تراني لا َجْلها ولها
مالي تُحارِبُني في صحنها ولّها
لا بدّ فضلَ أخ يُولي تناولَها

وان يكن مِن قِوام فالقوامُ لها   اذ صار صائحها في الناس مشهورا

ان اللغة العامية وخفة الروح ظاهران في هذا الموشح ٠

واستمر الصوفيون يستخدمون الموشح في معانيهم وأذكارهم ٠ قالت عائشة الباعونية (ت ٩١٧ هـ) :

يامن أفتى في معناه بمن (مُعنّي) في هواه
جُدْلي جدْلي ومتعني وجلِّدني بالعِيان في اتصالي

يا محبوبي يا مطلوبي   يا مقصودي يا موجودي
كن لي كن لي واجبر كسري   وَاغْنِ فقري بالتداني والوصال

حبك تيّم فيك المغرم ولّى هيّم ، لا بل أعدم

عقلي عقلي واحيّرني ... واسهرّني وأضناني بالدلال
مجلى المظهر فيما اظهر ... أفنى منّي لمّا نوّر
ظلّي ظلّي واجردني ... وافرّدني وأفناني بالجلال
غبتَ عني رحتَ مني ... زالت حجْبي وافى قربي
وصلي وصلي قد أدهشني ... وانعشَني واحياني بالجمال
في مجلاه لمّا حيا ... مَنْ وافاه بالحَميّا
خلّي خلّي قم وتردّى ... وتملّى بالاحسان من نوالي
هذي الخمرة فيض المنّان ... عند العرفان لها ندمان
اهلي اهلي وسادتي ... وأحبابي واخواني في احوالي

« الكواكب السائرة ج ١ ، ٢٩٢ »

وهذا الموشّح ضعيف الصياغة سطحي المعاني ليس فيه العمق الرمزي الذي رأيناه عند ابن عربي ويمثل الفارق الكبير في المستوى الفني بين العهد الأيوبي والجركسي وهو الفارق الذي نراه يطّرد في جميع الموضوعات والفنون تقريبا .

وكذلك استمرّ استعمال الموشح في الرثاء ومن ذلك هذا الموشح لاحمد بن عماد الضرير يرثي به قاضي حلب احمد بن عمر بن محمد بن أبي الرّضَى شهاب الدين ابا الحسين الحموي الشافعي الذي أعدم في الفتنة بين السلطان برقوق ويلبغا الناصري :

على ابن أبي الرّضَى مَرّ اصطباري ... وسارا
وعيني قد جرت من عظم [1] ناري ... بحارا
مدارس درسه اشتاقت اليه ... وحنّ العلم والعلما لديه

واشياخ الحديث بكت عليه

---

(١) في احدى النسخ : من فرط ناري .

فكم سألوه عن نص البخاري مرارا
فحيّر في الجواب بلا اعتذار كبارا
إمامٌ كان في كل العلوم يعمّ على الخصائص والعموم
ويكرم ضيفه عند القدوم

ويحسن للفقير بلا احتقار وقارا
ويكسو بالفضائل كل عار إزارا
لاهل الفضل كان يقوم يلقى ويعشق من يحب العلم عشقا
وان أفتى ترى فتواه حقا

فأصحاب الفتاوى في انحصار حيارى
وقد عدمته أهل الاختيار بدارا
فريدا كان في نقل المذاهب فللطلاب كم أبدى غرائب
وفي حلب لقد صعد المناصب

ولا يسعى لابواب الكبار نهارا
ولم يقطع لاهل الافتقار مزارا
جواداً كان في ردّ الجواب وكم في العلم ألّف من كتاب
وميّز (1) للمشايخ والشباب

وكانت منه اهل الاشتهار فخارى
ولا يرعى الملوك ولا يداري أمارى
لقد بطّل الرشى لما تقضّى وكم قد ردّ بعد الحلّ أرضا
وكان الغيظ يكظمه ويرضى

---

(1) هل يقصد التمييز الذي كان يراد به في العهد التركي الامتحان وأقحم اللام قبل المشايخ للوزن ؟! ربّما .

لمـن أسـعى لقـد زاد افتكـاري وحـــارا
وعقلي طـار من بعـد اختيـاري نفـــارا

مضى ابن ابي الرِّضى حمداً وولى وسافر سفرة مـا عـاد أصْـلا
ترى هـل كـان في الدنيـا وولى

فعـن اولاده وعـن الـذراري تـــوارى
وأوحش حـين سـار الى القفـار ديـــارا

مضى ابن أبي الرضى قاضي القضاةِ واصبحـت المنـازل خاليـاتِ
سيسكـن في القصـور العاليـات

ويلبس مـن حريـر الافتخـار شعِـارا
ويلقـى الجبـر بعـد الانكسـار فَخـارا

عليـه يـا دموعي هـيّ هيـا فقلبـي قـد كـواه البينُ كيّـا
أقـول وان قضى لو كـان حيـا

علي ابن أبي الرِّضى[1] مرّ اصطباري وســارا
وعيني قد جرت مِن عُظم نـاري بحـــارا

« الدرر الكامنة لابن حجر ج ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ »

الصياغة هنا أقل سوءاً من موشّح الباعونية ولكنّهاليست جيّدة والفقرات بألفاظها وعاطفتها تصلح للندب ولكن المعاني والصور سقيمة .

(١) قال القاضي علاء الدين في تاريخ حلب : « كان ابن ابي الرضى من رجال العلم نجدة وهمة ، وكان يقوم بامر الشرع ويشتدّ في انكار المنكرات » .

الزجـــل

أصل الزجل في اللغة الجلبة والتطريب ورفع الصوت ◦ يقال : سحاب زجل ، اذا كان فيه رعد ، ويقال لصوت الاحجار والحديد زجل ، ومنه قول الشاعر :

مررت عـــلى وادي ثيـــاث فراعني ... به زجَل الاحجار تحت المعـــاول

وسمي فّن الزجل بهذا الاسم لانه لا يلتذ به وتفهم مقاطع اوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به ويصوّت فيزول اللبس بذلك « عن كتاب العاطل الحالي لصفي الدين الحلي »◦

كان ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) إمـــام هذا الفن في الاندلس ولكنه ليس اول من اخترعه لانه هو نفسه يتحدث عن زجال نظم فيه قبله وهو أخطل بن نمارة من اهل القرن الخامس الهجري كما يتحدث عن زجال آخر كان يتحداه وهو مخلف بن راشد ويقول في تحديه :

زجلـك يابن راشـــد قـــوي متين ... وان كـــان هو للقـــوة فالحمـــالين

« الأدب العامي في مصر ، للجمال ، ص ١٣١ »

فهو ينقد زجله بأنه قوي من حيث السبك ولكنه ليس جيدا من حيث التأثير وحسن الأداء فشبّهه بقدرة الحمالين على حمل الاوزان الثقيلة ◦ وهذا التحدي يدل على ان ابن راشد كان يعاصره ◦

وقد عدّد صفي الدين الحلي عدة اشخاص نسبت اليهم أولية قول الزجل منهم ابن غرلة الشاعر المغربي ومنهم مدغليس ولكنه ليس مخترعه لان له زجلا يذكـــر فيه انه يعارض ابن قزمان ◦

نشوؤه من الموشحات :

تبين لنا من قبل أنّ محموداً القبري كان يأخذ الجملة العامية أو النكتة أو الطرفة وينظم حولها موشحا ويجعل الجملة العامية خرجة لموشحته كما رأينا ان الموشحات الاندلسية قد تأثرت بالموسيقا والغناء الشعبيين . ورأينا ان الشعراء التقليديين قد نظموا الموشحات اولا باللغة الفصحى ما عدا الخرجة فلما اصبح الوشاحون يستعملون اللغة العامية في غير الخرجة من اجزاء الموشحات ثم تمادَوا في ذلك مغلبين العامية على الفصحى في موشحاتهم تحول الموشح الى ما يسمّى بالزجل .

فالزجل اذا هو الموشحات التي قيلت باللغة العامية او غلبت عليها العامية ونظمت في حوادث او اشياء تهم افراد الشعب . ومن اجل ذلك يقول الدكتور الأهواني في كتابه « الزجل في الاندلس » : « وكان الزجل ردّة ورجوعا الى الاصل الاول العامي البسيط » . وقد بدأ الزجل في المشرق المتصوّفان ابن الفارض في مصر وابن عربي في الشام وقد عاشا في آخر العهد الأيوبي .

اعتمد الزجل منذ نشأته على الغناء والحركة والمعرفة بأهواء المستمعين ليؤثر فيهم وينال اعجابهم في حفلات الاعراس وغيرها من مجالس العامة والخاصة وافراحهم ولذلك استحسن ان يكون الزجال خفيف الروح يلوّن صوته فيه ويتحرك بما يتلاءم مع الكلام الذي يقوله في زجله ونلاحظ ان بعض الازجال تحافظ على الاوزان التقليدية كبعض الموشحات ولكنها كثيرا ما تخرج عن جميع الاوزان الشعرية ولا يقيّدها وزن الا الوزن الغنائي الموسيقي . وقد نجد ازجالا تكثر فيها الاوزان وتتعدد او يعدّل فيها . هذا اذا استعملت اللهم اوزان عروضية لها .

ومن امثلة الزجل الذي يجري على نمط الموشح ولا يخالفه إلا في ان الخروج على النحو يعمّ جميع اجزائه ولا يقتصر على الخرجة هذا الزجل الذي قاله ابن المصلّي الأرمنتي [1] في فتاة تدعى « بدوية » من قرية تسمى « ببّوية » ونلاحظ ان هذه الزجلية تتحدث عن قصة شعبية صغيرة ملخصها ان هذا الزجال أحبّ هذه

---

(١) هارون بن موسى الرشيد (ت ٧٣٠ هـ) .

الفتاة وتمنعت عليه في بادىء الامر ثم نصحها رفيقاتها بالعطف عليه لانه يستحق ان يكون زوجا لها ، ولكن العذال ينقلون الخبر الى أهلها فتخاف على نفسها وعليه من بطشهم بهما : « الأدفوي ، الطالع السعيد : ٣٩٣ ــ ٣٩٥ » :

بــدويــة فــي بيّويــة ســاكنهْ   صــيرت عنــدي المحبــة كامنــهْ

اســمها ســـتّ العـــرب   هيّجــت عنــدي طـــرب

أنــا قاعــد بين جماعــة نستريحْ
عبرت واحــدة لهــا وجــه مليحْ
بقــوام أعــدل من الغصن الرجيحْ
صرت نرعى النجم الى وجه الصباحْ
إذ بدا لي الكوكب الدريّ ولاحْ
واذا هي قــد أتت ســت المــلاحْ

والعــذارى في عــقاب   مع عــريبه فيخــراب   ثم قالت ذا الكلاب

نبحــوا تأتــي الرجــال الظاعنهْ   بالســيوف والرمــاح الطــاعنــهْ

يدركــوني في الطلــب   يجعلوا رأســي ذنــب

يلاحظ فضلا عما قلناه في هــذا الزجل أن اللهجة العامية في اقليم أدفو مــن الصعيد المصري ظاهرة في كلماته كما يلاحظ أن الزجال يتكلم عمــا يتصل بــه من الحياة الشعبية • وقد ذكر الحلّي أن موّالي الزجل قسموه الى أربعة أقسام بحسب المضمون لا القالب • فسمّوا ما تضمن الغزل والنسيب الخمري والزهري والنسيب زجلاً ، وما تضمن الهزل والخلاعة والاحماض بليقاً ، ومفرده « بليقة » ويجمع على بلاليق • وما تضمن الهجاء والثلب سموه « قرْقيا » من قرْقت الدجاجة بمعنى صوتت • وسموا ما تضمن المواعظ والحكمة « مُكفّرا » لأنه يكفّر الذنوب •

أما من حيث الشــكل فسموا ما تختلط فيــه العامية بالفصحى « مزنّما » ، والزنيم هو الذي ليس له أب معروف ، وذلك لأنه من حيث الاعراب يلحق بالموشح ومن حيث اللحن يلحق بالزجل •

وقد يختلف بعض المؤلفين في هذه التسمية مع صفي الدين الحلي فيسمي مثلا ما أسماه مزنما « مزبلحا » . وننبه هنا الى أن هذه التسميات ليست دقيقة فقد يطلق اسم البليق على القرقي . والعكس واقع أيضاً .

ويلاحظ أن الحدود ليست فارقة تماماً بين الموشح والزجل حين يخلط كل منهما بين العامية والفصحى ويخرج على الأوزان التقليدية المعروفة . وقد استعمل الزجل في الموضوعات التقليدية كلها التي نعرفها من غزل ووصف ومدح وهجاء . ويضاف الى ذلك التصوف .

وقد ازدهر فنّ الزجل خلال العهد المملوكي التركي واستمرّ بعده إلى اليوم .

ومن أمثلة النقد الاجتماعي السياسي الذي استعمل في العهد المملوكي الأول قول ابراهيم المعمار ، وهو من شعراء القرن الثامن يجاري شاعراً سبقه هو ابن دانيال يأسى على أحد السلاطين قد منع الخمر :

منعونا ماءَ العنب ياسين°	ربّ سلّم لم يمنعونا التين°
هات قل لي اذا مُنعنا الراح	وحرمنا من الوجوه الصبّاح°
بيش نَبقى نستجلب الأفراح°	والخليع كيف تراه يبيت ، مسكين

« بدائع الزهور ، ١ : ١٠٦ »

ومن مثال الغزل في الزجل قول الحسن بن هبة الله الأدفوي الملقب بالشمس :

إنّ المليحة والمليح ، كلاهما	، حضرا ، ومزمار" هناك وعود
والروض فتّحت الصبّا أكمامَه	فكأنه مسك يفوح وعود
ومُدامة تجلو الهموم فبادروا	واستفتحوا فرص الزمان وعودوا

« الأدفوي ، الطالع السعيد : ٢١٤ »

كان من أشهر الزجالين في مصر خلال العهد المملوكي التركي ابراهيم المعمار ومن أشهرهم في الشام شهاب الدين أحمد بن عثمان الأقساطي وعلاء الدين بن مقاتل الحموي .

ومن أشهرهم في العهـد المملوكي الجركسي ناصر الغيطي ، وله زجلية رثاء في الفيل مرزوق الذي مات في الخليج الناصري سنة ٨٠٤ هـ وكان تيمورلنك قد أهداه الى السلطان الناصر فرج بن برقوق ومطلعها :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللي جـره   الفيل وقع يوم الاثنين في القنطـرة

« ابن إياس ، بدائع الزهور ١ : ٣٤٢ ــ ٣٤٣ »

الدوبيت ــ الرباعيات :

الدوبيت كلمة مكوّنة من « دو » الفارسية ومعناها اثنان ، وبيت العربية التي تستعمل في الفارسية بمعناها العربي نفسه فتدل على الدار وتـدل على البيت مـن الشعر • ومعنى دوبيت إذاً البيتان وقد يسميه بعضهم ذوبيت تحريفـاً ويطلق عليه كثيراً اسم الرباعيات ومنها رباعيات الخيام • ويدل اللفظ على أن الفرس هم الذين اخترعوا الدوبيت وان العرب أخذوه عنهم •

وقد نظم الدوبيت بالعربية في القرن الخامس الهجري • ويذكر الاستاذ محمد بهجة الاثري محقق قسم العراق من الخريدة للأصفهاني (العماد) ان أقـدم مـن نظم في الدوبيت رودكي ، الشاعر الفارسي المتوفّى سنة ٣٠٢هـ ، (ذكر ذلك خلال تعليقه على شعر هبة الله بن الفضل الشاعر العراقي) • ونرى شيئاً من الدوبيت قـد نظم أثناء الحروب الصليبية كالدوبيتات التي نظمهـا العماد الأصفهاني على لسان نور الدين زنكي يدعو فيها الى الجهـاد •

وللرباعيات وزن واحد : فعْلن° متفاعلن فعولن° فاعِلن° ولكن تغييرات كثيرة تطرأ عليه تجعل من الصعب تقطيعه أحياناً على هذا الوزن ونرى أن يحاول المقطّع حين يجـد شيئاً من الصعوبة أن يقطعه على الوزن التالي :

فعْلن فعِلن ، متفاعلن (أو مستفعلن) ، مفعولن •

وللرباعيات بحسب القافية ثلاثة أشكال :

الشكل الاول ــ أن تكون الشطور الأوّل والثاني والرابع من قافية واحدة

ويكون الشطر الثالث حرّ القافية . وهذا الشكل هو الأكثر تداولا ، ويسمى الأعرج ، ومنه قول أحدهم :

بالبلبل والهزار والشحرورِ يسبى طربا قلب الشجيِ المغرورِ
فانهض عجولاً واتهبْ لذةَ ما جادت كرماً به يدُ المقدور

« الأدب المملوكي زغلول سلاّم جـ ١ : ٣٢٨ »

الشكل الثاني — أن تكون الشطور الأربعة من قافية واحدة ولم يعْطَ له اسم ونستطيع أن نسميه موحّد القوافي . ومنه قول الوداعي أحد شعراء الشام في القرن الثامن الهجري :

لمّا حجَبَ الكرى عن الآماقِ ما أحسنَه وهو بقلْبٍ ساقي
ناديتُ وقد تزايدت أشواقي يا غصنُ رضيتُ منكَ بالأوراق

« ابن حجّة ، الخزانة : ٢٨٢ »

« وقلب ساقي هو قاسي » .

الشكل الثالث — يسمى المردوف ، لأن الحرف الأخير من قافيته مسبوق بحرف علة ساكن ، وهو ذو أربعة أشطار كالشكلين السابقين قافية الشطر الثالث منها مطلقة . ومنه قول محمد بن اسرائيل الصوفي :

قد بالغ في حديثه بالميْنِ من قال رأيتُ مثلَه في العَينِ
ما يبصر مثله سوى ذي نحولٍ مِن حيث يرى الواحد كالاثنين

« شرح اللامية للصفدي ص ٨٦ »

والمعنى في هذين البيتين صوفي وقد يفسر بالمعاني الغزلية الانسانية المألوفة . وغرضه ان هذا المحبوب لا يراه إلا عاشق أصابه النحول وفقد صوابه وغاب عن الوعي حتى ليرى الواحد اثنين . أو أنه يرى الواحد يتعدّد في موجوداته وهو أنسب للفكر الصوفي .

وقد تأتي فيه القافية الثالثة مردوفة كالثلاث الأخر .

وقد ذكر الحِلّي أن الدوبيت يشترط فيه الاعراب كالشعر التقليدي والموشح، ولكن الصحيح ان اللحن قد أصابه كما أصاب الموشح . ومن الدوبيت المختلط بين الفصيح والملحون قول أحدهم :

لو كان لي الصبرُ من الانصارْ ... ما كان عليك هتكت الأستارْ
ما كان يا أسمرْ لويتَ لنا ... في دهرك ليلة من السُمّارْ

« فوات الوفيات ١ : ٦٤ »

ومن الملحون قول أحدهم :

يا عينُ بحقّ من تحبي نامي ... نامي ففؤادي في هواه نامي
والله ما قلت ارقدي عن ملالةٍ ... إلا لَعسى تَريْه في الأحلام

« الطالع السعيد للأدفوي ١ : ٦٤ »

وقد استخدم جماعة من شعراء الفرس الصوفيين نظام الدوبيت في شعرهم الصوفي خلال القرنين الهجريين السادس والسابع ، وانتقل من فارس غرباً الى العراق فالشام فمصر فالسودان.وهو لايزال مستعملا في النظم العامّي السوداني الى اليوم.

وخصّص بعض الشعراء في مصر والشام دواوين مستقلة لهذا الفن ، منهم الشهاب الشاغوري والعماد الكاتب المخضرمان بين العهدين الزنكي والأيوبي .

وممن نظموا فيه ابن عربي من العهد الأيوبي وابن دقيق العيد والشاب الظريف والشهاب التلعفري من العهد المملوكي التركي . وقد استعمل الدوبيت في الأغراض الشعرية التقليدية كلها . ومن استعماله في وصف الطبيعة قول أحدهم :

ما عذرُ فتى ما مدّ للّهو يدا ... والدوحُ قد اكتسى ثياباً جُدداً
مالت طرباً أغصانه راقصةً ... لمّا صدح الطيرُ عليها وشدا

« فوات الوفيات ، ج ٢ : ٢٦٧ »

ومن استعماله في الغزل قول أحدهم :

قاسيتُ بك الغرامْ والهجرَ سِنين ... ما بين بُكا وأنين وحَنينْ

أُرْضيكَ ولا تزدادُ إلا غضبًا ... اللهُ كما بلا بك القلبَ يُعينْ

« ابن شاكر ، فوات الوفيات ٢ : ٢٦٧ »

فن المواليا :

اخترع هذا الفن في المشرق العربي كالدوبيت والأرجح أنه اخترع في العراق . ذكر الحلّي أن أهل واسط اخترعوه ليتغنّى به في الحقول عبيدهم الذين كانوا يردّدون في آخر كل صوت قولهم يا مواليا (بفتح الميم) « تاريخ الموصل : ٨٢ » ونسب بعضهم اختراعه إلى مولاة للبرامكة رثتهم به وكانت تصيح بعد كل صوت وامواليا .

وممّا روي للجارية البرمكية قولها :

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس ... أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الأراضي الدُّرس ... سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خُرس

« الرجوي ، بلوغ الأمل (خ) و ٢٠ »

وذكر أن أول ما نظمه الواسطيّون في هذا الفن قولهم :

منازل كنت فيها من بعادك دُرْس ... خراب لا للعزا تصلح ولا للعرس
فأين عينيك تنظر كيف فيها الفُرْس ... تحكم وألسنة المدّاح فيها خرس

« الأدب العامي للجمال : ١٣٤ عن « محمد بن إسماعيل بن عمر شهاب الدين »

« سفينة الملك ونفيسة الفلك : ٣٨٠ »

ويتبيّن من هذا أنّ النزاع حول اختراع هذا الفنّ كان متأثرا بالصراع بين القوميّتين العربية والفارسية .

وقيل إنه سمي بذلك من الموالاة في قوافيه لأنّ القوافي الأربع تتوالى على رويّ واحد والموالاة في هذا الرأي المتابعة ، على أنّ من معانيها المناصرة ومن ذلك الحديث : « اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه » وبهذا يقرب اللفظ ، لضمّ

ميمه من اللفظ العامي « المثوّال » وأصله « المثوالي » تحذف ياؤه حين التنوين لأنه منقوص وجاءته الشدّة من الاستعمال العامي .

وينظم المواليا على البحر البسيط . وكان يتألّف من أربعة شطور متحدة القافية ويسمّى هذا النوع الرباعي ومثاله قول ابن سودون من قوّالي العهد المملوكي الجركسي :

لي حبّ من غيتو ضرب النفوس شامات	لو قدّ مع خدّ في ذا لين وذا شامات
إن قلت صلني أعش لك عون على الشمّات	يقول ماصل ومن شا عاش ومن شا مات

« ابن سودون ، قرّة الناظر ونزهة الخاطر ق ٣٥ (خ) »

وقد نشأ نوع ثان يدخل فيه شطر خامس بقافية مختلفة بين الشطرين الثالث والرابع ويسمّى هذا النوع الأعرج ومثاله قول أحدهم : سفينة الملك ، محمد بن إسماعيل : ٣٨٥ » .

خطرت يا غصن تتمايل ولا كلّمت	مغرم بسيف اللواحظ مهجته كلّمت
يا منيتي مقصدي لو بالعيون سلّمت	ما تعلم أني أسير القلب مشغول بك

وللمقادير أمري يا قمر سلّمت

وقد تدخل ثلاثة شطور لها قافية واحدة مختلفة عن الأربعة الأخرى بين الثالث والرابع ويسمّى هذا النوع النعماني ومثاله قول أحدهم :

« سفينة الملك : ٣٩٠ »

الأهيف اللّي بسيف اللحظ جارحنه	بيده سقانا الطلا ليلة وجارحنه
رمش رمى سهم قطّع به جوارحنا	آهين على لوعتي في الحبّ يا وعدي
هجره كواني وصيّرني على وعدي	يا خل واصل ووافي بالمنى وعدي

من حرّ هجرك ومن نار الجوى رحنا

ونبه إلى أنّ للمواليا كتابة خاصة به تلائم العامية .

وقد ذكر ابن خلدون أن البغاددة لا يتقيّدون بالإعراب في المواليا . ولاحظنا

نحن ونحن نقرأ أمثلته أنه يهتم كثيرا بالجناس وحلاوة التلاعب اللفظي وإيهام الترادف . وذكر ابن خلدون أن أهل مصر « أتوا فيه بالغرائب وتبحّروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية ، فجاؤوا بالعجائب » ومن أمثلة موالياتهم مواليا ابن سودون السابقة . وهو من العهد الجركسي واشتهر به قبله في العهد المملوكي التركي إبراهيم المعمار ومن قوله :

هويت طبّاخ بالصبحة أخد ميّه   حلو المزاج كأنه ابن تركيه
ولو أطارف نواعم بيض زُبدية   لها معاني على الإخوان مخفيّه

« مطالع البدور ، ٢ : ٢٤ »

وقد انتشر هذا الفنّ في الشام وممّن عرف به إبراهيم بن محمد بن طرخان الحكيم الأنصاري المشهور بابن السويدي المولود في أوّل القرن السابع الهجري ، فهو مخضرم بين العهدين الأيوبي والتركي . ومن قوله متغزّلا :

البدر والسعد ،ذا شبهك،وذا نجمك   والقدّ والحسن: ذا رمحك، وذا سهمك
والبغض والحبّ،ذا قسمي وذا قسمك   والمسك والحسن : ذا خالك وذا عمّك

« النجوم الزاهرة ٨ : ٢٨ »

ومن قوله يهزأ بتعابير النحاة ويتغزل على لسان امرأة مستهترة تحدّث أختها لتسمع حديثها لحبيبها وتتعرّض له على خلاف ما عرفنا من عمود الشعر وأخلاق المرأة عندنا :

دي قايله لأختها ، والقصد تسمعنا   ما النحو ؟ قالت لها نحنا بأجمعنا
للرفع والنصب : نا وانت ، ومن معنا   للجرّ ، والزوج حرف جرّ جاء للمعنى

«المنهل الصافي (ط) جـ ١ : و ٣٢ — ٣٣ . والنجوم الزاهرة ٨ : ٢٨»

وكان الغزل أكثر ما يتناوله هذا الفن ، على تناوله جميع الفنون ، وقد احترفه بعض الموالين فكانوا يكتسبون به في حلقات يعقدونها لناس (السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٨ ص : ٢١١) .

وقد نظم به بعضهم المعاني الصوفية ومن ذلك قول عبد العزيز بن أبي الأفراح (ت ٧٠٣ هـ) وهو أحد مريدي ابن عربي :

لم تدّعي الذوق والوجدان والأحوال وأنت خالي من الإخلاص في الأعمال

ارجع لجسمك فسمّ البين لك قتّال ترمي حجر ما يشيله خمسمائة عتّال

« ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢ : ٣٧٥ »

* * *

مذاهب الشعر في هذه العهود ومميزاته

ظهرت في هذه العهود ثلاثة مذاهب : المذهب التقليدي ، والمذهب البديعي ، ومذهب الفنون المستجدة .

المذهب التقليـدي :

كان هذا المذهب استمراراً للعصر العباسي ومثاله قول الشاعر الأبيوردي وهو شاعر عربي كان يعيش في بلاد الفرس خلال القرن السادس الهجري :

نزلنـا بنعمـان الأراك وللنـدي سَقيطٌ به ابتلّتْ علينا المَطارِفُ
فبتُّ أعاني الوجدَ والركبُ نُوَّمٌ وقد أخذت مني السُرى والتنائف
وأذكرُ خوداً إن دعاني الى الهـوى نواها أجابته الدمـوعُ الذوارف

« ديوان الأبيوردي المطبوع في بيروت ١٣٠٧ هـ »

ومثاله أيضاً الأبيات الغزلية التي مرت معنا لأسامة بن منقذ ومطلعها :

ولّوا فلمـا رجونا عدلهمْ ظـلموا فليتهمْ حكموا فينا بمـا علمـوا

« الروضتين ١ : ٢٣٧ »

وهـذا النمط من الشعر يشبه أسلوبه أسـلوب البحتري وأسلوب الشعراء الغزلين في العصر الأموي . فلتراجع في مكانها من بحث الغزل .

والمذهب الثاني البديعي :

يكثر أصحابه فيه من فنون البديع وقد رأينا أمثلة كثيرة عليه ومن ذلك قول العماد الأصفهاني يرثي صلاح الدين وقد رأيناه قبل ومطلعه :

شمْلُ الهدى والمُلْك عمَّ شتاته والدهـرُ سـاء وأقلعتْ حسناته

ويلاحظ أن كل بيت من أبياته لايخلو من طباق أو جناس أو منهما معاً .

وكان بعض الشعراء يبنون شعرهم أحياناً بناء الرسائل ومن ذلك قول صدر الدين بن الوكيل أحد شعراء العهد المملوكي الأول :

الى بابكَ المأمولِ وجّهتُ آمالي ... وفي فضلك المعهود قصدي وإقبالي

« فوات الوفيات ١ : ٤٧ »

ويرى من مطلع القصيدة كيف وجّهها الشاعر الكاتب توجيه الرسالة النثرية .

والمذهب الثالث :

رأينا عليه أمثلة كثيرة فيما أخذناه من موشحات وأزجال ورباعيات وهو سمة هذه العهود المميزة ماعدا أولها وهو الزنكي الذي لم تستعمل فيه الموشحات والأزجال أما الأسلوبان الأولان فقد عرفا في العهود السابقة . وقد شاع في هذه الحقبة استعمال فن القصة القصيرة الاجتماعية أو الغزلية . ومثالها قول ابن مطروح من شعراء العهد الأيوبي مصوّراً حديث حبيبته الى دايتها تشكو هواها اليها على مسمع منه :

سمعتُها تشتكي لدايتها ... شكوى تذيب القلوب والمهَجا
تقول يا دايتي بُليتُ به ... وما أرى من هواه لي فرَجا
ومثل ما بي به ولا عجبٌ ... هوىً بقلبي وقلبه امتزجا
فهل سبيلٌ الى زيارته ... ولو ركبتُ البحار واللُّجَجا
وإن درى والدي بقصتنا ... أراق يا دايتي دمي حرَجا
فرحت مما سمعتُ مبتهِجاً ... كشارب الراح راح مبتهجا

« ديوان البهاء زهير ص ١٧٦ »

فهذا الأسلوب يذكرنا بأسلوب عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد في قصصهما القصيرة الغزلية . وقد شاعت السخرية في أساليب الشعراء والكتاب ولا سيما المصريين منهم ومثال ذلك قول الشيخ عبد العزيز الدَّرَيْني من شعراء العهد المملوكي التركي يشكو من زواجه باثنتين :

تزوجتُ اثنتينِ لفرط جهلي — عسى بزواجهنَّ تُسَرُّ عيني
فقلتُ أعيش بينهما خَرُوفاً — أُنعَّم بين أكرم نعجتينِ
فجاء الحالُ عكسَ الحالِ دوماً — عذابٌ مؤلم بين اثنتيْنِ
رضى هذي يحرّكُ سخط هذي — فلا أخلو مِنَ احْدى الساخطين
لهذي ليلةٌ ولتلك أخرى — نِقارٌ دائم في الليلتيْن
اذا ما شئتَ أن تحيا سعيدا — من الخيراتِ مملوءَ اليدين
فعشْ عَزَباً وان لم تستطعْه — فواحدةٌ تُكَفّي عسكريْنِ

« ابن خلكان ، الوفيات ، ١ : ٨٢ »

وتنوعت عواطف الشعراء بحسب الموضوعات ، ولكن العاطفة بصورة عامة كانت تميل الى الرقة . وقد رأينا مثالا على هذه الرقة في الغزل قول سيف الدين بن المشد (ت ٦٥٦ هـ) :

بشرى لأهل الهوى عاشوا به سعَدا — وإن يموتوا فهم مِن جملة الشهَدا
شعارُهم رقّةُ الشكوى ومذهبُهم — أنّ الضلالة تيهاً في الغرام هدى
عيونهمْ في ظلام الليل ساهرةٌ — عَبرى وأنفاسُهم تحت الدجى صُعُدا
تجرعوا كأسَ خمرِ الحب مترعةً — ظلّوا سُكارى فظنوا فيهم رشدا

« ابن العماد ، الشذرات ٥ : ٣٤٩ »

أما المعاني فكان أكثرها تقليدياً ولكن الشعراء مزجوا أحياناً بين القديم والجديد بأن جددوا في المعاني القديمة ببعض الاضافات ومثال ذلك قول أحدهم :

لهيبُ الخدّ حين بدا لِعيني — هوى قلبي عليه كالفَراش
فأحرقه فصار عليه خالاً — وها أثرُ الدخان على الحواشي

فالقديم فيه تشبيه الخد بالنار والجديد تشبيه القلب بالفراشة تحترق به وتبقي أثراً أسود عليه .

ومن أمثلة المعاني الجديدة المستحدثة قول ظافر الحداد (ت ٥١٢ هـ) وقد استدعاه والي الاسكندرية ليستخرج خاتماً ضاق خنصره عنه :

قصّرَ في أوصافكَ العالَمُ فاعترفَ الناثرُ والناظمُ
مَن يكنِ البحرُ لهُ راحةً يضيقُ عن خنصرِه الخاتَمُ
« خريدة مصر ، ج ٢ : ١٥ »

ومما أكثر منه شعراء هذه العهود المبالغة في التعظيم والاجلال كقول ظافر الحداد نفسه يهنيء قاضي الاسكندرية برمضان :

شهر الصيام بك المهنّا إذ كان يشبه منك فنّا
ما سار حولاً كاملاً إلاّ ليسرقَ منكَ معنى
« خريدة مصر ، ج ٢ : ١٥ »

وكذلك أكثروا من نقدالمجتمع . من ذلك قول ابن المقدام المحلي من شعراء آخر العهد الفاطمي في استئثار الجند بمال الدولة وفي سلبهم الناس وحرمانهم الكتاب الذين لم يكونوا يحصلون من الغنيمة الا على القليل :

فاتركونا ، معاشرَ الجند ، واغنَوْا بدُرور الأرزاق كلَّ أوانِ
وارتعوا في جَزور ذي الدولة السـ ـهامي نداها في أطيب اللّمحانِ
واشغلونا بما به يشغل الهـ ـنُّر بنفع أو خيفةِ العدْوان
بالطّحال المسدود أو طرف الريّة أو بالمعْلاق والمصران
« خريدة القصر ، ج ٢ : ٤٧ »

ومن الجديد في هذه العهود استعمال مصطلحات العلوم وألفاظها . قال أحدهم يتغزل مستعملا لغة الهندسة ، ولعلّه من شعراء العهد المملوكي التركي :

تقسّمَ قلبي في محبّةِ معشرٍ بكل فتى منهم هوايَ منوطُ
كأنّ فؤادي مركزٌ وهمُ لهُ محيطٌ وأهوائي اليه خطوط
« وفيات الأعيان ، ج ٥ : ١٢٢ »

ومن الجديد فيه أيضاً استعمال ايحاءات الألفاظ . من ذلك قول ابن الدمرداش[1] في مسواك :

(١) لعله مخضرم بين العهدين الفاطمي الزنكي والأيوبي .

أقولُ لمسواكِ الحبيبِ لكَ الهَنا | بلثمِ فـمٍ ما نـاله ثغـرُ عاشقِ
فقال وفي أحشائه حُرَقُ الجَوى | مقـالةَ صبٍّ للديـار مُفـارِق
تذكرتُ أوطاني فقـلبي كمـا ترى | أعلِّله بين العُذَيْبِ وبارِقِ [1]

« شذرات الذهب ٦ : ٥٩ »

وقد مال شعراء هذه العهود الى السهولة في استعمال الصور البيانية • وقـد عرّف أحدهم ، وهو ابن حُجة أحد أدباء العهد الجركسي ، حسن البيان بأنه عبارة عن الابانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللَّبْس ، ولكن أدباءها أنزلوا فنون البيان عن مكانتها التي كانت لهـا في العصر العباسي لدى عبـد القاهر الجرجاني وأدرجوها ضمن فنون البديع • وبقيت صور الشعر كما كانت عليه من قبل صورا تَتابَعُ دون أيّ استقصاء للصورة كما كان يفعل ابن الرومي • ومن أمثلة هـذه الصور المتتابعة قول ابن منير الطرابلسي من شعراء العهد الزنكي •

خلوتُ بمـن أهـواه بعد تفرّقٍ | بأرضٍ الى صوب الندى أن يصوبَها
فكـان عويلي رعـدَها وابتسامُه | وميضاً وأهواءُ القلوب جَنوبَهـا

« أعلام النبلاء ، جـ ٤ : ٢٤٦ »

فقد شبه عويله بالرعد وابتسامة الحبيب بلمعان البرق وأهواء القلوب بالرياح الجنوبية ، ولكنه لم يُفصّل أيّ صورة من هذه الصور •

وأكثر الصور التي جاء بهـا الشعراء تقليدي سبقوا اليه • ومثال ذلك قول عرقلة من العهد الأيوبي ، في المـدح :

معشرٌ كالغيوث في حلْبة السّلم | وفي الحـرب كالليـوث الضواري

« الديوان : ٤٧ ــ ٤٨ »

ولكنهم جاؤوا الى جانبها بصور جديدة مبتكرة • مثال ذلك قول ابن الساعاتي

---

(١) العُذيب : تصغير عذب ويريد به ريق الحبيبة ، وبارق : يريد به اسنان الحبيبة البيضاء البارقة .

من العهد الأيوبي أيضا يصف أصحابه المسافرين وقد انحنَوْا فوق رحالهم فيشبههم بأنامل الحاسب حين يعدّ :

وصحبي تَشاوَى مِن نُعاسٍ كأنّهمْ ... على شُعَبِ الأكوارِ أنمُلُ حاسبِ

« الديوان ٢ : ٢٥٧ »

ومن صورهم المبتكرة قول مجير الدين بن تميم من العهد المملوكي التركي :

سبقتْ اليكَ مِن الحدائق وردةٌ ... وأتتْكَ قبلَ أوانِها تطفيلا
طمِعتْ بلثمكَ إذْ رأتكَ فجمّعتْ ... فمَها اليكَ كطالبٍ تقبيلا

« شرح اللامية ، ١ : ٧٢ » و « خزانة الأدب ، ابن حجّة ، ١٧٦ »

ونلاحظ على بعض الصور أنها تأثرت بحياة الشعراء العامة الطبيعية والاجتماعية ، مثال ذلك قول ابن الساعاتي يصف روضة :

ولقد نزلتُ بروضةٍ حزَنيّةٍ ... رتعتْ نواظرُنا بها والأنفُسُ
ما الجو إلاّ عنبرٌ والدوحُ إلا جوهر ... والأرض إلاّ سُنْدُسُ
سفرت شقائقُها فهمّ الأقحوانُ بلثمها ... فرَنا اليه النرجِس
فكأنّ ذا ثغرٌ وذا خدٌّ نُحا ... لهُ وذا أبداً عيونٌ تحرُس

« الديوان ، ٢ : ١٦٤ »

فالشاعر في تشبيهاته هذه متأثر بميله الى المرأة وعلاقته بها ويستمد بعض تشبيهاته مما يستمتع بـه في البيئة حوله كالعنبر والجوهر والسندس ، وهو الحرير الأخضر . وأكثر ما يستلفت النظر في هذه العهود من ناحية الفنون البديعية ظهور ثلاثة مذاهب في التورية :

١ ـ الأول :

مذهب القاضي الفاضل وهو مخضرم بين العهدين الفاطمي والأيوبي الذي امتاز بالاكثار من التورية على أساس أنه يخلق فيها نوعاً من الإيهام المحبب للقارىء أو السامع بحيث يحتاج الى إعمال ذهنه ليحل عقدة الألفاظ ويختار المعنى المراد

البعيد من معنيين محتملين • ومن تورياته وقد وقف مع صلاح الدين على نهر الفرات وتحرّك به شوقه الى نيل مصر :

بالله قـل للنيـل عنّـي أنّنـي لم أشف من مـاء الفرات غليلا
وسَل الفؤادَ فانّه ليَ شـاهد إن كـانَ طـرفي بالبـكاء بخيـلا
يا قلبُ كم خلّفتَ ثمّ بُثَيْنَـةً وأعيـذ صبـركَ أن يكونَ جميلا

«وفيات الأعيان ١ : ٢٨٥» و«خزانة الأدب للحموي، باب التورية ص٣٠٠»

فالقاضي الفاضل يمهد لتورياته بذكر بثينة ثم يورد بعدها « جميلا » ولا يريد جميلها الشاعر المشهور بل يريد بها الصفة التي هي عكس القبح • أي انه يستقبح الصبر على بُعـد الأحبـاء •

٢ ـ المذهب الثاني :

مذهب الشرف الأنصاري صاحب الطريقة الشامية في التورية وهـو يعتمـد فيها إحكام ايرادها دون تمهيـد معتمداً على ذكاء القارىء وعلى سهولتها مستفيداً في كثير من الأحيان من الاشارات التاريخية ومن أسماء الأمكنة المشهورة ومثـال ذلـك قـوله :

قـالوا أمـا في جِـلّق نزهـة تنسيكَ مـن أنت بـه مُغـرَى
يا عاذلي دونـكَ مِـن لحظِـه سَـهْماً ومِن عارضِـه سَـطرا

« الديوان : ٢٤١ ـ ٢٤٢ »

فالشرف الأنصاري هنا يذكر اسمي متنزّهين قرب دمشق أحدهما اسمه سهم والآخر اسمه سطرى ولكنه لا يريد هنا هذين المكانين وانما يشبه لحظ حبيبه بالسهم ويشبه عارضيه أي الشعر الذي ينبت في جانبي وجهه أول نباته بسطر من الكتـابة الدقيقـة المنمنمة •

٣ ـ والمذهب الثالث :

هو مذهب ابن نباتة المصري ، وقد سمي مذهبه بالسحر الحلال وجمـع فيه

بين التورية المصرية التي اقتبسها عن السراج الوراق الشاعر المصري على الطريقة الفاضلية وبين التورية الشامية التي أخذها عن الشرف الأنصاري ووحد بين المذهبين واستفاد من الكنى والألقاب والأسماء والصناعات ومن الاعتماد على ذكاء القارىء وثقافته التاريخية والعلمية والأدبية وأضاف الى ذلك صفة الإيحاء للقارىء بالمعنى الذي يريده في أسلوب رقيق سهل •

ومن تورياته التي تمثل مذهبه قوله :

لقد كنتُ في لذّاتِ ثغركَ هائما ... ليالي لم يمنعْ على عاشقٍ ثغرُ

فأمّا وسترٌ دونها مِن شواربٍ ... فلا خيرَ في اللذات مِن دونِها سترُ

« الخزانة : ٣٥١ »

فالشاعر هنا يتغزل بالمذكر ويستفيد من تضمين شطر بيت لشاعر عباسي فيستعمل التورية في كلمة ستر وهو لا يريد الستر من القماش أو نحوه وانما يريد الشاربين اللذين ظهرا في الذي يتغزل به •

وقد استعمل شعراء هذه العهود ما يسمى بحسن التعليل أحيانا ومثال ذلك قول ابن القيسراني من العهد الزنكي متغزلا :

لو لم تكن مقلته في الحشا ... جارحةً ما سُمّيت جارحه

« الديوان (خ) و ٨٣ — ٨٤ »

فالشاعر يعلل سبب تسميته العين بالجارحة ، كبقية الأعضاء ، بأنها تجرح بجمالها •

وأكثروا من مراعاة النظير ومثال ذلك البيتان المشهوران في البلاغة اللذان يستشهد بهما على هذا الفن ، وهما لابن الساعاتي من العهد الأيوبي :

والطّلّ في سِلك الغصون كلؤلؤٍ ... نَظْمٍ يصافحه النسيمُ فيسقطُ

والطيرُ تقرأ والغديرُ صحيفةٌ ... والريحُ تكتبُ والغمام يُنقّطُ

« الحياة الأدبية ، د • بدوي : ١٩٠ »

فقد شبه الشاعر عناصر الطبيعة وهي غناء الطير وصفحة الماء وهبوب الريح على صفحة الماء وسقوط المطر بأشياء متجانسة مستمدة من فن الكتابة ملائماً بينهما وهي القراءة والصحيفة والكتابة والتنقيط • ولذلك سمي هذا الفن بمراعاة النظير •

وقد أكثروا أيضاً من الطباق ومثال ذلك قول ابن الساعاتي :

تبكي وتبسم مزنه وبروقه   والسحبُ تُطوى تارةً وتنشر

وأكثروا في ناحية المحسنات اللفظية من الجناس ومثال ذلك قول ابن القيسراني :

عقائلُ تخشاها عقيلُ بنُ عامرٍ   كواعبُ لا تعطي الذمامَ على كعب

فهو يجانس في غزله بين عقائل وقبيلة عقيل وكواعب وقبيلة كعب •

ومن الجناس الذي أكثروا منه ، التجنيسُ ، وهو المجانسة بين القوافي ، ومثاله قول شميم الحلي (إرشاد الأريب ، ياقوت الحموي : ٥ : ١٣٠)

ليته طوّلَ بالشا   م ثواه وثوى بِهْ

جعلَ العَوْدَ الى الزو   راء مِن بعضِ ثوابِهْ

فقد جانس بين القافيتين ثوى به في البيت الاول وثوابه في البيت الثاني • ويسمى هنا الجناس على صورته هنا ، سواء أكان في الشعر أم في النثر الملفّق • لأن أحد عنصريه يتألّف من كلمتين •

وقد أكثروا من الاقتباس من القرآن والحديث أو الحكمة ومثاله قول ابن القيسراني مادحاً عماد الدين زنكي :

كأني بهذا العزم لا فلَّ حدُّه   وأقصاه بالأقصى وقد قُضِي الأمرُ

« الاقتباس من سورة مريم ١٩ : ٣٩ والشعر في الخريدة ١ : ١٥٨ »

وأكثروا من تضمين الشعر وفاخر أحدهم بأن نصف شعره من شعر غيره •

ومن أمثلة تضمينهم قول السراج الوراق من شعراء العهد المملوكي التركي الذي أكثر شعراؤه من التضمين والاقتباس •

وباخلٍ يشنأُ الأضيافَ حلّ به   ضيفٌ من الصبّغِ نزّال على القِمَمِ

سألته ما الذي يشكو فأنشدني   ضيفٌ ألمَّ برأسي غير مُحتشِمِ

« فوات الوفيات ٢ : ٦٠٤ »

الفنون الطفيلية

هي فنون تحسب على الشعر في هذه العهود أو بعضها وليست من الشعر في شيء •

من هذه الفنون الشعر الهندسي والتشجير والتطريز والألغاز والمعمّيات ، والتاريخ الشعري، والقوافي المشتركة والملوّنة ، وما يدخل تحت اسم الطرد والعكس (من مخلّعات وما لا يستحيل بالانعكاس وما ينعكس موضوعه باختلاف اتجاه قراءته وأشعار التبادل والمتواليات) ، ومحبوك الطرفين ، وجعل قوافي الأبيات محتملة للحركات الثلاث •

ويضاف الى هذه الفنون فنون أخرى شكلية في الشعر والنثر اهتمّ بها بعض الشعراء في هذه العهود كجعل الحروف كلها منقوطة أو دون نقط أو غير ذلك ممّا ليس له قيمة في المعنى أو العاطفة أو الخيال أو جمال التعبير وقد يسيء الى هذه النواحي والى النص الأدبي بمجموعه سواء أكان شعراً أم نثراً •

وهذه الفنون وإن اهتمّ بها بعض الشعراء أو الكتاب إلاّ أنها لم تكن من الفنون الأصيلة وإنّما كان يُتَسلّى بها كما يُتسلّى بلعبة الحروف المتقاطعة وغيرها ولا يجوز أن تؤخذ دليلاً على رفعة عهد أو انحطاطه في النواحي الأدبية والعلمية إلاّ إذا كانت هي الفنون الوحيدة فيه أو السمة الغالبة عليه ، غير أن وجودها أو كثرة انتشارها فيه أمر يدلّ على أن عدداً من شعرائه وأدبائه كانوا يضيعون أوقاتهم في أمور ليست جوهرية •

وبديهي أنّ قيم الأشياء ، ولا سيما الجمالية منها ، نسبيّة تختلف باختلاف العصور والبيئات ، ومن ذلك مقوّمات الجمال في الأدب شعره ونثره ، فقد يستحسن عصر ما لا يستحسنه آخر ، وقد تثير الإعجاب ناحية صناعية لفظية أو زخرفية ، في بيئة ، على حين أنها تثير النفور في بيئة أخرى •

وهذه الفنون التي أسميناها طفيلية تنسب غالباً الى العهد المملوكي وبعضها لم يبتدع فيه وكان موجوداً قبله ولكنّها كثرت في هذا العهد ولا سيّما الجركسي منه ثم زادت كثرة وزاد الاهتمام بها في العهد العثماني ، وبعضها وجد في هذا العهد الأخير دون غيره •

ومن الأفضل ألاّ نحكم على هذه الفنون حكماً واحداً وأن نسبغ على كلّ منها ما يخصّه ولكنّ من الحقّ أن نقول إنّ وجودها قد استمر حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري ثم أهملت حتى لتكاد لا يُسمع بها ولا تعرف أسماؤها •

ونحن لا نتكلّم عليها الآن اهتماماً بقيمتها الفنيّة ، بل لمعرفة حقيقتها ، والتأريخ لها ورصد أطوارها وتجنّب أمثالها ومعرفة أنها من معوّقات الابتكار ومضيّعات الوقت •

١ ـ الشعر الهندسي :

أطلق الدكتور أسامة عانوتي في كتابه « الحركة الأدبية في القرن الثامن عشر على نوع من الشعر تظمه الشعراء على شكل مثلثات أو مربّعات أو معينات أو مخمسات أو دوائر اسم الشعر الهندسي ووافقه على هذه التسمية الدكتور بكري شيخ أمين لملاءمة التسمية لواقع الأشكال (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ص ٢١٣) •

وقد نسب الأب لويس شيخو اختراع هذا النوع من الشعر الى ابن الفرنجية الحلبي في مقالة نشرها في مجلة المشرق عام ١٨٩٩ (في المجلّدين الثاني والعاشر) ، وأرجع أصل هذا الفن الى الصليبيّين دون بيّنة وسمّاه « ديده‌كوز » •

وجاراه في ذلك الدكتور عانوتي في كتابه السالف الذكر نقلاً عنه •

ولم يشاطرهما الرأي الدكتور الشيخ أمين لأن أخباراً بلغته لم تبلغ مبلغ الصحة العلمية بأنّ هذا الفن أقدم ممّا ظنّ لويس شيخو •

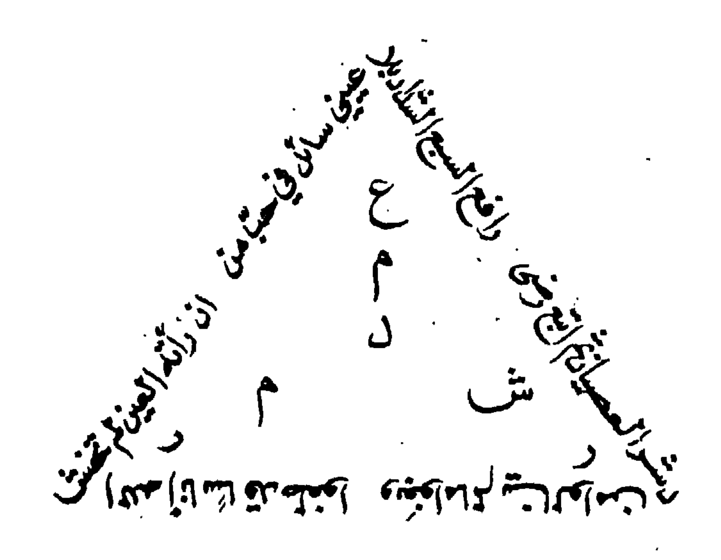
ونحن نرى أنّ هذا الفنّ وجد تلبية لصناعة النقش على النحاس أو الخشب

أو طلاء السقوف والجدران بالأصبغة الكثيرة الألوان أو تطريز أغطية الأضرحة وما شاكل ذلك .

فإنّ الناظر اليوم الى الأطباق النحاسية الكبيرة التي تعلّق على الجدران في المدن والقرى ليتباهي بها ، يرى كثيراً من أبيات الشعر منقوشة عليها بأشكال هندسية بديعة .

وفي تصوّرنا أنّ المؤرّخ لهذا اللون من الزخارف الشعرية الطفيلية يجب أن يرجع الى الفنون الأثرية وشبه الأثرية ويدرس ما نقش عليها من زخارف كتابية أخذت من الشعر أو من القرآن أو من الحديث ، وحينئذ يستطيع أن يحكم على بداية وجود هذا الفنّ في الوطن العربي وعلى سماته وأطواره المختلفة[1] .

ومهما كان الشكل الذي يكتب فيه الشعر فإنّ له مركزاً يشغله حرف يبدأ منه البيت وينتهي به فيكون من النوع المحبوك من طرفيه فمثال المثلث الشكل التالي :



(١) لخصنا الكلام على هذه الفنون من كتاب « مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكري الشيخ امين » .

وأبيـاته هي :

دمـع عيني سـائل في حبّ مَن ... إن رأتـه العـين لم تخش رمـد
دمّـر الله أناسـاً قـد طغَـوْا ... وبغَـوا ما لم ينـالوا من رشـد
دشـر العصيان ثـم اتبـع رضى ... رافـع السبع الشداد بـلا عمـد

ونلاحظ أنّ هذا الشعر ركيك الأسلوب متصنّع المعاني ، قد تعمّد صاحبه أن يجعلها في النصح وما يشبه الحكمة ، وأن الشطر الأخير منه ليس صحيحاً مـن حيث العَروض •

ب ـ التشـجير :

التشجير هنا بمعنى جديد وهو كتابة الشعر على شكل شجرة كما يفعل العلماء حـين يفرّعون مسائل الفقه أو النحو في بعض كتبهم منذ أواسط العصر العبّاسي • ولمّا كانت بداية هـذا الفن الطفيلي على الشعر قـد جعلها بعضهم في بداية القرن الحادي عشر الهجري لذلك نرجىء الكلام عليه الى العهد العثماني •

جـ ـ التاريخ الشعري :

اختلف في بدء التاريخ الشعري على حساب الجُمّل، واتفق مصطفى صادق الرافعي مع ادريس شيخو على أنّ أول شعر وصل إلينا فيه كان للحسين بن الشبيب أحـد شعراء العـراق في القرن السادس الهجـري الذين ترجم لهم العماد الأصفهاني في الخريدة ، فقد قال في المستنجد بالله أحد الخلفاء العبّاسيّين :

أصبحت «لبّ» بني العبّاس كلّهم ... إن عدّدت بحروف الجُمّل الخلفا

وأراد أنه الخليفة العباسي الثاني والثلاثون • وذلك مضمّن في جُمّل « لُبّ » •

ويعتمد حساب الجمّل على ترتيب حروف الأبجدية الموافق لترتيب حروف اللغات السامية القديمة كالفينيقية والسريانية • وبديهيّ أن ترتيب الأبجدية هو غير الترتيب الهجائي (الألفبائي) المتبع اليوم في ترتيب المعاجم •

فحروف الأبجدية لا تستعمل في هذه اللغات في تركيب الكلمات فقط ، وإنّما تستعمل كذلك للدلالة على الأرقام الحسابية ويسمّى الحساب بها حساب الجُمّل ، أي الحساب بالحروف الهجائية •

فالحروف العشرة الأولى التي تتكوّن منها ألفاظ « أبْجَدْ » « هَوّزْ » « حطّي » تدل على أعداد الآحاد ومعها العشرة كما يلي :

أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ،
ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ، ي = ١٠

والحروف التي تتكوّن منها الكلمتان : كلمن ، سعفص ، تدلّ على العقود وفق ترتيب هـذه الحروف كما يلي :

ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ،
ف = ٨٠ ، ص = ٩٠ ،

والحروف الباقية في الكلمات الثلاث : قرشت ، ثخذ ، ضظغ ، تدل على المئات وفـق ترتيب هـذه الحروف كما يلي :

ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ،
ذ = ٧٠٠ ، ض = ٨٠٠ ، ظ = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠

ويشترط على الناظم في تاريخ الجمّل أن يقدم لألفاظه بكلمة أرّخ أو أرّخوا أو نحو ذلك ممّا يدل على التاريخ وأن يشير إشارة بيّنة إلى ما لا يدخل في حساب التاريخ من الكلام بعـد كلمة أرّخ أو ما شاكلها حتى لا يلتبس الأمر على القارىء كقول أحـدهم في تاريخ بستان :

يهنيـك تـاريـخ أتـى ضبطـه « بستان بسط باهـر زاخـر »

وواضح من كـلام الناظم أنّ جملة « أتى ضبطه » ليست داخلة في حساب التاريخ .

ويشترط عليه ألاّ يأتي بالتاريخ في بيتين بل في بيت واحد .

ومن المقـرّر أنّ الحروف تحسب بحسب صورة كتابتها لا بحسب لفظهـا فالألف المقصورة فيمصطفى تحسب ياء ، والتاء المنقطة تحسب تاء ، والتـاء غـير

المنقطة تحسب هاء ، والهمزة التي لا كرسيّ لها لا تحسب ، وألف الإطلاق تحسب لأنّها تكتب .

ويستقبح التاريخ الشعري إذا كان حشواً مصطنع المعنى أو كان ضعيف الصلة بما قبله أو كان معقداً ويزيد حسنه إذا كان فيه فائدة تاريخية أو نكتة أدبية أو حكمة أو فكاهة ملائمة لما قبله وكان إلى ذلك متناسق اللفظ مبرّءاً من الاستهجان .

وهذه الصفات المطلوبة فيه هي التي حملت على عدّه من أنواع البديع . وأوّل من عدّه منها فيما نعلم الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤٣هـ .

ومثاله قول أحدهم يؤرّخ لجلوس السلطان سليم بن سليمان على العرش سنة ٩٧٥ هـ :

يولّى مليك العصر وابن مليكه	بعزّ وتأييد ونصر وسلطان
ودولة ملك قلت فيها مؤرّخا	« سليم تولّى الملك بعد سليمان »

د ـ القوافي المشتركة :

أغرم بعض الشعراء بنظم قصائد تبنى قوافيها كلّها على كلمة واحدة متعدّدة المعاني في اللغة . وهناك كلمات اشتهرت بصلاحها لذلك مثل : الخال ، العين ، الغروب ، الهلال ، العجوز .

وسنرى أنّ صفيّ الدين الحلي قد نظم في هذا الضرب من القصائد المتكلّفة التي تخرج عن روح الشعر الى سمة النظم المتكلّف وتوضع فيها القافية مقدماً ، ثم يقتسر لها المعنى .

وقد اتفق في الشعر القديم وقوع ذلك دون تكلّف أو بتكلّف بسيط ، كقول الخليل بن أحمد :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى	إن رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفي وقد أزمعوا	ودمع عينيّ كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرّة	تفترّ عن مثل أقاحي الغروب

فالغروب الأولى غروب الشمس ، والثانية : الدلاء العظيمة ، وهي جمع غَرْب ، والثالثة المنخفضات ، وهي أيضا جمع غرب .

وقد عني الحريري (ت ٥١٦هـ) بهذا النوع من النظم ومما قاله فيه :

لا تخطُوَنَّ إلى خِطءٍ ولا خَطَأٍ ... من بعد ما الشيب في خدّيك قد وخطا

وأي عذر لمن شابت ذوائبه ... إذا سعى في ميادين الصبا وخطا

فوخط الأولى بمعنى خالط والثانية واو العطف جاء بعدها خطا من الخطو .

ويلاحظ أنّ هذه القوافي المشتركة تكوّن إمّا جناساً تامّاً أو جناساً ملفّقاً ، ولا تتعدّى فيها القصيدة غالبا بضعة الأبيات .

وقد أصبح النظم في هذا اللون ، ولا سيّما بعد أن شاع ، ضرباً من اللغو ، وجاءت منه قصيدة في أربعة وثلاثين بيتاً قافيتها العين ، ونكتفي منها بهذين البيتيْن :

هنيئاً قد أقرّ الله عيني ... فلا رَمَت العِدا أهلي بعَيْن

وقد وافى المبشّر لي فأكرم ... بخير ربيئةً وافى بعَيْن

فالعين الأولى الإصابة بالعين ، والعَيْن الثانية الفضّة والعملة المستعملة .

هـ ـ الطرد والعكس :

نظم بعض الشعراء في هذه الحقبة قصائد كثيرة أو مقطّعات تقرأ على عدّة وجوه مع المحافظة على معناها . وهذا لون لم يتكلّفه القدماء . وقد ورد منه في القرآن الآية : (وربَّكَ فكبِّرْ) . فإذا قلبنا ترتيب الحروف دون الواو الأولى حصلنا على الكلمتين نفسيهما .

وهذا الفنّ من التكلّف الشديد أولع به الحريري ومنه قوله :

أسِ أرملا إذْ عرا ... وارْعَ إذا المرء أسا

أسْنِد أخا نباهة ... أبِنْ إخاءً دَنّسا

ومثله في النثر ما جاء في مقامته « المغربية » ومنه :

ساكب كاس ، لُمْ أخاً ملّ ، كبّرْ رجاء أجر ربّك .

وقد اقتدى بعض شعراء هذه العهود بالحريري في ذلك . والحريري هو الذي سمّاه بهذا الاسم . وجاراه في التسمية ابن حجّة الحموي . وسمّاه بعضهم « بالمقلوب » . وسمّاه السكّاكي « مقلوب الكلّ » (خزانة الأدب ، ٢٣٧) .

ومن أحسنه قول الأرّجاني أحد شعراء العهد الفاطمي العبّاسي الزنكي (الخزانة ، ٢٣٨) .

مودّته تدوم لكلّ هول	وهل كلّ مودّته تدوم

وهناك نوع منه دعاه ابن حجّة بالعكس وهو لا يقوم على عكس الحروف ، بل على عكس ترتيب الكلمات . ومثاله الآية (تولج الليل في النهار ، وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحيّ من الميّت ، وتخرج الميّت من الحي) . ومثاله أيضا قول أبي تمّام حين سئل : « لمَ لا تقول ما يفهم » فأجاب على الفور : « لِمَ لا تفهم ما يقال » . ومنه قول أحد الحكماء وقد قيل له : لم تمنع من يسألك ، فأجاب : لئلا أسأل من يمنعني . ويلاحظ أنّ عكس ترتيب الكلمات في هذه الأمثلة قد حقّق معنى مقصودا ضروريا ولم يكن لغواً ، ولذا استحسنه السامعون .

وقد نظم صفيّ الدين الحلّي في لون منه بسيط يقوم على تبديل مواقع بعض الفقرات المتكرّرة في عدّة أبيات ومثاله الأبيات الأربعة التالية :

ليت شعري ، لك علم	من سقامي	يا شقائي	
لك علم ، من زفيري	ونحولي	وضنائي	
من سقامي ، ونحولي	داوني إذْ	أنت دائي	
يا شقائي ، وضنائي	أنت دائي	ودوائي	

وقد عرف في النثر بعض الجمل التي إذا قلب ترتيب حروفها تكوّنت هي من جديد . عرف ذلك في بعض مقامات الحريري ، كما ذكرنا ، واشتهر منه ما روي من العبارتين المتبادلتين بين العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ، وهما : « دام على العماد » و « سر فلا كبا بك الفرس » .

على أنّ ما جاء به الحلّي كان بسيطا سهلا ، ولكن المخاولة تعقّدت على يد غـيره وظهرت منها ألوان عـدّة : كالمخلّعات ، وما لا يستحيل بالانعكاس ، وما إذا قرأته طرداً كان مدحاً ، فإذا قرأته عكساً صار هجاء ، وما اذا قرأته شاقوليا كان هجـاء ، وإذا قرأته أفقياً كان مدحاً ، وأشعار التبادل والمتواليات .

فالمخلعات : سميت بذلك لأنّها تقرأ على وجوه كثيرة طرداً وعكساً ولا تبقى على حـال .

قيل إن أوّل من نظم المخلّعات هو لسان الدين محمد بن عبد الله السليماني الأندلسي (٦٧٢ ـــ ٧٤١ هـ) وهو معاصر لصفي الدين الحلّي . وفنه في مخلّعته معقّد ، إذا قسناه بما رأيناه عند الحلّي . وذلك يجعلنا نشكّ في أوليّته أو أوّلية الحلي ونرجّح أنّ الأندلسيّين قد سبقوا إلى هذا الفنّ حتى اكتمل عندهم وتعقّد في عصر الحـلّي نفسه .

وتتألّف مخلّعته من اثني عشر بيتا وذكر أنها تقرأ على ٤٦٠ وجـه طـرداً وعكساً . وإليك أبياتهـا :

داء ثوى	بفؤادي شفّه السقم	ببهجتي	من دواعي الهم والكمد
بأضلعـي	لهب تذكو شرارتـه	من الضنى	في محلّ الروح من جسدي
يوم النوى	حلّ في قلبي له ألم	وحرقتي	وبلائـي فيه بالرصـد
توجّعي	من جوى شبّت حرارته	مع العنا	قد رثى لي فيه ذو الحسد
جلّ الهوى	ملبسي وجداً به عدم	لمحنتـي	من رشا بالحسن منفرد
تتبعـي	وجه من تزهـو نضارته	إذا انثنى	قاتلي عمـدا بلا قـوَد
مصلي الجوى	مولع بالهجر منتقم	ما حيلتي	قد كوى قلبي مع الكبد
بمصرعـي	معتد تحلـو مرارتـه	ياقومنـا	آخذاً نحو الردى بيدي
هدّ القوى	حسنه كالبدر مبتسم	لِفتنتي	موهن عند النوى جلدي
مروّعـي	قمر تسبي إشـارتـه	إذارنـا	ساطع الأنوار في البلـد
قلبي كوى	ملك في الحسن محتكم	لقصّتي	وهو سؤلي وهو معتمدي
مودّعـي	سار لاشطّت زيارتـه	لما جنـى	مورثي وجدا مع الأبد

« الصفدي ، أعيان العصر (خ) جـ ٣ ق ١ و ٨٨ »

وممّا يساعد على قراءتها بوجوهها المختلفة كتابتها بشكل هندسي على النمط التالي :

داء ثوى بفؤادي شفه سقم بمهجتي من دواعي الهم والكمد
بأضلعي لهب تذكو حرارته من الضنى في محل الروح من جسدي
يوم النوى حل في قلبي له ألم وحرقتي وبلائي فيه بالرصد
توجعي من الجوى شبت حرارته مع العنا قد رماني فيه ذو الحسد
جلا الهوى مليبي وجدًا به علم بمحنتي من رشا بالحسن منفرد
تشجعي وجه من تزهو نضارته إذا انثنى فاتني عمدًا بلا قود
مصلي الجوى مولع بالحب متهم ماحيلتي قد كوى قلبي مع الكبد
بمدمعي معتد تعلو مرارته يا قومنا أخذا نحو الردى بيدي
هدّ القوى حسنه كالبدر مبتسم بمحنتي مومن عند النوى جلدي
مروعي قمر تسبي إشارته إذا رنا ساطع الأنوار في البلد
قلبي كوى ملك في الحسن محتكم بمقصدي وهو سؤلي وهو معتمدي
مودّتي سار لا تشكو زيارته لما حبا مورثي وجدًا مع الأبد

ويلاحظ أنّها يمكن أن تقرأ في هذه الكتابة من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل ومن الأخير إلى الأوّل وبصور مائلة كثيرة وطرداً وعكسا .. الخ .

و ــ اشعار التبادل والمتواليات :

هي أشعار على البحر المتقارب يستعمل فيها أصحابها كلمات مستقلّة ليس بينها

أدوات رابطة وكل كلمة على وزن تفعيلة وتدلّ معانيها على المدح أو الهجاء بحسب رغبة الشاعر • ومثالها قول أحدهم :

لقلبـي حبيب مليـح ظريف　　بديـع جميـل رشـيق لطيف

وقول الآخر :

محبّ ، صبـور ، غريب فقـير　　وحيـد ضعيف كتـوم حمـول

ويلاحظ إمكان تقديم الكلمات أو تأخيرها بوجوه عديدة دون إخلال بالوزن أو المعنى وقد حسب بعضهم احتمالات ذلك على طريقة المتواليات فوجدها (٤٠٣٢٠) احتمالا •

ز ـ محبوك الطرفين :

يراد به الشعر الذي تبدأ أبيات قصائده بحرف وتنتهي به • وقد ذكر الرافعي أن ابن دريد (ت ٣٢١هـ) هو أوّل من جاء به ثم تلاه عليّ بن محمـد الأندلسي البرزي (تاريخ آداب العرب ، ٣ ، ٣٨٥) ومن قول ابن دريد :

أبقيت لـي سقَمـا يمازج عبرتي　　مـن ذا يلـذّ مع السـقام بقـاء
أشمتّ بي الأعـداء حين هجرتني　　حاشـاك ممّـا يشـمت الأعـداء
أبكيتنـي لمّـا ظننت بأننـي　　سـيصير عمري مـا حييت بكـاء

وقد نظم ابن دريد مقطعات على الحروف مستقلّة في أوزانها ومعانيها ، وأوصل البرزي عدد أبياتها إلى العشرة ، ولذلك يعرف ما نظمه في ذلك بالقصائد المعشّرة •

وجـاء صفي الدين الحلّي في العهد المملوكي الأوّل فنظم أرتقيّاته في مـدح الملك المنصور صاحب ماردين ، وجعلها تسعاً وعشرين على عدد حروف الهجـاء • وكل قصيدة منها تبدأ أبياتها بحرف وتنتهي به • وقد أوردنا مثالاً عليها في دراستنا لصفي الدين الحلي ضمن هـذا الموجز •

ومطلع الهمزية وهي أوّل قصيدة منهـا :

أبتِ الوصـالَ مخـافةُ الرقبـاءِ　　وأتتـك تحـت مـدارع الظلمـاء

وقـد عارض الحلّي بعض معاصريه من الشعراء ومن بعدهم • ويلاحظ أن أمثلة الأنواع الأخيرة جـاء أكثرها من العهد المملوكي التركي •

ح ـ الشـعر المتقلب بين المديح والهجاء :

منه نوع يكون بعكس الحروف كقول أحـدهم :

باهـي المراحـم لابس كـرما قـدير مسنـد
بـاب لكـل مـؤمّل غنـم لعمـرك مرفـد

فهذا مديح، وإذا عكست حروف بيته من آخرها صار هجاء على الشكل التالي :

دنـس ، مَريـد ، قـامـر كسـب المحـارم لا يهـاب
دفِـر ، مِكـرٌ ، مُعْـلتـم نغـلٌ ، مؤمـل كـل باب

ومنه نوع يكون بعكس الكلمات كقول أحدهم في المـديح :

حلـمـوا فمـا سـاءت لهـم شيم سـمحوا ، فما شحّت لهم مِنَنُ
سـلموا فمـا زلّت لهـم قـدم رشدوا فمـا ضلّت لهـم سـنن

فإذا عكست ترتيب الكلمات من آخر كل بيت إلى أوّله انقلب المدح هجـاء على الشكل التـالي :

مِننٌ لهـم شحّت ، فمـا سمحوا شـيم لهـم سـاءت فما حلـمـوا
سـنن لهـم ضلّت فما رشـدوا قـدم لهـم زلّت فمـا سـلموا

ومنه ما يكون في قراءته الأفقية مدحاً ، وفي قراءته الشاقولية هجاء • ومثاله قـول أحـد الشعراء :

إذا أتيت نوفـل بـن دارم أمـير مخـزوم وسيف هاشم
وجـدته أظـلم كـل ظـالم على الدنانـير أو الدراهـم
وأبخـل الأعـراب والأعاجم بعـرضـه وسـرّه المكاتـم
لا يستحي من لوم كـل لائم إذا قضى بالحـقّ في الجرائم
ولا يـراعي جـانب المكارم في جانب الحقّ وعدل الحاكم
يقـرع من يأتيه سنّ نـادم إن لم يكن من قـدم بقـادم

فإذا قرئت الشطور الأولى بشكل شاقولي وحذفت الشطور الثانية تحوّلت إلى هجاء كما هو واضح .

ط ـ القصائد التي تقبل قوافيها الحركات الثلاث :

أغرم بعض الشعراء كذلك بنظم القصائد التي يجوز في قوافيها الرفع والنصب والجر . والكلفة فيها ظاهرة ، والبعد عن روح الشعر واضح ، وقد نظم صفي الدين الحلّي بعض أبيات منها مجاراةً لغيره .

ومن قول عثمان البلطي (ت ٥٩٩ هـ) من قصيدة على هذه الصفة تسمّى « الحرباوية » تزيد على ثلاثين بيتاً ، هذان البيتان على سبيل المثال :

١ ـ إنـي امـرؤ لا يطّبيـ ... ـني الشادن الحسن القوامُ

بالرفع على الفاعلية والنصب على شبه المفعولية والجرّ على الإضافة .

٢ ـ فـارقت شـرّة عيشـتي ... إذ فـارقتنـي والغـرامُ

بالرفع على العطف على فاعل فارقتني المستتر ، وبالنصب على العطف على شرّة ، وبالجرّ على العطف على عيشتي .

« إرشاد الأريب جـ ٥ : ٥٢ »

ونكتفي في هذا الموجز بهذا القدر من الفنون الطفيلية على الشعر وأمثلتها .

زخارف تافهة في هذه العهود

من البديهي أن المشاعر والمعاني هي روح الأدب الحيّ وجسمه ، وأن الألفاظ والتراكيب ليست إلاّ ظواهره وألبسته وقوالبه الدّالة عليه ، وأنّها إذا صارت تطلب لذاتها أصبحت جسماً لا روح فيه أو ثياباً تغطّي شبحاً أو تمثالاً خالياً من كلّ حياة ومن كل جمال حقيقي .

هذا ما حدث للأدب شعره ونثره حينما جاء الحريري المتوفّى في مطلع القرن السادس (٥١٦ هـ) فأورد في إحدى مقاماته ، وهي المقامة الحلبيّة ، وفي غيرها بعض فنون زخرفية شكلية ليشغل بها فراغه وليطرف بها الناس على أنّها شيء غريب يدلّ على سعة علمه في اللغة والأدب وسعة صبره على جمع قطع من فسيفساء اللفظ بعضها إلى بعض .

وقد قلّد بعض الأدباء في عهود الدول المتتابعة هذه الزخارف ليدلّوا على قدرتهم اللغوية والأدبية وليتسلّوا فيملؤوا أوقات فراغهم ، ولكنّها لم تكن كلّ أدبهم كما لم تكن كلّ أدب هذه العهود وإنما كانت ألواناً من تسلياتها كألوان التسليات التي تتسلّى نحن بها اليوم .

وليس صواباً أن نأخذ هذه التسليات فنجعلها عنوانا لأدب هذه العهود ولكنّ من الصواب أن ندرجها على أنها من بعض تسلياتها بل من بعض تفاهاتها إلاّ اذا ثبت بالبراهين القاطعة أنها كلّ ما فيها ، أو ما في أحدها ، وحينئذ تنسب الصفة إلى موصوفها ، وحده .

ولسنا نقول هذا الكلام انتصاراً لهذه العهود أو دفاعا عنها ، بل توخّياً للحقيقة . على أننا في مقابل ذلك لا نسبغ عليها صفة الابتداع أو الازدهار أو المحافظة على المستوى الذي كان قبلها إلا إذا ثبت لنا ذلك بالبراهين القاطعة أيضا .

وقد رأينا قبلُ أشياء في هذه العهود أو في أحدها حسنة فذكرناها . ورأينا أشياء سيئة فذكرناها ، وتوقّفنا في الحكم أحيانا لعجزنا عن الوصول الى الحقيقة الناصعة لعدم استيفائنا المطالعة والدراسة .

فمن الزخارف التي أوردها الحريري وقد لا يكون هو الذي سنّها وإنما جارى بها من قبله التجنيس بين القافية والكلمة التي قبلها في البيت ، كقوله من قصيدة مدح بها سعد الملك ، وزير السلطان محمد بن ملكشاه :

طيف ألمّ به وهناً فأحياه لمّا حباه برؤياه وريّاه
سرى إليه ، يسرّي الهمّ عنه ، فما أسرّه عند مسراه وأسراه

ولكنّ هذا التجنيس المتكلف جار على المعاني والمشاعر دون أن يخرجها الى التفاهة وفقدان الروح فقداناً تاماً .

وممّا هو أكثر إغراقاً في تكلف الجناس وإزهاق روح الشعر قوله من أبيات :

رئم برامة قد أقام قيامتي بقوامه واقتادني بزمامه

ومنه هذان البيتان من مقصورة مجنسة يلتزم بها ما لا يلزم في القافية وما قبلها نظمها على أنّها نصائح لولده :

بنيّ استقمْ فالعود تنمو عروقه قويما ، ويغشاه إذا ما التوى توى
ولا تطع النَذل الخسيس ، وكن فتى إذا التهبت أحشاؤه بالطوى طوى

وأغرق منهما في تكلّف الجناس قوله :

لم يبق صاف ولا مصافٍ ولا مَعينٌ ولا مُعين
وفي المساوي بداً التساوي فلا أمين ولا ثمين

ومثله تكلفاً وضياعاً للوقت نظم أبيات في المقامة الحلبية عاطلة من النقط وهذا بيت منها :

أعدِد لحسّادك حدّ السلاحْ وأوردِ الآملَ ورْدَ السّماحْ

ومثله نظم أبيات في المقامة الحلبية كل حروفها منقوطة منها هذا البيت :

فتنتني فجنّنتني (تجنّي) بتجنّ يفتنّ غبّ تَجَنّ

ومثله في المقامة الحلبية كذلك أبيات أخياف (أي تأتي كلمة منها مهملة وكلمة معجمة) منهـا هـذا البيت :

اسمح فبثُّ السماحِ زينٌ ولا تُخيِّب آملاً تضيّفْ

ومثلها في هـذه المقامة أبيات متائيم أي متماثلة خطاً مختلفة نقطاً ، ومنها هـذا البيت :

زُيِّنتْ زَينبٌ بقدٍّ يقدّ وتلاه ـ ويلاه ـ نهدٌ يُهدّ

ومثلها هذان البيتان المطرّفان (يراد بذلك أنهما متجانسا الطرفين) :

سِمْ سِمةً تُحمَد آثارُها فاشكرْ لمن أعطى ولو سمسمه
والمكرُ مهما اسطعتَ لا تأتِه لتقتني السؤدُدَ والمكرُمه

« ياقوت ، الإرشاد جـ ٦ : ١٧٥ ـ ١٧٦ »

ومثلها ما جاء في رسالته السينيّة التي تجمع بين الشعر والنثر ، من أن كلماتها كلّها لا تخلو من حرف السين ومثالها هـذا البيت :

وأسكرني حسرة ، واستعاض لقسوته سكرة الخندريس

وما جاء في رسالته الشّينية التي تجمع بين الشعر والنثر أيضا من أن كلّ كلمة منهـا فيها شين ومثالها هـذا البيت :

فأشعاره مشهورة ومشاعرُه وعشرته مشكورة وعشائرُه

ونختم هـذه الأمثلة ببيت من قصيدة غزل جاءت في إحدى مقاماته ويتكلّف فيهـا التجنيس :

وأحوى حوى رِقّي برقّة لفظه وغادرني إلْفَ السُّهاد بغدرِه

يتبيّن لنا جليّا من هـذه الأمثلة أنّ الحريريّ لم يكتبها ليعبّر عن عاطفة أو ليؤدي معنى وإنما ألّف بينها ليدلّ على قدرته اللغوية .

لقد توفي الحريري في مطلع القرن السادس (سنة ٥١٦ هـ) ومعنى ذلك أنـه

عاش في العهد العباسي الرابع عهد بني سلجوق الذي جاء في نهايته العهد الزنكي . وهذا العهد يتقدّم ما سمّي بعصور الانحطاط نحواً من خمسين ومئة سنة . وأنتهي من هذه الملاحظة الى أنّ هذه العصور لم تخترع هذه الزخارف التافهة ولكنها استمرّت على استعمالها ، وأذكّر مرّة أخرى بأن العهدين الزنكي والأيوبي ليسا من هذه العصور باتفاق جميع المؤلفين عرباً ومستشرقين .

وقد جارى الحريريّ من جاؤوا بعده في هذه الزخارف فنظموا الشعر المهمل الحروف كلّها كقول أحدهم من قصيدة :

الحمد لله الصمد حال السرور والكمد

ونظم الشعر المعجم الحروف كلّها كقول أحدهم من قصيدة :

بين جنبيّ شقة خشنت في قضيض تبيتني خشن

وجاؤوا أحيانا بكلمة مهملة وكلمة معجمة كقول أحدهم :

تقتضي أحكام بغي طالما نفّذت أحكامها بين الملا

وجاؤوا في كل كلمة بحرف مهمل يتلوه حرف معجم كقول أحدهم :

ونديم بات عندي ليلة منه غليل

وجانسوا بين الكلمات في رسم الحروف وسمّى بعضهم ذلك « الجناس التصحيفي » كقول أحدهم :

لآلي ثغور أم بدور تشفّ عن لآلي بحور أم بروق نحور
سما لثمها عني فيالهفي على فوات نحور من فواتن حور

والتزموا في بعض القصائد حرفاً معيناً في كل كلمة ومنه قول ابن عُنَيْن أحد شعراء العهد الأيوبي وقد اشترط عليه نظم قصيدة في كلّ كلمة منها سين :

وسقيتها سلسال سحر مسكر للسامعين وسقتها كعروس

ومنه هذا البيت من جملة أبيات التزم فيها صاحبها الظاء :

ظنّت عظيمة ظلمنا من حظّها فظللت أوقظها لتكظم غيظها

وجاؤوا بأبيات كل كلمة منها منفصلة الحروف كهـذا البيت :

إذا زار داري زور وَدود أود وأورده ورد ودّي

وجاؤوا بأبيات كل كلمة منها متصلة الحروف كهذا البيت :

ســـلْ متلفي عطفا عسى يتعطّف فلقــد قسى قلبــاً فــلا يتلطّف

واهتموا بذكر أسماء كتب شائعة في عصرهم وسمّوا ذلك التوجيه كقول أحدهم :

ولديه مفتاح العـلوم فمـن يـرد إتقــانــه يقصــده بـين النــاس

يوري بمفتاح العــلوم للسكاكي والإتقــان للسيوطي .

واستعملوا الألفاظ العامية متظرّفين كقول أحدهم :

لا تلومني في ولـوعي بالحبش إنّ عقلي حــار فيهم واندهش

ملكــوا رقي سلكي رقّهــم فأنا الموقــع نفسي في البكش

قمت منسا في خفـاء قبـلة عنــدما زاد هيــامي وطفش

ومن الزخارف التافهة الشكلية في العهد المملوكي الجركسي ما جاء على لسان آ... الباعوني الحلبي (ت ٩٢٤ هـ) في البيتين التاليين من حيث بدء كل شطر منهما بواو والتهاؤه بها والتزام واوين معاً في كلّ من العروض والضرب :

ودار به الغيد الحِسان قد استَووا وورد ظبــاء الحيّ في ظلّه ثَوَوْا

ووافَوْا به من مهجتي في الهوى حَوَوْا وولّوا ... عهد المحبّين ما لَوَوْا

ومن المؤسف أنه في سبيل هذا الأمر التافه قد جار على قواعد النحو فاستعمل ضمير جمع المذكّر السالم للمؤنث ولم يبال بركاكة الأسلوب .

وممن استخدم الزخارف الشكلية ابن عَرَبْشاه (٧٩١ ــ ٨٥٤ هـ) ومن ذلك جمعه أحرف الهجاء كلهــا في البيت التالي :

خض بحر لفظ حديثه تغش العُـلا واجـزم بصدقك ناطقــاً إذْ تسند

وله هــذا البيت العاطل من النقط :

العالم العــلم الإمــام لدى العــلا العامــل الحــكم الهمامُ الأوحــد

وله هذا البيت الذي لا يستحيل بالانعكاس في شطريه وشطره الثاني عاطل مــن النقــط :

فــم آمنــا ، نــم ، إنما آمنْ دمْ حــامدا ما أم آدمَ أحمــد

وظاهر سخف هذه الأبيات وركاكتها وتفاهتها .

صفي الدين الحلي

١ ـ حياته :

ولد صفي الدين الحلي في ربيع الاول من عام ٦٧٧هـ أو في سنة ٦٧٨هـ في الحلة القريبة من الموصل وتسمى الحلة الفيحاء . وقد ذكرها في شعره فقال :

ألا أبلغْ هُديتَ سَماةَ قومي   بحِلّة بابلٍ عند الورود

ورأى أن من لم يرها فانه قد غبن في عمره :

من لم ترَ الحِلّةَ الفيحاءَ مقلتُه   فانّه في انقضاء العمر مغبونُ

وهو عبد العزيز بن سرايا السنبسي الطائي نسبة الى قبيلة سنبس من طيء وإليها تنتسب أمه أيضا ولذلك نراه يقول :

فكيف ولم ينسب زعيم لسنبس   الى المجد إلا كان خالي أو عمي

وكانت أسرة أمه في زمنه واسعة الجاه قوية السطوة وفيها كانت رئاسة القبيلة لأننا نراه عدة مرات في شعره ينعت خاله جلال الدين بن محاسن بالرئاسة .

وظاهر من شعره أنه كان لقبيلته منافسون على الزعامة[1] وان بين الفريقين ثارات لم يكن يخمد أوارها :

يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراق وقد   دِنّا الأعادي كما كانوا يَدينونا
أخلَوا المساجد مِنْ أشياخنا وبغَوا   حتى حملنا فأخلَيْنا الدواوينا

(١) ذكر ابن خلدون التنازع على الرئاسة بينهم وبين آل الفضل في البصرة (العبر ٦ : ص ٦) .

وقد شارك صفي الدين في معارك قومه وكان من شجعانهم المعدودين كما يصور نفسه في شعره الا اذا كان يتزيّد ويبالغ • ولما فاز أعداؤهم نزح عن بلده وعمل بالتجارة بين الجزيرة الفراتية ومصر والشام وبغداد واتصل بملوك هذه البلاد في حماة وبغداد ودمشق والقاهرة والحجاز وكان أكثر اقامته لدى ملوك ماردين وتوفي في بغداد سنة ٧٥٠هـ أو ٧٥٢هـ أو ٧٥٤هـ أو ٧٥٥هـ •

يذكر في مقدمة ديوانه أنه أولع قبل أن يشبّ عن الطوق بحفظ الشعر ونظمه وانه كان يكره التكسب به ويعده من أدب الفضائل فيترفع بنفسه وبه عن الابتذال ، وانه لم يشأ أن يجمع منه ديوانا فأغار عليه كثيرون من المدعين ، وانه بناء على ما أخذ به نفسه لم يكن يمدح كريما مهما عظم ولم يكن يهجو لئيما مهما حقر وانه لم يكن ينظم الا فيما يجلب له الشكر وطيب الذكر كوصف الحروب والخمر والعتاب والغزل والشكر على المعروف والوصف المبتكر والحضّ على المعالي :

كوصفِ حربٍ ووصف شَربٍ	ولطف عتب لقلبٍ قلبِ
وذكرِ إلفٍ وشكر عُرْفٍ	وبِكر وصفٍ ونَدْبِ نَدْبِ

وفي مدح النبي وآله :

ويذكر انه كان اذا عنّ له معنى لطيف في المدح نظمه في أحد أنسبائه واذا عنّ له معنى في الهجاء نظمه على انه استجابة لاقتراح بعض أصحابه الخلعاء غير الرصينين وانه انما كان ينظم في هذين الموضوعين على هذه الصورة إدلالاً بقدرته على النظم فيهما حتى لا يظن قوم بأنه تجنب النظم فيهما عجزاً :

وأعرضتُ عن مدح الأنام ترفعًا	سوى معشري إذ كان مجديَ فيهمُ
وقلتُ لقولِ ابنِ الحسين مورّيا[1]	اذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ

ثم يذكر انه جرى في وطنه من الحروب والخطوب ما اضطرّه الى البعد عنه وعن أهله وكان شعره قد سبقه الى الآفاق فنزل بآل أرتق ملوك ديار بكر فابتسمت

---

(١) يورّي هنا بكلمة النسيب فهي هنا القريب من الأهل ولا يراد بها الغزل والشطر الأخير للمتنبي •

له الايام وأبدلته بمحنته نعمة وجرت له الريح بخير وأحسن له الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي فاستدعى لذلك منه أن يشكر له المعروف المتصل فنظم فيه قصائد مجملة وموصّلة ، فأما المجملة فهي التي جعلها كتابا مفردا كأنها ديوان مستقل وهي تسع وعشرون قصيدة جعل أبيات كل منها تسعة وعشرين بيتا كل بيت من القصيدة الواحدة يبدأ بحرف من حروف المعجم وينتهي به وسمي هذا الديوان المستقل « درر النحور في مدائح الملك المنصور » . والمفصّلة هي قصائد نظمها في مدح الملك المنصور غير تلك انتخبها من أحسن ما نظم فيه وأودعها الديوان. وأحسن اليه بعد المنصور خلفه السلطان الملك الصالح شمس الدين أبو المكارم صالح فوالى فيه المدائح وآلى على نفسه ألا يمدح أحدا غيرهما . ولكنه حينما قضى الحج وزيارة قبر النبيّ اتجه الى مصر فرارا من أحداث بلاده ومثل بين يدي الملك الناصر محمد فشمله انعامه ورأى من الواجب عليه مدحه وان الكفّارة عن يمينه السابق بألا يمدح أحدا أسهل عليه من كفران النعمة للمنعم فنظم فيه قصائد يفخر بأنها طابت ألفاظاً ومعاني وحسنت سبكاً وقوافي .

وقد أشار عليه رئيس وزراء الملك الناصر بأن يجمع من شعره ديوانا يضم فيه جده وهزله ورقيق لفظه وجزله وأن يرتبه بحسب الموضوعات ويحسن ترتيبه لتسهيل مطالعته والمذاكرة فيه ، فاستجاب للطلب وقد جعل ديوانه اثني عشر باباً جعل كل باب فصلين أو أكثر فكان مجموع الفصول ثلاثين وهذه هي أبوابه كما رتبها :

الباب الاول	في الفخر والحماسة والتحريض على الرئاسة	وهو فصلان
الباب الثاني	في المدح والثناء والشكر والهناء	وهو فصلان
الباب الثالث	في الطرديات وأنواع الصفات	وهو فصلان
الباب الرابع	في الاخوانيات وصدور المراسلات	وهو فصلان
الباب الخامس	في مراثي الأعيان وتعازي الاخوان	وهو فصلان
الباب السادس	في الغزل والنسيب وطرائفه التشبيب	وهو فصلان

الباب السابع في الخمريات والنبيذ والزهريات وهو ثلاثة فصول

الباب الثامن في الشكوى والعتاب وتقاضي الوعد والجواب وهو ثلاثة فصول

الباب التاسع في الهدايا والاعتذار والاستعطاف والاستغفار وهو ثلاثة فصول

الباب العاشر في الغويص والالغاز والتقييد للايجاز وهو ثلاثة فصول

الباب الحادي عشر في الأدب والزهديات ونوادر مختلفات وهو ثلاثة فصول

الباب الثاني عشر في الملح والأحاجي والاحماض في التناجي وهو ثلاثة فصول

ولم يورد في هذا الديوان كل ما خرج عن الاعراب من فنون الشعر المستحدثة الأربعة التي استحسن فيها منذ وضعت أن تكون ملحونة، وهي « التي لحنها إعرابها، وخطأ نحوها صوابها ».وقد جعلها في ديوان مستقل يقول : « وجعلتها جزءاً بمفرده ، خارجا عما نحن بصدده ، وهذه الفنون هي المواليا ، والزجل ، والكان وكان ، والقوما وما جرى مجراها . »

اتصل صفي الدين بالمؤيد صاحب حماة قبل سنة ٧٣٢هـ التي توفي فيها المؤيد وفي ديوانه قصيدة على قافية النون وموشحتان وعدة مقطوعات في مدحه .

وحين عيّن ابنه الأفضل ملكا في مكانه نائباً عن الملك الناصر محمد هنأه الشاعر بقصيدة على قافية النون مدحه فيها ورثى أباه ، ثم توالت فيه مدائحه قصائد وموشحات ومقطعات .

وكان ينافس صفي الدين على مدح المؤيد والأفضل في حماة جمال الدين بن نباته معاصره وصديقه وكان أجود منه مدحا وقد استطاع حين ولي الأفضل أن يجمع بين التهنئة والتعزية في قصيدة واحدة موفقة مطلعها :

هناءٌ محا ذاك العزاءَ المقدّما فما عبس المحزونُ حتى تبسّما

على حين عيب على صفي الدين مطلعه الغزلي في قصيدته التي قالها في المناسبة نفسها واعتذر له بأن تعيين الأفضل لمنصب أبيه لم يكن أكيدا من قبل ولذلك اعتبره

الشاعر فرحة تبرر وتستدعي الغزل في مطلع قصيدته وهو :

عـانَـده في الحـب أعـوانـهُ   وخـانه في الـوُدّ إخـوانـهُ

وقد كرر الخطة نفسها في موشحته التي يرثي بها الملك المؤيد نفسه وقد حضر موته وهو يسمط فيها قصيدة ابن زيدون المشهورة على قافية النون . يقول

كـان الزمـان بلقياكم يُمنّينـا   وحـادثُ الدهـر بالتفريق يثنينا
فعنـدما صدقت فيـكم أمانينـا   أضحى التنـائي بـديلا من تدانينا

ونـاب عن طيب لُقيانـا تجافينـا

وهكذا كان للشاعر فيهما أماديح ومراثٍ وتعازٍ . ولكن أثر اتصاله بهما لم يقتصر على ذلك بل كانا يطلبان منه أحياناأن ينظم في موضوع معيّن أو يقترحان عليه معارضة شاعر في فن أجـاده فيستجيب لهما . ومن ذلـك أن الملك المؤيـد اخترع وزنا شعرياً جديدا واقترح على صفي الدين أن ينظم عليه موشحا اختبـاراً لكفايته وتلذذاً بأدبـه فقال :

بي ظبي حِمىً ورْدُ خدّه صارمُ اللحظِ   قاسٍ غرّني منه رقّةُ الخدّ واللفظِ
ذو فرْعٍ بمحض اعتناق أردافِه مَحظِي   ماليَ لم أنَلْ حظّه كما قد حكى حظّي

بديعُ المعـاني مِن الأقمار   أحسنْ
الينـا أسا لحظُه واللفظُ   أحسنْ

وهـذا الوزن المخترع ملفق من تفاعيل تنتمي الى عـدة أوزان :

ثقـافتـه :

لم تتحدث كتب الأدب عن دراسته وشيوخه وذكر ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة وصلاح الدين الصفدي وكان معاصرا له أنـه عانى صناعة الأدب ومهر في فنون الشعر كلهـا وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها . ويذكر هو في مقدمته انـه حفظ الشعر ونظمه قبل أن يشب عن الطوق وذكر الصفدي انه نظم الشعر ابن سبع ، وقـد أجاد في الشعر واشتهر وسبقته شهرته الى الآفاق التي زارها . .

ويبدو من شعره أنه كان ضليعا في اللغة قادراً على صوغ الشعر دون عناء فاهماً لأساليب الأقدمين والمحدثين يستطيع أن يعالج صعبها وسهلها في يسر ومطاوعة .
وكذلك يبدو من شعره أنه كان ضليعاً بفنون البديع والبيان والمعاني فقد نظم فيها بديعيته نظم العالم الذي أراد أن يدوّن معلوماته في هذه الفنون وما اخترعه فيها ، وقد تجاوزت عنده مائة وخمسين لوناً ثم شرحها شرح العالم وذكر أنه قرأ سبعين كتابا قبل نظم البديعية ومئة وأربعين قبل شرحها .

ويبدو أن علمه قد اقتصر على علم اللغة والشعر والبلاغة ، وانه لم يدرس العلوم العقلية المعروفة في زمنه كما انه لم يتبحر في العلوم الاسلامية وانما اكتفى منها بما لا بد منه .

صداقاته :

يدل ديوان الحلي على كثرة أصدقائه فان مكانته الاجتماعية وشعره وحظوته عند الملوك هيأت له أسباب ذلك . ومن المؤسف ان كتب الادب لم تفض كثيرا في شؤون حياته وتفصيلاتها .

وأثر صداقاته في حياته ظاهر في اخوانياته من شوق وعتاب واعتذار واستعطاف وألغاز وشكر وتبادل مدح ودعوة الى اللهو وتبادل مجون .

ومن أصدقائه الشاعر ابن نباتة والمؤرخان الأديبان ابن سيد الناس وصلاح الدين الصفدي الكاتب الشاعر وشهاب الدين محمود كاتب السر وأبو حيّان الأندلسي النحوي .

وكانت الصلات الاخوانية بين الأدباء حافزا لنظم الشعر حينئذ بما كان ينشأ عنها من اقتراحات ومطارحات ومنافسات .

ومن أمثلة المطارحات الشعرية بين صفي الدين وأصدقائه ما جرى بينه وبين ابن نباتة ، فقد أرسل هذا مرة رسائل الى أصدقائه دون صفي الدين فكتب اليه هذا يعاتبه قال له :

مَنْ لصبٍ أدنى البعادُ وفاتَهْ إذ عداه وصلُ الحبيب وفاتَهْ
فاته من لقا الأحبة عيش كان يخشى قبل الوفاة فَواتَهْ
كان ثبتاً قبل التفرق لكنْ زعزعتْ روعةُ الفراقِ ثباتَهْ

ثم مدحه وقرظ شعره وانتقل بعد ذلك الى العتاب :

ورسولٍ منكم تعجّبتُ منه حين حانت مني اليه التفاتَه
جاء يهدي الى الصحاب طُروسا ليس للعبد بينهنّ حِصّاتَه
فتأملتُ في يديْه خطوطا أذكرتني من ربّها أوقاته
لو بعثتم للعبد فيها سَحاةً لأعادت بعد الممات حياته [1]
فتفضّل بالأنس واهدِ الى عبـ ـدك من مسكك الزكيّ فتاته
لك من وافر العلوم نصابٌ فاجعل الردّ للجواب زكاته

فأجابه ابن نباتة على البحر والروي نفسيهما بأبيات منها :

ما لظبيِ الحمى اليه التفاتَه بعد ما كدّر المشيبُ حياتَه
لهجٌ بالهوى وان نفّرت أيـ ـدي الليالي غزاله ومَهاته
كلّما قيل قد سلا عن فتاةٍ عاده الحب فاستجدّ فتاته

آثاره :

١ ـ له « العاطل الحالي والمرخص الغالي » في الزجل والموالي وكان وكان والقوما ، وفيه بعض رسائله وحديث عن الزجل ، منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية . طبع في ألمانيا سنة ١٩٥٥ من منشورات مجمع العلوم والآداب وعني بتصحيحه الأستاذ ولهلم هونرباخ .

٢ ـ ديوان « صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء » ويظهر من اسمه أنه مختارات من الشعر والنثر .

٣ ـ « الخدمة الجلية » وهو في وصف الصيد بالبندق .

٤ ـ « معجم الأغلاطي » وهو في الأخطاء اللغوية .

---

(١) السحاة : الناحية والجانب . وسحا الطين : قشره وجوفه : والقصد بالسحاة القليل من الأبيات .

٥ ـ « النتائج الإلهية » وهو شرح لبديعيته في مدح الرسول . ويتضمن الحديث عن نيف وخمسين ومئة لون من البديع بمعناه الشامل للبلاغة كلها ، وعن علماء هذا الفن وجهودهم في التأليف ولكنه دون « خزانة الأدب » لابن حجة الحموي من حيث السعة والاستيفاء . وأسبق منها زمناً بمئة سنة تقريبا . مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية .

٦ ـ « الدر النفيس في أجناس التجنيس » وهو يتحدث عن أنواع الجناس ويأتي بأمثلة عليها . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة .

٧ ـ وله في النثر ثلاث رسائل أوردت في آخر ديوانه المطبوع وهي بأسلوب عصره البديعي المتكلف :

١) ـ « الرسالة المهملة » ويفهم من مقدمتها انه أرسلها للملك الناصر محمد يشكو اليه فيها وزيره كريم الدين ادراري الذي قطع عنه مرتبه ويستأذنه في السفر وقد سميت المهملة لأنه يستعمل فيها حروفا غير منقوطة ما عدا تاء التأنيث. وقد سار فيها على غرار المقامة السمرقندية للحريري وضمنها بعض شعره . ومن هذه الرسالة مثالا عليها قوله : « أدام الله دولة الملك العادل العامل الأوحد الكامل مؤمل الآمل مآل الأرامل مالك ملوك الدول طامس أسماء الكرام الأول أسد الأساد » .

٢) ـ الرسالة التوأمية وقد كتبها للمنصور الأرتقي ليبرهن على قدرته الكتابية آملا أن يستخدمه المنصور في ديوانه وقد ضمنها شيئا من الشعر من نظمه وراعى أن يجانس فيها بين كل لفظين متجاورين جناساً تصحيفياً ، على مثال أبيات للحريري أولها :

« زينت زينب بقدٍّ يقدّ » ، وفيها طرافة ومهارة ولكنّ فيها جورا على المعنى وتكلفا شديدا للفظ ومثال ما جاء فيها مقدمتها :

« قبّل قبلَ يراك ثراك ، عبد عند رَخاكَ رجاك ، أبي أبى سؤال سواك » .

٣) ـ « رسالة الدار عن محاورات الفار » وهي شبه مقامة خفيفة الظل ليست كسابقتها من حيث الجفاف . وقد جعلها على لسان الدار التي يسكنها تشكو فيها

الى القلعة مقر السلطان الملك الصالح مما ألم بها من حيف ، تيجة أن لصفي الدين ديناً على أحد نواب السلطان ضمه مع دين آخر لأحد أصدقائه وجعله على مصالح الدولة وتلكأ في الدفع وكان من تيجة هذه الرسالة أن السلطان سدد له الدين من خزانته .

والرسالة طويلة تقع في ثماني صفحات وفيها دعاء وشكوى ومديح ووصف وحكمة واستعطاف .

وجاء بحوار تمثيلي فيها على لسان الفئران والجرذ يصور فيه ما أصاب الدار من بؤس وفاقة بحيث تشفق الفئران على صاحب الدار وفي هذا التخيل طرافة ولطف تأت للموضوع . ومن هذه الرسالة قوله في المقدمة :

« المملوكة المحرومة المرحومة الموحشة بعد الايناس دار ابن الدكناس تقبل الأرض بين يدي القلعة الشريفة والذروة المنيفة العزيزة البناء ، الغزيرة الثناء .. »
وجاء فيها على لسان فأرة :

« أرأيت ما فعل الزمان الغدار بساكن هذه الدار كنا نؤمل أن نعيش في ذراه ونرتع في حماه ، ولم تزل خزانته ملأى بالمأكول والمشروب والمعاجين والربوب وكل ما يقضم ويخضم ويثقل ويهضم فاذا هي اليوم أقفر من الفلاة ، وأصفر من الهبات ».
فقالت لها الكبرى : وما سبب ذلك قالت : لأنه أحمق من الفراش وأبلد من الخفاش :

كان أينما عرجَ أرعج   وحيثما تدرّجَ تفرعج

وجاء فيها على لسان الدار في الخاتمة :

« فلما سمعتُ أيتها القلعة المحروسة والذروة المأنوسة أن حاله استحال وعزم على الترحال ورد عليّ ما أزعجني وأجزعني وأقلقني وفلقني فاكتحلت السهاد وهجرت المهاد وافترشت القتاد وأنشدت :

إن كان قد عزم الرحيل   وملّني عبدُ العزيزْ
فالقلبُ بينَ رحالِه   فكأنه صاع العزيزْ

فبالله عليك أيتها القلعة المَشيدة والقُلّة الشديدة إلا ما رثيت لواقعتي عند قراءة رقعتي وقبلت شفاعتي لاستحقاق شَفْعَتي واعترفت لضارعتي في فحوى ضراعتي وأجزت رسالتي باجابة مسألتي فاني لم أزل منقادة بزمام الطاعة متسربلة ثوب الاستكانة والضراعة وأنا مقيمة على ذلك الى يوم الساعة » •

وخلال هذه الرسالة يصف صفي الدين على لسان الجرذ الخطيب ، ثم الفأرتين المتحاورتين ، ما كانت عليه حال هذه الدار قبل أن يسكنها هو ، وحالها بعد أن سكنها وهو موسر ، ثم حالها وقد أعسر وضاقت به سبل العيش لأن نائب السلطان المدين لم يسدد له دينه • وفي ذلك أكثر من التعريض بطلب المعونة وسداد الدين • ويصف خلالها أيضا نمط حياته من اللهو والبذخ والنعمة وحب الاستمتاع بجميع الملاذّ •

سمات نثره :

لا نعلم اذا كان صفي الدين قد عمل في الديوان الأرتقي كما رغب أو أنّ السلطان قد اكتفى به شاعرا •

سار صفي الدين في نثره على منهج عصره فتكلف الصناعتين البيانية والبديعية•

ويمتاز سجعه بقصر فقراته وخفتها وخلوه من الحشو والتقديم والتأخير والاعتراض • وتكون الفقرة فيه من فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر أو صفة وموصوف ومثال ذلك ما أوردناه من أمثلة على رسائله الثلاث قبل •

ولم يتعمّد اطالة الفقرات كما فعل غيره • ولم يهتم بالتورية والاستخدام اللذين تفوق فيهما معاصره ابن نباتة وكانا مطمح آمال الكتاب والشعراء حينئذ في مصر والشام • وربما كان ذلك لأن نشأته الاولى لم تكن في هذين القطرين •

وكان أكثر اهتماما بالجناس الذي كان يعده ابن نباتة شيئا لا قيمة له اذا لم يقترن بالتورية •

ومما عني به التلاعب بالألفاظ اما بالمجانسة بين كل لفظين متجاورين كما في

الرسالة التوأمية واما باستخدام الكلمات الخالية من النقط ما عدا تاء التأنيث كالرسالة المهملة وقد رأينا مثالا على كل منهما .

ومن سماته انه يأتي بالشعر خلال النثر ويؤثر أن يكون من شعره هو لا من شعر غيره . مثال ذلك ما جاء في « رسالة الدار عن محاورات الفأر » من الشعر .

٨ ـ مجموعات شعره :

ترك من الآثار الشعرية ما يلي :

١ ـ ديوانه :

وقد رتبه على اثني عشر بابا يحتوي كل باب على فصلين أو أكثر ومجموع الفصول ثلاثون وهي تضم ما يزيد على عشرة آلاف بيت من الشعر . وأبوابه هي في : الفخر والحماسة ، والمدح ، والطرديات وسائر الأوصاف ، والاخوانيات ، والمراثي ، والغزل ، والخمريات ، ووصف الأزهار ، والشكوى والعتاب ، والاستهداء والاعتذار ، والملح والأهاجي ، والأدب ، والزهد .

وقد ذكرنا أنه جمع ديوانه أول مرة زمن الناصر محمد سنة ٧٢٦هـ بطلب من وزيره علاء الدين بن الأثير وتدل مقدمته على انه جمع فيه مختارات من شعره لا كل شعره .

ويبدو أنه أعاد فيه النظر لأننا نرى فيه قصائد قيلت بعد هذا التاريخ كقصيدته في رثاء المؤيد سنة ٧٣٢هـ وقصيدته في رثاء الناصر محمد وقد توفي سنة ٧٤٩هـ ، واذا لم يكن هو قد أعاد النظر فيه فتكون هذه القصائد من اضافة ناسخي ديوانه بعد عام ٧٢٦ هـ .

ويرجح الرأي الأول ابن شاكر الكتبي يقول في فوات الوفيات ، وكان صديقاً للشاعر : « ديوانه الذي دوّنه بنفسه ثلاثة مجلدات ، وكله جيد » .

ويضم ديوانه مجموعات من الشعر قالها في ممدوحيه هي المنصوريات

والصالحيات والناصريات ، وقصائده في مدح المؤيد والأفضل ملكي حماة • وقد طبع في النجف الأشرف ١٩٥٦ وفي بيروت ودمشق قبل •

والمنصوريات هي القصائد التي قالها في المنصور الأرتقي عدا الأرتقيات التي سنتحدث عنها بعد : ومنها كافية نظمها بعد سنة ٧٠١هـ وبعد انتهائه من نظم الأرتقيات لأنه يفخر في آخرها بهذه القصائد • ومنها موشحة على بحر الرجز يصف فيها الصيد والطبيعة في ديار بكر ويمدح المنصور وهي دون قصيدة ابن نباتة المسماة بـ « قصائد الشوارد » التي وصف فيها أودية حماة والصيد فيها ومدح ملكها الأفضل •

والصالحيات هي القصائد التي قالها في الملك الصالح بن المنصور وهي نحو من خمس عشرة قصيدة طويلة يبذل فيها النصح والرأي الى جانب المدح • ومن أشهرها الرائية التي تبلغ خمسة وثمانين بيتا وفيها يصف الطبيعة والغناء والرقص والخمر والساقي وينتقل بعد ذلك الى مدح الصالح مسبغاً عليه الفضائل ثم يفخر بشعره زاعماً انه سبق المتنبي ولكن الزمان قد تأخر به •

والناصريات هي القصائد التي مدح بها الملك الناصر محمد بن قلاوون ومنها القصيدة البائية التي عارض بها بائية المتنبي التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جلابيا

وفيها يتغزل ثم يمدح ثم يتحدث عن نفسه واكرام الناصر له ، وهي من أجود قصائده • ومنها قصيدة مشهورة على قافية النون يصف فيها الربيع في مصر بمناسبة كسر الخليج وهي جيدة ومطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حللا فواضلها على الكثبان

وتبلغ القصائد التي مدح بها الملكين المؤيد والأفضل ثماني قصائد وقد سماها الدكتور محمد رزق سليم بالمؤيدات والأفضليات على غرار مدائحه في الملوك الآخرين •

٢ ـ وقد ألحق الناشر بالديوان المطبوع قصائده الأرتقيات التي جعل هو عنوانها « درر النحور في امتداح الملك المنصور » وقد جعلها تسعا وعشرين قصيدة

على عـدد حروف الهجاء تبنى كل قصيدة منها على حرف منها ، وكل بيت من هذه القصيدة يبدأ بذلك الحرف وينتهي به • وقد نظمها كلها بمناسبة مجيئه الى ماردين ليدل ملكها المنصور على فضله وليس لهـا مناسبة غير ذلك وقد عبر عن هذه الرغبة بأحد الأبيات في القصيدة الهمزية منها وهي أولى للقصائد :

أرجو بقطـع البيد قطـع مطامعي   وأروم بالمنصـور نصـر لـوائي

والتزم الى جانب ما لا يلزم من جعل حرف القافية فى أول كل بيت أن يكون عدد أبيات كل منهـا تسعة وعشرين •

وتتضمن الأرتقيات عدا المدح وصف حـاله قبل اتصاله بالمنصور وآماله فيه ، والغزل أو وصف الخمر أو الطبيعة ، مقدمة للمـدح •

وعلى الرغم من انهـا ذات موضوع واحد يتكرر ، ومن التزامه فيها بقيـود لفظية فانه لم يسف فيها ويضعف وحافظ على مستواه ، ولكنه لم يحلّق •

٣ ـ وألحق الناشر بالديوان الكافية البديعية وهي قصيدة في مـدح النبي تتضمن فنون البديع حمله على نظمها ولع الشعراء في عصره بالبديع وبالمديح النبوي وببردة البوصـيري •

ولكن البوصيري ترك نفسه على سجيتها في عاطفته الدينية ولم يلتزم خطـة علمية لعرض ألوان البديع واحدا واحدا والاتيان بشواهد عليها •

فالبديعيات هي القصائد التي تتعمد ايراد هذه الفنون مع شواهدها وهي لذلك أدخل في باب المنظومات العلمية منها في فن الشعر •

ويختلف في أول من نظم البديعيات وينسب ذلك بعضهم الى صفي الدين وهو نفسه يشعرنا بذلك في مقدمته لبديعيته •

على أن شاعراً آخر اسمه أمين الدين السليماني الأربلي (ت سنة ٦٧٠هـ) قد سبق الى نظم بديعية غزلية من ستة وثلاثين بيتا ، وكذلك نجد ابن جابر الأندلسـي

معاصر صفي الدين (ت ٧٨٠ هـ) قد نظم بديعية عرفت ببديعية العميان ، غير أن صفي الدين أسبق منه الى نظم بديعيته .

وقد توالى بعد صفي الدين وابن جابر نظّام البديعيات ومنهم عز الدين الموصلي وتقي الدين بن حجة .

وقد شرح صفي الدين بديعيته التي تبلغ خمسة وأربعين ومئة بيت ، يتضمن كل بيت منها لوناً بديعياً على الأقل ، وسار على غراره أصحاب البديعيات في شرح بديعياتهم . وبقيت بديعيته أسهل البديعيات وأقلها تكلفا وأقربها فهماً ونسباً الى الشعر . وقد اعتز هو بها ولفت النظر الى غزارة مضمونها ومميزاتها .

شعره يصور حياته :

اشتهر صفي الدين بشعره اكثر منه بنثره الذي لم نعرف عنه الا النزر القليل . وقد آلى على نفسه الا يهجو لئيما وألا يمدح كريما ترفعا بنفسه عن الابتذال والسباب . وقد صان نفسه عن الهجاء الا ما يقترح عليه من مقطعات يسيرة كان يقولها ليبرهن على انه لم يتجنب هذا الباب لشعور منه بالتقصير عنه ، والا ما كان يأتي خلال فخره بنفسه وقومه من التعريض باعدائهم ولكنه لم ينحدر فيه على كل حال الى مرتبة السب والقذع وبقي فيه رصين المعاني واللفظ .

وحاول ان يصون نفسه عن المدح ولكن صروف الدهر اضطرته الى ان يمدح اولا آل أرتق والمنصور والصالح منهم بخاصة ، ثم الى مدح ملكي حماة المؤيد والافضل وكان يعلل ذلك لنفسه وللناس بأنه لم يكن يمدح مستجديا العطاء ، وانما كان يشكر على المعروف بعد ان يسدى اليه والشكر على المعروف واجب وبأنه كان ينزل عندهم نزول الصديق والنسيب . ولا تنكر عليه انه سعى الى ان يصون ماء وجهه ما استطاع وانه لم يكن ملحاحا في الطلب حين اضطرته الظروف اليه . وهاهو ينزه نفسه وشعره عن الابتذال :

ولم أبتذلْ عِرسَ المديح لخاطبٍ ولو أرغبوني بالجزيل من المَهْرِ

وكان شعر صفي الدين يصور مراحل حياته . فحين كان بين قومه يحارب اعداءهم ويدعو الى الثأر صوّر شعره هذه المرحلة من فروسيته :

فعلّمتْ شَمَّ الارض شمَّ أنوفهمْ   وعودت ثغرَ التــرب لثمَ الترائبِ

وحين كان يدعوه قومه الى النزال كان يسرع الى خوض الحرب بل يتقدمهم :

لمـا دعتْنـي للنـزال أقاربـي   لبّاهم عنـي لسـانُ المُنْصـل
ثار العَجاجُ فكنت أولَ صـائل   وعلا الضِرّامُ فكنتُ اوّلَ مصطلِ

وحين انتصر على اعدائه تغنى بذلك في شعره :

سلي الرمـاح العوالي عن معالينـا   واستشهدي البيضَ هل خاب الرجا فينا

وكان في هذه الفترة يمزج بين فخره بنفسه وفخره بقومه :

إنّما مفخـري بنفسـي وقومـي   وقنـاتي وصارمـي وجـوادي

وحين تغلب الاعداء على قومه كان صادقا في التعبير عن حالته النفسية داعيـا الى الصبر :

صبراً على وعـد الزمان وإنْ ونى   فعساه يصبـح تائبـاً ممّا جَنَى
لا يُجزعنّكَ أنّه رفَـع العِـدا   فلَسوف يهـدمُ عن قليلٍ ما بنى

وحين كانت الحرب سِجالا وانتصر قومه اعترف بعد النصر أنهم كانوا مـن قبـل قـد هزموا .

يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ لقدْ   دنّا الأعـادي كما كانوا يَدينونا

وحين فرّ أمام أعدائه وخاف على نفسه القتل اعترف بذلك ولم يكـن يائساً وأرضى عزة نفسه بأن كان قد أثبت شجاعته في المعركة :

ليس الفـرارُ عليّ عـاراً بعـدما   شهدتْ ببأسي يوم مُشتبَك القنَا
ان كنتَ أوّل من نأى من أرضهمْ   قد كنتُ يومَ الحرب أوّلَ من دنا

وحين رحـل الى بني أرتق ونال عطاياهم فمدحهم وأجزل لهـم النصيحة كان صادقاً في شـعره :

وأشكركمْ مادمتُ حيّاً وإنْ أمتْ   ولم أوفـِه أوصيتُ بالشكر آليـا

وحين انصرف الى متع الحياة بجميع وجوهها ومباذلها في عصره من خمر ولهو

ونساء وغلمان ودعوة الى المجون وتعرض لكثير من مشاعر المحبين وذوي التجارب في هذه الميادين من حب وبغض وشوق ولقاء وقرب وبعد سجل شعره ذلك كله تصويرا صادقاً ليس فيه نفاق أو تكلف • وهذا مثال من رائية له يصف فيه المغني ومدير الكؤوس والخمر المدارة :

وقد ترنّم شادٍ صوته غَرِدٌ ... كأنّه ناطقٌ مِن خَلْقِ شُحرور
شادٍ ، أناملُه تُرضي الأنامَ لَه ... اذا شدا وأجاب البمُّ بالزير
وحاملُ الكأسِ ساجي الطرف ذو هيَف ... صاحي اللواحظ يَثني عِطْفَ مخمور
كانما صاغه الرحمنُ تذكرةً ... لمن يشكّكُ في الولدان والحور
يدير راحا يشبُّ المزجُ جَذوتها ... فلا يزيدُ لَظاها غيرَ تسعير
نار بدت لكليم الوجد آنسها ... من جانب الكأس لا من جانب الطور

ومن قوله متغزلا بغلام ساق :

يطوف على الرفاق مِن المُحَيّا ... ومِن خمر الرُّضاب بمُسكرَينِ
اذا يجلو الحُميّا والمُحَيّا ... شهدنا الجمعَ بين النيّرَيْنِ

ويؤخذ عليه ان تمثيل شعره لعصره كان تمثيل المستسلم الراضي بأن يلهو مع اللاهين ويعبث ولم يكن تمثيل الناقد السياسي الاجتماعي الذي لا يرضيه بعض أشياء فيقبحها فليس له شعر يُقرّع فيه ملوك المسلمين على اختلافهم على حين كانت الأعداء تحيط بهم ، أو يدعو به الى وحدتهم • كما انه ليس له شعر في نقد حال الموظفين وحال المجتمع وحال من يحملون معاول تهديمه ونحن نحمد له أنه حرض الملوك أحيانا على القتال والدفاع ضد التتار ولكن ذلك ليس كافيا وقد قام بجانب من هذه المهمة التي قصر هو فيها البوصيري فنقد طوائف المستخدمين وعمال المكوس وآخرين اعتقد أنهم يسيئون الى الأمة •

وكان الحلي في هذه الناحية ، مثل ابن نباتة وأكثر الشعراء الفحول في تلك البرهة ، ميالا الى مسايرة الملوك منسجما معهم في مسالك حياتهم •

على أننا يجب أن نعترف بأن انصرافه الى اللهو كان فيه نصيب كبير من الشعور بالخيبة لما أصابه وأصاب قومه •

وكان شعره تقليديا وقد اجتمع له من الاستعداد النفسي وقـوة الشخصية واستقلالها وجلال المنبت وقوة اللغـة ومطاوعة النظـم وسهولة التعبـير ما كان يستطيع به أن يكون مبتكراً ولكنه آثر السهولة والراحة •

وكان إما مقلدا للأقدمين في معـانيه الحماسية وفخره ومديحه الملوك وإمـا مقلدا لمعاصريه ومن سبقهم من المولدين في موضوعات الغزل والخمر وما شابههما وفي الأسلوب البديعي المصنوع • وتظهر عنده لمحات من الذاتية حين يتحدث عـن مفاخره وحماسياته بصورة عامة أو حين يمدح ممدوحيه ويدعوهم الى قتال أعدائهم والذود عن حياضهم لتلاؤم الموضوع مع نفسه وأمانيه • قال عن نفسه :

لقد هذّبتْني يقظةُ الرأيِ والنُّهى   اذا هذّبت غـيري ضروب التجارب
وأكسبني قومي وأعيـانُ معشري   حِفاظَ المَعـالي وابتذالَ الرغائب

فخـر الحـلي :

يكاد يكون الفخر غريزة طبيعية لدى الانسان الذي يحب أن يكون خيرا من غيره ويحب أن يعتز بأصله وولده وما يتعلق به وكل ما يرفع من شأنه في أعين الناس ، فكيف اذا كان الانسان مثل الحلي الذي ترُبى في بيئة قبلية نصف بدوية وفي أعـلى بيت فيها يحكمها أو يتولى شؤونها ، والذي خاض مع قبيلته معاركها وشاركها في انتصاراتها وانهزاماتها وعد زعيماً فيها وأوتي من الموهبة الأدبية الى جانب المكانة القبلية ما يشار اليه معه بالبنان • بديهيّ اذاً أن يفخر الحلي وخير فخرياته ثلاث ، بائيـة ومطلعهـا :

لئن ثلمتْ حدّي صروفُ النوائبِ   فقد أخلصتْ سَبكي بنارِ التجاربِ

ولاميـة ، ومطلعهـا :

زمن الشوازبُ كالنَّعام الجُفّلِ   كُسيتْ جَلالاً من غبارِ القَسْطَلِ

ورائعته المشهورة على رويّ النون التي سندرسها بالتفصيل مكتفين بهـا ومطلعهـا :

سَلي الرماحَ العَوالي عن مَعالينا   واستشهدي البيضَ هل خاب الرجا فينا

وقد قالها حين انتصر قومه على أعدائهم (سنة ٧٠١ هـ) وأخذوا بثأر خاله صفي الدين بن محاسن من آل أبي الفضل وكانوا قد قتلوه بمسجده غدرا وكاد يطير فرحا ، وفيها يتمدّح بأفعال قومه في المعركة :

وسائلي العُرْبَ والأتراكَ ما فعلت   في أرض قبرِ عُبَيْدِ الله أيدينا

ويذكر عزم قومه وإصرارهم على النصر والأخذ بالثأر :

لمّا سعيْنا فما رقّتْ عزائمُنا   عمّا نروم ولا خابت مَساعينا

ولكنه يعترف ببطولة أعدائه وانهم كانوا قد انتصروا قبل :

يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ وقد   دنّا الأعادي كما كانوا يَدينونا
بضُمَّرٍ ما ربطناها مسوّمةً   إلا لِنغزو بها مَن كان يغزونا

ثم يفخر باطاعة عشيرته للقواد من أسرته وبعقلهم في السلم وعدلهم في الحكم وشجاعتهم في الحرب ومسايرة الأيام لعزائمهم :

وفتيةٍ إن نقُل اصغَوْا مَسامعهمْ   لقولنا أودعوناهمْ أجابونا
قومٌ اذا استُخصموا كانوا فراعنةً   يوما وان حكّمُوا كانوا موازينا
تدرّعوا العقلَ جلبَاباً فإنْ حَميتْ   نارُ الوغى خلتَهمْ فيها مجانينا
اذا ادّعوا جاءت الدنيا مُصدّقةً   وإن دعَوْا قالتِ الأيامُ آمينا

ولكن حلاوة الظفر تطغى عليه فيستخفّ بأعدائه المنكسرين ويقلّل من شأنهم ويجعلهم كالطيور الضعيفة التي ساعدتها الظروف مرة على أن تصير شواهين فطغت وبغت فردّتها سيوف قومه الى صوابها وحقيقتها :

إنّ الزرازيرَ لمّا قام قائمُها   توهّمتْ أنّها صارت شَواهينا
ظنّتْ تأني البُزاة الشهب عن جزَعٍ   وما درتْ أنّه قد كان تهوينا
بَيادِقٌ ظفرت أيدي الرِّخاخ بها   ولو تركناهمُ صاروا فَرازينا
ذلّوا بأسيافنا طولَ الزمان فمُذْ   تحكّموا أظهروا أحقادهمْ فينا

ونلاحظ هنا أنه يستعمل أسلوب الموازنة بين حال قومه من القوة وحال أعدائهم من الضعف وذلك ما سمي عند الأقدمين بهجاء المقارنة ، وهو في الوقت

نفسه يستمدّ خياله من لعبة الشطرنج ومن واقع الحياة في عالم الطير ، فالجوارح القوية تبطش بالطيور الصغيرة • ثم يبيّن مظالم القوم السابقة في قومه وان ما نزل بهم كان عدلاً فقد اغتالوا وقتلوا ونهبوا المال :

لم يُغنِهِمْ مالُنا عن نهب أنفسِنا ... كأنهم في أمان من تقاضينا
أخلَوا المساجد من أشياخنا وبغَوْا ... حتى حملنا فأخلينا الدواوينا

فلا عجب أن يفرح الشاعر بانكسارهم ويطرب لما نزل بهم ويلجأ الى التصوير المرعب لما نزل فيهم بالسيوف والرماح ولما جفّ من دمائهم على ثياب قومه ومن طربه هو وقومه لهذه الدماء حتى لكأنها طيب قد تضمخوا به وشفى غيظ نفوسهم :

وللدماء على أثوابنا عَلَقٌ ... بنشره عن عبير المسك يُغنينا
فيالَها دعوة في الأرض سائرةً ... قد أصبحت في فم الأيّام تلقينا

ولكن نشوة الظفر هذه لا تلبث أن يمازجها روح من العقل والعدل فيبدي الشاعر أن عمل قومه لم يكن عن ميل الى الأذى فانهم قوم تأبى أخلاقهم ، سمواً منها وترفعاً ، أن تبدأ بأذى الآخرين ولكنها اذا مست كرامتها أخذت بحقها :

إنّا لَقومٌ أبت أخلاقُنا شرفاً ... أنْ نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

ثم يفخر بأن قومه قد خلقوا للمعروف كما خلقوا للحرب وان بلادهم كثيرة الخير كريمة مضيافة ولكنها منيعة من أعدائها بسيوفها تصبغها بدمائهم :

بيضٌ صنائعُنا سودٌ وقائعنا ... خضر مَرابعنا حمر مواضينا

ونراه في هذا البيت يستعمل التدبيج فيذكر عدة ألوان وينسب كل لون الى ما يلائمه من المواصفات والمكارم : فالصنائع بيض للأصدقاء والوقائع سود على الأعداء ، والمرابع خضر للأهل والعشيرة ، والسيوف حمر من دماء المعتدين •

ثم يصف عزائم قومه القوية فهم لا يعجزون عن تحقيق أهدافهم ومخططاتهم بالقوة والسعي والمتابعة ومصاولة الدهر والأحداث ومقارعة الخطوب والخصوم وهم في جميع مبارياتهم مع غيرهم من القبائل متقدمون اذا لم يجيئوا المجلّين فهم المصلّون :

لا يظهر العجزُ منا دونَ نيلِ مُنىً — ولـو رأينـا المنـايا في أمـانينـا
ما أعوزتْنا فرامينٌ نصـولُ بهـا — الا جعـلنـا مواضينـا فَرامينـا

ونلاحظ أن الحلي في هذا البيت يسخر بأعدائه بأنهم كانوا ينتصرون على قومه بفرامين (أي مراسيم) ملكية أو سلطانية ولكن قومه ليسوا بحاجة الى هذه الفرامين لأن سيوفهم هي فرامينهم :

إذا جرينا الى سبق العُـلا طَلَقـا — إن لـم نكـن سُبّقاً كنا مصلّينا
تُدافعُ القـدَرَ المحتوم هِمّتُنا — عَنّا ونخصِمِصَرْفَالدهر لو شينا
نغشى الخطوب بأيدينـا فندفعُهـا — وان دهتنـا دفعناهـا بأيـدينـا

ثم يأخذ صفي الدين بمدح الملك الذي أخذ يناصر قومه دون أن يذكر اسـمه لأنه مشهور معروف فيصفه بقوة العزيمة وعلو الهمّة والجود والسطوة ونصرة قوم صفي الدين حتى أصبح أعداؤهم يظهرون لهم الخضوع مُخاتلةً فيكون لهم ملمس الأفعى وختلها وترقبها اللحظة المناسبة للنهش ونفث السم :

مَلْكٌ إذا فُوّقَتْ نبل العدو لنا — رمـت عزائمُـه من بـات يرمينـا
عـزائمٌ كالنجوم الشـهب ثاقبـة — ما زال يحـرق منهـن الشياطينا
أعطى فلا جودُه قد كان عـن غلط — منـه ولا أجـره قـد كان ممنونا
كم من عـدو لنـا أمسى بسطوته — يُبدي الخضوع لنـا ختلا وتسكينا
كالصِّلِّ يُظهر لِينـاً عنـد ملمسه — حتى يصادف في الأعضـاء تمكينـا
يطوي لنا الغدر في نصح يشيرُ بـه — ويمزج السم في شَـهْد ويسقينا

ثم يذكر أن قومه عقلاء فهم يتغـاضون عن عدوهم حين يبدي الخضوع ولا يثيرون مكامن حقده ولكنهم يبقون منه على حذر لا عجزا عنه بل لأنهم على ثقـة بأن الأمير سيعاقبه على غـدره اذا غدر ويكفيهم شره :

وقـد نغضُّ ونغضي عن قبائحِهِ — ولم يكن عَجَزاً عنـه تَغاضينـا
لكن تركنـاه إذْ بِتْنـا على ثقـةٍ — أن الأمـير يُكافيـه فيَكفينـا

بدأت القصيدة بمخاطبة امرأة يتخيلها الشاعر أو يراها أمامه متخذاً من المخاطبة وسيلة للحديث عن المعركة والنصر والحرب وسائر ما جاء في القصيدة وليس خطاب

المرأة من قبيل الغزل ولكن من قبيل النشوة بالظفر والأخذ بالثأر واشعار الناس جميعا متمثلين في هذه المرأة بأن العار قد محي وكأن هذه المرأة كانت تواصل تعييرها له ولقومه بعدم أخذهم بثأرهم والآن جاء وقت جوابها • معنى هذا أن الشاعر دخل في موضوعه رأساً دون مقدمة واستخدم الحوار مع المرأة تجميلا للكلام وبعثاً للحياة وفتحاً لمنافذ القول • ونراه يعطينا صورة مجملة عن النصر والاستعداد للمعركة وقوة العزيمة وصفات القوم مفتخراً بها ثم يعرض لنا الماضي وكيف استنسر به الأعداء على ضعفهم ثم يصف انتقام قومه وأن ذلك كان عدلا ويلجأ الى التصوير الموجز أحيانا فيبدع ويعود الى الفخر بالقوة وحسن الاستعداد وعلو الهمم ومقارعة الخطوب • وتذوب شخصية الشاعر الفردية في هذه القصيدة لتحل محلها شخصية القبيلة الجماعية ، ويجد الشاعر واجبا عليه أن يمدح الملك الذي نصرهم وساعدهم على أخذ حقهم وينهي الأبيات بوصف تعقل قومه وموقفهم من أعدائهم وحقيقة هؤلاء الأعداء منهم •

ونرى من ذلك أن خطة القصيدة جيدة محكمة وأنه استعمل فيها الاجمال ثم التفصيل • ونلاحظ أن نسجها فخم وألفاظها ووزنها ومعانيها وصورها وعواطفها كلها قوية تلائم الفخر •

ونرجح أن الملك الذي يمدحه صفي الدين في هذه القصيدة هو الملك المنصور أول ملك مدحه الشاعر من غير قومه وتعرف اليه ، وواضح أن الشاعر يعترف بمساعدته لقومه على النصر ••

يتبين لنا من هذا العرض الموجز لفخرية الحلي أن فخره يمكن أن يقسم الى قسمين رئيسيين : فخره بنفسه ، وفخره بقومه ، وانه ليس من فاصل قاطع بين الاثنين ، بل هما وثيقا الصلة فالشاعر نفسه يذكر بأن مفاخره الشخصية مستمدة من مفاخر قومه •

وقد رأيناه يفخر بمكانته في أسرته ومكانة أسرته في القبيلة بين سائر القبائل وقوتها ومنعتها وتفوقها وانتصاراتها ومكارمها من شجاعة ونجدة وكرم وكل ما كان يفخر به البدوي منذ خلق الى اليوم •

والشاعر يعترف بما على قبيلته الى جانب فخره بما لها فقد ذكر أن أعداءها قد انتصروا عليها مرات وظفرتهي بهم مرات وان الحرب كانت بين الفريقين سجالا •

ونراه يفخر بشجاعته ورمحه وقوسه وأسهمه ودرعه وسائر عدة سلاحه ، ويفخر بقدرته على النجاة من الأعداء ويعتذر لفراره أمامهم ويبين أنه لن يستسلم لهم إلا مقتولا بعد أن يجالد بسيفه ويرد على من اتهمه بأنه رب شعر وقلم وليس رب سيف بأنه انما قتل رئيسه بسيفه لا بقلمه وبه علا رأسه يوم المعركة لا بشعره • ثم يصرح بأنه يفخر بشجاعته وقتاله أكثر من فخره بأدبه ولكنه مع ذلك لا يقصّر في الفخر بقصائده التي لها على الأعداء مثل وقع سيفه وسيوف قومه وتمتاز ببلاغتها وبترفعه فيها عن التكسب •

ومن الطبيعي أن يفخر الحلي بما فخر به فقد عاش في بيئة بدوية نصف متحضرة ورثت عادات وتقاليد كانت منساقة الى الحفاظ عليها وتقوم كلها على المكارم العربية التي افتخر بها العرب وشعراؤهم منذ أقدم العهود الجاهلية إلى اليوم ، وكانت في حياة القبيلة زمن الشاعر حوافز من الدفاع عن النفس وحفظ البقاء تدعوها الى قتال أعدائها والفخر بمكارمها •

وكذلك كان طبيعيا أن يفخر الشاعر بنفسه وبقومه وقد رضع لبان تلك البيئة وكان له من شرف مولده ومن مناقبه الخاصة ما يحق له أن يفخر به كالفصاحة والشاعرية والشجاعة وقوة الشخصية والترفع عن الطلب ورفعة المكانة الاجتماعية بعد هجرته من بلده وقبلها وشعوره بأنه ند للعظماء وشعورهم باحترامه •

ومن أبياته الجميلة في الفخر التي تصور الرجولة والتجلد قوله :

صبرا على وعد الزمان وإن وني	فعساه يصبح تائباً مما جنى
لا يُجز عنكَ أنه رفع العدا	فلسوف يهدم عن قليل ما بنى
حكموا فجاروا في القضاء وما دروا	ان المراتب تستحيل الى فَنا
ظنوا الولاية أن تدوم عليهم	هيهاتَ لو دامت لهم دامت لنا
قتلوا رجالي بعد أن فتكوا بهم	في وقعة الزوراء فتكاً بيّنا
كلّ الذين غشوا الوقيعة قتّلوا	ما فاز منهم سالماً إلا أنا

ليس الفرار عليّ عاراً بعدما　　شهدوا بيأسي يوم مشتبك القنا

فنحن نرى أن الشاعر بعد مصيبته الكبيرة هذه بقي متجلدا رابط الجأش متفائلا بالنصر يعتذر عن فراره ، فرحاً بنجاته .

ومنها قوله في فخريته التي مطلعها :

شفّها السيرُ واقتحام البوادي　　ونزولي في كل يوم بوادي
ومَقيلي ظلّ المطيّة والترب فراشي وساعداها وسادي
وضجيعي ماضي المضارب عَضْب　　أصلحته القيون مِن عهد عاد

. . . .

ما بنيتُ العلياءَ الا بجِدّي　　وركوبي أخطارها واجتهادي
وبلفظي اذا نطقت وفضلي　　وجدالي عن منصبي وجلادي
غير أني وإن اتيتُ من النظم بلفظ يُذيب قلبَ الجماد
لست كالبحتريّ أفخر بالشعر وأثني عِطفيّ في الأبراد
واذا ما بنيتُ بيتاً تبخترتُ كأني بَنيت ذاتَ العِماد
إنما مفخري بنفسي وقومي　　وقناتي وصارمي وجوادي
معشرٌ أصبحت فضائلهم في الأرض تُتلى بألسن الحساد

ونراه يفخر بأنه يفتك في أعدائه بسيفه ولسانه معاً وبأن أعداءه يذكرون أفعاله :

جعلتهمُ نهبا لسيفي ومِقْوَلي　　فهمْ في وبال من كلامي ومن كلْمي
تودّ العدا لو يحدق اسم أبي بها　　وألا تفاجا في مَجال الوغى باسمي
تعدّد أفعالي وتلك مناقب　　فتذكرني بالمدح في مَعْرِض الذم
ولو جحدوا فضلي مخافة شامت　　لنمّ عليهم في جباههمُ وسمي

ونراه يفخر بأنسبائه عمومة وخؤولة :

فكيف ولم ينسب زعيم لسنبس　　إلى المجد إلاّ كان خالي أو عمّي
وإن أشبهتهم في الفَخار خلائقي　　وفعلي فهذا الراحُ من ذلك الكرْم

ويلحق بالفخر التحريض على حرب الأعداء وهو من الحماسة . قال من

قصيدة يحرض الملك الصالح بن المنصور على الاحتراز من المغول ومنازلتهم أثناء اختلافهم ويهنّيه بعيد النحر :

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطَرا	ولا ينالُ العلا من قدّم الحذَرا
ومن أراد العلا عفوا بلا تعب	مضى ولم يقضِ من إدراكها وطَرا
لا بدّ للشهد من نحْل يُمنّعه	لايجتني النفعَ من لم يحملِ الضررا
وأحزمُ الناس من لو مات من ظمإٍ	لايقرب الورِد حتى يعرفَ الصدَرا
فقد يقال عِثارُ الرجل ان عثرتْ	ولا يقال عثارُ الرأي إن عثرا
من دبّر العيش بالآراء دام له	صفوا وجاء إليه الخطب معتذرا
لا يَحسُن الحلمُ إلا في مَواطنه	ولا يليق الوفا الا لمن شكرا
ولا ينال العلا إلا فتى شرُفتْ	خِلاله فأطاع الدهرُ ما أمرا
كالصالح الملك المرهوب سطوته	فلو توعّد قلبَ الدهر لانفطرا
كالبحر والدهر في يومي ندىً وردىً	والليث والغيث في يومي وغى وقِرى
من آل أرتقٍ المشهورِ ذكرُهمُ	إذ كان كالمسك إن أخفيته ظهرا
كانت عِداك لهم دستٌ فقد صدعت	حصاةُ جَدّك ذاك الدستَ فانكسرا
أحسنتمَ فبغَوْا جهلا وما اعترفوا	لكمْ ومن كفرَ النعمى فقد كفَرا
وانحر عداك فبالإنعام ما انصلحوا	إن كان غيرُك للإنعام قد نحرا

هذه القصيدة قومية دينية من حيث انها تحرض على دفع الأعداء المغيرين الذين يهاجمون هذه المنطقة كلها فيقتلون ويدمرون ويسبون وينهبون ويرتكبون من الفظائع والأهوال ما يشيب له الولدان .

والشاعر يحرض فيها ملكه الصالح على حرب قوم قد بعثوا الرعب في قلوب الناس ولكنه يشجعه ويبعث فيه الحمية والأنفة ويقوم بدور الموجّه الشجاع البعيد النظر العظيم الهدف .

وهو ينطلق من أن القوة لا تدفعها الا القوة وان النار خير من العار والمواجهة خير من الحذر وان نيل العلا لا يكون بالتمني .

وقال يحرض الامير نور الدين بن ركن الدين اسحاق على لقاء المغول وحربهم عند غارتهم على ماردين وخروجه إليهم :

أمِنْ حجَــر فــؤادك أم حــديدُ	ففيه على الوغى بــأسٌ شــديدُ
وأطــوادٌ حلــومُك أم جبــال	تميــد الراسياتُ ولا تَميــد
لأنــكَ كلّمــا حاولتَ أمــراً	يُصوِّب فعلَك الــرأيُ السـديد
طلعتَ على العُداة وأنت شــمس	فــذاب بحــرٍّ مَوقعهــا الجَليد
أغرت على حِماهمْ غــيرَ عــياد	ولاقَــوا منــك ما لاقت ثمــود
بجيشٍ ترجُــف الــراياتُ فيــه	وتخفُــق دون مَقــدمه البنــود
وتهتــز الــذوابــل فيــه عُجْبــاً	كمــا اهتزّتْ مــن المَرَح القدود
عجلتَ الــى قِراعهم بعــزم	بــه يدنــو لــك الأمــل البعيــد
وكــم وانٍ يعــدّ العجــزَ حِلما	فينــدم والنــدامــةُ لا تفيــد
ومــن يرَ ما يريــد وكفّ جبنــا	رأى مِــن بعــده ما لا يــريــد

هذه الأبيات المعروضة رائعة قوية لا تقل في بعثها الحماسة والإعجاب عــن قصائد المتنبي وغيره من شعراء الحماسة والحرب المشهورين• ويقال في هذه القصيدة ما قيل في سابقتها وتشترك القصيدتان في تضمنهما حكماً قوية كحكم المتنبي قيلت في أسلوب فخــم كأسلوبه :

وكــم وانٍ يعدّ العجــز حلمــا	فينــــدم والنــدامــة لا تفيــد
ومن يــر ما يريــد وكــف جبنــا	رأى مــن بعــــده ما لا يــريــد

• • • • •

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا	ولا ينال العــلا من قدّم الحذَرا

ويلاحظ أن هذه الحكم بمثابة القانون العام للحــالة التي ينظم فيها الشاعر ، وأنها تمتّ بنسب الى بعض حكم المتنبي كقوله :

يــرى الجبنــاء ان العجــز عقــل	وتلــك خــديعــة الطبــع اللئيــم

والقصيدتان يشارك الشاعر بهما في شعر النضال الذي كان يقال في تلك العهود •

ج ـ مدح الحلي :

تنوعت مدائح صفي الدين الحلي بحسب الممدوحين الذين قالها فيهم . فقد وضع في طليعة مدائحه في الديوان مدائحه في النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أورد بعدها مدائحه في السلطان الناصر محمد صاحب مصر والشام . ثم مدائحه في الملك المنصور صاحب ماردين . ثم في ابنه الملك الصالح . ثم أورد التهاني وقصائد الشكر التي قالها في هذين الملكين ، ثم مدائحه في الملك المؤيد صاحب حماة . فمدائحه في ابنه الملك الأفضل ، وأنهى باب المديح بمدائحه في بعض الملوك والأعيان الذين شكرهم على بعض انعاماتهم .

١ ـ المدح النبوي :

فأما مدحه في الرسول الذي استهل به باب المدح فقد ضم ثلاث قصائد مطولة الأولى رائية هائية ومطلعها :

كفى البدرَ حسنا أن يقال نظيرُها　　فيزهى ولكنا بذاك نَضيرُها

وقد أطال فيها الغزل والحديث عن أحواله وتحمله مشاق الأسفار على ظهر ناقة قوية سريعة ، بحيث يساوي هذا القسم في الطول قسم المديح حتى تخلص الى المدح بقوله :

غدت تتقاضاها المسيرَ لأنها　　الى نحو خير المرسلين مَسيرها

والثانية على روي النون قالها ليلة مولد النبي يذكر فيها مناقبه ويدخل في الموضوع رأساً ومطلعها :

خمدتْ لفضل ولادك النيرانُ　　وانشقَّ من فرَحٍ بك الإيوانُ

والثالثة قافية يبدؤها بوصف الطبيعة ومطلعها :

فيروزجُ الصبحِ أم ياقوتةُ الشفَقِ　　بدت فهيّجتِ الورقاءَ في الورَقِ

ويحسن التخلص فيها الى المدح بقوله :

وفاح من أرجِ الأزهار منتشرا　　نشرٌ تعطّر منه كل منتشِقِ
كأنّ ذكرَ رسول الله مرّ بها　　فأكسبت أرَجا من نشرِه العبِقِ

القافية في مدح النبي :

يبدأ هذه القافية بوصف الطبيعة فيتساءل في مطلعها عما هيج الحمامة الورقاء حتى رددت أغاريدها بين الورق أهو نور الصبح الأزرق الذي يشبح الفيروزج أم نور الشفق الأحمر الذي يشبه الياقوت أم هو نور الشمس يلوح من الشرق يحفّ به الشفق الأحمر ، كأنه السيف الأبيض وقد اختضب بالدمع الأحمر :

فيرزوج الصبح أم ياقوتة الشفق بدت فهيّجت الورقاء في الورق

أم صارم الشرق لما لاح مختضبا كما بدا السيف محمرّاً من العلَق

ونحس أن الشاعر نشوان بالطبيعة كلها وبغناء الأطيار كما انتشت الأطيار بجما ل الطبيعة وطلوع الشمس ، وهو يحس الطبيعة بجميع جوارحه حتى لكأنه شربها فالأغصان قد هبّ عليها النسيم العليل فتمايلت سكرى بمداعبته تتحرك كما يتحرك النائم اذا أرق والسحاب قد نشر ثوبه على الطبيعة ومدّه حتى شملت حواشيه الأفق فعم به السماء ويتبين من ذلك أن الشاعر لا يصف الطبيعة ثابتة على حال واحدة بل يصفها وهي تتحرك في الزمان وتتغير فيها المشاهد بين شمس مشرقة ثم سحاب شامل :

ومالت القُضْب اذ مرّ النسيم بها سكرى كما نبّه الوسنانُ من أرَق

والغيم قد نشرت في الجو بردته ستراً تمدّ حواشيه على الأفق

ولا تلبث السحب أن تهطل كأنها تبكي والأرض تستقبل أمطارها فرحة كأنها تضحك والطير يفرح لهذا العرس بين السماء والارض فيغرّد تياها بحسنه ومرحه مندفعاً بحبه للحياة وغريزته لحفظ البقاء بالنسل لتتقلّب مظاهر الطبيعة في ذلك كله بين طرب الطير وأسى السحب وهرب الماء الهاطل واهتزاز الغصن القلق :

والسحب تبكي وثغر البر مبتسم والطير تسجع من تيه ومن شبَق

فالطير في طربٍ والسحب في حرَبٍ والماء في هرب والغصن في قلق

ولقد ظهرت في الأبيات الأربعة السابقة عناية الشاعر بالصور البيانية وفي هذين البيتين تظهر عنايته بالزخارف البديعية فهو يطابق في أولهما بين البكاء والابتسام

وفي ثانيهما بين الطرب والحرب ويزاوج في المعنى بين التيه والشبق والهرب والقلق ثم هو يحسن تقسيم البيتين الى جمل موسيقية ويحسن الترصيع وتوازن الجمل في ثلاثة أرباع البيت الثاني فالطير في طرب والسحب في حرب والماء في هرب •

ثم هو من الوجهة البيانية يخلع العواطف الانسانية على عناصر الطبيعة فهي عنده بين طرب وحرب وهرب وقلق فيشخصها باستعاراته المكنية التي ليست من مبتكراته ولكنه أحسن جمعها وتأليفها •

وهو في البيت الاول منهما يلجأ الى الجمع بين عناصر الطبيعة في مظاهرها المختلفة المتكاملة ثم يعود فيفرّق بين أحوالها •

وينتقل بعد ذلك بخياله الى ما ينتج عن المطر من نبات العشب والزهر واكتمال تزين الارض كأنها تلبس أحسن ما عندها لتشكر السحاب المنعم والى الشعور بجمال الندى وهو يزين أوراق الغصون في الضحى كما يتجلل خد الحسناء الناعمة بالعرق ، وهذا الانتقال سريع في الخيال ولكنه واسع الخطوة في الحقيقة لأن بين هطول المطر وظهور أثره على الارض أياماً بل أسابيع ولكن الشاعر وصل بينهما بعصا سحرية هيأها له خياله الإبداعي الذي يشرب به حسن الطبيعة ويبتهج ، فيشخص الارض المعترفة بالجميل ، والغصون التي تكللت بالطل فأقامت أعراس السرور والمرح في الكون :

وعارِضُ الأرض بالأنوار مكتمل	قد ظلّ يشكر صَوْبَ العارض الغدِق
وكلّل الطلُّ أوراق الغصون ضحى	كما تكلّل خدُّ الخَوْد بالعَرَق

وسُرّ الطير فنطق بألحانه مسجوعة واتفقت بعض ألحانه واختلف بعضها باختلاف أنواعه وأخذت الشمس تتحرك في كبد السماء فتنتقل ظلال الأشياء تنقلا بطيئاً لا يحس بتفاصيله فكأن الظلال تسترق خطواتها حتى لايشعر بها وأخذ الماء يدب في مجاريه بين الأشجار ظاهراً غير مستتر ومستعلناًغير مسترق ، وعبر الورد عن فرحه فتفتحت شفائفه وبهت النرجس الريان مما يراه من حسن فشَخَصت أحداقه وتدبّجت الطبيعة بالألوان التي دبّج الشاعر بها شعره بين أحمر زاه وأخضر مفعم

بالحياة وأصفر جميل الصفرة رأبيض ناصع وأهدت الأزهار المختلفة الأنواع والألوان عبيرها الذي انتشى به كل من انتشقه كما ينتشي المؤمن بذكر رسول الله ذي السيرة العبقة بمكارم الأخلاق والأفعال وهكذا يحسن الشاعر الانتقال من وصف الطبيعة الى المديح النبوي بعد أن يشخص الطبيعة ويخلع عليها عواطفه ويهيىء بها جو السرور الذي يريد أن يتحدث فيه عن مناقب النبي الكريم :

وأطلق الطيرُ فيها سجْعَ منطقه	ما بين مختلف منه ومتفق
والظل يسرق بين الدوح خطوتَه	وللمياه دبيب غيرُ مسترَق

ونحب أن نذكر بمناسبة ايرادنا هذا البيت أن الشاعر كان مفتوناً بهذا المعنى الذي ابتكره وهو سرقة الظلال خطواتها فنراه يكرره في أبياته الربيعية التي جعلها مطلعاً لمدحته في الملك الناصر محمد :

خلع الربيع على غصون البان	حُللا فواضلُها على الكثبان

فيقول فيها :

(والظلّ يسرق في الخمائل خطوه	والغصن يخطِر خطره النشوان)
وقد بدا الورد مفتّرا مباسمه	والنرجس الغض فيها شاخصُ الحدق
من أحمرٍ ساطع أو أخضرٍ نضر	أو أصفرٍ فاقع أو أبيضٍ يَقَق
وفاح من أرَج الأزهار منتشراً	نشر تعطّر منه كل منتشق
كأن ذكرَ رسول الله مرّ بها	فأكسبِت أرَجا من نشره العبِق

وبعد أن يحسن التخلص الى مدح النبي يبدأ بذكر مكانته لدى الخلق فهو الذي هداهم الى أحسن السبل وثنّى بذكر مكانته لدى الله فقد فضّله الله على النبيين وعرج به الى عليين وقربه منه كقاب قوسين أو أدنى ، وقد سمت فضائله حتى قصّر عنه مدح المادحين ووصف المفكرين وفضّل الشاعر مرآه على عينيه وشهد الرحمن بسمو خلقه في قرآنه وجعل مكانته الأولى بين الرسل مع أنه خاتمها وجمع فيه فضائل النبيين جميعاً وذكره في التوراة والانجيل وخصّه بالفضل في القرآن وأقسم باسمه لأكرم خلقه :

محمد المصطفى الهادي الذي اعتصمت	به الورَى فهداهم أوضحَ الطرُق

ومن له أخَذَ اللهُ العهودَ علـى كـل النبيين من بادٍ وملتحـق
ومن رَقى في الطّباق السبع منزلةً ما كان قطّ اليها قبـلَ ذاكَ رَقي
ومن دنـا فتدلّى نحـو خالقـه كقاب قوسين أو أدنى الى العنُق
ومن يُقصّر مـدح المادحـين لـه عجزاً ويخرس ربّ المنطق الذلِق
ويعوِز الفكرُ فيه إن أريـد لـه وصف ويفضُل مـرآه عن الحَدَق
عُـلاً مـدَحَ اللهُ العلـيُّ بهـا فقـال انك في كل الاعلى خُلُق
يا خـاتَمَ الرسْل بعثاً وهو أولها فضـلا وفائزُها بالسبق والسبَق
جمعتَ كـلّ نفيس مـن فضائلهم من كل مُجْتَمَع منهـا ومفترِق
وجاء في مُحكَم التوراة ذكرُكَ والـ إنجيل والصحُف الاولى على نَسَق
وخصّك اللهُ بالفضل الذي شهدت به لعمرُكَ في القـرآن مِن طُرُق
فالخلـق تُقسم باسم الله مخلصـة وباسـمه أقسم الرحمن للصدُق

ويتضح أن الشاعر في هذا القسم لم يأت بصورة بيانية واكتفى بايراد المعاني التي يريدها مجردة من الخيال ثم أنه لم يتكلف الصناعة البديعية الا ما تطلّبه المعنى من طباق وانطلق الشاعر وراء عاطفته الدينية ومعلوماته الثقافية النقلية يستمد منها معانيه وقد فاتته جزالة التركيب في بعض الأبيات (وخصك ... من طرق) . وينتقل من الوصف العام الى التخصيص فيتحدث عن وجود النبي مبالغاً في الصور الخيالية لا في المعاني :

عمّتْ أياديكَ كلَّ الكائنات وقد خصّ الأنامُ بجـود منك مندفِق
لو أنّ جودكَ للطوفان حين طمَتْ أمواجُه ما نجـا نوحٌ من الغرق

ويلجأ الى الأسلوب نفسه من المبالغة الخيالية التي يعدّلها بعض التعديل بلو الشرطية فيقول : لو أن آدم كان في عرين خاص بالنبي حين جاءه ابليس لكان وقي من شره ولو أن النار التي ألقي فيها الخليل كان لها عزم النبي لما نجا منها ابراهيم ولو كان لموسى بأس النبي لما خرّ صعقاً يوم تجلّى له ربه في الطور ، ونعتقد أن هـذه المبالغات قد تعدت الحدود المقبولة فيما يتعلق بالأنبياء ، بل فيما يتعلـق بالله تعالى نفسه الذي أجرى كل شيء وفق ارادته وقدَره ، وانما كانت هـذه المبالغة عنـده لانسياقه وراء حبه للنبي وغلبة عاطفته عليه :

لو أنَّ آدم في خدْرٍ خُصِصتَ به ... لكان من شر إبليسَ اللعينِ وُقِي
لو أنَّ عزمك في نار الخليل وقد ... مسَّته لم ينج منها غيرَ محترِق
لو أنَّ بأسك في موسى الكليمِ وقد ... نوجي لما خرَّ يوم الطور من صَعَق

ويسترسل في هذا النوع من تصوير فضل النبي فيقول بأن تبَّعَ لو استسقى المطر حين انحباسه باسم النبي لاستجاب له الله ، ولو أن الناس آمنوا كلهم بالنبي ايماناً صادقاً لما لحق بهم أذى يوم الحساب ، ولو أن عبداً أطاع الله في كل أعماله ثم أبغض النبي لما كان عند الله تقياً ولو أن الجن قد عصت النبي لزلزلت بهم الأرض ولو كان للسيوف عزم النبي لما وقت منها الدروع المتينة والخوذ الصلاب ولو أن النبي وصل غبار الحرب الكثيف بظلام الليل لم يستطع الصبح أن يبدد الظلمات . وهذا القسم استمرار للابيات الثلاثة قبله من حيث استعمال المبالغة والافاضة في الخيال :

لو أنَّ تبّع في محل البلاد دعا ... لله باسمك واستسقى الحيا لسُقي
لو آمنت بك كل الناس مخلصة ... لم تخشَ في البعث من بخْسٍ ولا رهَق
لو أنَّ عبداً أطاع الله ثم أتى ... ببغضكم كان عند الله غيرَ تقي
لو خالفتْك كماةُ الجن عاصية ... أركبتهمْ طبَقا في الأرض عن طبَق
لو تودِعُ البيضُ عزما تستضيء به ... لم يغْنِ منها صلابُ البَيْض والدَرَق
لو تجعل النقعَ يوم الحرب متصلا ... بالليل ما كشفته غُرَّة الفلَق

وينتقل من هذه المعاني الى الحديث عن فتوح النبي واعزاز الديـن واذلال الشرك :

مهَّدتَ أقطار أرض الله مفتتحا ... بالبيض والسمر منها كلَّ منغلِق
فالحرب في لزْزٍ والشرك في عِوَزٍ ... والدين في نشَزٍ والكفر في نفَق

وفي هذا البيت نراه يستعمل الترصيع والتقسيم الموسيقي ثم يلخص فضلـه على الدنيا :

فضل به زينةَ الدنيا فكان لها ... كالتاج للرأس أو كالطوق للعنق

ثم يصلي على النبي وآله وصحبه ناعياً على من يبغضهم نافياً بذلك عن نفسـه أن يكون من الشيعة الغالية :

صلى عليك إلـهُ العرش ما طلَعت شمس النهار ولاحت انجم العسق
وآلك الغُرَر اللائي بهـا عرفت سبُلُ الرشاد فكانت مهتدَى الغُرِق
وصحبك النُجُب الصيِّد الذين جرَوا الى المناقب من تـالٍ ومن سُبُق
قومٌ متى أضمرت نفس امرئٍ طرَفا من بغضهم كان من بعد النعيم شقي

ثم يبين أن مديحه يشرف بالنبي ويقعد عن الاحاطة بفضله ويذكـر أن النبي شرّف الشعر بالمدح :

ماذا نقول اذا رمنا المـديح وقـد شـرفتنا بمـديـح منـك متفـق
إذ قلت: «في الشعر حكم» و«البيان به سحر » فرغبت فيه كل ذي فَرَق

وأنه كان البادىء بمدح الشعراء والإنعام عليهم وأنهم عاجزون عن أداء بعض حقه من الشكر :

فكنت بالمـدح والانعـام مبتدئـا فلو أردنا جـزاء البعض لم نطـق

ثم يعاهد نفسه على ألا ينقطع عن مدح النبي مادام فكره قادرا على النظم وعلى أن يصفي النبي مديحه جاهدا فان الخلق كلهم يفنون وهو يفنى مثلهم ولكن مديحه يبقى له ذخرا :

فـلا أخِلُّ بعـذر عن مديحكمُ ما دام فكريَ لم يُرْتَج ولم يُعَق
فسوف أصفيك محض المدح مجتهدا فالخلق تفنى وهذا إن فنيتُ بقي

وهذا القسم الأخير أجود مما تقدمه في المدح وأقرب الى النفس والعاطفـة والفكر ولكنه ليس من الشعر الممتـاز ، وليس في مستوى وصف الطبيعة في أول القصيدة . واذا أردنا أن نوازن موازنة عامة بين قسم المدح من قصيدته هذه وبين مدحة البوصيري الميمية أو الهمزية وجـدنا البوصيري محلقاً ووجدناه مقصراً عنه كثيرا فليس عنده نفحته الشعرية ولا تساوق معانيه وجمال تعبـيره ولطف خيـاله وحلاوة لفظه وحرارة عاطفته وروعة موسيقاه ومتانة قوافيه وتغلغل كلامه الى القلب. على أن البوصيري في غير شعره النبوي دون الحلي قوة وأصالة فنية .

٢ ـ المدح التقليدي :

مدحة صفي الدين الحلي في السلطان الناصر محمد حين الاحتفال بكسر الخليج في مصر :

يبدأ هذه القصيدة بوصف الطبيعة وصفاً حياً وهي في أبهى حللها زمن الربيع فيتخيل الربيع ملكاً كريماً كسى غصون البان وسائر الشجر حللا زاهية سحبت ذيولها على الكثبان ودفع بماء الحياة في شرايين الأشجار الضخمة فنمت أغصانها وتدلت حتى لامست الكثبان تحتها ولكن الشاعر المستوفز الاحساس الذي يرى الطبيعة حوله حية تمور بالنشاط يتخيل أن تلامسها مصافحة بين حبيبين كفل حسناء وذوائب غانية وهكذا ينطلق الحلي في تشخيص الطبيعة فالزهر فوق رؤوس الغصون تيجان على هام ملوك والرياض حسناء اصطبغ خدها بشقائق النعمان وقد مدت بسطها من الزهر المتنوع الألوان والأشكال بين ابيض ناصع وأصفر فاقع وأزرق نقي وأحمر قان والشاعر في هذا البيت يستعمل فن التدبيج • ويعود بعد هذا الوصف البصري الى تشخيص الطبيعة ووصف احساسه العميق الدقيق بها فظل الأشجار والأشياء يتنقل بحركة الشمس تنقلا تدريجيا غير ملحوظ كأنه سارق يسترق خطاه حتى لا يحس به ، والغصون تميس وتتمايل كأنها سكرى بالحسن حولها وبحسنها هي نفسها والشاعر معجب بهذا المعنى نراه يكرره في قصائد أخرى وكأنما سكر هو نفسه بهذا التشخيص فيشبه الأغصان المهتزة بزهوها بسيقان راقصات جميلات قد طوقت أرجلهن بسلاسل بديعة من الريحان وهو يفيدنا بذلك أن الراقصات كن يرقصن أحيانا وفي أرجلهن ما يشبه القيود من الخلاخل ولا نحب أن نسترسل في الخيال لنتصور أن النساء كنّ يرقصن حينئذ رقصا تمثيليا يصورن فيه العبودية ويرمزن لها بقيود الريحان ، فذلك مجرد ظن لم يقم عليه دليل ، على أننا يجب أن نتذكر أنّ الراقصات كنّ غالبا من الجواري اللاتي كن يشعرن بربقة العبودية والأسر • وقد رقّق الشاعر قيودهن فجعلها سلاسل من الريحان ليجاري الطبيعة في الافتنان •

وقد نظرت الشمس غيرى الى حسن الحدائق واختلست النظر اليها من خلال فروعها وكأن جمـال الأنوثة قد سيطر على خيال الحلي كما سيطر من قبله عـلى خيـال ابن الرومي في قوله :

تبرّجتْ بعـد حيـاءٍ وخفَـرْ تبرُّجَ الأنثى تصـدّتْ للذكـر

فهو لذلك يرى سمات الأنثى ومفاتنها ويشم عطرها في كل شيء فيصبح الزهر الذي يتفتح من أكمامه فيبدو طلعه كأنه غوان قد فتحت جيوبها لتبدي نحورها .

ويعود بعد هـذه النشوة الفنية الى صناعته البديعية فيحاول أن يجمع بـين الصور المتناقضة فيما سمي بتنافر الاضداد فالسحاب يبكي بدمع مستمر الانسكاب والأرض تضحك وهو سبب ظهورها بهذا الثوب الضاحك وأنت أيها المشاهد تعجب من هـذا التناقض بينهما كما عجب الشاعر الذي طابق في البيت وراعى النظـير فاذا استمر السحاب الجون (الأسود) في بكائه وأخذت الحدائق تعاتبه على هذا البكاء الذي لا مبرر له لأنه يقابل فرحتها وضحكتها بحزن وانقباض طفح السرور في قلب الشاعر حتى بكى من الفرح وتحدث الى نفسه والى جميع الناس ناصحـاً بهذه الحكمة الخالدة : اذا جـاء الربيع فامرح وبدد همومك بحسنه فالربيع هـو الشباب الثاني لك كما هـو الشباب المتجدد للطبيعة . وفي البيت حشو لفـظي في « وفصله » ولكن الشاعر استطاع به أن يصلنا بجذور الحياة وأن يعبر عن حـالة النفسية من المرح والسرور وتدفق الحياة في هذا الفصل الجميل .

وينتقل بعد ذلك من هذا الوصف العام للطبيعة الذي ينطبق على كل زمـان ومكان الى الوصف الخاص لربيع مصر حـين يفيض نيلها ويحتفل بفيضانه ويبشر بالخـير والبركة فيقول :

إني في هذا الوقت الذي اكتست فيه مصر أجمل حلة فصفا المـاء وزخرفت الحـدائق التي هي جنات وسطع الهرمان كأنهما شمسان واخضر الوادي وتفتحت عيون الزهر وجرى النيل فيه كأنه نهر الكوثر في الجنـة وجرت فيه السفن العظيمة كأنها جبال فوق الصحراء أو قمم جبال متصلة تحركها قلوعها مسرعة كأنهـا طيور

تهمّ بالتحليق من فوق سطح الأرض وجرى النسيم رُخـاءً فوق الماء فأسرع هذا في تدفقه فمرة تراه كبير الموجات كأنها مناسم الإبل الضخمة ومرة تراه صغيرها ناعمها كأنهـا أظلاف الغزلان . فاذا ما كسر سد الخليج وتقسمت المياه على فروع النيل وخلجانه المتعددة ساوى بين هذه الفروع وعدل بين البلدان التي تجري فيها كمـا يساوي السلطان بين رعيته في الإنعام فيعمّهم به . ونلاحظ أن الشاعر قـد حذف الفعل : بعد أنّى الاستفهامية التي تدل على الحال وهـو يفهم من اتساق الكلام ، وتقديرُه كيف يقع ذلك أي كيف تأتيك الهموم والطبيعة على ما ترى :

خلـع الربيـع على غصون البـان ... حُلـلاً فواضلُهـا عـلى الكثبان

ونمت فروع الدوح حتى صافحت ... كفَلَ الكثيب ذوائبُ الأغصـان

وتتوّجتْ هامُ الغصون وضرّجتْ ... خـدَّ الرياض شـقائقُ النعمـان

وتنوعت بُسْطُ الرياض فزهرُهـا ... متبـاين الأشـكال والألـوان

من أبيضٍ يقَقٍ وأصفـرَ فاقـعٍ ... أو أزرقٍ صـاف وأحمـرَ قـان

والظلّ يسرق في الخمائل خَطوهُ ... والغصنُ يخطِر خِطـرة النشوان

وكأنمـا الأغصان سُوقُ رواقصٍ ... قـد قُيِّدت بسلاسل الرَّيْحـان

والشمس تنظـر من خـلال فروعها ... نحـو الحـدائق نِظـرة الغَيْران

والطلـع في خلل الكمـام كأنـه ... حُلل تفتّق عـن نحـور غـواني

والأرض تَعجب كيف تَضحك والحيا ... يبـكي بدمـعٍ دائـم الهمَلان

حتى اذا افترّت مَباسـم زهرهـا ... وبـكى السحاب بمدمعٍ هتّـان

ظـلت حـدائقُه تعـاتب جَوْنَه ... فأجـاب معتـذرا بغـير لسـان

طفـح السـرور عليّ حتى إنّـه ... من عُظْمِ ما قد سـرّني أبكاني

فاصرف همومَك بالربيـع وفصلِه ... ان الربيـع هـو الشباب الثـاني

أنّى وقد صفت المِيـاهُ وزُخرفتْ ... جناتُ مِصرَ وأشـرق الهَرمـان

واخضرّ واديهـا وحـدّق زهرُه ... والنيـلُ فيـه ككوثرٍ بجِنـان

وبه الجواري المنشآتُ كأنها عند المسير تهمّ بالطيران
والماء يسرع في التدفق كلّما عجِلتْ عليه يد النسيم الواني
طوراً كأنسِمة القِلاصِ وتارةً مُتفتّل كأكارعِ الغزلان
حتى اذا كَسر الخليجُ وقسّمتْ أمواهُ لجّته على الخلجان
ساوى البلادَ كما تساوي في الندى بين الأنام مَواهبُ السلطان

ينتقل بعد أن يحسن التخلص الى مدح الملك الناصرْ فيصفه بأنه قد وطّد الأمن حتى ساد بين الذئاب والظباء وشكرت هذه تلك على رعايتها :

الناصر الملك الذي في عصره شكر الظباءُ صَنيعةَ السّرحان

وا نالملوك تهابه فتسجد لهيبته :

ملِك اذا اكتحل الملوك بنوره خرّوا لهيبته على الأذقان

وبأن اسمه بين الناس يغنيهم عن أن يعرفوه بنسبه الى أبيه :

ولم يوفق الشاعر في هذا المعنى لأنه يقال في عامة الناس لا في السلطان الذي له أكبر سلطة في البلاد :

واذا جرى بين الورى ذكر اسمه تغنيه شهرته عن ابن فلان

ثم يمدحه ويمدح أسرته بالكرم والشجاعة وما هو متداول معروف إلا انه يورد معنى جديدا في وصف الكرم وهو أن الممدوح وقومه يشعلون تحت القدور عصي رماح أعدائهم التي كسروها في المعركة :

مِن معشرٍ خزنوا الثناء وقطّعوا بفنا النضار جوائزَ الخزّان
قومٌ يروْن المن عند عطائهمْ شركاً بوصف الواحد المنّان
الموقدو تحت المراجل للقرى فضَلات ما حطّموا من المرّان
ان أخرست فلتذْ العَقير كلابهم دعَوا الضيوف بألسن النيران
أسدٌ روتْ يوم الهياج أكفّهمْ بدم الأسود ثعالبَ الخرْصان
قصفوا القنا في صدر كل مُدرّعٍ والبيضَ في الأبدانِ في الأبدانِ

ويلاحظ من حيث الصياغة أنه فصل بين المضاف والمضاف اليه بفاصل طويل في قوله (الموقدو تحت المراجل للقرى فضلات •••) أو أنه أخطأ في النحو فاستعمل الموقدو مكان الموقدون • وفي البيت الاخير جناس بين الأبدان والأبدان •

ثم يمدحه بأنه أعز الدين وبأنه سمّي النبي وان الملوك عبيد أوامره لأنه يعمل بأحكام القرآن ثم يعود الى مدحه بالكرم فقد أحياه بعد أن بليت عظامه ويتخيّل مبالغاً أن الطير قد خشيت من طوفان انعامه فلجأت الى القلاع ثم يمدحه بما يشبه الذم حين يقول بأنه لا عيب في انعامه إلا انه ينسي المنعمَ عليه أهله ووطنه ويرى أنه كلقمان في العقل والحكمة وككسرى في العــدل وانه أعداه في السماحة والفصاحة وانه شغل الزمان بأعماله الباهرة وأغنت هيبته عن القتال بالسيوف والرماح وهــذه المعاني كلها مطروقة من قبل الا مايتعلق بهرب الطير من طوفان كرمه الى بروج القلاع :

قــد عــز ديــن محمــد بسميّه	وســما بنصرتــه علــى الأديـّـان
ملــك تعبّــدت الملــوك لأمــره	وكــذاك دولــة كلّ ّ بعبٍ قــران
وافى وقــد عــاد السماح وأهــله	رِ مَمـــا فكان لــه المسيحَ الثــاني
فالطــير تلجــأ بالحصون لأنهـــا	بنــداه لــم تأمــن من الطوفــان
لا عيبَ فــي نعمــاه إلا أنهـــا	يســلو الغــريب بهـــا عن الأوطان
شاهدته فشهدت لقمــان الحجى	وتظرت كسرى العــدل في الايوان
ورأيتُ منــه ســماحة وفصاحــة	أعــدى بفيضهما يــدي ولســاني
ياذا الــذي شــغل الزمان بنفسه	فأصــمّ سمعَ طوارق الحدثان
لو يكتب اسمك بالصوارم والقنــا	أغنى عــن التضراب والتطعــان

وفي هــذا القسم يشبه الممدوح بالمسيح في إحياء الموتى لأنه أحيى الكــرم ويكني عن كرمه بلجوء الطير الى أبراج القلاع وفي ذلك أيضا مايسمى بحسن التعليل •

ثم يصفه في المعركة دون أن يبيّن هذه المعركة فالوصف عام يريد أن يجعل منه به مثال البطل الشجاع • فحين يثور غبار المعركة كأنه خيمة نصبت فوق أعمدة الرماح

ويجلّل الخيول منه بقمصان تتصل بقمصان الفرسان الحديدية وتمتزج أذيال الدروع بالدم كما تصبغ شقائق النعمان جوانب الغدران باللون الأحمر ويشتد لهيب المعركة حتى تتبع السيوف القلوب التي هي مكامن العداوات والأحقـاد ،تخيب سيوف الأعداء حين تصطدم بصلابة دروع الممدوح كما يُخيّب السراب أمـل الظمآن ، ويبرز الممدوح من بين الصفوف كما يقذف الزناد بلهب النيران ، وهو على ظهـر فرس ضامر يتأبى الانقياد لوفرة قوته ونشاطه ثم يطيع ويسرع ثم يبطيء ، قد درّبه سُوّاسه على شؤون الحرب فهو في السرعة كالصقر الطائر وفي التبختر والجمـال كالطاووس وفي الكر والفر مراوغاً كالخَطّاف وينظر نحو السماء كأنه يتوهم أن ميدان المعركة في نهر المجرّة ولو حمله راكبه على الصعود اليها لوطيء بسنابكه نجم « الدّبران » ولو طلب منه أن يجوز الصراط لجاز عليه كأنه السرطان • لقد فرقتَ جموع الأعداء بسيوف تنفر من أغمادها كما ينفر النوم من عيونك الساهرة عـلى بلادك ولقد أخطأت هذه السيوف فظنت أن أغمادها هي رؤوس الملوك حيث تعقـد التيجان • لقد نضدت رؤوس الأعداء تلولا (صوامع) وزهدت الطيور الجوارح (العقبان) باللحم من كثرة ما أكلت من الأعداء فكأنها رهبان •

ويلاحظ أنه يجيد الوصف التصويري في هـذا القسم لأنه يتلاءم مع نفسه ونشأته فيحسن وصف غبار المعركة واحتدامها وقتال بطله فيها وفرس البطل الذي يصفه وصف فارس معجب بالخيل ويلجأ الى المبالغة ليصف وفرة جودة الفرس وحسن تدريبه وشوقه الى القتال وليصف فتك الممدوح وجنده في الأعداء ، ونراه يحسن التخيل البيـاني فيأتي بتشبيهات جيدة مناسبة كتشبيه العقبان بالرهبان وتوهّم السيوف أن أغمادها هي رؤوس الملوك وتخيل الفرس أن ميدان المعركة هو نهـر المجرّة في السماء والكناية عن القلوب بمكامن الأضغان وتشبيه انبثاق الممدوح من بين الصفوف بانبثاق النيران من الزناد وهو تشبيه مركّبٍ بمركّب ••• :

وكتيبة ضـرب العجـاج رُواقهـا	من فـوق أعمـدة القنـا المـُـرّان
نسج الغبار على الجيـاد مدارعـا	موصولـة بمـدارع الفرسـان
ودمٍ بأذيـال الدروع كأنـه	حـول الغـدير شـقائق النعمان

حتى اذا استعر الوغى وتتبّعت ... بيض الصفاح مكامنَ الأضغان
فعلت دروعُك عندها بسيوفهم ... فعل السراب بمهجة الظمآن
وبرزتَ تلفظُك الصفوفُ اليهمُ ... لفظَ الزناد سواطعَ النيران
بأقبَّ يعصي الكفّ ثم يطيعه ... فتراه بين تسرّع وتوان
قد أكسبته رياضةٌ ستواسُه ... فتكاد تركضه بغير عنان
كالصقر في الطيران والطاووس في الـ ... خطران والخطّاف في الروغان
يرنو الى حبُك السماء توهمّا ... أن المجرّة حلبة الميدان
لو قيل عُجْ نحو السماء مُبادرا ... وطئتْ يداه دوابرَ الدبْران
أو قيل جُزْ فوق الصراط مسارعا ... لمشى عليه مشية السرطان
وفللتَ حد جموعهم بصوارمٍ ... ككراك نافرةٍ عن الأجفان
ضلت فظنّتْ في مقارعة العدا ... ان الغمودَ معاقدُ التيجان
صيّرتَ هاماتِ الكماة صوامعا ... وكواسرَ العقبان كالرهبان

وبعض المعاني التي يأتي بها قديم وبعضها جديد أو ألبسه الحلّي ثوب الجدة كخيمة الغبار فوق أعمدة الرماح وكخروج المدوح كالنيران من الزناد وكالمبالغات التي أشرنا اليها في وصف الفرس والسيوف . ثم يصف الشاعر علاقته معه وكيف أدناه بالجود ووالى عطاياه عليه ويعلل الشاعر سفره عنه بأنه كاد يغرقه بطوفان هباته ويصف الشاعر نفسه بأنه قد تربى من حوادث الدهر فعرف بأن الزيادة تنتهي الى النقصان وشدة القرب تنتهي بالبعد ، ولكنه اذا رحل فقد ترك قصائد بديعة اغتصبت الحكمة الرائعة من لقمان وهي فريدة في جمالها غريبة لتفردها بالجودة وإن كانت في موطنها ، يفاخر بها من يحصل عليها كما يفخر الزوج على أقرانه بعروسه النادرة . وعيبها أنها تسير على الألسن في كل مكان وهي على صنعة لفظها وسحر بيانها وروعتها قليلة بالنسبة الى فضل المدوح الذي لا تقاس هي به فهو أدق معاني وأعظم صنعا في إسدائه المعروف والهبات :

ياذا الـذي خطب المديحَ سماحـه	فنـداه قبل ندائيَ قـد لبّـاني
أقصيتَني بالجـود ثـم دعوتَني	فنـداكَ أبعـدني وإنْ أدنـاني
ضاعفت بـرك لي ولو لـم تولنـي	إلا القبـولَ عطيّـةً لكفـانـي
فنأيتُ عنـك ولستُ أولَ حـالم	خـاف النزول بمهبِـط الطّوفان
علمي بصَرف الدهر أخلى مَعهَدي	مني وصرّف في البـلاد عِنـاني
ولربما طلـب الحريصُ زيـادة	فغـدتْ مؤديـة الـى النقصـان
فلئـن رحلتُ فقـد تركت بدائعا	غَصَبَت فصول الحُكْم من لُقمان
وخريدةٍ هي في الجمال فريـدةٌ	فهـي الغريبـة وهي في الأوطـان
معتـادةٌ تهب الحليـلَ صِداقَها	فخْـرا على الأكفـاء والأقـران
لاعيب فيهـا وهـو شاهدُ حسنها	إلا تبرّجُهـا بكـلّ مكـان
قلّـت وإن حلّت صنائعُ لفظهـا	لكمُ وإن نطقـت بسحـر بيـان
فجميلُ صنعِكمُ أجـلّ صنائعا	وبديـع فضلكُـمُ أدقّ معـاني

نرى في هذه الأبيات الأخيرة من القصيدة أن الحلي يفخـر بشعره وان كان يجامل الممدوح بأنه أعظم من شعره الذي لا يستطيع أن يوفيه حقه كما نرى أنـه يريد أن يغادره فيزعم أنه خاف من طوفان هبـاته ويظهر لنا من خلالها عاقلا ينظر في العواقب . ولعله خاف من بعض رجال الحاشية أو من انقلاب السلطان عليه لذلك يخشى النقص بعـد الزيادة والغضب بعـد الرضى وهو يشبّه قصائده بالعروس والممدوح بالخاطب وسيرورة شعره بتبرج الحسناء في كل مكان وعلى مرأى مـن جميـع الناس .

القصيدة في مجموعها موفقة والوصف فيها بجميع أنواعه خير من المـدح ، غير أننا لا نستحسن تشبيه كرم الممدوح بالطوفان لأن الطوفان لايأتي بخير .

وقد مدح صفي الدين الحلّي الملك المنصور بالموشحة التالية التي جارى في نظامها بعض المغاربة من حيث الأسماط والأقفال والابيات والاجـزاء والفقرات .

وأول ما نلاحظه أنه نظم هذه الموشحة قبل أن يرحل الى مصر والشام • ويدل ذلك على أن فن الموشح قــد استحسنه الملوك والناس في العراق وألفوه وأحبوه حتى صاروا يطلبون من شعرائهم أن يمدحوهم به وأن يجاروا موشحات يعينونها لهم ، وأنّ رأي « يوهان فك » في أن انتشار الموسيقا الفارسية في العراق منع من تــذوق الموشحات لأن موسيقاها تتباين معهــا ليس صحيحا •

وثاني ما نلاحظه أنه بدأ الموشحة بوصف ظهور الصباح فشبهه بنحر حسناء يظهر من طوق ثوبهــا الأسود وشبه قطرات الندى فوق زهــر الأقحوان باللؤلؤ المكنون وشاقه طلوع الصباح وجماله الى الاصطباح بالخمر ثم استرسل في وصفها ومعنى ذلك أنه قدم للموشحة المدحية بالحديث عن الخمر لا بالغزل وانــه استهل الخمر بوصف الطبيعة في ايجاز ويدل ذلك على أن الموشحة استخدمت في المــدح في هــذا العهــد :

شقّ جيب الليل عن نحــر الصباح	أيهــا الساقــون
وبــدا للطــّــل في جيــد الأقــاح	لــؤلــؤ مكنون
ودعــانــا للــذيذ الاصطبــاح	طــائر ميمــون

ونلاحظ أن البيت في هذه الموشحة يتكون من ثلاثة أجزاء وكل جزء يتكون من فقرتين ليستا متساويتين في الطول وأن فيه قافيتين ، كما نلاحظ أن القفل في هذه الموشحة يتكون من جزءين وكل جزء يتألف من فقرتين وفيه قافية واحدة هي النون غير أنها في الفقرة الاولى مسبوقة بالألف وفي الفقرة الثانية مسبوقة بالواو •

ونلاحظ أنه في غزل هذه الموشحة لا يستحيي من الممدوح فيتغزل بغلام : قال : يابشراكمْ هذا غلام ، وذلك لأن الممدوح مثله في الداء • ونراه ينتقل بعــد الغزل الى مدح المنصور ونلاحظ أن قسم المدح قصير اذا قسناه بمقدمته ، ويصفه الحلي بأنه قدوة أهل زمانه في كرم أخلاقه فهو عادل نشر الأمان بسيفه كريم لأعدائه رفيع النسب ينتمي الى قوم كرام ثم يكرر هذه المعاني في صور أخرى كقوله بأن عــدله جمع بين الشاة والذئب في أمن مضمون وانه يهب الولدان والحور ولهــذا الكلام دلالته على نفس الشاعر الميالة الى اللهو والمتعــة •

ثم يوازن بينه وبين الملوك الذين يمنعون الماعون لبخلهم ويتساءل أهو مليك أو ملَك ويعلن أن الفلك يجري وفق اختياره وبأن القدر الذي هو سلطان الأوان كان محزوناً فلما رأى بأس المنصور استعان به كما استعان هارون بموسى وبهذه المبالغة التي أشار بها الى خبر ديني ختم الموشحة :

ملك هــذّب أخــلاق الزمـان	عدلــه المسنــون
وأعــاد الناس في ظــل الأمــان	عضبــه المسنون
ملِك أنجــد طــلاّب النــدى	غــايــة الأنجــاد
متلِف إن جــال آجــالَ العِدا	واللُّهى إن جــاد
من بني أَرْتقَ أعــلامِ الهدى	ســادةٌ أنجــاد
مهّــد الأرضين بالعــدل فكان	أمنُهــا مضمون
ذِيبهــا والشاةُ ترعى في مكــان	غــدرهُ مأمــون
باذل الأمــوال مــن قبــل السؤال	بأكــفٌ الجــود
ما رجــاه آمِــلٌ إلا ونـــال	غــايــة المقصود
فاذا ما أمّــه راجــي النــوال	جــاد بالموجــود
يهب الولدان والحــورَ الحسان	بِكرَها والعُون
وســواه إن دعــاه ذو لســان	يمنــع المــاعــون
يا مليــكا لبني الدهــر ملَــكْ	فشــرى الأحرار
مليك أنــت عظيــم أم ملَــكْ	ســاطعُ الأنوار
بالــذي تختــاره دار الفلــكْ	وجــرى المقــدار
مذ رأى بأسك سلطانُ الأوان	وهــو كالمحزون
حــاول النصر كموسى فاستعان	بــك يا هــارونْ

نلاحظ أن الشاعر يلجأ إلى الموازنة بين المنصور وسائر الملوك ليبرز فضائله وانه يمدحه بصفات تقليدية لا تخلو من المبالغة . وفي مدحه سمات العصر . فهيئة

الحور والولدان للمتعة ، تغدو مكرمة في هـذا العهد ، والشاعر من الناحية الفنية يكثر من الجناس ويأتي بالطباق والأمثلة على ذلك كثيرة واضحة .

وهذه احدى قصائده الأرتقية التسع والعشرين وقد اخترناها رائية :

رنتْ لنا حين همّ الصبحُ بالسفَرِ ... وأقبلت في الدجى تسعى على حذَرِ
راض الهوى قلبَها القاسي فجاد لها ... وكان أبخلَ مِن تمّوز بالمطَرِ
رأت غداة النوى نار الكليم وقد ... شبّت ولم تبْقِ منقلبي ولم تذَرِ
رقّت الى الصبطولَ الوصل راقيةٌ ... فقلتُ قد جئتَ يا موسى على قدَرِ
ربيبةٌ لو تراها عندما سفرت ... والبدرُ ساهٍ اليها سهو معتذر
رأيتَ بدريْنِ من شمس ومن قمر ... في ظلّ جُنحيْن من ليل ومن شعَر
رشفتُ برْدَ الحُمَيّا من مراشفها ... فنبهتْني اليها نسمة السحر
رنت نجوم الدجى نحوي فما نظرتْ ... من يرشُف الراح ليلاً من فم القمر
راق العتابُ فأبدت لي سرائرَها ... في ليلة الوصل بل في غرّة القمر
رثت لِما رأت رسْلُ النوى فغدت ... تطيل عتبي وعُمْرُ الليل في قِصر
رحبٌ مُقامي بمغناها فمذ نظرت ... زمّ المطيّ قضت للصفو بالكدر
ريعت لزمّ المطايا للسّرى فغدت ... وأحذرتْني من الأهوال في سفَري
رامت بذلك تخويفي فقلت لها ... عندي من الخُبْر مايُغني عن الخبَر
ردي فما ضرّني هول أكابده ... ونائل الملك المنصور في الأثر

ربّ النوال ومحمود الخصال ومقدام النزال وأمن الخائف الحذِر

راعي الأنام بعينْ غير راقدة ... قد وُكّلت في أمور الملك بالسهر
رحب الذراعين لولا صبحُ غرّته ... لأصبح الجود فجرا غير مُنفجر
راضٍ مع السخط يبدي عزم منتقم ... للمذنبين ويعفو عفوَ مقتدر
راحاته مذ نشا في المُلْك قد عُهِدت ... يوم الردى والندى بالنفع والضرر

روى مناقبه الـراوي فقلتُ لـه	جلوتَ سمعي فهل تجلو به بصري
رح أيهـا الملك المنصور واغدُ على	هـام العلا آمنا من حادث الغِيَر
رسمتَ جوداً حكى الطوفانَ فاعتصمت	منـه الخلائق بالألـواح والدُّسُر
رفقت بالناس في كل الأمور فقـد	أضحى الزمان اليهم شاخص البصر
رُبّوا لديـك فلـولا أن بعضَهمُ	تجـلّ عنه لقلنـا يا أبـا البشر
رعت العدا بحسام لـو عدلت بـه	عنهم لأغنـاك عنه صارمُ القـدَر
رفعتَ ذكـرك في يـوم الهَياج به	فأذكرتني بحـد الصـارم الذكـر
رمتْ اليـك بنـا هوج مضمَّرة	كأنهـا في الدجى قوس بـلا وتـر
راحت الى جنـة حلّ العُفاةُ بهـا	في الخـلد واتكؤوا فيها على سُرر
رجعتُ أعتب نفسـي في تأخرهـا	عنها وطوراً أهنّي النفس بالظّفـر

هذه الأبيات التسعة والعشرون تبدأ كلها بحرف الراء وتنتهي بـه في الرويّ وهذا هو القيد اللفظي الذي الزم به الحلي نفسه في هـذه القصائد التي بنى كـل واحـدة منها على حرف من أحرف الهجاء التسعة والعشرين وكوّن بذلك ديـوان الأرتقيات في مدح الملك المنصور بن أرتق • وندرك من تقيّده اللفظي أنه يتكلف الصناعة تكلفاً على أسلوب عصره وان هذا القيد سيجره الى تكلف ألفاظ يحـاول بها أن يؤدي معناه وقد تربكه المحاولة فتجور على المعنى في سبيل اللفظ أو أنـه يضطر الى أن يجعل المعنى تبعا للفظ فيصعب أن يواتيه اللفظ ليوفق بينهما توفيقا جيداً • ولذلك تبدو الأبيات قليلة الترابط ضعيفة الحبك بعضها مع بعض كما يرى أنهـا جامدة لا تنطق بحياة وعواطف تضطرم بين جوانبها وقد قدم بهذه القصائد على الملك قبل أن يعرفه ، وعاطفته نحوه باهتة لا تتصف بالصدق والحرارة ، وإن كانت الحاجة تجعله بلهفة الى عطائه والى التعرف اليه • ومن الطبيعي أن تكـون بعض الألفاظ المتكلفة قلقـة في مواضعها وسنشير الى بعضها •

يبدأ القصيدة بالغزل ويحسن التخلص منه الى المـدح ثم يتحدث عن نفسه ورغبته في الاتصال بالممدوح •

ويصف موقفه مع الحبيبة التي كانت تصد عنه ثم رأته عازماً على السفر فرقّت له وسمحت له بالوصال وخوفته من مشاق السفر وعواقبه ولكنه يرد عليها بأنه لم يكن يخشى الأهوال مطلقاً ولا سيما أن كرم الملك المنصور سيمحو جميع متاعبه وبهذا يتخلص الى المدح •

ويجمع في هذا الغزل بين وصف المحاسن الجسدية وبين وصف أحوال المحبين النفسية من شوق وعتاب وحذر وأسف وأسى • وأغلب هذه المعاني تقليدي ولكنه قد يجدد في عرضها كقوله بأن النجوم حاولت أن تراه يقبل الحبيبة فما قدرت أن ترى من يرشف الخمر من فم القمر وهو بذلك يحشر التشبيهات ويكني عن أن شعر يحجب عيون النجوم عن رؤية ما تحته من لقاء وقبل •

ويحاول أحياناً أن يجمع بين الأضداد المتنافرة كقوله بأنه رشف برد الحميا من مراشف الحبيبة فنبهه برد السحر الى هذه الحميا الباردة التي يرشفها •

ونراه في هذا الغزل يشير الى بعض القصص الدينية كنار الكليم وجئت يا موسى على قدر أو يضمّن بعض الأمثال كقوله : عندي من الخبْر ما يغني عن الخبَر ونرى أنه يورّي بنار الكليم فهو يقصد بالكليم الجريح ويريد نفسه على حين يوهم أنه يريد به موسى كليم الله ، وبالنار النار التي آنسها موسى من جانب الطور الأيمن •

وفي المدح نراه يصف الملك بالمكارم التقليدية التي يمدح بها الشعراء عادة ويحاول أن يجمع بين النقيضين كقوله بأن الممدوح راض مع السخط أي هو راض عن الأصدقاء مفيد لهم شديد على الأعداء مبيد لهم وهذا ما يسمى بتنافر الأضداد ونراه يأتي بضروب من البديع كما فعل في الغزل فيقسم البيت تقسيما موسيقياً مسجعاً يسمى الترصيع (كقوله رب النوال ••• البيت) ويطابق كقوله : (راض مع السخط ، منتقم ويعفو عفو مقتدر) ويلاحظ أنه مغرم بتشبيه كرم الممدوح بالطوفان وقد رأيناه يورد هذا المعنى في قصيدة سبق أن درسناها على أننا لا نراه موفقاً في هذا المعنى ففي الطوفان معنى الضرر والهول ، والذي حمله على ايراده

أنه رآهم يشبهون الكريم بالبحر أو بالسحاب أو بالغدير والبركة فظن أنه اذا قال هـذا جاء بمعنى جديد وأحسن • وكذلك نراه يمدح المنصور بأنه أخاف العـدا بسيفه ولو تركه جانباً لأغنى عنه سيف القدر وهو يريد أن القـدر يساير الممدوح ويحقق له ما يريـد ونرى نحن أنه لو مدحه بأن همه هي التي تحقق له آمـاله لكان أحسن •

ومما يظهر فيه ضيق الألفاظ وقلتها في استيعاب معانيه هذا البيت :

رفعت ذكرك في يـوم الهياج بـه   فأذكرتني بحـد الصـارم الذكر

فأذكرتني فعل لحقته تاء التأنيث ولا نرى الفاعل المؤنث ونحن نقدره هنا إما على أن فاعله همة الممدوح التي تشبه حد السيف أو انه الحادثة التي ذكرته بنفسه في معاركه مع أعدائه بالسيف ولا سيما انه انتقـل الى الحديث عن نفسه في البيت التالي • وقد يكون أصل ذكرك في الشطر الاول ذكراك وسقطت منها الالف سهواً والوزن بها يستقيم • ثم يصف مجيئه الى الممدوح على خيل ضامرة ويتحدث بصيغة الجمع كأنه جـاء هو وبعض قومه أو كأنه يعظم نفسه فيشبه خيله الضامرة بقوس ليس لهـا وتر وانهم يزورون على ظهورها جنة الممدوح التي يتكيء فيهـا طالبو المعروف على سرر كأهل الجنة ويظهر في هذا القول أثر الدين في نفسه ثم يذكـر أن نفسه تعاتبه على تأخره في دخول هذه الجنة ثم يعود فيهنئها على أنه ظفر بدخولها • ونلاحظ هنا كيف جعلته الأيام يغير تصميمه على ألا يمدح أحداً طالباً لنواله •••

لم ترتفع هذه القصيدة الى مستوى الابداع ولا يمكن أن نعدها جيدة •

نلاحظ مما سبق أن معانيه في المدح مطروقة تقليدية كأن ينسب الى الممدوح الكرم والشجاعة والقوة وإرهاب الأعداء والسيادة والمضاء واستجابة الزمان لـه • وقد يخرج هذه المعاني أحيانا في قالب جديد أو يأتي ببعض الجديد • وتشبيهاته في المـدح تقليدية كذلك مثل تشبيهه الحـازم الماضي في الأمور بالسيف والثابت في المعركة أو الحليم بالجبل العظيم (الطود) والشجاع بالأسد والكريم بالبحر وقـد يخلع بعض الجدة على هذه التشبيهات بادخال اضافات عليه

وقد رأينا أمثلة من تجديداته في المعـاني والأخيلة كصورة الطوفان التي لم نستحسنها وكمعنى مسايرة القـدر .

د ـ الرثـاء في شعر الحـلـّي :

كثر من رثاهم الحلّي واختلفت صفاتهم وكثرت مراثيه وتعددت أنواعها لكثرة صـلاته ومعارفه وصداقاته التي كانت متفاوتة ولذلـك تفاوتت عاطفته بين الرثاء الصادق الصادر من القلب وبين رثاء المجاملة الشكلية .

وقد كانت دوافعه الى الرثاء كثيرة متنوعة منها صلات القرابة الواشجة كرثائه بعض أهله ومنها صلات الارتباط الاجتماعي القوية كرثائه بعض أصدقائه أو من يمتّون بصلة أو بعض مماليكه وأتباعه ومنها صلاته بالملوك التي تمتزج بهـا عاطفة الاعتراف بالجميل بالرغبة في المجاملة والنفعية ومنها صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء من أهل عصره الذين كانت تعطفه عليهم عواطف سامية من المشاركة الثقافية والنسب الأدبي كما يقول أبو تمّام :

أو يختلـف نسـب يؤلـف بيننـا نسـب أقمنـاه مكـان الوالـد

وقد رأينا أبياتاً من رثائه الصادق الحار العاطفة لخـاله وقومه من القصيدة الفائية التي مطلعهـا :

جبـال بأريـاح المنيّـة تنْسَفُ غدتوهيقاع فيالوقائع صَفْصَفُ

وأبياتاً في رثاء ابن لصديق له لاتخلو من [illegible] أناب فيها نفسه منـاب والد المتوفى ومطلعها :

يـا قضيبـاً ثوى وكـان نضـيرا مـا رأينـا لـه الغـداة نظـيرا

وأبياتاً له في رثاء مملوك له ذكي مخلص يرثيه رثاء الابن ومطلعها :

هجرتْ بعدك القلوبُ الجسومـا حين أمست منك الربوع رسـومـا

ورثاءه للملك المنصور أول الملوك الذين انعموا عليه في ماردين من بني أرتق ومطلعهـا :

يــا بــدورا تغيب تحت التــراب   وجبــالا تمــرّ مــرَّ السحــاب

ثم رأينا نمطاً من رثائه لأصدقائه العلماء في رثائه لشهاب الدين محمود كاتب السر في الشام ومطلعه :

حبـلُ المنى بحِبال اليأس معقودُ   والأمن من حـادث الأيـامِ مفقود

رأينا ذلك كله حين درسنا الرثاء في حقبة الدول المتتابعة فليرجع الى هذه النماذج هناك ليطلع على مميزاته الأدبية الرثائية فيها .

ويضاف الى تلك المميزات أن الحلي قد استخدم أحياناً في رثائه المسمط كرثائه للملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة الذي سمط فيه قصيدة ابن زيدون المشهورة على قافية النون ومطلع مسمطته :

كان الزمان بلُقياكـمْ يُمَنِّينـا   وحادثُ الدهر بالتفريق يَثْنينـا

فعندما صدقت فيكـم أمـانينـا   أضحى التنائي بـديلا مـن تدانينا

ونـاب عن طيب لُقياكمْ تجافينـا

ونراه أحياناً متأثرا في رثائه بأبي تمام كمرثيته في السلطان محمد الناصر بـن قلاوون التي مطلعهـا :

وفَى ليَ فيك الدمـعُ اذْ خانني الصبـرُ
وأنجـد فيـك النظـمُ اذ خـذَل النصـرُ

فقد تأثر فيها من حيث المعاني والأسلوب والبحر والقافية بقصيدة أبي تمام المشهـورة :

كـذا فلْيجلّ الخطبُ ولْيفدَحِ الأمـرُ
فليس لِعـين لـم يفِضْ ماؤهـا عـذرُ

ويقول الحلي في مرثيته مما ينهض دليلا على هذا التأثر :

فتى كان مثل الدهر بطشا وبَسطةً   يرجَّى ويخشى عنده النفع والضّرّ
ومـا كان يدري من تيمَّم جـوده   ونكَّب لُجَّ البحر أنهمـا البحر

وهو ينظر الى قول أبي تمام :

وما كان يدري مجتدي جود كفّه اذا ما استهلّت أنّه خلق العسر

وتراه في قصيدته التي رثى بها الملك الأفضل بن أبي الفداء ومطلعها :

ما للجبال الراسيات تسير ؟ أفذاك بعث للورى ونشور

متأثرا بمرثية المتنبي الرائية التي يقول فيها :

ما كنت أحسب قبل نعشك أن يرى رضوى على أيدي الرجال يسير

إن العلي لم يحلق في أي من مراثيه الى مستوى المراثي العربية الخالدة كمرثية أبي ذؤيب الهذلي في أولاده ومالك ابن الريب في نفسه ودعبل في آل البيت وأبي تمام في الطوسي وأبي العلاء في صديقه الفقيه وأبي البقاء الرندي في الأندلس ، ولكنه لم ينحدر بها الى حيث أن القارىء لا يشاركه في انفعالاته أمام المآسي التي هزّت نفسه كمأساته في قومه الذين قضى عليهم أعداؤهم •

وصف العلي :

نستطيع أن نقسم الوصف في شعره الى قسمين : مباشر وغير مباشر • فمن غير المباشر ما جاء من الوصف في أبواب شعره الاخرى كوصف المعارك خلال الفخر أو المدح ووصفه الخيل وأنواع السلاح فيها ووصفه الطبيعة في مطالع مدائحه كالقافية في مدح النبي وأمدوحته في الناصر محمد على قافية النون •

هذا بالاضافة الى أن الغزل لايخرج عن وصف محاسن الجسدية للحبيب أو وصف الحالات النفسية للحبيب والمحبوب وإلى أن الفخر نفسه نوع من وصف الذات أو وصف القوم • والى أن بعض القدماء عدّ جميع فنون الشعر ألوانا من الوصف • وقد رأينا من قبل أنماطا من الأوصاف غير المباشرة نكتفي بها •

ومن وصفه المباشر قصائده في الصيد المسماة « الطرديات » وقد جعلها غالبا أراجيز على طريقة أبي نواس وأمثاله في طردياتهم ومنها هذه الأبيات في وصف الصقر المدرب على الصيد .

ياطيبَ يوم بالمروج الخضر	سرقته مختلساً من عمري
والطل قد كلّل هام الزهر	فعطّر الأرجاءَ طيبِ النّشر
باكرتها بعد انبلاج الفجر	عند انبساط الشفق المحمرّ
والطير في لجّ المياه تسري	كأنها سفائنٌ في بحر
حتى اذا لاذت بشاطي النهر	دعوتُ عبدي فأتى بصقري
من الغطاريفِ الثقال الحمرِ	مستبعدِ الوحشةِ جمٍّ الصبر
معتدلِ الشلْوِ شديدِ الأزْر	منفسحِ الزّوْر رحيبِ الصدر
فظلّ يتلوها عظيمَ المكر	يُغري بها همّتَه ونَصري
كأنه يطلبُها بوِتر	فجاءنا منها بكل عَقْر

يدلنا الحلي في هذه الأبيات على أن الصيد كان ألهية ورياضة للملوك والسادة ويربط بين جمال الطبيعة والذهاب الى الصيد ويوجز في وصف الطبيعة ويطيل في وصف الصقر وفي وصف الصيد • وهو دقيق يعيّن وقت الذهاب ونوع الطير المصيد ومميزته ومكانه ، ويدلنا على معرفته بالصيد وعلى أرستوقراطيته فله عبد مخصص لحمل صقره ، ويصف الصقر وصف عارف بصفاته المستحسنة ويصف حركاته خلال الصيد وجدّه في طلب الطير ووفرة صيده •

ومن وصفه المباشر مقطعات له في وصف الخيل منها الوصف التالي لحجرة دهماء وهو من وصف الطبيعة الحية كسابقه :

وعادية الى الغارات ضَبْحا [1]	تريك لقدحِ حافرها التهابا
كأن الصبح ألبسها حُجولا	وجنحَ الليل قمّصها إهابا
جوادٌ ، في الجبال تُخالُ وعلاً	وفي الفلَوات تحسَبُها عُقابا
اذا ما سابقتْها الريح فرّت	وأبقت في يد الريح الترابا

فنراه في هذه الأبيات يحسن الوصف لتلاؤم الموضوع مع ميوله الزعاميةالتي

(1) الضبح : الركض السريع تعرق منه الخيل •

تعتمد الخيل في الحرب والصيد فيصف الحجرة وصف المعجب بالخيل العارف بهـا المقدر لقيمتها بالحياة ، فيعين نوع ركضها وينتبه الى قدحها الشرر بحوافرها ، ويصف لونها وسرعتها ، مشبهاً ذلك بالليل والنهار والوعل والعقاب ، ويقارن سرعتها بالريح، وهي عنده متعة العين والمنجي من الخطر .

ومن أوصافه مقطوعات من بيتين أو أكثر في موضوعات كان يهتم بها عصره وبيئته كأداة مستعملة أو طرفة متداولة أو مكان جميل أو حمام أو نهر أو ساعة متعة فنراه يصف مغنية بالعود ومجلس أنس للمنصور وشفق الصبح والشمع المشتعـل وابريق الخمر ورواقص في مجلس شراب وحماماً وجسرا قطعته الريح ووادي الغرس وهو متنزه جميل ، والحلة بلده . ونكتفي من هذا كله بوصف المغنية على العود :

خَوْدٌ شـدت بلسانهـا وبنانهـا حتى تشابه ضـربهـا ونشيدهـا
فكأن نغمة عـودهـا في صوتهـا وكأن رقـة صوتهـا في عودهـا

وقد أظهر الحلي اعجابه بصوت المغنية وعزفها معاً وحيرته في أيهما هو أحسن ويرتبط هذا الوصف بحياته واهتمامه بالغناء والموسيقا وسائر المتع في الحياة .

وصف الخمـر والزهـر :

وأكثر ما تجلت به عنايته بالوصف واجادته فيه كان وصف الخمر وما تستتبعه من وصف الزهر ، فنراه يقول لشدة غرامه بالخمر بأن الحواس الخمس تشترك فيها لا حاسة واحدة ، وبأنها ربيبة الدير لعتقها . ويصف أثرها في شاربيها وقتلها بالماء ، وتصاوير كؤوسها ، وذهابها بعقل شاربها ، اقتصاصاً منه ، وشربها في جنان الحدائق ، واحياءها جوهر نفسه . ويعلل سبب تسميتها بالبكر ، وينصح بالاعتدال في الشرب ويشترط في نديمه أن يكون من الأماجد ، ويشبهها تارة بالشهب ، وتارة بالشمس ، ويستحمق من لا يشربها لأنها مذهبة للهم ، ويستثقل النديم الـذي لايشارك في الشرب ، ويتغزل بالساقي والساقية ، ويشف في حرصه على اللذة عن خوفه مـن المصائب ، ورغبته في نسيانها ، ويؤثر أن يشرب بين الغناء والزمر وخفق المثاني والمثالث في رحاب الطبيعة ويشربها حتى في رمضان ويفرح بذهابه لينعم بها ، ويذكر آدابها

في المجالسة ويزداد ولعاً بها حين تمنع ويحللها لنفسه بكل وسيلة ويؤثر أن يشربها بعد الطعام ولكنه يبادرها صباحاً ويسجد لها ويحللها على طريقة أبي نواس في الاستهتار ويكثر أحياناً من اقتباس آيات القرآن غير متحرج من ايرادها في مناسبة معصية ويحث على الشراب ويستزيد الشاربين ، ويضيف الى شرب الخمر تناول الحشيشة، على أنه قد يمزج بين لذة الشراب ولذة الكتاب ، ويطارح الشعر مع الخمر ويعتذر عن هفواته خلال الشرب لانها تباين رغبته في الرصانة ويبدي رغبته في تجنب السكر •

ونلاحظ أن الزهر عنده يستدعي الخمر ، ولذلك عني بوصف الزهر فعقد منافسة بين الورد والزنبق ووصف ورود الربيع وظهور الورد فيه ووصف متنزه عين برود لما فيه من متعة للعين والروح •

ونكتفي من التمثيل على هذا كله بخمرية له يمجد فيها شرب الخمر في فصل الخريف حيث يعمّ السحاب ويهطل المطر ويلمع البرق ويهدر الرعد ، ويتغنى بأنه شربها حينئذ في دير سهلان حيث نادمه عليها وشاركه في شربها رهبان من مختلف الرتب الكنسيّة ، تسابقوا الى سقيه طربين بشعره ، ونراه فيها يستمد معانيه من هذا الجو المسيحي الذي لا ترى فيه الراح موحدة بل يشرك فيها الماء ، ويتوهمها الناظرون في الزجاج نورا ويشكّكون في ماديتها على رغم شربهم لها ، وقد فتكوا فيها بسيف الماء ففتكت فيهم بسيف السكر ، ثم يصف العازف الذي يرتل شعره ويفخر بهذا الشعر ويذكر كيف سقى الساقي ويدعو الى ابتدار اللذات معتمدا على غفران الله ورحمته :

فياحبّذا فصلُ الخريف ومزنه	وستْر السحاب الطلق بالبرق تُحبَك
ولِلطلّ في الغدران رقش منمنَمٌ	كأن أديم الماء صرح مشبَّك
ولم أنس لي في دير سهلان ليلة	بها السحبُ تبكي والبوارقُ تَضحك
وأقبل شماس وقَسٌ وأسقف	ومَطرانُهم مع مَقْرُبان وبطركُ
يَحُفّون بي حتى كأني لديهمُ	حبيب مفدّىً او مَليكٌ يملّك
وطافوا بكأس لا يوحّد راحُها	ولكنْ لها في الكأس ماءٌ يشرّك

مشعشعةٍ يُخفي الزجاجَ شُعاعُها ... فمن نورِها سِتر الدجُنَّة يُهتك

تَوهَّمها الساقون نوراً مجسما ... فظلَّت بها بعد اليقين تَشكك

فتكنا بسيف الماء فيها فحاولتْ ... قِصاصا فباتت وهي في العقل تَفتك

وهبَّ لنا شادٍ كريمٌ نِجادُه ... خَوَّولته في الفخر قيسٌ وبَرْمك

يُحرِّكُ أوتارا تَناسبَ حِسُّها ... بها تَسكُنُ الأرواحُ حين تُحرَّك

ورتّل من شعري نسيبا منقَّحا ... يَكاد يُعير الراح سُكرا ويوشِك

اذا ما تأملتَ البيوت رأيتَها ... تُضاراً بنار الألمعيّة يُسبَك

وناولتُه كأساً اذا ما تمسَّكت ... يَنداه بها ظلَّت بها تتمسَّك

فظل الى اللذات يهدي نفوسنا ... على أنه لا يهتدي أين يسلك

فلا تنسَ في الدنيا نصيبك وابتدرْ ... الى الراح ان الراح للروح تُمسِك

وثق أن رب العرش جلَّ جلاله ... غفور رحيم للسرائر مدرِك

وما كان من ذنب لديه فانه ... سيغفره إلا به حين يُشْرَك

غزل الحلي :

كان للحلّي طبيعة مستمعة غزلة تنسى في سبيل متعتها أوامر الدين ونواهي الخلق وقد ساعدت نكبته على ان يحاول نسيان الألم بنشدان اللذة • وساعده روح العصر المنغمس في الملاهي على مجاراة معاصريه ، كما ساعده جاهه ومكانته على ان ينال ما يريد بماله او بشعره • وقد جمع في شخصه بين القوة والميل الى الغزل كأبي فراس ، ولكن أبا فراس أمعن في الفروسية وأميل الى السمو وكان هو أمعن في اللذة وأميل الى التقحّم •

وقد تغزل في مطلع قصائده ، او خلال خمرياته ، غزلا تقليديا ، ولكن له غزلا مستقلا بنفسه في مقطوعات او قصائد •

ومن غزله في المطالع ما هو نسيب يصف فيه محاسن الحبيب الجسدية ، ومنه

ما هو غزل يصف فيه احوالـه واحوال الحبيب النفسية ، ونـراه في نسيبه يصف الجمالين التركي والعربي • وغزله ليس عذريا ولا عفيفا ، على انه لا يصل الى درجة أبي نواس وبشار في التعهر والتصريح • وكثيرا ما يتغزل بالغلمان غارقـا في ذوق عصره •

ولا نراه يتغزل غزلا عذريا او كالعذري الا في القليل النـادر ومن أمثلة هذا القليل المقطوعة التالية التي نرجّح انه قالها في مطلع شبابه :

ظـنّ قومي أنّ الأُساة ستبْري ... داء وجـدي وأنْ علاجـي يفيـد
فأتَـوْا بالطبيب وهـو لَعمـري ... في ذوي فنّـه مُجيـد مُجيـد
مذ رأى علّتي وقـد لاح للمـو ... ت عليهـا أدلّـة وشـهود
جسّ نبضي وقال ما أنت شاكٍ ؟ ... قلت نـارا لم يُطفِهـا التبريـد
فغـدا يخلـط الـدواء فألفـى ... نار وجـدي مـع الـدواء تزيـد
قال ما كان أصلُ دائـك هـذا ؟ ... قلتُ طرْفي ، وذاك حالٌ شـديد
قـال : إن الهـواء احـدث بلـوا ... كَ ، فقلتُ : المقصور لا الممدود
فانثنـى حائـرا وقـال لأهلـي : ... مـا شِفـاءُ العشـاق الا بعيـد

فان لم يكن الحلّي قد قال هذه الابيات وهو يافع قبل انيتمرس باللذات فلا يعييه الحصول عليها بماله وحيلته ولا يمرضه غرامه وشوقه وحرمانه ، فربما يكون قد قالها تفنّنا في التعبير ومجاراة لبعض الشعراء العذريين الذين اضناهم وأنحلهم الشوق •

ومن أمثلة غزله بالمرأة الذي يجمع فيه بين النسيب والتشبيب ولا يكون فيه عذريا ولا اباحيا متناهيا في التعهر قوله في مطلع قصيدة فخر :

ألستَ ترى ما في العيون من السقمِ ... لقد نحَل المعنى المدقّق من جسمي
واضعف بي ما بالخصور من الضنى ... على أنها من ظُلمها غصبت قِسمي
ومـا ذاك الا انّ يـوم وداعنـا ... وقد غفلت عين الرقيب علـى رغـم

ضممتُ ضنى جسمي الى ضعف خصرها	لجنسية كانت لها علّة الضمّ
ربيبةُ خِدْرٍ يجرح اللحظُ خدَّها	فوجنتُها تدمَى وألحاظُها تُدْمِي
تغزّلتُ فيها بالغزال فأعرضتْ	وقالت لَعمريَ هذي غايةُ الذم
وصدّتْ وقد شبّهتُ بالبدر وجهها	نِفاراً وقالت صرتَ تطمع في شتمي
وكم قد بذلتُ النفس أخطب وصلَها	وخاطرتُ فيها بالنفيس على علم
فلم تلِدِ الدنيا لنا غيرَ ليلة	نعِمتُ بها ثم استمرّت على العُقْم

فظاهر ان هذا الغزل تقليدي ، وانه رصين رصانة اهل الحرب والسياسة ، وان الشاعر فيه اذا كان لا يتغزل بامرأة معينة فهو يتغزل بجنس المرأة . وفيه ابيات جيدة معجبة كالبيتين السادس والسابع بما فيهما من حوار وحياة وتصوير للجمال المدلّ بنفسه .

ومن أمثلة غزله الشاذ بالغلمان ما جاء في مطلع قصيدة يمدح بها الملك المنصور بعد رفع الكلفة بينهما ، ويمدح فيها الغلمان الاتراك بالقوة والجمال ، ولا يتورع عن اعلان اباحيته دون حياء :

إنْ نوزلوا كانوا أسودَ عريكة	أو غوزلوا كانوا بدورا تُشرِق
قومٌ إذا ركبوا الجيادَ ظننتَهمْ	أُسْداً بألحاظ الجآذر ترمُق
جذبوا القِسيَّ الى قِسِيٍّ حواجب	من تحتها نبلُ اللواحظ ترشُق
لي منهم رشأٌ اذا غازلتُه	كادت لواحظُه بسحرٍ تنطق
ان شاء يلقاني بخُلْقٍ واسع	عند السلام نهاه طرْفٌ ضيّق
لم أنس ليلة زارني ورقيبه	يبدي الرضى وهو المغَيظ المُحنَق
وافى وقد أبدى الحياءُ بوجهه	ماءٌ له في القلب نار تحرق
أمسى يعاطيني المُدامَ وبيننا	عتبٌ ألذ من المدام وأرْوَق
حتى اذا عبث الكرى بجفونه	كانَ الوسادةَ ساعدي والمِرْفق
عانقته وضممتُه فكأنّه	من ساعديّ مطوّقٌ وممَنطَق

تلقاه وهو مزرّد ومدرّع وتراه وهو مقرّط ومقرطق

لم تترك الاتراكُ بعد جمالها حسنا لمخلوقٍ سواها يُخلَق

لم يبق بعد هذا الغزل شبهة في ميل الشاعر المنحرف الذي يجاري عصره ، بل يكاد يسبقه ، ويرضي به ذوق سلطانه الممدوح . ونراه يجمع فيه بين وصف المحاسن الجسدية والاحوال النفسية ، ويتمادى فيه فيصور الغلام عاشقا او كالعاشق حين يجعله يقبل أنامله صباحا وهو يودعه . ونراه يختار الغلام تركيا ، ويجعل له حسن الغزال وفتكات الاسود في القتال ، ويجري على طريقة أبي نواس في ترك الاحتشام .

وقد يلتبس بعض غزله علينا فلا ندري أهو في المذكر أم في المؤنث لاستعماله ضمير المذكر الذي قد يطلق على المؤنث على أنه حبيب ، كقوله :

حوشيتَ من زفرات قلبي الواله وكفيت ما يلقاه من بَلْباله

وقد يجري في بعض غزله على غرار المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموسُ الطالعاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جلاببا

وذلك في قصيدته التي مطلعها :

بيضٌ دعاهنّ الغبي كواعبا ولو استبان الرشدَ قال كواكبا

ونراه احيانا مولعا بالجمال كابن أبي ربيعة في قوله :

اني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لاحظّ لي فيه الا لذّةُ النظرِ

فيقول :

قالوا تعشّقَ كلّ ربٍّ ملاحةٍ فأجبتهم إنّ المحرّك واحد

فالحسنُ حيثُ وجدته في حيّزٍ هو لي بأرْسانِ الصبابة قائد

وقد يتحدث عن طيف الخيال على طريقة البحتري فيقول وقد زاره خيال الحبيب اول مرة :

ما بين طيفكَ والجفونِ تواعُدُ فيَفي اذا خبّرتَ أنيَ راقدُ

اني لأطمع في الرقاد لأنه شركٌ يصاد به الغزال الشارد

فأظـل أقنـع بالخيـال وإنّـه طمـع يولّده الخيـال الفاسـد

هيهاتَ لا يشفي المحبَّ من الأسى قُرْبُ الخيالِ وربّه مُتباعِـدُ

ففي هذه الابيـات يبدى حرصه على رؤية طيف الحبيب وقـد فاته ان يلقى الحبيب نفسه ، لكنه يصرح بان رؤية الطيف لا تشفي المحبّ من أساه .

ويظهر أن الحلي قد انتهج سبيل اللذة والمتعة مبكرا منذ غادر العراق ، بل قبل مغادرته لها ، لاننا نراه يطلب من غلام يحبه ان يسافر معه حين نزوحه من الحلة ويعده الغلام بذلك ولكنه يخلفه فيرسل اليه قصيدة مطلعها :

أذاب التبـرَ في كـأسٍ اللجـين رشا بالـراح مخضـوب اليديـن

وفيها يقول :

فلِـمْ دليتنـي بحبـال زور ولـم أطمعتنـي بسـراب مـين

وهـلا قلت لـي قـولا صريحـا فكـان المنـع احـدى الراحتـين

.. .. ..

وكم قد شاهـدتك الناس قبلـي فمـا نظـروك كلهـم بعينـي

.. .. ..

تنغّص فيـك بالزوراء عيشـي وبُـدِّل زيـنُ لذّاتـي بشيْن

ومـا عيشي بهـا جَهْماً ولكـنْ رأيتُ الزينَ بعدكَ غيـر زيْنِ

وانه ليعطينا بانصرافه الى اللذة وتهتكه صورة مظلمة مؤلمة عن نفسه وعصره غير الشاعرين بالمسؤولية امام إحاقة الاعداء بالوطن وتهديدهم حيـاة الأمة كلّهـا بالإبادة والفناء .

* * *

سماته الفنية :

قال الحلّي مبينا رأيه في البلاغة :

ليس البلاغـة معنـــى فيـه الكـلام يطـول

بل صـوغ معنى كثير يحويـه لفظ قليـــل

يظنـه النـاس سـهلا وما اليـه سـبيل

والعيّ معنـى قصـير يحويـه لفظ طويـــل

ونحن نقول ، تعليقا على هذا التعريف المطول للبلاغة :

أراد ايجـاز قـــول فشـانـه التطـويل .

ونضيف الى ذلـك انه لم يلتزم الاسلوب الموجز في شعره وكان أميـل الى الاسلوب المطول او اسلوب المساواة . وكان متفاوت الاسلوب واسع المدى وجد نفسه قادرا على نظم الشعر الجزل ، بحيث يلحق فيه بالأولين ، ووجد عصره يميل الى المبالغة في الصنعة وهو لا يريد ان يهمله عصره ، لذلك حاول ، وهو القوي في اللغة الموهوب في نظم الشعر الذي تستجيب له الصياغة والمعاني والالفاظ بسهولة ، ان يثبت لمعاصريه انه يجاريهم فيبزهم في الصناعة فكان يجزل احيانا في الموضوعـات المناسبة للجزالة كالفخر ووصف الحرب ويرق أحيانا ويعذب ويسهل في الموضوعات المناسبة لهذه الصفات كالغزل والخمر ، ويتقيد أحيانا بالبديع ويتحرر منه ، الا مـا يأتيه عفو الخاطر وهو في كل ذلك مالك لزمام النظم يتصرف عن تصميم ومقدرة ، وهو في كلا حاليه مقلد كما ذكرنا قبل ولم يختط لنفسه أسلوبا خاصا به كأبي تمام .

ومن أمثلة شعره الجزل مع رقة ألفاظه وحسن معانيه ولطف تأتيه وغضارة مشاعره وقرب خياله ، قوله متغزلا :

ولاح كالصارم المصقول أخلصه تتبُّع القين من شين ومن كلف
وجال في وجهه ماء الحياة كما يجول ماء الحيا في الروضة الأُنُف
وولّد الحسن في احداقه صوراً وضاعف الدلّ ما بالجسم من ترف
أضحت به حدق الحساد محدقة ترنو إليه بطرف غير منطرف
وظل كل صديق يرتضي سخطي فيه وكل شفيق يرتجي تلفي
يالَلرجال أما للحب منتصر لضعف كل محب غير منتصف
ما أطيب العيش لولا أن سالكه يمسي لأسهم كيد الناس كالهدف

ومن أمثلة شعره الرقيق السهل قوله متغزلا :

أين الحمى عرب ؟ لي بربعهم أرب
كلما ذكرتهم هزني لهم طرب
جيرة بحيّهم ليس يُحفظ الحسب
في خيامهم قمر بالصفاح مُحتجب

ونراه يستخدم الحوار احيانا ليبعث الحياة في شعره :

وهذه بعض ابيات من المنسرح يحاور فيها حبيبته :

قالت : كحلت الجفون بالوسن قلت : ارتقاباً لطيفك الحسن
قالت : تسليت بعد فرقتنا فقلت : عن مسكني وعن سكني
قالت : تشاغلت عن محبتنا قلت : بفرط البكاء والحزن
قالت : تناسيت ، قلت : عافيتي قالت : تناءيت ، قلت : عن وطني

والحوار هنا حيّ جميل يجاري به بشارا وغيره ممن أولعوا بالحوار ، والغزل فيه بامرأة وليس بغلام .

وقد يضعف نسجه كقوله :

بُعْدُ الوفيّ كقربه إذْ وُدّه باقٍ كما قربُ الملول كبُعْدِهِ

والضعف في استعمال كاف التشبيه مرتين دون ان تتضح ناحية تساوي القرب والبعد بالنسبة الى الملول ولا ناحية تساوي حال الوفي مع حال الملول . وهو يريد ان يقول :

ان حال الوفي واحدة في القرب والبعد لان ودّه باق . وحال الملول واحدة في القرب والبعد لان ودّه زائل . فالحالان متشابهان في تساوي القرب والبعد ومختلفان في البقاء والزوال .

وقد اشرنا ونحن ندرس شعره اكثر من مرة الى بعض ما غمض من معانيه بسبب ضعف نسجه احيانا .

وقد استخدم فنون البيان كلها من استعارة وكناية ومجاز وعني بالتشبيه بصورة خاصة وجارى فيه عصره من حيث التفنن فيه .

ومن تشبيهاته هذا التشبيه لثمانية بثمانية :

سوابقنا والنقعُ والسمر والظبا وأحسابنا والحلم والبأس والبرُّ
هبوبُ الصبا والليلُ والبرقُ والقضا وشمسُ الضحى والطوْدُ والنارُ والبحر

وهذا ما يسمى بالطيّ والنشر في التشبيه .

ومن طيّه ونشره قوله في وصف الطبيعة وقد تضمّن ست تشبيهات :

زنبق بين قضب آسٍ وبانٍ وأقاحٍ ونرجسٍ وورودٍ
كجبينٍ وعارضٍ وقوامٍ وثغورٍ وأعينٍ وخدودٍ

وهي تشبيهات من النوع المقلوب لان العادة ان تشبه اعضاء الانسان بعناصر الطبيعة لا العكس .

وكان العصر قبله قد عني بالتورية فقاد لواءها في مصر القاضي الفاضل وفي

الشام الشرف الانصاري ووحّد ابن نباتة معاصره مذهبيهما في مذهب واحد سمي السحر الحلال ولكنه هو بقي بعيدا عن هذا المذهب وان جاراه احيانا .

يقول ابن حجة الحموي وهو يتحدث عن التورية :

« ان الشيخ صفي الدين كان أجنبيا فيها ، ولهذا لم أنظمه في سلك الجماعة الذين مشوا في نظم التورية تحت العلَم النُباتي . وغايته انه رضي بالشعر الساذج المنسجم وتعرض الى التورية في بعض المواضع ، ولكن سبكها في غير مواضعها لانها لم تكن في طباعه » .

ومن تورياته :

فأذابَني الخدّ الكَليم وطَرْفُه ذو النونِ إذْ ذهبَ الغَداةَ مُغاضِبا

فهو يريد بالكليم وذي النون الخدّ والسالف في الصدغ لا النبيَّيْن ، وفي الشطر الثاني اقتباس من الآية : « وذو النون إذْ ذهب مُغاضِبا .. »

ومن تورياته قوله في طبيب الاسنان الذي خلع ضرسا لغلام جميل مريدا بالكلبتين آلة قلع الاسنان لا الحيوان :

أعاقَ الظبيَ عن كلتيْ يديْه وسلّط كلبتين على غزالِ

ومن استخداماته قوله :

لئن لم أبرقعْ بالحيا وجه عفّتي فلا أشبهتْه راحتي في التكرّمِ
ولا كنت ممّن يكسر الجفنَ في الوغى اذا أنا لم أغضُضْه عن رأي مُحرَّمِ

فقد استخدم الجفن بمعنى قراب السيف ثم اعاد الضمير بمعنى جفن العين ، وهذا مثال آخر :

لا يسمع العُودَ منا غيرُ خاضبِه من لَبّة الشّوس يومَ الرَّوْع بالعَلَقِ
ولا يزفُّ كميتا غيرُ مصدرِه يومَ الطِّراد بليل الطفِّ بالعَرَقِ

فقد استخدم العود بمعنى الآلة الموسيقية ثم اعاد عليه الضمير بمعنى الرمح واستخدم الكميت بمعنى الخمر ثم ارجع عليها الضمير بمعنى الحصان .

وكان اكثر ميلا الى استعمال الجناس والطباق والتضمين والاقتباس وهي فنون سهلة بالقياس الى التورية وكان اكثر ولعه بالجناس فكان يفتنّ في جميع أنواعه :

فمن امثلة جناسه الخطي وهو ما يتشابه فيه كل لفظين متجاورين في رسم حروفهما وقد يختلفان في الحركة والنقط قوله :

سلْ سَلْسَلَ الريق لِمْ لَمْ يَرْوِ حرٌّ ظما
بل بَلْبَلَ القلبَ لمّا زاده ألَما

قدْ قدّهُ قدُّ حبيبي حبلَ مُصطبَري
إنْ آنَ أنْ اجتني جُرْما فلا جرَما

وقد تابع استعمال هذا اللون من الجناس في قصيدة تتألف من خمسة عشر بيتا ، وعدّ في هذه القصيدة من ابتكاراته هذا الجناس الذي يأتي في اوائل ابياتها بين الكلمة الاولى والكلمة الثانية التي تتألف من مضاعفة لفظها وقد جرى عليه في القصيدة جميعها . والتزم أحيانا الجناس في اللفظ لا في الكتابة بين العروض والضرب :

قال يفخر ويحبّذ الترحال ويشتاق الى اهله ويلتزم في العروض والضربْ ان يكونا متجانسين . وقد اخترنا الأبيات الستة الآتية من واحد وعشرين :

لَسيري في الفَلا والليلُ داجٍ	وكرّي في الوغى والنَّقْعُ داجِنْ
أحبُّ اليّ من تغريد شادٍ	وكأسِ مُدامةٍ من كفّ شادِنْ
وليس المجد الا في مَواطٍ	على هام السماكِ لها مَواطِنْ
وصحبةِ ماجدٍ كالنجم هادٍ	يُسِرُّ البطشَ حِلما وهو هادِنْ
وان انقذتَ نفسكَ في مَعادٍ	وصيَّرتَ العَفاف بها معادِنْ
فمالك في السعادة من مُوازٍ	ولا لك في العبادة من مُوازِنْ

وهـذا اللون قد سبق اليه • ومما جـاء عنده من تجنيس القلب على وزن الدوبيت :

الحبُّ سَخا وطَرْفُ أعدائي خَسا | من حيث سرى والنجم في الغرب رسا
للمَوْصِلِ سعى وطالما قلت عسى | والريقَ سقى من بعد ما كان قسا

تلاحظ الجناس بين لفظتين في كل شطر ، واحداهما مقلوبة عن الاخرى •

ومما جاء لديه من الجناس التام ، وهو على وزن الدوبيت :

ماملتُ عن العهد وحاشـاي أمينْ | بل كنتُ على البعـد قويًا وأمينْ
لا تحسبنيّ اذا قسـا الدهر ألين | بل لو كُشِفَ الغطا لما ازددت يقينْ

وجـاء عنده من التجنيس المركب المسمى أيضا بالملفّق :

العيد أتى ومـن تعشّقتُ بعيـدْ | ما أصنعُ بعدُ ومنيةُ القلب بعيدْ
ما العيشُ كذا لكنّ من عاش رغيدْ | من غازل غزلاناً او عاشَرَ غيـدْ

ومما جاء عنده من الجناس الملفق ايضا :

ذا شـعرُكَ كالارقم إمـا لَسَبا | والقدُّ كغصن البان إنْ مالَ سَبَى
والرِّدْفُ اذا مـا عاتبتُه خاطبني | بالآخِرِ للاحقـافِ إمّـا لِمبـا

ومن جناسه التصحيفي قوله :

حـديثُ النـاس أكثرُه مُحـالُ | ولكـن [illegible] ـدا فيـه مَجـالُ

فكلمتا محال ومجال لا تختلفان كتابة الا بزيادة نقطة في الثانية •

ومن طباقه قوله :

الوجه منك عن الصواب يُضِلني | واذا ضللـت فانـه يَهديني
وتُميتني الألحاظُ منك بنظـرة | واذا أردتَ بنظـرةٍ تحييني

ومن تضميناته انه كتب الى صديق تأخر عن انجاده في واقعة له مع انه هو قد انجده في عدة وقائع وقد ضمّن فيها قصيدتين إحداهما للمتنبي والأُخرى للطُّغرائي فيأتي بالشطر الاول من هذه وبالشطر الثاني من تلك ويفي بالمعاني التي يريدها دون

ان ينظم شيئا من عنده ويذكر في الديوان ان هذا من اجود اختراعاته في التضمين ، والأبيات عشرون اخترنا منها ما يلي :

قل للخليّ الذي قد نام عن سهري ... ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ
تنامُ عني وعينُ النجم ساهرةٌ ... واحرّ قلباه ممّن قلبه شَبِمُ
فالحبُّ حيث العدا والأسْدُ رابضةٌ ... فليت أنّا بقدْر الحب نقتسم
رضى الذليل بخفض العيش يخفضه ... وقد نظرتُ اليه والسيوفُ دَمُ
أهبتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعا ... وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ
فافطِنْ لتضمين لفظٍ فيك أحسبه ... قد ضُمِّن الدرّ إلاّ أنه كَلِم

ومنها قوله :

زَوّجَ الماءَ بابنة العنقود ... فانجلتْ في قلائد وعقود
قتلتْ بالمزاج ظلماً فقالتْ ... « كم قتيلٍ كما قتلتُ شهيدِ »

ومن اقتباساته قوله :

قلوبنا مودَعةٌ عندكمْ ... أمانةٌ يُعجَز عن حملها
اذا لم تصونوها بإحسانكمْ ... فـ (أدّوا الأماناتِ الى اهلها)

اوزانه وقوافيه :

حافظ الحلّي على الاوزان والقوافي التقليدية وسمّط احيانا ووشّح قبل ان يرحل الى الشام ومصر وبعد ان رحل ورأى ما فيهما من هذين الفنين وجارى شعراءهما ، ولكنه لم يخرج على الاوزان التقليدية الا قليلا وقد سمّط قصيدة السموأل وابيات قَطَري ابنِ الفُجاءة العينية (اقول لها .. لن تراعي) .

وقصيدة ابن زيدون على قافية النون (أضحى التنائي ..) .

ومنها قوله :

كان الزمان بلُقياكمْ يمنّينا ... وحادثُ الدهر بالتفريق يثنينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا ... أضحى التنائي بديلا من تدانينا

ونـاب عن طيب لُقيانا تجافينا

وقال من قصيدة خمّس فيها فاتحة الحماسة ، يحرّض فيها قوما وعدوه بالمساعدة في احدى الوقائع ثم نكصوا :

يالَلحماسةِ ضاقت فيكم حِيَلي　　وضاع حقيَ بين العذْرِ والعذَلِ
فقلتُ مع قلّة الأنصار والخَوَلِ　　لو كنتُ من مازنٍ لم تستبحْ إبلي
بنو اللقيطةِ من ذُهْلِ بنِ شيْبانا

لو انني برُعاةِ العُرْبِ مقترِنُ　　لهمْ نزيلٌ ولي في حَيِّهمْ سكَنُ
ومسَّني في حِمى أبنائهمْ حزَنُ　　إذنْ لَقامَ بنصري معشرٌ خُشُنُ
عند الحفيظةِ إنْ ذو لُوثةٍ لانا

وهذا سِمْط من القصيدة التي سمّط بها ابياتا لمحيي الدين بن بلاق من البحر الطويل :

فضحتَ بدورَ التّمِ اذْ فقتَها حسنا　　وأخجلتَها اذْ كنتَ مِن نورِها أسْنى
ولمّا رجونا من محاسنك الحُسنى　　بعثتَ لنا من سِحرِ مقلتك الوَسنى
سُهادا يذودُ النوم ان يألفَ الجَفْنا

ومما خمّسه قصيدة للشيخ مدرك بن علي الشيباني قرأها في كتاب « مهتدَى الفِرَق » للامام فخر الدين الرازي ، وجرى في تخميسها على ان يأتي بأربعة شطور من قافية ثم يأتي بالشطر الخامس من قافية يلتزمها في كل القصيدة ، ومن هذه المخمسة قوله :

مِن عاشقٍ ناءٍ هواه وانِ　　ناطقِ دمعٍ صامتِ اللسانِ
موثَقِ قلبٍ مطلقِ الجثمانِ　　معذّبٍ بالصدِّ والهجرانِ
طليقِ دمعٍ قلبهُ في أسْرِ

من غير ذنبٍ كسَبتْ يداه　　غيرَ هوىً نمّتْ به عيناهُ
شوقا الى رؤيةِ من أشقاه　　كأنما عافاه من أبلاه
إذْ كان أصلَ نفعِهِ والضُّرِّ

وهو يكمل فيها قصيدة هذا الشيخ الذي عشق غلاما من تلاميذه ومات عشقا به.، ويستحلفه بجميع المقدسات المسيحية ان يستجيب له •

وكذلك خمّس قصيدة للمغاربة غني بها في مجلس الملك المؤيد واقترح عليه هذا الملك تخميسها فخمسها على البديهة في المجلس ومنها :

شكوتُ إليكِ الجَوى   فلم تسمَحي بالدوا
فمُذْ طال عمرُ النوى   جعلت إليكِ الهوى

شفيعا فلم تشفَعي

صرمت حبالَ الوفا   وكدّرتِني بالجفا
فحاولتُ منكِ الصفا   ونـاديتُ مستعطِفا

رِضاكِ فلم تسمعي

ومن امثلة توشيحه هذا المقطع من موشحة له في مدح المنصور الأرتقي :

خذْ مِن الدهر لي نصيبْ   واغتنمْ غفلةَ القدَرْ
ليس طولَ المَدى نُصيب   صفوَ عيشٍ بلا كَدَرْ

•• •• ••

فاجلُ لي كاعباً عروسْ   لم ترُعْها يدُ المِزاجْ
نشرُها عطرُ الكؤوسْ   وكسا نورُها الزجاجْ

ومما نظمه من الموشحات الغزلية موشح مضمن لم يسبق الى مثله ضمنه ابياتا نحلت لأبي نواس وقيل انها لابن الحريري • ومنه :

وحقِّ الهوى ماحُلتُ يوما عن الهوى   ولكنّ نجمي في المحبّة قد هوى
ومَن كنتُ ارجو وصله قتلي نوى   وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى
ليس فـي الهوى عَجَبُ   إن اصابني النصَبُ
حاملُ الهوى تعِبُ   يستفزّه الطرَبُ

ومن موشح نظمه وجعل اغصانه من وزن الدوبيت وعدّه فيه مجدّدا :

البيت :

عـينُ حبـي أعيذُهـــا باللــهِ ما آوقعني في عشقِه إلا هِــــي
مذ قاطَعَني وصدُّ عنــي لاهـي أجـرى عَبرتي وأذكـى زفرتـي

القفل :

أمسـيت وطيبُ النـــومِ عـــن اجفانــي فانــي
لمـــا تجافانـــــي أرْعـــى النجـــوم

ومن امثلة تجديده في أوزان الموشـحات التقليديـة او خروجه عليهـا جملة موشحته التي أولها :

لـّما شدتِ الوُرْقُ على الاغصانِ بـين الوَرَقِ
ماسـت طرَباً بها غصونُ البـانِ كالمُعتنِـقِ

ومن تجديده سيره في موشحة على وزن اخترعه السلطان المؤيد واقترحه عليه ومنهـا :

بي ظبيُ حِمى وردُ خـدّه صارمُ اللحظِ
قـاسٍ غرّني منه رقّـةُ الخدِ واللفظِ
ذو فرْعٍ بمحضِ اعتناقِ اردافه مَحظِي
مالي لم أنَلْ حظّه كمـا قد حكى حِظّي
بديعُ المَعـاني من الاقمـار أحسـنْ
إلينـــا أسـا لحظُه واللفظُ أحسـن

وقد نظم في الدوبيت ومن ذلك قوله :

لا تحسَب زورةَ الكرى أجفـاني من بعدِكَ مِن شواهد السّلوانِ
ما أرسـلتِ الرقـادَ الا شرَكـا تصطادُ بـه شـواردَ الغـزلان

وقال على وزن أعجمي ولعله جاراه في مجلس من مجالس الغناء ، ونرى انه البحر الخفيف العربي جاء عروضه وضربه على فعلن مكان فاعلاتن :

زارنـي والصبـاحُ قـد سـفَرا وظَليـمُ الظـلامِ قـد نَفَـرا

وجيـــوش النجـوم حافلـــةٌ ولـــواءُ الشعــاع قـد نُشِــرا

جــاء يُهـدى وصـا ُله سـحَرا شـادنٌ للقلوب قـد سَحَـرا

فتيقنـتُ أنـــــه قمَـــــر وكـــذا الليــلُ يحمِل القمــرا

ونظم على وزن اعجمي آخر ابياتا منها :

بشرايَ قد تنبّه لي الطالعُ السعيدْ قد زارني الحبيب فذا اليومُ يومُ عيدْ

قد تمّ لي السرورُ وكملتْ مجلسي من خمرنا العتيقِ ومِن زهرِنا الجديد

ناديتُ اذ رأيتُ حبيبــي بمجلسي عن جانبي القريبِ وقد جاء مِن بعيد

الفاظه :

عاب عليه بعض معاصريه قلة استعماله للالفاظ الغريبة فأجابه ناقدا :

إنّمــا الحيزَبــونُ والدرْدَبيس والطخّا والنُّقــاخُ والعلْطَبيسُ

والحراجيحُ والشقَحْطَبُ والصَّقْ عَبُ والعنقفيــزُ والعَنْتَــريس

والغَطاريس والعَقَنْقَس والعَفْلَ قُ والجَرْبَضَيض والعَيْطَمُوس

والسَبَنْتى والحقْص والهَيْقُ والهِجْ رِسُ والطَرْفسانُ والعَسْطوسُ

لغــةٌ تنفــر المســامعُ منهــا حينَ تُرْوَى وتشمئــزّ النفوس

وقبيح ان يُذكَر النافرُ الوحشيُّ منهــــا ويتــــرك المـــأنوس

انمــا هــذه القلــوبُ حَـديدٌ ولذيــذُ الألفــاظِ مَغناطيسُ

« ديوان صفي الدين ط صادر في بيروت : ٦٤٢ »

وقد اصبحت ابياته هذه تستخدم في السخرية بكل من يحاول ان يتقعــر في اسلوبه بالغريب ، وهي تدل على انه يؤثر سهولة الالفاظ والفتها ووضوح التراكيب والمعاني •

وكانت سهولة الالفاظ نزعة عصره فلم يخرج هو عليها واستحسنها •

ولقد اراد صفي الدين ان يسبق منافسيه في استخدام التلاعب بالالفاظ حتى ماكان منه لغويا لا صلة له بالفن كما رأينا في استخدامه الالفاظ المهملة او المنقطة او الموصولة او المجنسة تجنيس تصحيف •

وقد استخدم عامدا احيانا الفاظا فارسية او تركية دون مرادفها العربي في المعاني الماجنة ليعمي بها المقصود على من لا يعرف غير العربية •

ومن ذلك القصيدة الساسانية التي حشر فيها عشرات الكلمات الاعجمية ليصور حيل هذه الطائفة من المحتالين الذين سمّوا « آل ساسان » ، ومنها :

بتبريخ أدصاي وتربيخ مَشْتاني غدَتْ سائر الاخشان والفرسُ تخشاني
خفضتُ دَوانيكَ العَراكيس كلّها فشحّمني من كان من قبلُ داصاني
« الديوان ص ٤٤٥ ، ط بيروت »

ولسنا نعرف معاني هذه الالفاظ •

ان شعر صفي الدين الحلّي لا يجري على هذا النمط المجوج ولكنه لم يشأ ان يرى شيئا في شعر عصره فلا يجاريه • ومما نظمه من مهمل الحروف قوله :

كم ساهرٍ حرّم لَمْسَ الوِساد وما أراه سؤلَه والمُراد
ما سهَرُ الوالِهِ مُعْطٍ له وصلا ولو داوم طولَ السهاد

ومما نظم في الكلمات المتصلة الحروف :

سَلْ مُتلِفي عطْفا عسى يتعطّفُ فلقد قسا قلبا فما يتلطفُ
ظبيٌ تحكّم بي فسلط جفنه سقَماً لِجسمي بعضُه لي مُتلِفُ

وقد رأيناه يستخدم اشكالا لفظية اخرى ورأينا امثلة عليها في الباب الذي اسماه هو باب النوادر • ولا يسلم شعره من اخطاء لغوية ونحوية ، وقد ذكرنا شيئا منها خلال دراسة شعره ومنها :

أومت اليّ مشيرة ان لا تخفْ وابشر فإنّك في ذُرا العَلْياء

فقد سهل همزة او مأت ثم حذفها كأنها حرف علة كما سهّل همزة أبشر •

منزلتـه :

صفي الدين الحلّي من أشعر شعراء العراق في العهد المملوكي بل يعد هـو وجمال الدين ابن نباتة (ت ٧٦٨ هـ) اشهر شعراء هذا العهد •

وقد اشتهر ابن نباتة بالتورية والاستخدام وسمي مذهبه السحر الحلال كما يقول ابن حجة الحموي وكانت التورية هي المذهب الذي اختاره الذوق المصري والشامي حينئذ واشتهر به في الشام الشرف الانصاري ومدرسته وفي مصر القاضي الفاضل ومدرسته وجاء ابن نباتة فوحّد بين المدرستين •

ولم ينشأ صفي الدين في هذين الاقليمين ولم يلتزم مناهجهما ، وان حـاول مجاراتهما حينا، وكان يمثل الذوق الأدبي في العراق وما وراء مصر والشام الـى الشرق لا في صناعته البديعية فقط ، بل بمجونياته التي جارى فيها ابن حجّاج وابن سُكّرة اللذين تقدماه زمنا •

وكان يتأرجح بين الصناعة والطبع ، يساير الطبع احيانا حتى يكاد يجـاري الفحول في العصر العباسي ويلتزم الصنعة احيانا حتى يعد متكلفا متعسفا في نظر من يحبون الصناعة المعتدلة • وكان يستطيع ان يتصرف باسلوبه وفق اللون الذي يريده تبعا لمقدرته اللغوية وموهبته الشعرية وقوة طبعه وسهولة نظمه •

اجتمع به صاحب القاموس المحيط مجد الدين الفيروز آبادي في بغداد فشهد له بالقدرة على النظم والنثر والخبرة بعلوم العربية والشعر وشبّه شعره بالدر في الاصداف •

وقال فيه الصفدي : « تقدم في علم الادب والشعر ، وله النظم الرائق الفائق في النهاية ••• وطارح اهل زمانه في الشعر وطارحوه وأثنوا على فضيلته في ذلك » • وقال أبو محمد الحسن بن حبيب بأنه شاعر المشرق ، تقدم على كثير من الاول ، وبيّن تقصير ارباب السبع الطوال ، وبرع في فنون الادب ، وجمع أشتات اقوال العرب » •

وقال فيه الدكتور محمود رزق سليم : « وبعد فصفي الدين احد الشعراء القلائل الذين جمعوا بين الفروسية والشعر كعنترة وابي فراس ، وخاضوا غمار الحروب وغمار الادب » .

لقد رأينا كيف صوّر شعر صفي الدين حياته في جميع اشكالها ومراحلها وصوّر جوانب عصره المتصلة بحياته وكيف أجاد فن الفخر والحماسة ، والتحريض على القتال والأخذ بالثأر والدفاع عن الحمى امام الاعداء لان ذلك يتصل بنشأته ومكانته في قبيلته وصفات الزعامة ومؤهلات الحرب فيه وكانت له فيه قصائد رائعة يضارع بعضها قصائد المتنبي ، ثم رأينا كيف صمم في مطلع حياته انسجاما مع مكانته وشعوره بشخصه ألاّ يمدح متكسّباً ثم اضطرّته الظروف السيئة إلى المدح مع محافظته على ان يكون محترما محبوبا وكيف كانت مدائحه جيدة يقارب بعضها قصائد الفحول وانه وصف فيها المعارك وعدة الحرب والطبيعة وصفا جيدا وتغزل في مطالعها غزلا كان بعضه يجاري غزل عصره ..

ثم رأينا كيف تنوع وصفه وكيف أجاد في بعضه كوصف الطبيعة ووصف الخمر وملحقاتها ووصف الاشياء الصناعية المستعملة في عصره وكان في بعض وصفه على مستوى الفحول وكان له بعض الاختراعات في المعاني والصور ولكن التقليد كان يغلب عليه .

ثم رأينا رقة غزله بشكليه القديم التقليدي والحديث الذي جارى فيه ذوق عصره في حب الغلمان الشاذ ورأينا كيف يفتن في التغزل بعدة غلمان بحسب اسمائهم وصفاتهم واعمالهم وكيف اجاد في وصفه المحاسن الجسدية وفي وصف الاحوال العاطفية على السواء مع غلبة التقليد عليه .

ثم رأينا كيف كان في رثائه صادق العاطفة وكيف تعددت مراثيه وتنوعت مراتب مرثييه وتفاوتت قوة صلتهم به ، ولم نركيف يحسن العتاب والاعتذار غالبا وكيف يشتد بعتابه احيانا ولكنه لا يبلغ بهما منزلة البحتري في الرقة .

ولم نر كيف انه يجاري عصره في الملح والاحماض ويمتنع عن الهجاء الا ماكان من هجاء المقارنة الذي جاء ببعضه خلال فخرياته ومدائحه ليبرز تفوق قومه على

اعدائهم في المكارم ، وماكان من بعض مقطوعات قالها مستجيبا لاقتراحــات بعض اصدقــائه في بعض المغنين والثقلاء وغيرهم • ولم نر كيف يكتب الاخوانيــات الشعرية الكثيرة الى اصدقائه وكيف كان يصدّر بعض مراسلاته النثريــة ببعض مقطوعات جيدة من الشعر تلخص موضوعات تلك الرسائل وتعبّر عن عاطفته •

ولم نر كيف كان ينظم في الحكم والآداب التي استمدها من تجاربه الخاصة ، ويجاري بعض شعراء عصره في نظم الزهديات والصوفيات وشؤون الحياة الاخرى • فلا يحلّق في هذه الموضوعات ولكنه يقارب المجيدين •

ولمْ نر نظمه في فني الغويص والالغاز مقطوعات او قصائــد قصيرة رأينا ان اكثرها اقرب الى الالعاب اللفظية او العقلية التي يزجي بها اللاعبون اوقات فراغهم على سبيل التسلية ، منها الى البدائع الفنية الصادرة عن التجارب العاطفية النفسية والاحاسيس العارمة وحكمنا عليها على انها ليست من الشعر في شيء وأنها تمثل جانبا من شعر الحلي الذي جارى به هذه الناحية من ميل عصره ولكنهــا لا تمثل الحلي في اكثر شعره كما ان هذه الناحية من ميل العصر لا تمثل الاجانبا ضئيلا منه ولا تمثل جوانبه كلها وقلنا انه من الخطأ ان نحكم على هــذا العصر بهذا الجانب الضئيل منه •

وكل ما لم نره حذفناه للاختصـار والايجاز واكتفينا هنا بالاشاره اليه [1] •

وقد تبينا سماته الفنية وقلنا انّ التقليد قد غلب عليه فإما ان نراه يقلد الفحول في العصور السابقة واما ان نراه يقلــد أذواق عصره في المعــاني والأخيلة والميول العاطفية والصناعية البديعية وقلنا إنه آثر الجناس والطباق والاقتبــاس والتضمين على التورية التي كانت سمة منافسه ابن نباتة والتي سميت في شعره وشعر امثاله بالسحر الحلال وان كان قد حاول احيانا مجاراة فحولها فكان فيها دونهم •

---

(١) وهو موجود في أصل بحثنا عن الحلي الذي طبعناه املية لطلاب السـنة الرابعة في قسم اللغة العربية من كلية آداب دمشق بين سنتي ١٩٧٢ و ١٩٧٥ م •

ونرى انــه في مجموع شعره بالاضــافة الى عصره شــاعر مجيــد في اكثر الموضوعات واننا اذا وازناه بمعاصره ومنافسه وصديقه ابن نباتة وجدنا هذا يرجح عليه في مجموع شعره وان كان الحلي اكثر اجادة منه في موضوع الفخر والحماسة . على ان الفارق بينهما ليس كبيرا .

وعلى كل حــال فإن الحلّي اكثر تمثيلا لشعراء المشرق في العراق وغيره من البلاد التي تقع شرقه وجنوبه .

جـدول الخطـا والصواب

الصفحة	السطر	الخطـا	الصـواب
١٧	٢٢	وضح	أوضـح
٢٩	٢٣	ة ستطاع	فاستطاع
٦٤	٤	وإنعـامها	وإنعـاما
٦٥	١٠	العمماد	العمـاد
٧٣	٣٥	حمـاه	حمـاة
٩٩	٦	الحشيشة	الحشيشية
١٠٠	٩	الخانقـات	الخانقـاهات
١١٠	١٤	يعجبـه	ويعجبـه
١٣٨	٢١	دمقي	دمشقي
١٦٠	٨	حضار ة	حضـارة
١٦٣	١١	تـاثير	وتـاثير
١٦٧	٢٢	بردي	بردي
١٦٨	١٦	الفاطمين	الفاطميّين
١٦٨	١٩	القـدس	القـوس
١٨٠	١٨	ببعض	بعض
١٨٣	١٤	الأبيوري	الأبيوردي
١٩٠	٢٣	العمثانيون	العثمانيون
٢٢٩	٤	فنية	غنيـة
٢٣٣	١٣	التحـريف	لتحـريف

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصـواب
٢٣٥	١١	إلى قـوله إلى قـوله	إلى قـوله
٢٣٥	١٦	فاستغفلتهم	فاستعقلتهم
٢٤١	١٩	فقـد	قـد
٢٤٣	١	البـديعة	البديعيـة
٢٥٠	٢٥	ص ٨٦	ص ٣٢ و ٢٠٦
٢٥٣	١٦	العباسيّين أبنـاء عليّ	العبّاسيّين وابنـاء عليّ
٢٦٤	٣و٤	ترتيب البيتين كما وردا خطأ صوابه :	كأنَّ الملوك الغر حول سريره نجوم على شمس الظهيرة عكّف فإن تلقه تلق ابن هيجاء دهره يريك عنان الدهر كيف تصرّف
٢٦٧	٩	شـهاب	الشهـاب
٢٧٢	١٧	ولإلقــاء	ولإلقــا
٢٧٣	٢١	صوّر	شـبّه
٢٧٧	٢٤	جاء بالندب أصوات	جـاء بالندب فيك صوت
٢٧٩	١٣	البيت : وناى يوسـفي صـحته هكذا :	وناى يوسفي فقد ذهبت عيـ . . . . . ـناي من حزنه وكنت كظيما
٢٨٥	٩	إليك كان يَعتزّى	إليك قـد كان يَعتزّى .
٢٨٦	٢١	وَقلد	ولقـد
٣٠٠	٧	ولكـنَ	ولكـنّ
٣٠٦	٢٤	نعـمَ	نعـمْ
٣٣٥	١	وبغزلانٌ	وبغـزلان
٣٣٥	١٤	وابقَي	وابقى
٣٣٥	٢٠	احترعـه	اخترعـه
٣٤٠	١٢	يا أبي	ياأبي
٣٤٤	١٣	علي	غـلى
٣٤٥	٤	زجـل ،	زجـلُ

الصفحة	السطر	الخطـا	الصـواب
٣٤٨	١١	على احـد	على أنّ أحـد
٣٦٢	٣	اتني	إتني
٣٦٢	١٩	ولآخـر	والآخـر
٤٠٣	٩	يناصر	بناصر
٤١٠	١٠	يشربهـا	يشربهـا
٤١١	٥	ياستعاراته	باستعاراته
٤١٢	١٣	خِطـره	خِطـرة



محتويات الجزء الأول :

الصفحة	الرقم

قصدت محوك الأعــادي فرد الله ما أمــلوه عنــك وعنــا

وتولت تلك الخيول ولم يثـــ ـــن عليهــا بأنهــا ليس تثنى

لا تخص الشآم منك التهــاني كل صقــع وكل قطــر يهنــا

« ابن سناء الملك في صلاح الدين
حين حرر القدس »

مطبعة ابن خلدون ـ دمشق